المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
الدراسات العليا



صورة المطر في أشعار الهذليين

"دراسة بلاغية نقدية"

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في البلاغة والنقد

إعداد الطالب
رَدَّاد بن شَبير بن عبد الله الكَبْكَبِيّ
الرقم الجامعي/ ٤٣١٨٨٠٨٠

إشراف الأستاذ الدكتور
دَخِيل الله بن مُحَمّد الصَّحَفِيّ
أستاذ البلاغة والنقد بجامعة أم القرى

الفصل الثاني
١٤٣٤ـ ١٤٣٥هـ

المقدمة

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، وأصلي وأسلم على من بعثه الله هادياً ومبشراً ونذيراً، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغُرِّ الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد.

فقد بلغ العرب في البيان شأواً عظيماً، فهم أرباب الكلمة وفرسان ميادينها، وهم الذين نزل بلغتهم القرآن فتحداهم وأعجزهم، ولولا أنهم أهل فصاحة وبيان ما تحداهم.

وشعر العرب هو ذرة سنام بيانهم، لذلك اهتموا به وأكثروا من روايته وحفظه، وَيُعَدُّ فَهْمُ شعر العرب والإحاطة بمعانيه مفتاحاً من مفاتيح فَهْمِ التنزيل الحكيم.

وبما أن الشعر ديوان العرب؛ فقد اشتمل على كثير من أمور حياتهم، ومن أكثر الأمور التي شغلت اهتمام العربي انتظار القطر من السماء، لأنه يعيش في بيئة صحراوية مهلكة إن لم يغثها الله ، ولذلك كان يمضي حياته متنقلا يَتَتَبَّعُ مواطن الماء والكلأ، لا يمل من شَدِّ الرِّحال وكثرة التَّرْحال .

وكان العربي يُكْثِرُ إرسال نظره إلى السماء عَلَّهُ يرى برقاً يبعث في نفسه أمل السُّقْيا، فيظل يساهر البرق وينبّه له من حوله، ويعرف البرق الخُلَّب من الممطر، ويتوقع مكان الغيث حتى وإن بَعُدَ البرق، ويعرف صفات الأمطار من خلال الاهتداء بمطالع النجوم؛ فالمطر الذي ينزل عند طلوع نجم الجوزاء له صفة، والذي ينزل عند طلوع نجم السِّماك له صفة أخرى، وهكذا، وهذه صفات اكتسبها من طول التجربة، وتعد عندهم من الفِراسة.

وقد استهوتني صورة المطر في الشعر العربي، ووجدت أن الشعراء الهذليين قد أسبلوا ثوب الشعر في وصفه، فقد يجعل الشاعر كل قصيدته صورة للمطر، وقد يُضَمِّنُ صورةَ المطر في قصيدته، فبلغت أبيات المطر في بعض القصائد ثلاثة وعشرين بيتاً، وكانت الشواهد جديرة بالدراسة، فهي تربو عن مئتين وعشرين بيتاً، وقد تعددت سياقاتها. ثم عرضت هذه الشواهد على شيخي الأستاذ الدكتور: دخيل الله بن مُحَمَّد الصَّحَفي، فوجهني إلى دراستها، وارتأى أن يكون عنوان الدراسة: (صورة المطر في أشعار الهذليين دراسة بلاغية نقدية).

ومما دعاني إلى دراسة هذه الشواهد قول حسان بن ثابت – ﷺ: "أشعر الناس حيا هذيل"(١)، وتصويرهم المطرَ يُعَدُّ جزءاً من شاعريتهم، وأشعار الهذليين لها أهمية في التراث؛ لأن لغتهم من اللغات المجاورة للغة قريش، وكتب اللغة تزخر بالاستشهاد بشعرهم. وكذلك فإن كثرة شواهد صور المطر عندهم وتعدد سياقاتها ظاهرة جديرة بالدراسة، فمرةً تأتي صورة المطر سقيا لديار المحبوبة، ومرة تأتي دماراً لها، ومرة تأتي هدية

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تحقيق: مُحَّد محيي الدين عبد الحميد ، دار الطلائع – القاهرة، ٢٠٠٦ ، ط١، ج١، ص٧٧

للمحبوبة التي رحلت، ومرة تأتي في سياق الرثاء ...، وقد دفعني تعدد السياقات إلى دراسة صورة المطر والكشف عن مكنونها وبيان مواطن الجمال فيها، والكشف عما أضافته صورة المطر للنص الشعري. وساعدتني معرفة البيئة الهذلية في فهم أسرار الصورة، لأنني أحد أبناء قبيلة هذيل، وعشت في نفس البيئة التي عاشها الشعراء، وعرفت أكثر جبالها ووديانها وحُزُومها، وجُلُّها لم تزل تحتفظ بمسمياتها القديمة، ورأيت المُشْتار وهو يتدلى على الشَّهْدَة بين سِبٍّ وخَيْطَةٍ بجرداء مثل الوَكْفِ يكبو غُرَابُها، وراقبت البرق مع أهل الفِراسة فيه، وخالطت أهل القَنْصِ والإبل، وذلك أعانني كثيرا – بفضل الله – في تحليل الصور.

الدراسات السابقة :

أ- لم أجد دراسة خُصِّصت لصورة المطر عند الهذليين، وكذلك لم أجد دراسة درست صورة المطر في العصر الجاهلي دراسة بلاغية نقدية، ولكنني وجدت أربع دراسات تناولت بعض صور المطر في الشعر الجاهلي ولكنها بعيدة عن الدرس البلاغي النقدي الذي يعتمد عليه بحثي، وهي :

١- "المطر في الشعر الجاهلي"، للدكتور أنور أبو سويلم(١).

وكان الباحث يعتمد على المنهج الأسطوري في تفسيره لصورة المطر ، وقد ذكر الباحث في المقدمة أنه يرى أن الشعراء الجاهليين يصدرون في تصورهم للمطر عن فكر متحد وأنه سيحاول أن يربط الشعر الجاهلي بالمعتقد الجاهلي الذي كان سداه ولحمته الأساطير ، ويرى أن الشعراء الجاهليين ينهلون من تراث مليء بالسحر والأساطير ، وأن الشاعر تقع على كاهله مسؤولية صنع المطر ، لأن هذه المهمة هي مهمة الشاعر الساحر: صانع المطر.

وقد فسر الباحث ظاهرة أبيات المطر تفسيرا أسطوريا انطلاقا من إيمانه أن الشعراء ينهلون من تراث مليء بالسحر والخرافة.

وقد قسم بحثه إلى خمسة فصول:

الفصل الأول: تحدث فيه عن أهمية المطر، والمطر في القرآن الكريم، والمطر والجدب، والدلالة اللغوية للمطر، وطقوس الاستمطار، وصورة المطر في الفكر الجاهلي.

الفصل الثاني: تناول فيه الاستسقاء بالنجوم، والتحكم في المطر بوساطة السحر، والاستسقاء بالأنبياء والأولياء، وصانع المطر، والنار السحرية والمطر، وثور الوحش والمطر.

الفصل الثالث: وكان عن صورة المطر في الوقفة الطللية:

وتناولها بالتفسير الواقعي ، والنفسي ، والفلسفي ، والرمزي .

الفصل الرابع : قصة ثور الوحش ودلالاتها الرمزية في الشعر الجاهلي.

---

(١) المطر في الشعر الجاهلي، د. أنور أبو سويلم، دار عمار – عمّان، ط١، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .

الفصل الخامس: مواضع ورود المطر الأخرى في الشعر الجاهلي:

المطر والمرأة، المطر والضيفان، المطر والجيش، المطر والناقة، المطر والفرس، المطر وحمار الوحش، المطر والظليم، المطر والأوابد الأخرى.

ومن خلال العرض السابق فهذه الدراسة بعيدة عن مجال الدرس البلاغي، ومع ذلك لم يتناول الباحث إلا أبياتاً قليلة من الشعر الهذلي لم تتجاوز ثمانية أبيات وردت في طيات البحث، ولم يتطرق الباحث فيها للدرس البلاغي.

٢- رسالة بعنوان: "المطر في الشعر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي"، للدكتورة: سلامة عبد الله السويدي[(١)].

وكانت الدراسة أدبية استقرائية، وقد قسمت الباحثة بحثها إلى ثلاثة فصول:

في الفصل الأول تحدثت عن صور المطر وأجزائه وتوابعه: السحاب والبرق والرعد والثلج والسيل والغدير، وتحدثت عن الجوانب اللغوية لهذه الأجزاء مع عرض الشواهد لها.

وفي الفصل الثاني؛ تناولت التوظيف الشعري للمطر: المطر وصورة المرأة، والمطر وصورة الممدوح، والمطر وصورة المرثي، والمطر وصورة الحيوان، والمطر وصورة الطلل، والمطر وصورة الحرب.

وفي الفصل الثالث تناولت الصور الفنية للتشبيه والاستعارة، وتحدثت عن مصدر كل منهما وخصائصه ووظيفته ثم الصورة المركبة للمطر.

وكان منهج الدراسة منهجاً استقرائيا تحليلياً ، ونظرا لطول فترة استقراء أبيات المطر التي امتدت من العصر الجاهلي إلى صدر الإسلام ثم إلى نهاية العصر الأموي؛ فإن ذلك اقتضى أن تمر الباحثة على الشواهد مروراً سريعاً اهتم بالتصنيف وإشارات يسيرة، وأغفل تذوق النصوص وربط الصور بسياقات النصوص واكتشاف ما وراء تلك الصور من معان بديعة.

وحتى الفصل الأخير الذي تناولت فيه التشبيه والاستعارة فقد كانت تشير إلى طرفي التشبيه دون أن تقف عند نوع التشبيه وتحلله وتكتشف ما وراءه.

ولم تستشهد الباحثة إلا بشواهد قليلة جداً من الشعر الهذلي في خضم الكم الهائل من الشعراء والنصوص، ولم تشمل دراستها الأبيات ذات الصور الكاملة للمطر التي يتحدث الشاعر فيها عن المطر من أول ظهور برقه إلى اخضرار الأرض، ولم تكن دراستها لتلك النصوص بلاغية تحليلية نقدية.

وكذلك لم تشمل دراستها فنون البلاغة من بيان ومعان وبديع ، ودراسة المعجم الشعري للشعراء الهذليين ودراسة الموسيقى الداخلية والخارجية وبيان علاقة الصورة الكلية أو الجزئية للمطر بسياق النص وجمالياتها،

---

(١) المطر في الشعر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، رسالة دكتوراه، سلامة عبد الله السويدي، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩١ م، من منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، جامعة قطر – الدوحة، ٢٠٠١م.

وهذا ما سأقوم به – بإذن الله – في دراستي.

٣- دراسة بعنوان : "الماء في الشعر الجاهلي"، للباحث : إحسان يعقوب حسن خضر(١).

وقد قسم الباحث بحثه إلى ثلاثة أبواب، والباب الأول كان عنوانه: الإنسان والطبيعة، وقسمه إلى فصلين:

الفصل الأول: وتناول فيه الماء وشبه الجزيرة العربية، وموقع شبه الجزيرة وأقسامه، والجبال والأنهار والأودية، والصحاري والرمال، والمناخ والرياح والأمطار.

الفصل الثاني: تحدث عن الإنسان العربي والماء، والرحلة وراء الماء، والاستسقاء، والحروب والماء، وتقديس الماء، والعرب والأنواء.

أما الباب الثاني فكان تحت عنوان: الماء ومصادره في الشعر الجاهلي، وقسمه إلى فصلين:

الفصل الأول: ذكر بعض الشواهد التي ذكرت الأمطار والسيول، والسحاب، والرعد، والبرق، والبرد والثلج، والسيل وأثره على الأطلال، واخضرار الأرض.

الفصل الثاني: عرض فيه بعض الشواهد التي تحدثت عن الآبار والعيون، والغدران، وورود الشاعر المياه البعيدة.

والباب الثالث عنوانه: الصورة الفنية للماء في الشعر الجاهلي، وقسمه إلى فصلين:

الفصل الأول: تناول فيه صورة الماء دراسة فنية.

والفصل الثاني: أبعاد صورة الماء .

ويتبين مما سبق أن الدراسة ليست في مجال الدرس البلاغي وإنما في مجال الأدب، وكانت استقرائية لأبيات العرب وتميل إلى التصنيف أكثر من التذوق الفني كاهتمام الباحث بالشواهد التي تذكر أسماء السحاب وألوانه، وكان يمر سريعا على الشواهد دون تحليل ما ورائها من معان، ودون ربطها بسياق القصيدة، وذلك لأن الدراسة لم تكن محددة عن شعراء معينين وإنما كانت استقرائية لما قاله معظم الشعراء الجاهليين.

أما الشعراء الهذليين فقد استشهد الباحث ببعض شواهدهم، ولكنها قليلة جدا في خضم العدد الكبير من شعراء الجاهلية.

وقد استشهد الباحث ببعض شواهد الهذليين من بعض الصور المفردة، ولكنه كان يعرض الشاهد فيذكر التشبيه دون أن يبين ما وراءه، ويربطه بسياق النص. ولم تتطرق الدراسة لأبيات الهذليين ذات الصور الكاملة للمطر والتي تعد ظاهرة بارزة في أشعار الهذليين تستحق الوقوف عندها طويلا واستنطاق معانيها دراسة بلاغية نقدية.

٢- دراسة بعنوان : "الطبيعة في الشعر الجاهلي"، للدكتور نوري حمودي القيسي(١).

---

(١) الماء في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير ، إحسان يعقوب حسن خضر ، جامعة الإسكندرية ، كلية الآداب ، قسم اللغة العربية واللغات الشرقية وآدابها، ١٩٨٢م.

وقد جاءت الدراسة في بابين:

الباب الأول كان تحت عنوان : الدراسة الموضوعية، وقد قسمه إلى فصلين:

الفصل الأول: الطبيعة الصامتة: الجبال والكثبان والسراب، والوديان، والرياض والحَرَّات، والآبار والعيون، والرياح والأمطار والنجوم، والشجر والنبات.

الفصل الثاني: الطبيعة المتحركة؛ الحيوان الأليف، الحيوان الوحشي، الطيور ، الزواحف، الحشرات.

الباب الثاني: الدراسة الفنية، وقسمه إلى فصلين:

الفصل الأول: تصوير الطبيعة في الشعر الجاهلي.

الفصل الثاني: الخصائص الفنية في شعر الطبيعة، وتناول فيه الواقعية في شعر الطبيعة، والقصصية في شعر الطبيعة، والخصائص اللفظية والموسيقية.

وفيما يخص شعر المطر فإن الباحث لم يتطرق لأشعار الهذليين في ذلك.

ب – أما الرسائل التي تناولت أشعار الهذليين فهي كثيرة، ولكنني لم أجد رسالة تناولت صورة المطر في أشعارهم بشكل مستقل، ووجدت بعض الرسائل التي بها بعض الإشارات، وهي:

١– " الصورة البيانية في شعر الهذليين دراسة وتحليل ومقارنة "، للباحث: مُحَمَّد الحسن الأمين(٢).

والرسالة مكونة من بابين وستة فصول، تناول في الباب الأول تشبيهات الهذليين، وفي الفصل الأول منه تناول ضروب تشبيهات الهذليين من حيث الإفراد والتركيب والتمثيل والتشبيه الضمني، والفصل الثاني تناول قصص الحيوان في تشبيهات هذيل وعلاقاتها بالسياق، وفي الفصل الثالث تناول منازع تشبيهات هذيل.

أما في الباب الثاني، فقد تناول المجازات في شعر الهذليين، وتناول في بابه الأول صور الاستعارة، وفي الثاني الكناية، وكان الباب الثالث دراسة مقارنة بين صور البيان عند الهذليين.

وهذه الدراسة تختلف عن دراستي؛ من حيث إنها تناولت الصورة البيانية فقط، ولم تركّز على صورة المطر، بل شملت أغراضاً كثيرة من شعر هذيل، ولم يتناول الباحث إلا أبياتاً يسيرة من صورة المطر، وركز على الأبيات ذات الصور المفردة، واستشهد بها في التشبيه، وأغفلت الدراسة أبياتا كثيرة تزخر بالتشبيهات، ولم تتناول الدراسة القصائد التي أسهبت في صورة المطر. أما دراستي، فتختلف من حيث إنها ستشمل كل صور المطر، سواءً المفردة أو الصور الكاملة، وستدرسها دراسة بلاغية تربط بين أجزاء الصورة، وبين الصورة وسياق القصيدة.

---

(١) الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، جامعة بغداد، دار الإرشاد – بيروت، ط١، ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م.

(٢) الصورة البيانية في شعر الهذليين دراسة وتحليل ومقارنة، مُحَمَّد الحسن علي الأمين، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، فرع البلاغة والنقد، ١٤١٠هـ

٢- بحث بعنوان: "بنائية اللغة عند الهذليين"، للدكتور: مُحَمَّد خليل الخلايلة[(١)].

وقد اعتمد الباحث على المنهج البنيوي في دراسته، وقسم بحثه إلى خمسة فصول:

الفصل الأول: التشكيل التكراري في شعر الهذليين، وتناول فيه التكرار في أشكاله الجزئية، والتكرار على مستوى الظاهرة.

الفصل الثاني: بنية التضاد في شعر الهذليين.

الفصل الثالث: التشكيل الاستعاري في شعر الهذليين، وجاء تحته خمسة عناصر:

البناء الاستعاري للموت، وللدهر، وللحرب، وللأحاسيس والمشاعر الإنسانية، وللسحاب.

الفصل الرابع: شعرية القص في شعر الهذليين: وتناول فيه شعرية القص والحوار، وشعرية القص واشتيار العسل، وشعرية القص وإرادة الحياة، وشعرية القص في الفناء.

الفصل الخامس: دراسة تحليلية لثلاثة نصوص، نص لأبي كبير الهذلي، ونص لساعدة بن جؤية، ونص لأبي ذؤيب.

والذي يعنيني في هذا البحث هو المبحث الخامس من الفصل الثالث، وهو: التشكيل الاستعاري للسحاب، ولم يستشهد الباحث إلا بخمسة أبيات للمطر، وحللها تحليلاً بنيوياً اعتمد فيه على المتضادات كالخصب والجدب، والسحاب وريح الصبا، والمرأة والرجل، وهذا بعيد كل البعد عن الدرس البلاغي الذي سيعتمد عليه بحثي.

منهج الدراسة :

سوف أعتمد في دراستي على المنهج الوصفي التحليلي، حيث سأقوم باستقصاء صور المطر في كتاب: شرح أشعار الهذليين للسكري، وتحليل كل صورة، ثم محاولة ربطها بسياق النص وتفسير أبعادها المضمونية والفنية، والكشف عن أسرارها البلاغية منتهجا نهج الإمام عبد القاهر الجرجاني في التحليل البلاغي، ثم الموازنة بين الصور للكشف عن خصوصية كل صورة، وقد تتكرر النصوص المستشهد بها في أكثر من موضع، لأن النص قد يحمل أكثر من وجه بلاغي، ولكنني حين أتناول وجهاً بلاغياً منه فإنني لا أدرسه في معزل عن سياقه، بل أربط النص بسياقه، ثم أحلل ذلك الوجه مبيناً أثره في خدمة السياق.

(١) بنائية اللغة عند الهذليين، للدكتور: مُحَمَّد خليل الخلايلة، عالم الكتب الحديث - إربد، الأردن، ١٤٢٥ هـ .

وقد جعلت هذه الرسالة في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: البيئة الهذلية ، ومصادر الصورة.

وفيه مبحثان:

١- خصوصية البيئة الهذلية وأثرها في تخير عناصر صورة المطر:

وتحدثت فيه عن ديار قبيلة هذيل، ووصف خصوصية بيئتهم من خلال شعرهم، ثم استخلاص عناصر صورة المطر من بيئتهم.

٢- مصادر صورة المطر عند الهذليين:

وفيه تطرقت للهذليين وتطوير صورة المطر، ثم قسمت مصادر الصورة عندهم إلى ثلاثة أقسام:

أولا: الصور التي مصدرها الإنسان.

ثانيا: الصور التي مصدرها الحيوان.

ثالثا: المصادر التي لها صلة وثيقة بالإنسان، كالبيئة والأدوات وآلات الحضارة.

الفصل الثاني: سياقات صور المطر عند الهذليين ومواقع صورة المطر في قصائدهم.

وفيه تناولت صور المطر وربطتها بسياقاتها، والسياقات التي وردت فيها صورة المطر، هي:

١- صورة المطر والطلل.

٢- صورة المطر والمرأة.

٣- صورة المطر والرثاء.

٤- صورة المطر والحرب.

٥- صورة المطر والمدح.

٦- صورة المطر وحيوان الوحش.

الفصل الثالث: الخصائص اللفظية والبلاغية.

وفيه ثلاثة مباحث:

١- خصوصية المعجم الهذلي في وصف المطر، وفيه تناولت ألفاظ المطر، وقسمتها إلى: معجم الرياح، والماء، والسحاب، والمطر، والرعد، والسيل، والبرق، ثم بينت ما اختصت به هذيل من ألفاظ من بين هذه المعاجم، وكذلك ما اختصت به من بعض الظواهر الصوتية، ثم درست سياقات تلك الألفاظ والظواهر الصوتية وأثرها في السياق.

٢- خصوصية التراكيب في وصف المطر، وقد درست في هذا المبحث التراكيب التي اختصت بها صورة المطر فأبْرَزَت الصورة، مع ربطها بسياقها وأثرها في السياق، وهي:

الخبر: أضرب الخبر، خروج الخبر عن مقتضى الظاهر، و الحذف والذكر، و التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والالتفات، ومخالفة مقتضى الظاهر في صيغ الأفعال.

الإنشاء: النداء، والاستفهام، ووقوع الخبر موقع الإنشاء.

٣- خصوصية الصورة البيانية في وصف المطر، وقد درست في هذا المبحث الصور البيانية التي اختصت بها صورة المطر فأبْرَزَت الصورة، وفيه تناولت التشبيه من حيث الإفراد، والتركيب، والتشبيه الضمني، ثم الاستعارة من حيث كونها تصريحية أو مكنية.

ثم ختمت الرسالة بأهم نتائج الدراسة، ثم المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات.

وأخيراً؛ أقدم بين يديكم هذا البحث، وقد بذلت فيه جَهْدي وطاقتي، ولا يخلو من الخطأ والنسيان،﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة: ٢٨٦

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا مُحَّد وعلى آله وصحبه.

الباحث: رَدَّاد بن شَبِير الكَبْكَبِيّ الهُذَلِيّ.

الفصل الأول

البيئة الهذلية، ومصادر الصورة.

- خصوصية البيئة الهذلية وأثرها في تخير عناصر صورة المطر.
- مصادر صورة المطر.

البيئة الهذلية وأثرها في تخير صورة المطر

الإنسان ابن بيئته، بها يولد، وبها يفتح عينيه فيرى محسوساتها، وبها يعيش فيصبح جزءاً منها.

وقد عاش العربي في الجزيرة العربية وهو لا يعرف إلا رمالها وجبالها وأوديتها وحزومها. لفحته سمومها وداعبته نسائمها، هبت عليه ريح الشمال الباردة فأشعل ناره ليتدفأ بها ويشوي عليها صيده الذي لم ينله إلا بعد جهد ومكابدة.

عاش في جدب يوشك على الهلاك، ورأى في الليالي الدامسة برقاً يبسم عن خير قادم، ثم تحولت القفار إلى بساط أخضر وتوفر مطلوب الحياة وسرها، فرعى إبله وغنمه وبات قرير العين، ثم زال هذا النعيم وعادت الصحراء لسابق عهدها، فشد ركابه على ناقته باحثا عن مكان آخر تتوافر به أسباب العيش من ماء ومرعى.

ومع هذا فقد تكيف العربي مع بيئته القاسية، واستخلص منها ما يعبر عن مشاعره وأحاسيسه، وكانت تشبيهاته مستخلصة من بيئته، فشبه المرأة بالقمر والظبي، وشبه ريقها بالماء الزلال الذي استقر على صخرة منيعة، وشبه حديثها بالعسل الذي اجتناه من جبال عالية بعد أن عرض نفسه للمهالك، وشبه الأمر البعيد المنال بالثريا التي يراها كل ليلة، وشبه الرجل الشجاع بالأسد الذي تأسد على الحيوانات فجعلها طعاماً له، وشبه الرجل المراوغ بالثعلب في مراوغته ومكره، وشبه الحجة بالشمس، وشبه الرجال في ساحات الوغى بالجبال.

"وقد تناول التراث النقدي العربي القديم موضوع أثر البيئة في استحضار واستثارة القريحة، حيث رأى النقاد العرب أن البيئة هي المحرك الأول لمشاعر الشاعر وأحاسيسه، بحيث يصبح جزءاً من بيئته ويتشكل بتشكلها. كما أن الشاعر لا يمكن له أن يبدع في غير إطاره المكاني أو البيئي الذي جبلت وتكونت فيه أحاسيسه"[(١)].

ولما كنت هاهنا بسبيل دراسة أثر البيئة الهذلية في تخير صورة المطر عند الشعراء الهذليين؛ فلا بد لي أن أحدد الديار التي سكنتها هذيل مبينا صفتها وتضاريسها.

---

(١) أثر البيئة الطبيعية في الشعر عند النقاد العرب القدماء، د. محمود درابسة، مجلة جامعة أم القرى للبحوث العلمية المحكمة، السنة الثامنة، العدد العاشر، العام ١٤١٥ – ١٩٩٥ م، ص ١٤١.

ديار قبيلة هذيل

شغلت قبيلة هذيل جزءًا واسعا من سلسلة جبال غرب الجزيرة العربية، وعن ديارهم يقول ابن خلدون: "وديارهم بالسروات، وسراتهم متصلة بجبل غزوان المتصل بالطائف، ولهم أماكن ومياه في أسفلها من جهات نجد وتهامة وبين مكة والمدينة"[١].

وتحمل جبال هذيل عدة أسماء تختلف باختلاف أماكنها. والذي تقطنه هذيل منها ينسب إليها فيقال سراة هذيل[٢]،ويجاورها في هذه السروات قبائل مثل فهم وعدوان وبجيلة وثقيف وغيرها[٣].

وجبل غزوان يقع في الجنوب الشرقي من مكة وفي ذروته مدينة الطائف[٤]،يقول ياقوت الحموي: " وجل أهل الطائف ثقيف وحمير وقوم من قريش وهم على ظهر جبل غزوان وبغزوان قبائل هذيل"[٥].

ومن ديار هذيل الهدة وهي غرب الطائف، ويقال لها هَدَةُ زُلَيْفَة، وزليفة بطن من بطون هذيل[٦]، **وقد فرّق ياقوت الحموي بين الهَدَةِ والهَدَأَة، فذكر أن الهدأة موضع بين عسفان ومكة، الهدة موضع بين مكة والطائف**[٧].

ومن جبال هذيل جبال الشفا وهي جنوب غرب الطائف، يقول البكري: " الشفا بفتح أوله مقصور على وزن فَعَل، أرض في شق بلاد هذيل "[٨].

وقال البكري: " وكانت لهذيل جبال من جبال السراة ولهم صدور أوديتها وشعابها الغربية ومسايل تلك الشعاب والأودية"[٩].

وإذا انحدرنا غرب الهدة نجد جبل كَرَا، وهو جبل ضخم تسيل منه صدور وادي نعمان، وبأسفله يقع الكُرُّ ووادي عَلَق، وكل ما سال منه غربا لهذيل[١٠].

---

(١) تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دار الفكر – بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ – ١٩٨١م، ج٢، ص ٣٨١

(٢) يُنظر " هذيل في جاهليتها وإسلامها "، د. عبد الجواد الطيب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ١٩٨٢م، ص٥٣

(٣) يُنظر المصدر السابق، ص٥٢ – ٥٣

(٤) يُنظر السابق، ص ٥٣

(٥) معجم البلدان، ياقوت الحموي، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م، ج٤، ص١٠

(٦) يُنظر " الأمكنة والجبال والمياه "، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري جار الله، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، دار عمار – عمان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م، ص٢٥٣

(٧) يُنظر " معجم البلدان "، ياقوت الحموي، ج٥، ص ٤٥٤

(٨) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبد الله بن عبد العزيز البكري، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، ج٣، ص٨٠٤

(٩) معجم ما استعجم، البكري، ج١، ص ٨٨

(١٠) يُنظر " معجم معالم الحجاز "، عاتق البلادي، الجزء السابع، دار مكة ١٤٠١هـ – ١٩٨١م ، ص ٢٠٨

وما يتميز به جبل كَرَا، أن انحداره شديد ومفاجئ، وبعد أن ننزل منه نجد تهامة، ونكون في بطن وادي نعمان؛ الذي يمتد إلى عرفات.

ونعمان وادٍ لهذيل وصدوره يجيء منها العسل إلى مكة، وفيه يقول القائل:

ألا أيهـــا الركـــب اليمـــانون عرجـــوا ... علينـــا فقـــد أضـــحى هـــوانا يمانيـــا

نســائلكم هــل ســال نعمــان بعــدنا ... وحُـــبَّ إلينـــا بطـــنُ نعمـــان واديا[١]

وتغنى الشعراء كثيرا بنعمان لطيب هوائه، وعذوبة مائه، وكثرة شجره، يقول فيه عمر بن أبي ربيعة:

تخـــيرت مـــن نعمـــان عـــود أراكـــة ... لهنـــد ولكـــن مـــن يبلغـــه هنـــدا[٢]

ويذكره حذيفة بن أنس الهذلي قائلا:

وهــــل نحـــــن إلا أهـــــلُ دارٍ مُقِيمــــةٍ ... بنعمــانَ مــن عــادتْ مــن النــاسِ ضَــرَّتِ[٣]

وما إن نستقر في بطن نعمان حتى نرى عن يميننا جبل كبكب، الذي يمتد إلى أن يشرف على موقف عرفة. قال عنه الأصمعي: " ولهذيل جبل يقال له كَبْكَب وهو مشرف على موقف عرفة، وقال ساعدة بن جؤية الهذلي:

كيـــــــدوا جميعـــــــاً بآناس كـــــــأنهمُ ... أَفْنَـــادُ كَبْكَـــبَ ذاتِ الشَّـــثِّ والخَـــزَمِ "[٤]

وقد أورده عاتق البلادي في معجم معالم الحجاز، وذكر أنه جبل أسمر ضخم، وتزيد مسافته عن ثلاثين كيلا، وفي رأسه مياه ونزل من هذيل[٥]. وقمته يضرب بها المثل في الارتفاع، حتى أصبحت مثلا للشيء المشتهر الذي يُرَى من بعيد ولا يمكن إخفاؤه، يقول الأعشى:

مـــتى يغـــتربْ عـــن قومـــه لا يجـــد لَـــهُ ... علـــى مَـــنْ لَـــهُ رَهْـــطٌ حَوَالَيْـــهِ مُغضَـــبَا

ويحطـــمْ بظلـــم لا يـــزال يـــرى لـــه ... مصـــارعَ مظلـــومٍ مجـــرًّا ومســـحبا

وتُـــدْفَنُ منـــه الصـــالحات وإنْ يســـئْ ... يكـــن مـــا أســـاءَ النـــارُ في رأسِ كَبْكَبَـــا

أي أن أعماله الصالحة قد تنسى ولا يعرف بها أحد، ولكن الإساءة تظهر ظهور النار على رأس جبل

---

(١) يُنظر " معجم البلدان "، ياقوت الحموي، ج٥، ص٣٣٩

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق د. مُحَمَّد عبد المنعم خفاجي، و د. عبد العزيز شرف، المكتبة الأزهرية للتراث- خلف الجامع الأزهر، (د.ت)، ص٩٦

(٣) شرح أشعار الهذليين، أبو الحسن بن الحسين السكري، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، راجعه: محمود مُحَمَّد شاكر، مكتبة دار العروبة، ٢٢ ٢٢ شارع الجمهورية القاهرة، مطبعة المدني ٢٩٥ ش رمسيس بالقاهرة، (د.ت)، ج٢، ص٥٥٠

(٤) معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج٤، ص٤٩٢

(٥) يُنظر " معجم معالم الحجاز "، عاتق البلادي، ص ١٨٧

كبكب لارتفاعه[١].

وأذكر حادثة جرت قبل عشرين عاما، وهي أن قوما من هواة الصيد صعدوا إلى قمة كبكب فأشعلوا نارا ليشووا صيدهم، وكان المكان معشبا، فانتشرت النار ولم يستطيعوا السيطرة عليها، فاشتعلت بالحشائش والأشجار في قُنَّتِه، وكنا نسكن أسفل الجبل فرأينا النار، وكانت نارا عظيمة رآها أهل مكة وأهل الهدة، وتعجب الناس منها، وظنها بعض أهل مكة بركاناً ثار في أعلى الجبل، فبلَّغوا الدفاع المدني بذلك، وجاءت فرقة من الدفاع المدني لتنظر في الأمر، واستعانوا بأحد الرجال المتمرسين في صعود الجبل ليريهم الطريق، ثم أُطفئت النار.

ويشتهر جبل كبكب بوعورته وفي أعلاه قرى قديمة ، وتنحدر منه أودية كثيرة ، وفي أسفله من ناحية الغرب يقع سوق ذي المجاز المجاور للمُغَمَّس، والمغَمَّسُ " موضع في طرف الحرم وهو الموضع الذي ربض فيه الفيل حين جاء به أبرهة فجعلوا ينخسونه بالحراب فلا ينبعث حتى بعث الله عليهم طيرا أبابيل فأهلكتهم "[٢].

وأما ذو المجاز فهو موضع السوق، قال عنه ياقوت الحموي : " والمجاز الموضع وكذلك المجازة، وذو المجاز: موضع سوق بعرفة على ناحية كبكب عن يمين الإمام، على فرسخ من عرفة كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام، وقال الأصمعي: ذو المجاز ماء من أصل كبكب وهو لهذيل وهو خلف عرفة "[٣].

وأودية ديار هذيل توصلنا إلى السهل الساحلي، وهو من ديار هذيل وكانت كنانة مجاورة لهم فيه[٤].

ومن الأودية شرق مكة نخلة اليمانية ونخلة الشامية[٥]،**ومن أودية نخلة اليمانية وادي يَدْعَان ، وقد ذكر ذكر الدكتور عبد الجواد الطيب أن اسمه قد تغير إلى جَدْعَان**[٦]،وكذلك عبد الله بن خميس في كتابه المجاز بين اليمامة والحجاز[٧]. والحقيقة أن اسمه لم يتغير إلى اليوم، ومازالت بعض قبائل هذيل تسكنه وتسميه باسمه دون تحريف.

ولست هنا بصدد تسمية ديار هذيل كلها من جبال وأودية وقفار لكي لا ينحو البحث منحاً آخر، ولكنني أخذت منها ما تقتضيه طبيعة البحث.

---

(١) يُنظر " ديوان الأعشى "، شرح د. يوسف شكري فرحات، دار الجيل – بيروت، ٢٠٠٥م- ١٤٢٥هـ، ص١٠

(٢) معجم ما استعجم، البكري، ج٤، ص١٢٤٨

(٣) معجم البلدان، ياقوت الحموي، باب الميم والجيم، ج٥، ص٥٥

(٤) يُنظر "هذيل في جاهليتها وإسلامها"، عبد الجواد الطيب، ص٥٩

(٥) الأمكنة والجبال والمياه، الزمخشري، ص٢٣٦

(٦) يُنظر "هذيل في جاهليتها وإسلامها"، عبد الجواد الطيب، ٦٥

(٧) يُنظر " المجاز بين اليمامة والحجاز "، عبد الله بن خميس، مطابع الفرزدق التجارية- الرياض ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م ، ص ٢٦٨

وصف بيئة الهذليين من خلال شعرهم

ما يميز البيئة الهذلية هي الجبال العالية الشاهقة، ومنحدراتها المهولة المفاجئة، وأوديتها السحيقة. وهذه الصفات شائعة في تلك المرتفعات لأنها سلسلة واحدة متقاربة الصفات. وهنا نموذج من هذه النماذج، وهي عقبة جبل كَرَا، التي وصفها عبد الله بن خميس حينما وقف على ذلك المكان، يقول: "كرا: ومن قمته هذه السراة ومن وسط (الهدة) يتجه الطريق إلى (جبل، كرا) الطود العملاق ليأخذ من قمته – حافة (الهدة) الغربية – في الانحدار. وإذا كنت من هواة الاستطلاع وطلاب المعرفة فلك أمام هذا الجبل وقفتان وقفة في مكانك هذا حيث تشاهد أمامك هذا المنحدر السحيق يمور الغمام بينك وبين نهايته وينعقد الدخان بينك وبين أديم الأرض ...."[١].

وأما أشعار الهذليين فقد استفاضت في وصف البيئة وصورتها أجمل تصوير، وباستطاعتنا أن نتعرف على إحدى مكونات البيئة الهذلية الرئيسية، وهي الجبال الشاهقة التي وردت في قصائد عدة من أشعارهم. وأكثر ما يصف الجبال هي الأشعار التي تتعلق باشتيار العسل، لأن الشاعر يصف الأماكن التي يتخذها النحل بيوتا له وتكون في غاية الصعوبة، ولا يصل لها الإنسان إلا بشق الأنفس، ويعرض نفسه للمهالك[٢]. يقول أبو ذؤيب الهذلي:

وَمـــا ضَـــرَبٌ بَيضـــاءُ يَأوي مَليكُهـــا   إِلَى طُنُـــــفٍ أَعيـــــا بِـــــراقٍ وَنازِلِ

تُهـــالُ العُقـــابُ أَن تَمُـــرَّ بَريـــدِهِ   وَتَرمـــي دُروءٌ دونَـــهُ بِالأَجـــادِلِ[٣]

وهنا يصف أبو ذؤيب المكان الذي استقرت فيه النحل، والطُّنُف هو رأس من رؤوس الجبل[٤]،أو "ما "ما نَتأَ من الجبل، وهو نحو من الحَيْد، وقيل: هو شاخص يخرج من الجبل فيتقدَّم كأَنه جَناح"[٥]، وهذا الطنف قد غلب الناس وأعياهم فصعوده صعب والنزول منه صعب أيضا لمناعته وشدة ارتفاعه، وتهابه الطير وتخشاه، وحتى العقاب فإنه يخشى الوصول إليه.

ويقول في قصيدة أخرى واصفا مكان النحل وأنها في رأس جبل شاهق دون السماء :

بِأَري الَّـــتي تَأرِي اليَعاســـيبُ أَصـــبَحَت   إِلى شـــاهِقٍ دونَ السَـــماءِ ذؤابُهـــا[٦]

---

(١) المجاز بين اليمامة والحجاز، عبد الله بن خميس، ص٢٧٨

(٢) يُنظر "مشهد النحل في شعر الهذليين"، د. جريدي المنصوري، بحث مستل من كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، العدد الحادي والعشرون ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م، ص٩٠١ - ٩٠٢

(٣) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج١، ص١٤٢

(٤) المصدر السابق، ج١، ص١٤٢

(٥) لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر- بيروت، ط٧، ٢٠١١م، ج٩، (طنف)، ص ١٥٠

(٦) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج١، ص٤٨

ويقول عن مكان النحل:

وَكانَـــــت وَقْبَـــــةً في رَأسِ نيــــقٍ دُوَيــنَ الشَــمسِ ذاتَ جَــنىً أَنيــقِ

والوقبة هي نَقْرٌ في الصَّخْرة، وكوة عظيمة فيها نحل[١]،وقد وصف الشاعر مكانها بأنه دوين الشمس وذلك لارتفاعه وصعوبة الوصول إليه.

ولكن رغم هذه الصعوبة فإن المشتار بشجاعته وقوة بأسه يصل إلى مكان النحل.

يقول أبو ذؤيب واصفا حاله في هذه المخاطرة:

فَحَـــطَّ عَلَيهــا وَالضُــلوعُ كَأَنَّهـا مِـنَ الخَـوفِ أَمثـالُ السِـهامِ النَواصِـلِ[٢]

وقد نصحه الناس باجتناب ذلك المكان وترك تلك المهلكة :

فَقيـــلَ تَجَنَّبهـــا حَـــرامُ وَراقَـــهُ ذُراهــا مُبينــاً عَرضُــها وَانتِصــابُها[٣]

ولكنه لم يستمع لنصحهم، وتدلى عبر الحبال التي قد تكون بسببها منيته:

فَـأَعلَقَ أَسـبابَ المَنِيَّـةِ وَارتَضـى ثُقوفَتَـهُ إِن لَم يَخُنـهُ اِنقِضـابُها[٤]

ويقول واصفا المشتار :

إذا لســعته النحــل لم يــرج لســعها وخالفهــا في بيــت نــوب عوامــل[٥]

فهو لا يبالي بلسعات النحل، وقد رأيت جدي – رحمه الله – عندما كان يجني العسل، فكان النحل يجتمع على يده، وكان لا يلقي له بالاً، بل يستمر في جني العسل، وإذا انتهى منه مسحه بيده الأخرى.

وقد قال الشارح بأن"خالفها"بمعنى جاء إلى عسلها وهي غائبة ترعى وقد سرحت[٦].والحقيقة أن النحل لا يذهب كله ويترك الخلية، وإنما تبقى فيها نحل عاملات وأخرى تدافع عن العسل، فتهاجم كل من يأتي له سواء كان إنسانا أو حيوانا أو حشرات، والبيت يبين أن النحل موجودة بدليل قوله "إذا لسعته" ولو كانت غائبة لما تطرق الشاعر للسعها.

والمشتار إذا جاء للعسل فإنه يحمل في يده عودا مشتعلا فيطرد النحل بدخانه، فَيَخْرُجُ النحل لأنه يخشى الدخان، ويظل حائما حول الخلية، فلا يذهب بعيدا عنها ولا يستطيع القرب منها خوفا من الدخان، ورغم هذا فإن المشتار لا يسلم من لسع بعضها. يقول أبو ذؤيب:

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٨١

(٢) المصدر السابق، ج١، ص١٤٤

(٣) السابق، ج١، ص٥٢

(٤) السابق، نفس الصفحة

(٥) السابق، ج١، ص١٤٤

(٦) السابق، ج١، ص١٤٤

ولَمّـــــا اجتَلاهـــــا بِالإِيامِ تَحَيَّـــــرَت ثُبـــاتٍ عَلَيهـــا ذُلُّهـــا وَاِكتِئابُهـــا[1]

واجتلاها أي طردها، فهو يطردها بالدخان فتتحير ولا تدري أين تذهب.

ويقول ساعدة بن جؤية واصفا القمة التي استقر فيها النحل :

رأى عارضـــا يهـــوي إلى مشـــمخرة قـــد احجـــم عنهـــا كـــل شـــيء يرومهـــا

فهذه القمة طويلة في السماء ذاهبة، قد أحجم عنها كل أحد، فهي لا تُقْرَب، ولا يستطيع أن يرتقيها من رامها[2]. و يقول مالك بن خالد الخناعي الهذلي :

يا مـــي لـــن يعجـــز الأيام ذو خـــدم بِمُشـــمَخِرٍّ بِـــهِ الظَيّـــانُ وَالآسُ

في رَأسِ شـــاهِقَةٍ أُنبوبُهـــا خَصِـــرٌ دونَ السَـــماءِ لَـــهُ في الجَـــوِّ قُـــرناسُ[3]

وهذه الأمكنة رغم صعوبتها ومهلكتها؛ إلا أن الهذلي يستطيع أن ينال عسلها مهما كلفه الأمر، يقول أبو ذؤيب :

فلـــو كـــان حبـــلٌ مـــن ثمـــانين قامـــةً وتســـعين باعـــا نالهـــا بالأنامـــلِ[4]

والهذليون يعتبرون صعود تلك الجبال الشاهقة المهلكة واجتناء عسلها واقتناص صيدها نوعا من أنواع الشجاعة، ويعتبرون الذي يهابها جبانا ودنِيّا، لذلك يصف ربيعة بن الكودن مرقبة عالية بأن الجبان يخافها ولا يقربها، وهو قد ارتفع فيها حتى أدرك عُلاها، يقول:

فمرقبـــةٍ يا أم عمـــرو يخافهـــا الـــ جبـــانُ المـــدَنِّ ذات رَيْـــدٍ مُـــذَلَّقِ

يظـــل بهـــا غـــاوي الســـحابِ كأنـــهُ شـــقائقُ نســـاجٍ معـــاً لم تُفَـــرَّقِ

نَمَيـــتُ إليهـــا والنجـــوم شـــوابكٌ تـــداركتها قُـــدَّامَ صُـــبحٍ مُصَـــدِّقِ[5]

ومما سبق من الشواهد تستبين طبيعة البيئة الهذلية، وكيف تكيف أهلها معها. وقد صور شعراء هذيل المكان بما لا غاية وراءه من معاني الخطورة التي يحفها الخوف والموت فانتزعوا الصفات من البيئة الجبلية الوعرة القاسية[6].

وجبال هذيل الشاهقة، تنحدر منها أودية كثيرة.

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص٥٣

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص١١٤٠

(٣) السابق، ج١، ص٤٤٠

(٤) السابق، ج١، ص١٤٣

(٥) السابق، ج٢، ص٦٥٦

(٦) يُنظر "مشهد النحل في شعر الهذليين"، د. جريدي المنصوري، ص٩٠٣

ويعود مشهد النحل مرة أخرى ليبين وجها آخر من وجوه الطبيعة الهذلية وهو الشعاب والأودية.
يقول ربيعة بن جحدر:

إذا ذُقتَ فاها قلتَ شَوْبَةَ شائبٍ معتقةٌ مما تشوبُ الجوارس
بصوبِ حبيٍّ تحت أفنانِ سِدْرَةٍ بأبطحَ تَسْقِيهِ شِعَابٌ جَوَالِسُ[١]

وهو يشبه ريق المحبوبة بطعم العسل، ثم يصف المكان الذي تجني منه النحل العسل، وهو وادٍ تسقيه عدد من الشعاب. ولنا أن نتخيل ذلك الوادي الأبطح وهو المسيل الواسع[٢]،تحت تلك الجبال العالية التي تمده بالشعاب، وهذه الشعاب يسيل عبرها الماء فتلتقي في الوادي فيصبح السيل عظيما يسقي الديار، وتثمر الأشجار، وتصبح الأرض حية بعد موات.

ويقول أبو ذؤيب واصفا أحد المواضع التي تجني منها النحل عسلها:

جَوارِسُها تَأرِي الشُعوفَ دَوائِباً وَتَنْصَبُّ أَلهاباً مَصيفاً كِرابها[٣]

والجوارس هي النحل التي تأخذ من الثمر والشجر، وتأري الشعوف، أي تُعَسِّلُ في الشعوف وتأخذ منها، والشعوف هي رؤوس الجبال[٤]، فهي تجني من أشجار الجبال العالية ثم تهوي فجأة إلى الإلهاب، واللهب هو الشق في الجبل، وهو الشعب المَهْوَاة[٥]، وفي قوله تنصب تصوير لحال النحل وانحداره المفاجئ مع تلك المنحدرات، وكأنَّ النحلَ في انحداره ماءٌ مصبوب، وهذه دلالة على شدة الانخفاض المفاجئ.

ويصف أبو ذؤيب حماراً وحشياً بالشدة، حينما يتنقل بين التضاريس المختلفة المتباينة، ولكن حوادث الدهر لن تبقيه مهما بلغت شدته:

تالله يبقى على الأيام مُبْتَقِلٌ جَوْنُ السَّرَاةِ رَبَاعٍ سِنُّهُ غَرِدُ
في عانةٍ بجنوب السِّيِّ مشربها غَوْرٌ ومصدرُها عن مائها نُجُدُ
يقضي لُبَانَتَهُ بالليل ثم إذا أضحى تيمم حزما حوله جَرَدُ[٦]

والأبيات تبين ثلاثة أنواع من مظاهر الطبيعة الهذلية، وهي الغور ويقصد به تهامة، والنُّجُد وهو كل ما ارتفع عن تهامة ويُقصد به جبال الحجاز. والحزم وهو ما غلظ من الأرض وفيه ارتفاع عما حوله فلا يعلوه

(١) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج٢، ص٦٤٢
(٢) يُنظر "لسان العرب "، ابن منظور، (بطح)، ج٢، ص١٠١
(٣) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج١، ص٤٩
(٤) المصدر السابق، نفس الصفحة
(٥) السابق، ص٥٠
(٦) السابق، ج١، ص٥٦

السيل[1].وجاء في لسان العرب: والحَزْمُ من الأَرض: ما احْتَزَمَ من السيل، والجمع الحُزُوم، و ظهره عريض طويل ينقاد الفرسخين والثلاثة[2].

ويريد أبو ذؤيب أن يبين لنا قوة هذا الحمار ونشاطه وأنه لم يعيه تفاوت الطبيعة ولم تمنعه قساوتها من طلب رزقه، فهو يشرب من أغوار تهامة السحيقة، ثم يصعد تلك الجبال الوعرة ليرعى من السراة، ثم إذا أضحى نزل عبر تلك المنحدرات فقصد ذلك الحزم الفسيح الذي لا نبات فيه.

وبعد أن تحدثت عن الجوانب البيئية التي امتازت بها بيئة هذيل، وهي الجبال العالية والشعاب شديدة الانحدار والأودية العظيمة التي تسقيها الشعاب الكثيرة، فإنني لا يمكنني أن أتجاهل عنصرا آخر من عناصر البيئة الهذلية، وهي الصحاري المقفرة، التي تعد عنصرا بيئيا رئيسا في الجزيرة العربية، وقد امتاز الهذليون عن غيرهم أنهم تكيفوا مع مكونات البيئة لديهم كلها، من جبال عالية وشعاب وعرة وحزوم جرداء وصحارٍ مقفرة، يقول مليح بن الحكم الهذلي واصفا إحدى هذه الصحاري:

وداويـــــةٍ قَرَّبْـــــتُ للقــــــومِ عَرْضَـــــها   بـــذكراكِ والخــوصُ الهمـــاليجُ تمـــتحُ[3]

والداوية هي المفازة[4]، والشاعر يبين للمحبوبة شدة تعلقه بها، وأنه يستعين بذكراها على تحمل مشقة السير في الصحراء، وذكراها خير صاحب له في سيره عبر تلك الصحراء المقفرة الطويلة، وقد أَنْسَتْهُ الذكرى طولَ المسيرِ وعنائه، فاستقل طول المسافة.

ويمكن القول أن البيئة الهذلية بيئة خاصة ومتفردة، فنجد الصحاري القاحلة، ونجد الأماكن الغنية الخصبة، ونجد الجبال العالية التي يتجمد فيها الماء كجبل غزوان، ونجد الأغوار الموغلة في العمق التي تركد في حرارة قاسية. وإلى جانب الوديان الخصبة ذات الجو المعتدل نشاهد القفار ذات الرمال الدقيقة[5].

---

(١) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج١، ص٥٦

(٢) يُنظر " لسان العرب "، ابن منظور، (حزم)، ج٤، ص١٠٩

(٣) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج٣، ص١٠٤١، الهماليج: الإبل، تمتح: تسير

(٤) يُنظر " لسان العرب "، ابن منظور، (دوا)، ج ٥، ص٣٣٣

(٥) يُنظر "شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي"، د. أحمد كمال زكي ، دار الكتاب العربي بالقاهرة، ١٣٨٩هـ – ١٩٦٩م، ص ١٠ – ١١

استخلاص عناصر صورة المطر من البيئة

بعد ذكر مكونات البيئة الهذلية، فإنه يحسن هنا ذكر أثرها على صورة المطر التي يصورها الشاعر الهذلي. ولا شك أن الشاعر ابن بيئته يتأثر بها ويبني تصوراته من خلالها، ويقتبس من جمالها صورا يستعين بها في وصف مشاعره وأحاسيسه.

وقد تكون صورة المطر سبيلاً لوصف المرأة، وهذه الصورة تكون مجتلبة من البيئة التي عاش بها الشاعر، وهاهو أبو ذؤيب يصف لنا ريق محبوبته أم الرَّهِين، فيقول ليست الخمر الممزوجة بماء المطر بأطيب من أم الرهين ساعة هجوع الناس، وهو في هذا الوصف يجود وصف الخمر ويجعلها من أجود الأنواع عندهم، ويجود وصف الماء فيجعله من أصفى المياه وأنقاها، فيقول مبتدئاً بالخمر :

فمـــا إنْ رحيـــقٍ ســـبتها التِّجَـــا رُ مـــن أذرِعـــاتٍ فـــوادي جَـــدَرْ[١]

والرحيق " من أَسماء الخمر معروف؛ قال ابن سيده: وهو من أَعْتَقِها وأَفضَلها، وقيل: الرَّحِيقُ صَفْوة الخمر "[٢].

وهذه الخمرة اشتراها التجار من بلدة بالشام تسمى أذرعات ، وجدر قرية أخرى بالشام قرب حمص وكلاهما تنسب لهما الخمر[٣].

سُـــــلافةُ راحٍ تُريـــــكَ القـــــذى تُصَـــــفَّقُ في بطـــــن زِقٍّ وَجَـــــرّ

وسُلافُ الخمر وسُلافَتُها: أَوَّل ما يُعْصَر منها، وقيل: هو ما سال من غير عصر، وقيل: هو أَوَّلُ ما ينزل منها، وقيل :السُلافةُ أَوَّلُ كل شيء عُصِر، وقيل: هو أَوَّل ما يُرفع من الزبيب، والسُّلافةُ من الخمر أَخْلَصُها وأَفْضَلُها، وذلك إذا تَحَلَّب من العنب بلا عَصْرٍ ولا مَرْثٍ[٤].

والسلاف – أيضا – ما سلف منها من غير عصر، يسيل منها، إذا ألقي العنب بعضه على بعض فانعصر منه[٥].

وإذا كان بها قذى أرتك إياه، وذلك من صفائها، وهي تُحَوَّل من إناء إلى آخر حتى تصفو.

والشاعر هنا وصف خمرا وأجاد في وصفها، فاختار لها اسما خاصا لأجود أنواع الخمر، وهي ليست رخيصة ينالها كل أحد، وإنما غالية الأثمان، ولا يجلبها إلا أولو المال الوفير، وهم أهل التجارة، ثم حدد المكان الذي جلبت منه ليبين أنها لم تجلب من مكان غير مشهور بها، وإنما من مكان عرف الناس أنه من أفضل الأماكن لصناعتها وقد نسب الناس له أجود أنواع الخمر.

---

(١) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج١، ص١١٥
(٢) لسان العرب، ابن منظور، (رحق)، ج٦، ص١٢١
(٣) يُنظر المصدر السابق، (ذرع) ج٦، ص٢٨، و (جدر)، ج٣، ص٩٥
(٤) يُنظر السابق، (سلف)، ج٧، ص٢٣٤
(٥) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج١، ص ١١٥

ثم أخذ الشاعر يبين كيفية تحضيرها، ليؤكد على جودتها، وبين أنها لم تأتِ من عصر، لأن العصر قد يخالطه شيء من الماء، بل وصفها بأنها ناتجة عن إلقاء العنب بعضه فوق بعض فينعصر، وهذا العمل يحتاج إلى كميات كبيرة من العنب مما يدل على جودتها وندرتها.

ثم يصفها بأنها صافية تريك ما فيها من قذى، ومعناه هنا أنها لا قذى فيها ولا كدر، ولو كان فيها شيء من القذى لرأيته لما لها من الصفاء.

ما سبق كان من ناحية الخمر، أما الماء الذي تُمْزَجُ به، فهو من أعذب المياه وأصفاها، وللبيئة الهذلية دور كبير في ذلك، يقول :

بِمَــزجٍ مــن العــذب عــذبِ الســراةِ　　　تُزعزعـــهُ الـــريحُ بعـــدَ المطـــر[1]

ولم يقل بأن الماء من مياه الآبار، لأن ماء البئر قد يخالطه شيء من الملوحة، ولم يقل من مياه الأودية، لأن مياه الأودية قد يشوبها القذى أو التراب ونحوه، بل اختار ماء عذبا من مياه الأمطار التي نزلت على سراة هذيل، وكما مر سابقا، فسراة هذيل هي جبال الحجاز، وهذا الماء بعيد عما يشوبه من أتربة الوهاد وغبارها، ويقول الشارح بأن الريح قد اطردت على الماء فطردت ما علا أعلاه من الكدر في أسفله.

وأضيف على هذا أن الريح في أرض السراة باردة، وبعد المطر تكون أكثر برودة، وقوله تزعزعه أي تحركه[2]، والماء عندما يكون في مكان عال فإنه يكون باردا، وعندما تحركه ريح باردة فإن ذلك يزيده برودة، والشاعر فيما بعد هذا البيت مزج بين وصف صفاء الماء ونقائه وبين برودته، وأنه مر بعدة أشياء جعلته من أنقى المياه.

وأبو ذؤيب يذكر شدة صفاء الماء؛ لأن تلك الخمر الصافية لا توائم إلا ماء صافيا مثلها، فيقول واصفا العوامل البيئية التي أدت إلى صفاء الماء:

تحـــــدَّرَ عَـــــنْ شـــــاهق كالحصيـــــــ　　　ـــرِ مُسْـــتَقْبِلَ الـــريحِ والفـــيءِ قَـــرّْ

فَشَـــــجَّ بـــــه ثَـــــبَراتِ الرِّصـــــا　　　فِ حـــتى تَزَيَّـــلَ عنـــه الكَـــدَرْ

والماء تحدر من جبل شاهق الارتفاع، وشبهه بالحصير، والحصير هو البساط من النبات،وسمي حَصِيراً لأَنه حُصِرَتْ طاقته بعضها مع بعض[3].

وقد يُصنع الحصير من سعف النخل، ويقول الشارح بأن الجبل له طرق مثل شُطُب الحصير، وهي طرائقه.

---

(١) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج١، ص ١١٥

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة

(٣) يُنظر " لسان العرب "، (حصر)، ج٤، ص١٤٠

وقد شبه الشاعر الجبل الشاهق بالحصير وهو يقصد قمة الجبل التي تحدر منها الماء، وذلك لأن طبيعة هذا الجبل مكونة من صخور متماسكة ملساء لا يستقر عليها التراب، وإذا جرى عبرها الماء فإنه لا يجد في طريقه أتربة تلوثه وتعكر نقاءه وصفاءه.

ثم بعد ذلك يذكر لنا أن هذه القمة الشاهقة مستقبلةٌ الريح والفيء، وقد جَرَّ كلمة (الفيء) كما جر كلمة (الريح)، أي أن الماء استقبلهما معاً، مما يجعله أكثر برودة، فالريح باردة والفيء بارد أيضاً، مما يجعل الماء يتأثر ببرودتهما معا.

ثم إن هذا الماء قد علا الثَّبَرات، وهي نِقَارٌ تكون في الجبل تمسك الماء فيصفو فيها[١]، أي أنه أذا استقر فيها فإن الشوائب الترابية – إن وُجِدت – تستقر في أسفلها والماء الفائض منها يكون صافيا، وقد قال عنها بأنها ثبرات الرصاف، و "الرصف: ضَمُّ الشيء بعضِه إلى بعض ونَظْمُه "[٢]، أي أنها ثبرات مجتمعة ومنتظمة، والماء الذي جاء من أعلى الجبل يمر بهذه الثبرات، ولو كان به ما يشوبه لاستقر في أسفلها، ولم يمر الماء بنقرة واحدة وإنما بعدة نقرات، دلالة على تعرضه للتنقية مرة بعد مرة.

فجـــاء وقـــد فصَّـــلَتْهُ الشَّـــمَا لِ عـــذبَ المذاقـــةِ بَسْـــرِ الخَصِـــرْ

ثم قال: فجاء الماء واستقر بعد أن فصلته الشمال، والشارح يقول : " أي قطعته حتى صفا " ، وأرى – أيضاً – أن الشاعر ذكر ريح الشمال لأنها ريح باردة، فأعطت الماء برودة.

ثم ختم الشاعر وصف الماء بعد رحلته الجبلية فقال : " عذب المذاقة بسر الخصر "، فوصف الماء بثلاثة أوصاف وهي غاية حُسْن الماء، وهي العذوبة والبرودة وأن الماء بكر لم يرده أحد، لأن البسر – كما قال الشارح – هو الماء الذي لم يَرِدْهُ أحد.

وإذا أُمْعِنَ النظر في صورة الماء التي بينها أبو ذؤيب، وُجِدَ أن الماء لا يكون بهذه الصورة إلا في بيئة خاصة، وهي بيئة الحجاز الجبلية، ولن تجد هذا الماء الصافي الزلال البارد في صحاري الجزيرة العربية، فالماء فيها نادر، وربما لم يجد العربي إلا ماء كثر عليه القذى فيضطر أن يشربه بقذاه.

والماء الذي صوره أبو ذؤيب تختص به سراة الحجاز، لأن الماء الذي تحفظه الجبال لا يختلط بأملاح الأرض فهو ماء المطر العذب، ويضاف على ذلك برودته، والشاعر قد صرح بأن الماء عذب السراة، وكأنه يشير إلى ماء معروف ذو شهرة بنقائه عندما أضافه إلى السراة.

وعند مقارنة الخمر بالماء، يظهر أنهما اشتركا في الصفاء، فالخمر تصفق بين الزِّقِّ والجَرّ حتى تصفو وتبلغ غاية الصفاء، وكذلك الماء يصفو عندما يمر بالثبرات، فهو يخرج من ثبرة ويدخل الأخرى حتى يصبحَ

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص ١١٦

(٢) لسان العرب، (رصف)، ج٦، ص١٦٢

صافيًا زُلالاً.

ويقول أبو صخر الهذلي واصفا ريق محبوبته:

كـــأنَّ مُعْتَقَـــةً في الـــدَّنِّ مُغْلَقَـــةً   صـــهباءَ مِصْـــعَقَةً مـــن رانِـــئٍ رَذِمِ

شِـــيبَتْ بمَوْهَبَـــةٍ مـــن رأس مَرْقَبَـــةٍ   جـــرداءَ مَهْيَبَـــةٍ في حـــالِقٍ شَمَـــمِ[1]

وعلى نهج أبي ذؤيب يسير أبو صخر، فيشبه فا محبوبته بالخمر الممزوجة بالماء الزلال، فالخمر التي وصفها معتقة، والمعَتَّقَةُ: الخمر التي عَتِّقَتْ زماناً حتى عَتُقَتْ، ولم يفض أحد ختامها[2]. وهي محكمة الإغلاق في إنائها، ويصفها بأنها صهباء، " والصَّهْباءُ: الخَمْر؛ سميت بذلك للونها. قيل: هي التي عُصِرَت من عنب أَبيضَ "[3]، وإذا شربها صاحبها فإنه يُصعق[4].

وقد خلطت هذه الخمر بالموهبة؛ والموهَبة هو ماء السحابة[5]، وفي الجبل يجتمع في نقرة، وهذه النقرة في رأس مرقبة؛ وهي " الموضعُ المُشْرِفُ، يرتفع عليه الرقيب "[6]. وهذه المرقبة جرداء؛ أي ملساء[7]،وكل من رآها يهابها لارتفاعها، و" الحالق من الجبال المنِيفُ المشْرِف "[8] طويل الرأس.

مـــن رأسِ عاليـــةٍ مـــن صـــوبِ غاديـــةِ   في إثْـــرِ ســـاريةٍ أعقـــابَ مُحْتَـــدِمِ

خـــالطَ طَعْـــمَ ثناياهـــا وريقَتَهـــا   إذا يكـــونُ تَـــوَالِي الـــنَّجمِ كـــالنُّظُمِ[9]

وعن العالية قال الأزهري: "عالِية الحجاز أَعلاها بلداً وأَشرفُها موضعاً "[10]، والغادية هي السحابة التي تنشأ وتمطر غدوة[11]، و" السارِية: السحابة التي تمطر ليلاً "[12]، ويقول الشارح عن محتدم : يحتدم السيل كما تحتدم النار. وحَدَمةُ النار: صوت التهابها[13]. فهذا الماء منيع لم يصل إليه أحد، وهو كالخمر المعتقة المحكمة الإغلاق التي لم يفضها أحد.

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٦٩

(٢) يُنظر " لسان العرب "، (عتق)، ج١٠، ص ٢٨

(٣) المصدر السابق، (صهب)، ج ٨، ص ٢٩٦

(٤) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص ٩٦٩

(٥) يُنظر " لسان العرب "، ابن منظور، ج١٥، ص٢٨٨

(٦) المصدر السابق، (رقب)، ج٦، ص١٩٩

(٧) يُنظر السابق، (جرد)، ج ٣، ص ١١٦

(٨) السابق، (حلق)، ج٤، ص١٩٨

(٩) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٧٠

(١٠) لسان العرب، (علا)، ج١٠، ص٢٧٠

(١١) يُنظر المصدر السابق، (غدا)، ج١١، ص١٩

(١٢) السابق، (سرا)، ج٧، ص١٧٩

(١٣) السابق، (حدم)، ج٤، ص٦٢

وإذا تأملنا صفة الماء الذي وصفه الشاعر، نجد أنه اختص بصفتين اقترنتا بالبيئة الهذلية، مما جعل للماء ميزة ميّزته عن غيره، وهما؛ صفاء الماء وصعوبة الوصول إليه، فأما صفاء الماء، فهو ماء موهبة اجتمع في نقرة في الجبل، وماء الموهبة –كما أسلفت– ألذ، وليس كماء الآبار، وهذا الماء لم يكن إثر مطر واحد، بل سبقه مطر محتدم غزير أزال عن تلك الصخور ما عليها من غبار، ثم تبعه مطر هطل ليلا من سحابة سارية، ففاض ماء المطر المحتدم، ثم جاء مطر السارية فحل محله، ثم لما أصبح الصُّبْح؛ أتت سحابة غادية، فأمطرت على ذلك الجبل، فحل ماؤها محل السحابة السارية، فصار الماء نقيا لا يشوبه شيء، وقد ذهبت كل الشوائب مع المطرين السابقين، والشاعر عندما جعل آخر عهد بالمطر هو مطر الغادية؛ لكي يكون الماء حديث العهد لمن يَرِده في أول النهار.

وأما الصفة الأخرى للماء، وهي صفة صعوبة الوصول إليه؛ فالشاعر بين أن الماء في أعلى صخرة عالية ملساء مهيبة. ويهابها الناس لارتفاعها، ولأنها ملساء يصعب الوصول لأعلاها، وربما يهلك من أراد أن يبلغ الماء، وتقع هذه الصخرة في أعلى جبال الحجاز، فالصخرة عالية، وتزداد علوا عندما تكون في أعلى جبال الحجاز الشاهقة.

وصورة الماء التي بينها أبو صخر، صورة لماء خاص لا يكون إلا في هذه البيئة. وإذا قارنّا بين صفة الخمر والماء، نجد أن الخمر معتقة ومحكمة غاية الإحكام، ولم يصل إليها أحد ولم تُفَضّ، وكذلك الماء، فهو ماء منيع لم يصل إليه أحد، لأنه ماء نقرة في جبل عال مهيب صخوره ملساء، والصخور الملساء منيعة لا يقربها راقٍ.

ويكثر عند الشعراء الهذليين طلب السقيا للجبال؛ وذلك لأنها مورد مهم من موارد الاقتصاد عندهم، وعندما ترتوي الجبال تخضر الأشجار وتثمر، ومن ثمارها يصنع النحل العسل، وهناك أشجار عديدة يجني النحل منها العسل، وإذا أثمرت تلك الأشجار يكثر العسل الذي اشتهر به الهذليون وذكروه كثيرا في أشعارهم، وكذلك تستفيد المواشي من تلك الأشجار فيزدهر الرعي.

وهذه الجبال تأتي منها سيول عظيمة تسقي كل أودية تهامة، وكذلك تحفظ الماء فيها لفترات طويلة لأن بها أماكن تشتهر بذلك.

يقول البريق الخناعي:

سقى الرحمنُ حزم نُبائعاتٍ ... من الجوزاء أنواءً غِزارا

بمرتجِزٍ كأن على ذُراهُ ... رِكابُ الشامِ يحملن البُهارا

يَحُطُّ العُصمَ عن أكنافِ شِعْرٍ ... ولم يترك بذي سَلْعٍ حمارا

وَمَـــرَّ علـــى القـــرائن مـــن بُحـــارٍ   فكـــاد الوبـــل لا يُبقِـــي بُحَـــارا[1]

فالشاعر يدعو بالسقيا لتلك الجبال، واختار من أسماء الله – عز وجل – الرحمن، لان هذا الاسم مناسب لغرض الدعاء وهو طلب الرحمة، والمطر رحمة من الله، والجبال التي دعا لها الشاعر هي: جبل شعر وجبل سلع وجبال القرائن وهي جبال مقترنة معروفه[2].

وقد وصف الرعد بالمرتجز، وارْتَجَزَ الرعدُ ارْتِجازاً إذا سمعت له صوتاً متتابعاً[3]، وكأن على ذرا السحاب إبلاً قادمة من الشام محملة بالبهار، والبهار ما يحمل على البعير بلغة أهل الشام[4]، ويقصد ويقصد بذلك ما يكون على إبل القادمين من الشام من الخيرات، وكأنه يرى تلك الخيرات في أعلى السحاب، وهي تحط على تلك الجبال. وإذا ارتوت تلك الجبال فإنها ستفيض بالسيول التي تسقي ما تحتها من أودية.

ويقول أبو صخر الهذلي عن المطر:

فَجَلَّـــــلَ ذا عَـــــيْرٍ ووالى رِهامَـــــهُ   وعـــن مَخْمَـــصِ الحُجَّـــاجِ لـــيس بناكِـــبِ

فلمـــا علـــت شِـــعْرينِ منـــه قـــوادِمٌ   ووازن مـــــن أعلامهـــــا بالمناكـــــبِ

مُضِـــــرٌّ شـــــآميهِ لِيَنْبُـــــعَ فـــــالحِمى   ودون يمانيـــــهِ جِبـــــالُ المراكِـــــبِ

لـــــه ذَمُـــــراتٍ في نُمَـــــيْسٍ تحفـــــهُ   وقُدَّامَـــهُ تغشـــى ثنـــايا المناقِـــبِ[5]

وذو عير وشعران وأعلامها ونميس كلها جبال[6]، وإذا كان المطر غزيرا على الجبال فإنها تسيل عبر شعابها، فترتوي الأراضي التي تقع تحت الجبال. قال صخر وهو أخو الأعلم الهذلي يصف مطرا:

وأقبـــــــل مَـــــــرًّا إلى مِجْـــــــدَلٍ   سِـــياقَ المقَيـــدِ يمشـــي رَسِـــيفا

فلمـــــا رأى العَمْـــــقَ قُدامـــــه   ولمـــــا رأى عَمَـــــرا والمنِيفـــــا

أســـال مـــن الليـــل أشـــجانه   كـــأن ظـــواهره كُـــنَّ جُوفـــا[7]

ومرور السحاب على تلك الديار لم يكن سريعا، بل يسير سيرا بطيئا كسير المقيد، فلا يبرح المكان

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٧٤٢

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة

(٣) لسان العرب، (رجز)، ج٦، ص ١٠٥

(٤) المصدر السابق، (بهر)، ج٢، ص ١٦٦

(٥) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج٢، ص٩٢٠، ذَمِرات: أصوات، نُمَيس: جبل، الثنايا: الطرق في الجبال.

(٦) المصدر السابق.

(٧) السابق، ج٢، ص٢٩٦

حتى يرويه، " وإذا كان السحاب بطيّاً في سيره فذلك دليل على كثرة مائه "[١]، وأروى المطر مرا ومجدل وعمق وهي مواضع، ثم لما رأى جبل عَمَر وجبل المنيف أمطر مطرا غزيرا سالت بسببه الشجون؛ وهي شجون الأودية وطرقها[٢]، وقد صور الشاعر عِظَمَ السيل أنه غطى ما ارتفع من الأشجان وظهر، وكأن ظواهر الأودية صرن بطوناً من كثرة السيل[٣].

وما أجمل صنيع الشاعر حينما أضاف الأشجان إلى السحاب فجعلها جزءاً منه، وذلك ليعبر عن كثرة السيل في تلك الأودية وظواهرها، فأضافهما إلى السحاب وكأنهما قطعة منه، من كثرة ما أخذت منه[٤].

وإذا عرفنا أن البيئة الهذلية مليئة بالجبال العالية فإن أكثر ما يهم الهذلي هو سقيا تلك الجبال كما تقدم؛ لأن المطر إذا نزل بغزارة عليها فإن الشعاب ستحمل هذا الماء وتسوقه إلى الأودية، يقول مليح الهذلي :

تـــراه كَتَخْفَـــاقِ الجَنَـــاحِ ودُونَـــهُ ... مِــن النِّــيرِ أو جَنْــبَيْ ضَــرِيَّةَ مَنْكِــبِ

ســرى دائبــا في الرمــل يــتركُ خلفــه ... مَوَاهِــبَ لم يَعْتِــكْ علــيهِنَّ طُحْلُــبُ[٥]

فسنا برقه يخفق كخفقان الجناح، وأمطر على جبل النير، ثم لما ارتوى الجبل مطرا؛ فاض بسيله عبر الوادي، ولما انتهى السيل ارتوت الأرض ولم تستطع أن تشرب كل مائه فبقي الماء في أماكن تجمعه صافيا لا ترى عليه طحلبا.

وتشتهر تهامة بقوة سيولها وأنها تجرف ما كان في طريقها من حصى وحيوان وأشجار وتحملها إلى مسافات بعيدة، يقول ساعدة بن جؤية[٦]:

لمـــا رأى عَمْقـــاً ورجَّـــع عَرْضُـــهُ ... رعــداً كمــا هــدر الفنيــقُ المِصْـعَبُ[٧]

لمـــا رأى نعمـــان حـــل بِكِرْفِـــئٍ ... عَكَــرٍ كمــا لــبج النُّــزولَ الأركــبُ[٨]

---

(١) كتاب الأنواء في مواسم العرب، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، مطبعة دائره المعارف العثمانية، ١٩٥٦ م، ص ١٧٣

(٢) يُنظر " لسان العرب "، (شجن)، ج ٨، ص ٢٨

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص٢٩٧

(٤) المصدر السابق، ج١، ص٢٩٦

(٥) السابق، ج ٣، ص١٠٥٠

(٦) السابق، ج٣، ص١١٠٤

(٧) السابق، رأى عمقاً: صار بِعَمْق، وهو موضع، رجَّع: ردده، الفنيق: الفحل.

(٨) السابق، الكِرْفِئ: السحاب المتراكب بعضه فوق بعض، كما لبج النزولَ الأركب: كما ضربوا بأنفسهم للنزول، الأركب: جمع رَكْب، العَكَر: العَكَر: الكثير.

فالســــدر مُخـــتَلَجٌ وأنـــزِل طافيـــاً   مـــا بـــين عـــينَ إلى نبـــاةَ الأثأبُ[1]

والأثـــل مـــن ســـعيا وحَلْيـــةَ مُنْـــزَلٌ   والـدومُ جـاء بـه الشـجونُ فَعُلْيَـبُ[2]

ويصف الرعد بأن صوته كهدر الفحل، ولما وصل السحاب وادي نعمان حل به، وهو سحاب متراكب بعضه فوق بعض فرمى بنفسه على ذلك الوادي. وتخيل معي ذلك السيل العظيم الذي يتدافع مع الوادي ويقتلع معه أشجار السدر، مع أن السدر من الأشجار الكبيرة المعمرة التي تضرب بجذورها في الأرض، ولكنه اقتلعها وانتزعها، وترى الأثأب طافيا بين موضع عين إلى موضع نباة، "قال أَبو حنيفة الأَثْأَبةُ دَوْحةٌ مِحْلالٌ واسِعةٌ "[3]، وكذلك اقتلع السيل شجر الأثل، والأثل شجر طُوَال في السماء أُصوله غليظة[4]، وتراه يجرفه السيل. ولم يبق السيل الدوم؛ وهو شجر ضخم يشبه النخل[5]، النخل[5]، وقد جاء به مع وادي عليب. وهذا السيل الذي يقتلع كبار الأشجار ويحملها معه مسافات مسافات طويلة سيل عرم شديد البأس.

وليبين الشاعر قوة السيل وشدة بأسه؛ فقد عبر عن ذلك باقتلاعه الأشجار الضخمة المعمرة ذات العروق الغليظة الضاربة في أعماق الأرض، كأشجار السدر والأثل والدوم، وهي من كبار الأشجار، لكن كبرها وثباتها لم يمنعاها من بأس ذلك السيل العظيم.

ويقول المتنخل الهذلي يصف سيلا:

مُسْـــــتَبْدِرًا يَزْعَـــــبُ قُدامـــــه   يرمـــي بِعُـــمِّ السَّـــمُرِ الأطـــولِ[6]

وهذا السيل يمضي متدافعا مالئاً الوادي[7]، يقتلع شجر السمر الطوال، ورغم كبرها وتشبث جذورها بالأرض وعمقها، إلا أنه يقتلعها ويرمي بها أمامه. وما أعظم هذا السيل وما أشد بأسه، الذي يقتلع شجر السمر، "والسَّمُرُ ضَرْبٌ من العِضَاهِ"[8]، والعضاه ما عظم واشتد شوكه[9]، والسمر شجر معمر، وطوال السمر يكون أكثر تعميرا وأكثر ثباتا في الأرض؛ لأن عروقه عميقة ضاربة في طبقاتها، وإذا اقتلع السيل السمر الطوال فمن باب أولى أن يقتلع ما دونه.

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٠٥، مختلج: مُنْتَزَع، يقلعه السيل، الأَثْأَب: نَبْتٌ، وهو المِنْزل طافياً، أي وأُنْزِل الأثأب طافياً، عين ونبْاَة، بَلَدان.

(٢) المصدر السابق، سعيا وحَلْيَة، بلدان، الشجون: شعاب تكون في الحِرار والغِلَظ، عُلْيَب: موضع.

(٣) لسان العرب، (ثأب)، ج٣، ص٣

(٤) يُنظر المصدر السابق، (أثل)، ج١، ص ٥٥

(٥) يُنظر السابق، (دوم)، ج٥، ص٣٣١

(٦) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١٢٥٦

(٧) المصدر السابق، نفس الصفحة

(٨) لسان العرب، (سمر)، ج ٧، ص ٢٥٣

(٩) يُنظر المصدر السابق، (عضه)، ج١٠، ص ١٨٩

ومن الشائع في أودية تهامة؛ أن تكون في أقصى الوادي وليس عندك مطر، والمطر نزل على جبال بعيدة، وفجأة يأتيك الوادي بالسيل، فيكون سيلاً مفاجئاً، لأنك إذا نظرت إلى الجبال البعيدة لا ترى سحاباً، لأنه قد أمطر وتفرّق، وأما إذا نزل المطر على الجبال وعلى الأودية في آن واحد فإن الخير يكون عامّاً، فالأرض السهلة ترتوي قبل أن يأتيها السيل القادم من الجبال، ويكون استقبالها للسيل ليس كالأرض غير الممطورة؛ لأن الأرض غير الممطورة إذا استقبلت سيلاً قادماً من بعيد، فإن السيل يمر بها ويبقي بعض مائه فتشربه مباشرة، أما الأرض الممطورة؛ فإنها رَيَّانة، وإذا جاءها سيل الجبال فإنه يبقى فائضا، ويبقى مدة أطول على وجه الأرض، وتكون الاستفادة منه أكثر.

ولذلك يقول أبو ذؤيب يصور مطراً عامًّا:

لــه هَيْــدَبٌ يَعْلُــو الشِّــراجَ وهَيْــدَبٌ　　　مُسِــفٌّ بأَذْنَابِ الــتِّلاعِ خَلُــوجُ(١)

فالمطر له سحاب متدل اعتلى الشعاب ثم اتصل هذا السحاب حتى بلغ أذناب التلاع، " والتَّلْعةُ: مَجْرَى الماء من أَعلى الوادي إِلى بُطون الأَرض "(٢)، وذنب التلعة آخرها، فالمطر قد عم أعالي الشعاب وهي الجبال حتى وصل آخر بطون الأودية، فأمطرها في حين واحد، فَرَوِيَت الأودية بالمطر قبل أن يأتيها السيل.

ثم يقول:

ضَــفادِعُهُ غَرْقَــى رِواءٌ كأنَّهــا　　　قِيــانُ شُــروبٍ رَجْعُهُــنّ نَشِــيجُ

لِكُــلِّ مَسِــيلٍ مــن تهامَــةَ بَعْــدَمَا　　　تَقَطَّــعَ أَقْــرَانُ السَّــحَابِ عَجِــيجُ(٣)

وهو لا يريد أن الضفادع غارقة حقيقة وإنما من كثرة الماء، وشبه أصواتها بالقيان المغنيات اللاتي يغنين فرحا لخير أصابهنّ.

وبعد أن توقف المطر وتفرق السحاب أتي السيل له عجيج، وهو صوته. فأنت تسمع العجيج في كل وادٍ من أودية تهامة. واختيار كلمة (عجيج) كان موفقاً، لأن في أصوات حروفها تعبير عن صوت السيل(٤).

وعند الحديث عن صورة المطر وأهمية الجبال في رسم الصورة؛ يبرز للمتأمل دورها المهم في رسم الصورة، فبها يحدد الشاعر مدى المطر، فيجعل مداه إلى جبل كذا، فيحدده ويذكره باسمه.

وقد يحصر الصورة في موضع محدد، فيجعل المطر بين جبل كذا وجبل كذا. وهاهو أبو ذؤيب يصور

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٣١، له هيدب: ما أسبل من السحاب كأنه هدب الثوب. الشِّراج: شُعَبٌ تكون في الحِرار. المِسِفُّ: الداني.

(٢) لسان العرب، (تلع)، ج٢، ص٢٣١

(٣) شرح أشعار الهذليين، أقران السحاب: ما تآلف منه. عَجِيج: صوت الماء، وذلك لصوت السيل في الأودية وهي تعج بالماء.

(٤) يُنظر " أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره "، نورة الشملان، رسالة ماجستير، جامعة الرياض، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ص١٠٨

لنا سحابا استقر بين جبلين ليسقي أرض المحبوبة، يقول:

كــأنَّ ثِقَــالَ المُــزْنِ بــين تُضَــارعٍ وشَــابَةَ بَــرْكٌ مــن جُــذَامَ لَبِــيجُ[١]

وتضارع وشامة جبلان[٢]،" وبَرْكٌ لَبيجٌ وهو: إبل الحيّ كُلِّهم إذا أَقامَتْ حَوْلَ البُيوت بارِكةً كالمِضْروب بالأَرض"[٣]، أي أن السحاب أفرغ كل مائة في الأرض الواقعة بين الجبلين.

ويقول ساعدة بن جؤية :

أَخْيَــلَ برقــاً مــتى حــابٍ لــه زجــلٌ إذا يُفــتِّرُ مــن توماضــه حَلَجــا[٤]

مستأرضــاً بــين بطــن الليــثِ أيمنــه إلى شَمَنْصِــيرَ غيثــاً مُرسَــلاً مَعِجــا[٥]

فهو يرى برقاً من سحاب وقد استأرض وثبت بالأرض، وحدده ابتداءً من بطن الليث، "وهو واد بأسفل السراة يدفع في البحر"[٦]، والليث اليوم مدينة جنوب مكة. ويمتد المطر إلى شمنصير و"شمنصير جبل بساية و ساية واد عظيم"[٧]، ويقع شمال مكة.

ولقد صور لنا الشاعر مطرا عظيما غطى تلك المساحة الشاسعة التي تمتد من الليث إلى جبل شمنصير؛ الذي جعله معلما يحدد به مكان انتهاء المطر.

---

(١) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج١، ص١٣٣

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة

(٣) لسان العرب، (لبج)، ج١٣، ص١٥٩

(٤) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٧٣، أخيل برقاً: أي رأى خَلاقَةَ المطر، وأخَلْتُ السحابة وأخْيَلْتُها إذا رأيتها مخيلة المطر، متى حاب: من حاب، الحابي السحاب المرتفع، " حَلَجَ يَحْلِجُ حَلْجاً "، حَلَج: مَطَر

(٥) المصدر السابق، مستأرض: أي استأرض وثبت بالأرض، مَعِجٌ : سريع.

(٦) معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج٥، ص٣٣

(٧) المصدر السابق، ج٣، ص ٤١٣

مصادر صورة المطر عند الهذليين

الهذليّون وتطوير صورة المطر:

عاش الشعراء الهذليون في شبه الجزيرة العربية مع غيرهم من الشعراء. وهناك تقاليد شعرية مشتركة تجمعهم، لأنهم مجتمع واحد تجمعهم محافل الشعر، وللشعر سيرورة صنعتها الذائقة العربية التي عشقت البيان.

وصورة المطر التي يتغنى بها الشعراء كثيرا ويكيفونها حسب أغراضهم؛ صنعتها البيئة التي يعيشونها، وأصبح للشعراء تقاليد يسيرون عليها في تعبيرهم عن صورة المطر.

وقد وجدت أن الشعراء الهذليين قد طوروا في صورة المطر، وذلك بما أوتوا من مقدرة شعرية، وسأذكر بعض الشواهد على ذلك.

وبعد أن نظرت في صورة المطر عند الشعراء غير الهذليين؛ وجدت أن ذكر البرق والمطر ورد عند امرئ القيس الذي يعد إمام الشعراء ، وهو الذي تفتقت على يده المعاني ، واقتفى أثره من جاء بعده منهم ، ولقد قال عنه ابن قتيبة : " وذكره عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: سابق الشعراء خسف لهم عين الشعر"[(١)]، فيقول مشبها وميض البرق بلمع اليدين:

أحـــارِ تـــرى برقـــاً كـــأنَّ وَمِيضَـــهُ كَلَمْـــعِ اليَـــدَينِ في حَـــبِيٍّ مُكَلَّـــلِ[(٢)]

فلما جاء صخر الغَيّ الهذلي حاول أن يطور هذه الصورة، فطورها بأن جعل الوميض لمعاً، وشبهه بلمع البشير الذي يقلب بكفه ثوبا يشير به، ليبشر الناس بأمر سار، يقول:

أَرِقْـــتُ لـــهُ مثـــلَ لَمْـــعِ البشـــيرِ يُقَلِّـــبُ بالكـــفِّ فَرْضـــاً خفيفـــا[(٣)]

ويقول امرؤ القيس واصفا سيلا عظيما أغرق السباع وحملها معه:

كـــأنَّ ســـباعا فيـــه غرقـــى غُدَيَّـــةً بأرجائـهِ القُصـوى أنابـيشُ عُنصُـلِ[(٤)]

وقد أنزل الوعول من الجبال بسب شدة المطر، يقول:

وألقـــى بِبُســـيانٍ مـــع الليـــل بَرْكَـــهُ فـأنزل منـه العصـمَ مـن كـلِّ مَنْـزِلِ[(٥)]

فقد قضى السيل على الشر (السباع)، والعُصم أنزلها من مأمنها، ولكنه لم يقضِ عليها.

---

(١) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف – القاهرة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، ج١، ص١٢٧

(٢) ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف- القاهرة، ط٥، (د.ت)، ص٢٤، الوميض: لمع البرق. وقوله: "كلمع اليدين"، شبه انتشار البرق وتشعبه بحركة اليدين وتقليبهما، والحبي: ما حبا من السحاب، أي ما عرض لك وارتفع. والمكلل: الذي في جوانب السماء كالإكليل؛ ويقال: هو الذي بعضه على بعض.

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص٢٩٥، أرقت له: سهرت له. الفرض: قال الأصمعي عن بعض أعراب هذيل: ثوب.

(٤) ديوان امرئ القيس، ص٢٦، العنصل: نبت بري يشبه البصل

(٥) المصدر السابق، نفس الصفحة، البرك: الصدر

ثم يأتي أبو صخر الهذلي واصفا السيل في صورة من صورة، يقول:

يـــدعُ الأفـــاعي ودقُـــهُ قِطعـــاً صـــرعى ويُنـــزِلُ آمـــن العُصْـــمِ

ويتُـــــلُّ بالعُمْـــــريِّ رَيِّقُـــــهُ تـــلَّ الفنيـــقِ الشَّـــوْلِ إذ يَحمـــي[1]

فجعل السيل يقضي علي الشر أيضاً، ولكنه لم يذكر السباع، وإنما عدل عنها إلى الأفاعي، فهو لم يقتلها فقط، وإنما جعلها قِطعاً، فالسيل قد وصل إلى جحورها فدخلها واستخرجها بقوته وحملها، وأغرقها بغزارة مائه. وقوة تلاطُمِ السيل جعلت الأفاعي تصبح قِطَعاً.

وكذلك وصل إلى مأمن العصم فأنزلها، ثم انتزع الشجر المعمر وتله تلاً كتلّ الفنيق، وهو الفحل من الإبل.

ويقول امرؤ القيس يصف السيل الذي استأصل نخل تيماء:

وتيمـــاء لم يـــترك بهـــا جـــذع نخلـــة ولا أُطُمـــاً إلا مَشِـــيدا بجَنْـــدلِ[2]

ولكن ساعدة بن جؤية ذكر أن السيل قد استأصل الشجر المعمر العظام، وحمله معه، حتى أن الرائي يراه طافيا، ولم يجعل السيل يقتصر على نوع واحد من الشجر؛ بل انتزع السدر وحمل معه الأثل والدوم، وهي أشجار كبيرة معمرة، ولم تكن من مكان واحد، بل من أودية تهامية متفرقة متباعدة، مما يدل على اتساع المطر، وأنه عمَّ أماكن عدة، واجتاح كبار شجرها، يقول[3]:

فالســـدر مُخـــتَلَجٌ وأنـــزِل طافيـــاً مـــا بـــين عـــينَ إلى نبـــاةَ الأثأبُ[4]

والأثـــل مـــن ســـعيا وحَلْيـــةَ مُنْـــزَلٌ والـدومُ جـاء بـه الشـجونُ فَعُلَيَـبُ[5]

ويقول امرؤ القيس واصفا البرق، ويشبهه بنار المجوس:

أحـــارِ تـــرى بُرَيقـــا هـــبَّ وَهْنـــاً كنـــارِ مجـــوسَ تســـتعرُ اســـتِعارا[6]

ويقول أبو قلابة الهذلي مشبها البرق بالنار، ولكنها نار أكبر، وهي حريق غاب يابسة أشجاره:

يا بـــرق يَخْفِـــي للقتـــول كأنـــه غـــابٌ تشـــيمه حريـــق يُـــبَّسُ[7]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٧٣

(٢) ديوان امرئ القيس، ص٢٦، الأُطُم: البيت المسطّح.

(٣) تناولت الأبيات في المبحث السابق، ص٢٦

(٤) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٠٤، مختلج: مُنْتَزَع، يقلعه السيل، الأثْأَب: نَبْتٌ، وهو المِنْزل طافياً، أي وأُنْزِل الأثأب طافياً، عين ونبْأة، بَلَدان.

(٥) المصدر السابق، سعيا وحَلْيَة، بلدان، الشجون: شعاب تكون في الحِرار والغِلَظ، عُلْيَب: موضع.

(٦) ديوان امرئ القيس، ١٤٧

(٥) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٧١٥، يخفى: يظهر، تشيمه: دخله

ويأرق عدي بن زيد العبادي لنظر السحاب المتراكم، ويشبه بروقه بالسيوف:

أرقـــــت لمكفهـــــــر بات فيـــــه   بـــــوارق يـــــرتقين رؤوس شـــــيب

تلـــــــــوح المشـــــــــرفية في ذراه   ويجلـــو صـــفح دَخْـــدارٍ قشـــيب

ويقول أبو صخر الهذلي:

كـــأن ســـيوف الهنـــد تخفـــض تارة   وترفـــع بـــين العســـكر المتقـــارب

فقد جعل السماء ساحة حرب بين جيشين ملتحمين، ولا تُرى إلا السيوف ترتفع تارة وتنخفض تارة أخرى[١].

ويقول امرؤ القيس:

كـــأن الـــمُدامَ وصـــوبَ الغمـــامِ   وَرِيـــحَ الخُزَامَـــى وَنَشْـــرَ القُطُـــرْ

يَعُـــــلُّ بِـــــهِ بَـــــرْدُ أنْيَابِهَـــــا   إذَا طَـــرّبَ الطّـــائِرُ الـــمُسْتَحِرْ[٢]

فهو يجعل ريق محبوبته مُداماً ومطراً ورائحة خزامى، ولكن أبا ذؤيب يجعل ريق محبوبته أطيب من الخمر المعتقة الصافية الغالية، وأطيب من ماء المطر الذي هبت عليه ريح باردة[٣]:

ومـــا إنْ فضـــلةٌ مـــن أذرِعـــات   كعـــين الـــديك أحْصَـــنَها الصُّـــرُوح[٤]

مُصـــــفَّقةٌ مُصَـــــفَّاةٌ عُقـــــارٌ   شـــــآمية إذا جليـــــت مَـــــرُوح[٥]

إذا فضـــــت خواتمهـــــا وفُكَّـــــت   يقـــــال لهـــــا دم الـــــوَدَجِ الـــــذبيح

ولا مُتَحَـــــيِّرٌ باتـــــت عليـــــه   ببلقعـــــة يمانيـــــة نفـــــوح[٦]

خـــلافَ مَصَـــابِ بارقـــةٍ هَطُـــول   مُخَـــالِطُ مائهـــا خصـــر وريـــح

بأطيـــبَ مـــن مُقَبَّلِهـــا إذا مـــا   دنا العيـــوق واكتـــتم النُّبُـــوح

وكذلك يصف أبو ذؤيب محبوبته ويجعل فاها أطيب من العسل المصفى البعيد المنال الممزوج بأطيب المياه، ويسهب في وصف العسل وصعوبة الوصول إليه ثم يصف الماء بالبرودة والعذوبة، يقول[٧]:

---

(١) يُنظر "المطر في الشعر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي"، سلامة السويدي، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٩١م، من منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، جامعة قطر – الدوحة، ٢٠٠١م، ص ٨١

(٢) ديوان امرئ القيس، ص ١٥٧– ١٥٨

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٧١– ١٧٢

(٤) المصدر السابق، نفس الصفحة، فضلة: يعني الخمر، الصروح: القصور.

(٥) السابق، مصفقة: تحول من إناء إلى آخر، عُقار: لازمت العقل والدن، مروح: لها سورة في الرأس، ويمرح من يشربها.

(٦) السابق، متحير: ماء قد تحير من كثرته، فليست له جهة يمضي فيها.

(٧) السابق، ج١، ص١٤٢

ومـــا ضَـــرَبٌ بيضـــاءَ يأوي مليكُهـــا إلى طُنُـــــفٍ أعْيَـــا بِـــــراقٍ وَنازِلِ[1]

تُهَـــالُ العُقَـــابُ أنْ تَمُـــرَّ بِرَيْـــدِهِ وتَرْمِـــــي دُرُوءٌ دُونَـــــهُ بالأجـــــادِلِ

تَنَمَّـــى بِهـــا اليَعْســـوبُ حـــتى أَقَرَّهَـــا إلى مَـــأْلَفٍ رَحْـــبِ المَبَـــاءَةِ عَاسِـــلِ

فلـــو كـــان حبـــلٌ مـــن ثمـــانينَ قامـــةً وتِســـــعينَ باعـــاً نالَهـــا بالأنامِـــــلِ

تَـــــدَلَّى عليهـــــا بالحِبَــــالِ مُوَثَّقـــاً شَـــدِيدُ الوَصـــاةِ نابِـــلٍ وَابْـــنُ نابِـــلِ

إذا لَسَـــعَتْهُ النَّحْـــلُ لَمْ يَـــرْجُ لَسْـــعَهَا وَخَالَفَهَـــا في بيـــتِ نُـــوبٍ عَوامِـــلِ

فَحَـــطَّ عَلَيْهَـــا والضُّـــلوعُ كأنها مـــن الخـــوفِ أمثـــالُ الســـهامِ النواصِـــلِ

فَشَـــرَّجَهَا مِـــنْ نُطْفَـــةٍ رَجَبِيَّـــةٍ سُلاسِـلَةٍ مِـنْ مـاءِ لِصْـبٍ سُلاسِـلِ[2]

بمـــاءِ شُـــنانٍ زَعْزَعَـــتْ مَتْنَـــهُ الصَّـــبَا وجـــادَتْ عَلَيْـــهِ دِيمَـــةٌ بَعْـــدَ وَابِـــلِ[3]

بِأَطْيَـــبَ مِـــنْ فِيهَـــا إذا جِئْـــتُ طارِقـــاً وَأَشْـــهَى إذا نامَـــتْ كِـــلابُ الأسَـــافِلِ

ويؤكد طرفة بن العبد في تصويره للرعد معنى الفقد الذي يؤدي بالتالي إلى شدة الحنين، من خلال تشبيه صوت الرعد بصوت الإبل العوذ، التي ضلت عنها رباعها فهي تحن إليها، وخص العوذ لأنها أوله على أولادها لحدثان نتاجها:

كـــأن الخـــلايا فيـــه ضـــلت رباعهـــا وعـــوذا إذا مـــا هـــزة رعـــده احتفـــل

ويحول أبو ذؤيب الهذلي صوت الرعد إلى هدير فحل هائل يقود إناثه وهي تتبعه في طواعية وانقياد، وهو منتبه لها يرعاها ويحميها ولا يشغله عنها شاغل:

يجـــش رعـــدا كهـــدر الفحـــل تتبعـــه أُدْمٌ تَعَطَّـــفُ حـــول الفحـــل ضَحْضَـــاحُ

فهـــن صـــعر إلى هـــدر الفنيـــق ولم يجفـــر ولم يســـله عـــنهن إلقـــاح[4]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٤٢، استضرب العسل: اشتد بياضه

(٢) المصدر السابق، شرجها: مزجها وخلطها، نطفة رجبية: ماء أصابهم في رجب، وكان رجب يكون في الشتاء، سلاسلة: سهلة سريعة الدخول في الحلق، اللصب: الشق في الجبل، سلاسل: عذب بارد

(٣) السابق، شُنان: الماء البارد الذي يسيل في الجبل، زعزعت متنه: حركت أعلاه، الديمة: المطر الدائم، الوابل: المطر الشديد الوقع، العظيم القدر

(٤) يُنظر "المطر في الشعر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي"، سلامة السويدي، ص ٨٦

مصادر صورة المطر عند الهذليين:

تعددت المصادر التي استقى منها الهذليون صورة المطر، فبعضها استُمِدَّ من الإنسان، ومنها ما استمد من الحيوانات التي عرفوها في بيئتهم سواء الأليفة التي تعيش معهم أو الحيوانات المتوحشة.

وكذلك استمدوا الصورة من بيئتهم ومن بعض الأدوات التي استخدموها في حياتهم اليومية.

أولا: الصور التي مصدرها الإنسان:

سأتحدث في هذا المبحث عن الصور التي يعود مصدرها للإنسان، ويشمل ذلك حالات الإنسان وما يفعله في حياته أو صفاته التي عُرِف بها.

ومن ذلك تشبيه أبي ذؤيب الهذلي للوعول أثناء تجنبها وابتعادها عن المكان اللين السهل لكي لا تقع في السيل، بالرجل المتاح الحذر الذي يبتعد عن الغرب الثقيل لكي لا يقع في البئر إذا غلبه ثقل الغرب:

لـــولا تنكُّـــبُهُنَّ الوعـــثَ دمرَهـــا   كمـــا تنكَّـــبَ غَـــرْبَ البئـــرِ مَتَّـــاحُ[1]

ويشبه أبو ذؤيب البرق بالرجل البشير الذي يليح بثوبه أو سيفه:

رأيـــتُ وأهلـــي بـــوادي الرَّجِيـــ   ـــعِ في أرض قَبْلَـــةَ برقـــا مُلِيحـــا[2]

ويشبه أبو ذؤيب الظباء وهي طافية على السيل بخواصر النساء عليها الودع:

كـــأن الظبـــاء كشـــوحُ النســـا   ءِ يطفـــون فـــوقَ ذُراهُ جُنُوحـــا[3]

ويشبه صخر الغي صوت الرعد بصوت الرجل الجهوري الذي في صوته بحة:

أجـــشَّ رِبَحْـــلاً لـــه هَيْـــدبٌ   يُكَشِّـــفُ للخَـــالِ رَيْطـــاً كَشِـــيفا[4]

ويشبه البرق في لمعانه بالرجل البشير الذي يومئ بثوبه ليبشر الناس:

أرقـــتُ لـــهُ مثـــلَ لَمْـــعِ البشـــيرِ   يُقَلِّـــبُ بالكـــفِّ فَرْضـــاً خفيفـــا[5]

ويشبه توالي المطر بالنصارى الذين يسقون في عيدهم رجلا من غيرهم فيحتشدون ولهم ضجة:

كـــأنَّ تَوَالِيَـــهُ بالـــمَلا   نصـــارى يُسَـــاقَوْنَ لاقَـــوْا حَنِيفـــا[6]

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٦٨

(٢) المصدر السابق، ج١، ص١٩٧

(٣) السابق، ج١، ص٢٠٠

(٤) السابق، ج١، ص٢٩٤

(٥) السابق، ج١، ص٢٩٥

(٦) السابق، ج١، ص٢٩٧

ويشبه قيس بن العيزارة السحاب في هطوله بالرجل الكريم الذي يجود بماله لينفع الناس:

سـقى الله ذات الغمـر وبـلا وديمـة وجـادت عليـه البارقـات اللوامـع[١]

وكذلك يشبه قيس بن عَيْزارة السحائب بالرجل الكريم، ويصفها بالجود، فهي كريمة تروي الكرام:

فَسَـقى الغَـوادي بَطـنَ مَكّـةَ كُلَّهـا وَرَسَـت بِـهِ كُـلَّ النَهـارِ تَجـودُ

تُـروي الكـرامَ بـهِ وتُـروي صـاحبي وأخـي جَـديرٌ بالكِـرامِ سـعيدُ[٢]

ويشبه البريق الخناعي تدارك صوت الرعد بالرجل المرتجز:

بمرتجـزٍ كـأن علـى ذُراهُ ركـابَ الشـأْمِ يحملـن البُهـارا[٣]

وكذلك أبو صخر الهذلي، يشبه الرعد بالرجل المرتجز:

يَتْلـونَ مرتجـزا لـه نَحَـمٌ جَـوْناً تَحَيَّـرَ برقُـهُ يَسْـمي[٤]

ويشبه أبو صخر الهذلي تقارب السحاب بتقارب جيشين:

كـأن سـيوفَ الهنـدِ تُخْفَـضُ تارةً وتُرفَـعُ بـين العسـكرِ المتقـاربِ[٥]

ويرى أبو صخر السحاب يمطر كثيرا على الحِرار، وهي جمع حرة، فيشبهها بالرجل الذي يهيب بإبله ويدعوها إليه:

فلمـا عـلا سُـودَ البِصَـاقِ كِفَافُـهُ تُهِيـبُ الـذُّرَى مِنْـهُ بِـدُهْمٍ مَقَـارِبِ[٦]

ويشبه أبو صخر السحاب بالرجل السخي صاحب العطاء :

وَتَهْـدِي رَوَايا سَـيْبِهِ وَسِـجَالهِ لـداوود والـرحمنُ جَـمُّ المواهِـبِ[٧]

والسيب، هو العطاء[٨].

ويشبه الرياح الذي تهب قبل المطر بالذي يبشر بالخير:

بكـرَت عليـك لهـا مبشـرةٌ رَيّاً تُخَضِّـرُ بالي الهِهـدم[٩]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٥٩٢
(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٥٩٨
(٣) السابق، ج٢، ص٧٤٢
(٤) السابق، ج٢، ص٩٧٢
(٥) السابق، ج٢، ص٩١٩
(٦) السابق، ج٢، ص٩٢٠
(٧) السابق، ج٢، ص٩٢٣
(٨) لسان العرب، (سيب)، ج٧، ص٣١٤
(٩) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٧٢

ويشبه أبو كبير الهذلي أصوات البعوض بعد المطر بالركب المترنمين:

وَكَـــأَنَّ أَصـــواتَ الخَمُـــوشِ بِجَـــوِّهِ   أَصـــواتُ رَكْـــبٍ في مَـــلاً مُتَـــرَنِّمِ[1]

ويشبه ساعدة بن جؤية السحاب المتراكب عندما حل بنعمان بعد رحلة طويلة بالركب الذين يحلون بمكان فيضربون بأنفسهم للنزول، من شدة وعثاء السفر:

لمـــا رأى نعمـــان حـــل بِكِرْفِـــئٍ   عَكَـــرٍ كمـــا لـــبج النُّـــزولَ الأركـــبُ[2]

ويشبه ساعدة بن جؤية أشجار الطلح والسدر التي أسقطها السيل بالقوم الصرعى بعد معركة:

فرَحْـــبٌ فـــأعلامُ الفُـــرُوطِ فكـــافِرٌ   فنخلـــةُ تَلَّـــى طلْحُهـــا وسُـــدُورُها[3]

ويشبه أبو ذؤيب أصوات الضفادع بعد أن رويت بالقيان المغنيات إذا رجعن في أصواتهن:

ضَـــفادِعُهُ غَرْقَـــى رِواءٌ كأنَّهـــا   قِيـــانُ شُـــروبٍ رَجْعُهُـــنّ نَشِـــيجُ[4]

وقد يجعل الهذليون المطر مصدرا من مصادر صورة المرأة، يقول مُلَيْح الهذلي مشبِّهاً النساء بالغَمَام:

وأبصـــرتُهم حـــتى إذا مـــا تقاذفـــت   صُـــهابيةٌ تَغْطـــي مِـــراراً وتُعْـــنَجُ

بمثـــل الغمـــام المسْـــتَهِلّ تُكِنُّـــهُ   هـــوادجُ منهـــا كـــل سَـــجْفٍ مُشَـــرَّجُ[5]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١٠٩٢

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص١١٠٤

(٣) السابق، ج٣،ص ١١٧٧، تَلَّى: صرعى

(٤) السابق، ج١، ١٣٢

(٥) السابق، ج٣، ص١٠٣٣- ١٠٣٤، تَغْطي: تذهب في سيرها، تُعْنَجُ: تُكَفُّ

ثانيا: الصور التي مصدرها الحيوان:

إن للحيوان دوراً مهماً في حياة الشعراء الهذليين، ولذلك يبرز أثره في إذكاء صورة المطر بالصور المتعددة المتنوعة، وأكثر الصور مستمدة من الإبل لأنها خير أموالهم وتتعدد منافعها، ولها حيز كبير في حياة الشاعر الهذلي ونفسه.

يقول أبو ذؤيب الهذلي مشبها السحاب حينما استقر بين جبلي تضارع وشامة ببرك من إبل قبيلة جذام:

كــأنَّ ثِقَــالَ المـزنِ بـين تُضَـارِعٍ وشَــابَةَ بَـرْكٌ مـن جُـذَامَ لَبِـيجُ[1]

ويشبه أبو ذؤيب صوت الرعد بهدر الفحل تتبعه الإبل:

يَجُــشُّ رعــداً كَهَــدْرِ الفحــل تتبعــه أُدْمٌ تَعَطَّـفُ حـولَ الفحـلِ ضَحْضَـاحُ[2]

ويشبه أبو ذؤيب لون السحاب بالإبل الدهم:

أمنــك الــبرق أومــض ثم هاجــا فبــت إخالــه دُهمــاً خلاجــا[3]

ويشبه السحاب بالإبل الدهم الحوامل التي ألبست البردعة والأعدال:

يضــــيءُ رَباباً كــــدُهم المخَــــاضِ جُلِّلْــنَ فــوقَ الــوَلايا الوَلِيحــا[4]

ويشبه التقاء السحاب بالسحاب بالإبل الصعبة التي أتت أرض قوم، فقابلت إبلهم، فهدرت هذه وهدرت هذه:

كــــأنَّ مَصــــاعيبَ زُبَّ الــــرؤوسِ في دارِ صِــرْمٍ تَلاقَــى مُرِيحــا[5]

وبعد أن مكث المطر ثلاث ليال، استجال السحاب المتراكم، وبقي صغار السحاب فتدانى وتقارب، ويشبه أبو ذؤيب السحاب الصغار بالطفل، والطفل هو "الصغير من كل شيء"[6]، ولعله هنا أراد صغار الإبل لأن حديثه كان عن تشبيه السحاب الكبار بالإبل:

ثــــلاثا فلمــــا اسْــــتُجِيلَ الــــرَّبابُ واســتَجْمَعَ الطِّفْـلُ فيـهِ رُشُـوحَا[7]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٣٣، البَرْك: إبل الحي كلهم. اللبيج: المضروب بالأرض.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص١٦٧

(٣) السابق، ج١، ص١٧٧، خلاجا: إبل.

(٤) السابق، ج١، ص١٩٧

(٥) السابق، ج١، ص١٩٨، المصاعيب: الإبل التي لا يُحمل عليها، زُبُّ الرؤوس: كثيرة شعر الرؤوس.

(٦) لسان العرب، ج٩، ص١٢٦، " وقول أبي ذؤيب:

ثــــلاثا فلمــــا اسْــــتُجِيلَ الــــرَّبابُ واســــتَجْمَعَ الطِّفْــــلُ فيــــهِ رُشُــــوحَا

عني بالطفل السحاب الصغار أي جمعتها الريح وضمتها، واستعار لها الرشوح حين جعلها طِفلاً.

(٧) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٩٩

ويشبه صخر الغي السحاب في بطء حركته بالبعير المقيد:

وأقبـــــلَ مَـــــرّاً إلى مِجْـــــدَلٍ سِـــياقَ المقيــد يمشـــي رَسِـــيفا[١]

وبعد أن أمطر المطر وانقشع عن جبل السِّطاع، شبه صخر الغي الجبل بالجمل ذا المطلي الذي نُتِف:

فــذاك السِّــطاعُ خِــلافَ النِّجَــا ءِ تحســـبُهُ ذا طِـــلاءٍ نَتِيفـــا[٢]

ويشبه أمية ابن عائذ السحاب الممتد المرتفع المشرف بسنام البعير، وكذلك له صدر كصدر البعير:

وكـــلُّ حَـــبِيٍّ ذي رديـــف لعَرْضِـــهِ ســـنامٌ وهـــادٍ مُتْلَئِـــبٌّ وكَلْكَـــلُ[٣]

ويشبه ما نسل من السحاب بالنعام:

عليـــه نســـيل مـــن جهـــام كأنـــه نعـــامٌ بأجـــوازٍ مـــن الرمـــل مُجْفِـــلُ[٤]

ويشبه صوت الرعد بزئير الأسد:

وأعقـــبَ تَلْماعـــاً بـــزأرٍ كأنـــهُ تهـــدُّمُ طَـــوْدٍ صـــخره يتكلـــل[٥]

ويشبه السحاب والرعد بالإبل اللواقح التي يقودها فحل عظيم ذو صوت جهوري به بحة:

مُنِيـــفٌ مســـانيفُ الـــرَّبابِ أمامـــهُ لـــواقِحُ يحبوهـــا أجَـــشُّ مُجَلْجِـــلُ[٦]

ويشبه أبو صخر السحاب الأبيض والرعد بالقلاص مع فحل يتغذم بزبده ويلقيه من فيه:

يَزْهَـــى الـــرَّبابَ إذا يجـــيشُ كمـــا يزهَـــى القِـــلاصَ تغـــذُّمُ القـــرْمِ[٧]

ويصف ساعدة بن جؤية مطرا سار مسافة طويلة من بطن الليث إلى جبل شمنصير في ليلة، وقد شبهه بالبعير الذي يسير الليل كله عدوا متداركا سريعا:

فأســـأد الليـــلَ إرقاصـــاً وزفزفـــةً وغـــارةً ووســـيجاً غملجـــاً رَتِجـــا[٨]

ويشبه أبو صخر السحاب بالإبل التي يُمسح عليها فتدرّ حليباً كثيراً:

تحـــوزُ منـــاتيحَ الغمـــامِ وتمـــتري مطافيلَ لم يُنْـدِب بها صَـرُّ حالـبِ[٩]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ٢٩٦

(٢) المصدر السابق، ج١، ٢٩٧، النجاء: السحاب

(٣) السابق، ج٢، ٥٣٣

(٤) السابق، نفس الصفحة

(٥) السابق، ج٢، ص٥٣٣

(٦) السابق، نفس الصفحة

(٧) السابق، ج٢، ص٩٧٢

(٨) السابق، ج٣، ص١١٧٤، الإسآد: سير الليل، الزفزفة: صوت مَرِّه وحفيفه، الغارة: العدو، الغَمْلَج: العدو المتدارك، الرَّتِج: هو نفسه مسرعٌ.

(٩) السابق، ج٢، ص٩١٩، تمتري: تمسح، يُنْدِب: يؤثِّر

ويشبه صوت السيل بلجة الإبل الكثيرة على منهل:

أَلَحَّ رجيفـــاً يُهْــرِبُ الـــوحشَ حِسُّـــهُ   كلَجَّـــةِ حَـــوْمِ المنهـــل المتجـــاوِبِ[1]

ويشبه أبو صخر صوت الرعد بالنحيم، وهو صوت الفهد ونحوه من السباع:

يَتْلـــــونَ مرتجـــــزا لــــــه نَحَـــــمٌ   جَـــوْناً تَحَيَّـــرَ برقُـــهُ يَسْـــمي[2]

ويشبه السيل الذي صرع الشجر المعمر بالفحل المكرم من الإبل الذي يتل النوق:

ويتُـــــــلُّ بالعُمْـــــــريِّ رَيِّقُـــــهُ   تـــلَّ الفنيـــقِ الشَّـــوْلِ إذ يَحمـــي[3]

ويشبه مليح الهذلي لمعان البرق بِخَفَقَان جناح الطائر:

تـــراه كَتَخْفَـــاقِ الجَنَـــاحِ ودونـــهُ   مـــن النِّـيرِ أو جَنْـبَيْ ضَـرِيَّةَ مَنْكِـبُ[4]

ويشبه السحاب الغزير الماء بالإبل المطافيل:

فراقبتـــه حـــتى تيـــامن واحتـــوت   مطافيـــلَ منـــه حُـــرَّياتٌ فـــأغرُبُ[5]

ويشبه ساعدة بن جوية صوت الرعد بِهَدْرِ الفحل المكرم من الإبل:

لمـــا رأى عَمْقـــاً ورجَّـــع عَرْضُـــهُ   رعـــداً كمـــا هـــدر الفنيـــقُ المِصْـعَبُ[6]

ويرى ساعدة بن جؤية البرق يصدع السحاب فيشبه السحاب بالإبل الرمك، وهو لون من ألوان الإبل، وهذه الإبل استطار منها عقيرها، والعقير، هو الذي عقر من الخيل، فهو يتحامل، مرة يرتفع ومرة يسقط:

ومنـــك هـــدوَّ الليـــل بـــرق فهـــاجني   يصـــدِّع رُمكـــاً مســـتطيراً عقيرعـــا[7]

ويشبه البريق الخناعي السحاب المحمل بالماء بالإبل القادمة من الشام وهي تحمل البضائع:

بمرتجِـــــزٍ كـــــأن علــــى ذُراهُ   رِكـــابُ الشـــامِ يحملـــن البُهـــارا[8]

وهنا، صورة جاءت على عكس ما تقدم؛ حيث شبه مُلَيْح الهذلي هدير فحول الإبل برجيف المرن،

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٢١، رجيف: في صوته،" رَجَفَ يَرْجُف"، المنهل: حيث وردت، تسمع لها أصواتاً، حوم: إبل كثيرة.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٩٧٢

(٣) السابق، ج٢، ص٩٧٣

(٤) السابق، ج٣، ص١٠٥٠

(٥) السابق، ج٣، ص١٠٥١، احْتوَت: أخذت ماءها، مطافيل: سحاب كبار معه صغار، ومطافيل غزيرة فيها ماء كالمطافيل من الإبل، حُرَّيات: بلد.

(٦) السابق، ج٣، ص١١٠٤

(٧) السابق، ج٣، ص١١٧٦

(٨) السابق، ج٢، ص٧٤٢، مرتجز: يرعد، ذراه: أعلاه. البُهار: جاء في لسان العرب، (بهر)، ج٢، ص١٦٦ "البُهار عربي صحيح وهو ما يحمل على البعير بلغة أَهل الشأْم"

ويعني برجيف المزن، الرعد، يقول:

كـــــأنَّ صـــــريفهنَّ إذا تســـــامت   مـــــــذاكيها ولجَّ بهــــــا الهــــــديرُ

رَجيـــــفُ المِـــــزْنِ بـــــين مُسَـــــدَّماتٍ   يَشُـــــبُّ صَـــــرِيفَهُنَّ شَـــــباً ذُكُـــــورُ[1]

وكذا تشبيه الثور بالبرق في سرعته، كقول أمية بن أبي عائذ:

رَمَـــى بالجَرَاميـــزِ عُـــرْضَ الـــوَجِينِ   وارْمَـــدَّ في الجـــري بعْـــدَ انتقـــالِ

بِشـــأْوٍ لـــه كضـــريمِ الحريـــقِ   أو شِـــقَّةِ الـــبرقِ عُـــرْضِ خـــالِ[2]

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١٠٠٧

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٥١٠

ثالثا: المصادر التي لها صلة وثيقة بالإنسان، كالبيئة والأدوات وآلات الحضارة:

استمد الشاعر الهذلي بعض صور المطر من بيئته، كجبالها ومياهها، وكذلك استمد الصورة من بعض الأشياء التي يتعامل معها في تلك البيئة، كالآلات البسيطة التي كان يستخدمها، ولكن رغم بساطة تلك الآلات إلا أنه جعل منها مادة تشكل صورة في غاية الجمال والإتقان.

يقول أبو ذؤيب مشبها البرق بالمصباح:

أمنـــكِ بـــرقٌ أبيـــتُ الليـــلَ أرقُبُـــهُ　　　كأنَّـهُ في عِـراضِ الشـأْمِ مِصْـباحُ[١]

ويشبه تكشف البرق بمصباح اليهود:

يُضِـــيءُ سَـــنَاهُ رَاتِـــقٌ مُتَكَشِّـــفٌ　　　أَغَـرُّ كَمِصـبْاحِ اليَهُـودِ دَلُـوجُ[٢]

ويشبه البرق بالمخاريق، "واحدها مِخْراق: ما تلعب به الصبيان من الخِرَقِ المِفْتُولة"[٣]:

أرِقْـــتُ لَـــهُ ذَاتَ العِشَـــاءِ كَأَنَّـــهُ　　　مَخَـارِيقُ يُـدْعَى تَحْـتَهُنَّ خـرِيجُ[٤]

ويشبه أبو ذؤيب النبات الذي غطى الأرض بالطَّيْلَسَان:

فمــا أصــحى انقــلاعُ المــاءِ حــتى　　　كــأنَّ علــى نــواحي الأرضِ ســاجا[٥]

ويشبه صخر الغي السحب التي تدفعها الرياح في السماء الزرقاء بالسفن التي تسير في البحر وهي محملة بالبضائع:

كـــأنَّ تواليَـــهُ بالـــمَلا　　　ســفائنُ أعجــمَ مَــايَحْنَ رِيفــا[٦]

ويشبه أمية بن أبي عائذ صورة الرعد مع البرق بصورة تَهَدُّمِ جبل عظيم:

وأعقـــبَ تَلْماعـــاً بـــزأرٍ كأنـــهُ　　　تهـدُّمُ طَـوْدٍ صـخره يتكلـل[٧]

ويشبه أمية بن أبي عائذ السحاب المتدلي بالثوب، ثم شبه انصباب الماء من السحاب بانصباب الماء من المزادة كثيرة الماء:

وزمـــزم في ذي هيـــدب لِسَـــحيله　　　سِـجال كمـا انسـح الـمَزاد المجـزلُ[٨]

ويشبه المطر بالأنهار، ويشبه صوت الرعد بالتشقق:

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٦٧

(٢) المصدر السابق، ج١، ص١٢٩، الراتق: المنضَمُّ من السحاب. دَلوج: يَدْلِج بالماء، والدالج، الذي يدلج بالدلو من البئر إلى الحوض.

(٣) لسان العرب، (خرق)، ج٥، ص٥٥

(٤) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٣٠، مخاريق: مخاريق الصبيان التي يلعبون بها.

(٥) المصدر السابق، ج١، ص١٧٨

(٦) السابق، ج١، ٢٩٥

(٧) السابق، ج٢، ص٥٣٣

(٨) السابق، ج٢، ص٥٣٤

تَــــرَوَّى بأنهــــار الســـــماءِ وَأَرْزَمَــــتْ سحاب لـــه بالرعـــد هَـــزِمٌ وأزْمَـــلُ[١]

ويشبه أبو صخر السحاب الممتلئ بالماء بجوانب جبل عروان:

فـــألحقنَ محبوكـــاً كـــأن نَشاصَـــه مناكِـبُ مـن عَـروانَ بِـيضُ الأهاضِـبِ[٢]

ويشبه قيس بن العيزارة طيب النبت بالعود والمسك والعنبر:

كـــأنَّ يَلَنْجُوجـــاً ومســـكا وعنـــبرا بأَشْـــرَافِهِ طَلَّـــتْ عليـــه المرَابِـــعُ[٣]

ويشبه أبو كبير السحاب المتدلي بِهُدْب القَطِيفةِ:

واهـــي العُـــروضِ إذا اســـتَطارَ بُروقُـــهُ ذاتَ العِشـــاءِ بِهَيـــدَبٍ مُتَهَـــزِّمِ[٤]

ويشبه المطر المتساقط من السحابة بالماء الذي ينضح من الدلاء الضخمة المملوءة بالماء من بئر غزيرة:

وَكَـــأَنَّ أَوشـــالَ الجَدِيَّـــةِ وَســـطَها سَـرَفُ الـدِلاءِ مِـنَ القَليـبِ الخِضـرِمِ

مُتَبَهِّـــراتٍ بِالسِـــجالِ مِلاؤُهـــا يَخـرُجنَ مِـن لَجَـفٍ لَهـا مُـتَلَقِّمِ[٥]

ويشبه ساعدة بن جؤية وميض البرق باحتراق الغاب:

أفعنـــك لا بـــرقٌ كـــأن وميضـــه غـــاب تشـــيمه ضِـــرامٌ مُثقـــب[٦]

ويشبه أبو صخر السحاب بالجرار المملوءة بالماء وأريق ماؤها:

وحُلَّـــت عُـــراهُ بـــين نَقْـــرى وَمُنْشِـــدٍ وبُعِّـــجَ كُلْـــفُ الحنـــتمِ المتراكِـــب[٧]

ويشبه عطاء المطر بعطاء الدلو:

وَتَهْـــــدِي رَوَايا سَـــــيْبِهِ وَسِـــــجَالِهِ لـــداوود والـــرحمنُ جَـــمُّ المواهِـــبِ[٨]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٥٣٤

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٩١٩، المحبوك: الممتلئ من السحاب، عروان: جبل.

(٣) السابق، ج٢، ص٥٩٥، اليلنجوج: العود، المرابع: سحائب تمطر في الربيع، وهي الإبل التي تنتج أول النتاج

(٤) السابق، ج٣، ص١٠٩١، واهٍ: كأنما تشققت نواحيه بالماء، اِستَطارَ بُروقُهُ: أي انكشف، الهيدب: الذي يتدلى من السحاب كأنه هُدْبُ هُدْبُ قطيفة، متهزم: متشقق بالماء.

(٥) السابق، ج٣، ص١٠٩٣

(٦) السابق، ج٣، ص١١٠٣

(٧) السابق، ج٢، ص٩٢٢، نقرى: حرَّة، بُعِّج: شُقِّق، كُلْفٌ: سود، الحنتم: الجِرَار.

(٨) السابق، ج٢، ص٩٢٣

ويشبه المتنخل السحاب بالإناء الضخم الذي حلت عراه فانسكب منه ماء عظيم قد عم سهول الأرض وذات الموئل:

أســـدفُ منشـــقٌّ عـــراه فـــذو الــــ أدمــاثِ مــا كــان كــذي المؤْئــلِ[(١)]

ويشبه الحمير التي حملها السيل معه بالحنظل اليابس الذي يطفو على السيل:

للقُمْـــرِ مـــن كـــل فَـــلاً نالـــهُ غمغمـــةٌ يقْـــزعنَ كالحنظـــلِ[(٢)]

ثم يصف البقر وهي على الأماكن المرتفعة، وهي في منعة عن السيل وعن الوحل، فشبهها بالثياب البيض التي جلا لونها المطر:

فأصبح العين ركودا على الـــــــــ أوشـــازِ أن يرســـخنَ في المؤْحَـــلِ

كالسُّـــحُلِ البـــيضِ جـــلا لونَهـــا سَـــحُّ نِجَـــاءِ الحَمَـــلِ الأسْـــوَلِ[(٣)]

ويشبه أبو ذؤيب الجبل الذي تحدر منه الماء بالحصير:

تحدر من شاهق كالحصير كالحصــي ــرِ مُســتقبِلِ الــريحِ والفــيءِ قَــرْ[(٤)]

ويشبه ربيعة بن الكودن تألق البرق بمصابيح العجم عند قصر منيع مُغَلَّق:

أرقـــت لـــه ذات العشـــاء كأنـــه مصـابيحُ عُجْـمٍ عنـد صـرحٍ مُغَلَّـقِ[(٥)]

ويصف ربيعة بن الكودن مرقبة عالية بأن الجبان يخافها ولا يقربها، ثم يشبه السحاب بها بشقائق النساج:

فمرقبـــةٍ يا أم عمـــرو يخافهـــا الـــ جبـــانُ المـــدَنَّ ذات رَيْـــدٍ مُـــذَلَّقِ

يظـــل بهـــا غـــاوي الســـحابِ كأنـــهُ شـــقائقُ نســـاجٍ معـــاً لم تُفَـــرَّقِ[(٦)]

ويشبه أبو صخر السحابة التي أسقت الروضة بالدلو:

فمـــا روضـــةٌ بالحَـــزْمِ ظـــاهرةُ الثـــرى وَلَتْهـــا نِجـــاءُ الـــدلوِ بَعْـــدَ الأَبارِدِ[(٧)]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١٢٥٥

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص١٢٥٧

(٣) السابق، ج٣، ص١٢٥٨

(٤) السابق، ج١، ص١١٥

(٥) السابق، ج٢، ص٦٥٥

(٦) السابق، ج٢، ص٦٥٦

(٧) السابق، ج٢، ص٩٣٢

المطر مصدر من مصادر صورة الحرب أو الشر:

أَلِف العرب النزال ومقارعة الخصوم، حتى أصبح الواحد منهم يفضل أن يموت تحت ظلال السيوف على أن يموت على فراشه، وتفننوا في وصف الحرب وتصوير أحداثها، وقد جعل الشعراء الهذليون المطر مصدرا من مصادر صورة الحرب التي أَلِفوها، لأن المطر قد يكون للرحمة، وقد يكون عذابا مدمرا.

ومن ذلك قول خالد بن زهير حينما شبه غضبته بالسحابة:

فأقصِــرْ ولم تأخــذْكَ مــني ســحابةٌ   يُنَفِّــرُ شَــاءَ المِقْلِعِــينَ خَرِيرُهــا[(١)]

وقوله:

فأقصــر ولم تأخــذك مــني ســحابة   ينفــر شــاء المقلعــين خواتهــا[(٢)]

وقال أبو جندب:

وجــاءت للقتــال بنــو هــلالٍ   فَــدُرِّي يا سمــاءُ بغــير قطــرِ[(٣)]

وهو يهزأ بهم، يقول: لكم وعيد وقول، وليس لكم فعل، مثل السماء لها رعد وبرق بلا مطر[(٤)].

وتشبه جنوب أخت عمرو ذي الكلب الشر بالسحابة، فتقول في رثاء أخيها:

بينــا الفــتى ناعــمٌ راضٍ بعيشــتهِ   سِـيقَ لـهُ مـن نـوادي الشـرِّ شُـؤْبوبُ[(٥)]

ويشبه المعطل كثرة النبل بالصيب من المطر:

ضــممنا علــيهم جــانبيهم بصــائبٍ   مــن النبــل يغشــى فَــرَّهُم غَبَيَاتُهَــا[(٦)]

ويشبه عبد مناف بن ربع الجربي الجيش لكثرته بالسحاب الممتلئ ماءً، وفيه البَرَد:

مــن الأســى أهــلُ أَنْــفٍ يــومَ جــاءَهُمُ   جــيشُ الحِمــارِ فجــاؤوا عارِضــاً بَــرِدَا[(٧)]

ويصف أبو كبير الهذلي كَرَّةَ قومه على الأعداء بانصباب السحابة بالماء الغزير:

ولقــد شــهدت الحــيَّ بعــد رُقــادهم   تُفلــى جمــاجمهم بكــل مُقَلَّــل

حــتى رأيــتهمُ كــأن ســحابةً   صــابت علــيهم وّدْقُهَــا لم يُشْــمَلِ[(٨)]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ٢١٥، المقلعين: الذين أقلعت سماؤهم فليس لها مطر، الخرير: صوت الماء.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٢٢١، الخوات: صوت الشيء.

(٣) السابق، ج١، ص٣٦٩

(٤) السابق، ج١، ص٣٧٠

(٥) السابق، ج٢، ص٥٧٨، نوادي الدهر: أوائله، شؤبوب: سحابة، أي نفحة من شر.

(٦) السابق، ج٢،ص٦٣٥، ضممنا عليهم: أحطنا بجانبيهم، صائب: قاصد، فَرَّهم: فارّهم، الغَبْيَة: الدُّفْعَة من المطر الغزيرة.

(٧) السابق، ج٢، ص٦٧٣، أنف: بلد قُتلوا به يومئذٍ، جيش الحمار: كانو غَزَوا ومعهم حمار يحملون عليه زادهم، العارض: الجيش، شبهه لكثرته بالعارض من السحاب الممتلئ ماء، البَرِد: الذي فيه البَرَد.

(٨) السابق، ج٣، ص١٠٧٥

ويشبه أبو كبير النبل بالقَطْر:

وتعـــاوروا نـــبلاً كـــأن سَـــوَامَها نَفَيــانُ قَطْــرٍ في عَشِـــيٍّ مُـــردِفِ[1]

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١٠٨٧، سَوَامها: ما يَسوم منها، أي ما يُرْمى منها به، مُرْدِف: مُظْلِم.

الفصل الثاني

سياقات صور المطر عند الهذليين ومواقع صورة المطر في قصائدهم:

١- صورة المطر والطلل.

٢- صورة المطر والمرأة.

٣- صورة المطر والرثاء.

٤- صورة المطر والحرب.

٥- صورة المطر والمدح.

٦- صورة المطر وحيوان الوحش.

من الجوانب التي راعتها تعريفات البلاغة؛ جانب المقام (السياق) الذي يقال فيه الكلام، فيعرف الخطيب القزويني بلاغة الكلام بقوله: "هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته"[١]. فهو يركز على جانب السياق ويتواءم معه من ألفاظ مناسبة تقتضي وصول الرسالة تامة في جانب من الفصاحة لا تنبو عنها. وتنبع أهمية السياق من خلال الدور الذي يؤديه في فهم المعنى، ذلك أن الكلمة تكتسب مدلولها من السياق. والسياق هو الصورة الكلية التي تنتظم بداخلها الصور الجزئية، ولا يُفهم كل جزء إلا في موقعه من "الكل"، فالصورة الكلية تتكون من مجموعة كبيرة من النقاط الصغيرة أو المتشابهة أو المتباينة، التي تدخل كلها في تركيب الصورة[٢].

وصورة المطر تعد من الصور الجزئية في القصيدة الجاهلية، لأن الشاعر الجاهلي يعبر عن مراده بموضوعات عدة، وصور المطر لا تنبو عن المعنى العام للقصيدة، بل تأتي متوائمة مع سياقها، وعندما يدقق الباحث النظر في الأبيات وأسرارها يكتشف أن أبيات المطر لم تأتِ فضلة، وإنما وراءها أسرار.

يقول الأستاذ الدكتور دخيل الله الصحفي في معرض حديثه عن صورة المطر التي وردت في معلقة امرئ القيس وعلاقتها بالموضوعات التي دارت بالقصيدة: "وقد يكون حديثه في آخر القصيدة عن ذكر البرق والمطر والسيل رمزاً عن رغبته في تغيير الأوضاع وتصحيح الصورة التي يراها مختلة، فذكر السيل يشير إلى تغير أحوال الديار، وكأن الشاعر يشير بهذا إلى إحساسه بالظلم العميق الذي يعانيه في مجتمعه ورغبته في تغير وتبدد هذه الأحوال"[٣].

وقد تعددت السياقات التي وردت فيها صورة المطر عند الهذليين، وسوف أتحدث في هذا الفصل – بمشيئة الله– عن تلك السياقات التي وردت فيها.

---

(١) الإيضاح، الخطيب القزويني: جلال الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن سعد الدين أبي مُحَمَّد عبد الرحمن القزويني، المكتبة الفيصلية – مكة المكرمة، (د.ت)، ص ١١

(٢) ينظر "السياق في الدراسات البلاغية والأصولية دراسة تحليلية في ضوء نظرية السياق"، د. أسامة عبد العزيز جاب الله، جامعة كفر الشيخ، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، (د.ت)، ص ٣– ٦

(٣) بحث بعنوان "من المتشابه اللفظي في شعر امرئ القيس (دلالاته وسياقاته)، أ.د. دخيل الله مُحَمَّد الصحفي، جامعة أم القرى، (د.ت)، ص ٧٣٠

أولاً: صورة المطر والطلل

كان بعض العرب أهل ديار مقيمة، وكان بعضهم الآخر " أصحاب خيام: ينتقلون من موضع إلى آخر"[١]، وكانوا يتبعون أماكن المطر التي يتوفر فيها الماء والكلأ، وإذا ذهب موسم الأمطار شدوا رحالهم إلى ديار أخرى طلباً للماء والمرعى.

وكان الأعراب في نزولهم على المياه تجتمع منهم عدة أحياء على ماء واحد وفي منزل واحد، فتنشأ مع الأيام ألفة ومودة وصلات قربى، وبعد حين من الدهر يضطر النازلون في ذلك المكان إلى الافتراق والرحيل، فكان كل فريق منهم يرحل إلى جهة، ويذهب في سبيله إلى غير لقاء مأمول، وكان ذلك يسوءهم كثيرا[٢].

وكان الشاعر العربي يمر بتلك المنازل في أسفاره ورحلاته، فتحيا الذكرى في قلبه ويتذكر مراتع الحب وأيام الوصال، ولكن نفسه تنقبض عندما يجدها خالية تضرب الرياح في جنباتها، فيأمر من كان معه بالوقوف ليبكي على تلك الأطلال البالية، " والعرب لا تقصد الديار للوقوف عليها، وإنما تجتاز بها"[٣].

وقد عني الشعراء بالأطلال، فجعلوا الوقوف عليها استهلالاً لأكثر قصائدهم، وتفننوا في وصف الأطلال والبكاء عليها، وجعلوها مقياساً لبراعة الشاعر، وقد جعل الآمدي ذكر الأطلال والبكاء عليها مقياساً من مقاييس الموازنة بين الشعراء، وذلك في كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري عندما تحدث عن فن الابتداء ، فقال:

"وأنا أبتدئ بإذن الله من ذلك بما افتتحنا به القول: من ذكر الوقوف على الديار والآثار، ووصف الدمن والأطلال ، والسلام عليها، وتعفية الدهور والأزمان والرياح والأمطار إياها، والدعاء بالسقيا لها، والبكاء فيها ..."[٤].

"والوقفة الطللية خاصة بالعرب وحدهم، ولم يشركهم فيها شعب من شعوب الأرض، ويبتدئ نشاط العقل منها لأنها مظهر خلاق وقدرة إبداعية لنشاط الفكر، وتعبير راقٍ عن نشاط الفكر..."[٥].

والأطلال هي مبعث الإحساس والمشاعر، وكل ما فيها يعد من وسائل الرمز إلى المحبوب، لذلك احتلت مكانة رفيعة في نفوس الشعراء، ولا يجد الشاعر بقايا محسوسة تربط بينه وبين ذكرياته إلا هذه الأطلال، ولكن هذه الأطلال لم تستطع أن تقاوم الزمن، وتجد الطلل ينهار أمام عاملين من عوامل الطبيعة، وهما: الرياح والمطر.

---

(١) العمدة ، ابن رشيق، ص ١٨٨

(٢) يُنظر "شعر الوقوف على الأطلال من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث دراسة تحليلية"، د. عزة حسن، مطبعة الترقي- دمشق، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م، ص ٨-٩

(٣) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، الحسن بن بشر الآمدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، ذخائر العرب، ط٤، (د.ت)، ج١، ص ٣٧٩

(٤) المصدر السابق، ج١، ص ٤٢٩

(٥) المطر في الشعر الجاهلي، د. أنور أبو سويلم، دار عمار- عمان، ط١، ١٤٠٧- ١٩٨٧ ، ص ١٣١

وقد وقف الشعراء الهذليون على الأطلال كغيرهم، وذكروا الأطلال، ووصفوا الرياح التي غيرت معالمها، ثم جاءت صور المطر بعد ذكر الرياح، يقول أمية ابن أبي عائذ الهذلي واصفا الطلل والرياح:

عفــى عــن سـليمى ذو اللِّصـاب فجُلجُـلُ فجـــوُّ المحـــاني فـــالرُّبا فالعقنقَـــلُ
علـــى أن أطـــلالاً غشـــيتُ رســـومها دوارسُ وحـــشٌ بعـــد أهـــل تبـــدلوا
فأولهـــا عـــافٍ وآخـــرُ عهـــدِها حـــديثٌ فيَعنيـــني حـــديثٌ واَوَّلُ
عفتهـا صـبًا ترمـي السَّـراديح بالحصـا ومســتنة بالمــور نكبــاء شمــأل[١]

وهذه الأطلال التي أثارت الشجن لدى أمية بن أبي عائذ، وأحيت الذكريات قد درست وتبدلت، وقد بدلتها تلك الريح القوية، وما أشد تلك الريح التي تحمل الحصى وتلقيها وكأنها ترمي بها، والأرض التي تقع عليها الحصى ليست أرضاً صلبة بل هي سَرْدَح، وهي " الأرض اللينة "[٢]، فوصف ريحا قوية تقع على أرض لينة، ليبين لنا مدى تأثرها وتغيرها وعدم مقاومتها.

ومن الملاحظ أن الشعراء الهذليين عندما يتحدثون عن الريح فإنهم لا يسهبون كثيرا في وصفها، وإنما يقتصر الأمر على بيت أو بيتين. أما المطر فيسهبون في وصفه، وذلك لأنه أكثر تغييراً للأطلال، فهو يغيرها بشدة وقعه، وبسيوله التي تمحو الرسوم وتجرفها.

وقد أسهب الشعراء الهذليون في وصف تلك الأمطار وذِكْرِ أنواعها وألوانها، ووصف سيولها.

وتكمن أهمية المطر في أنه "هو السر الكامن خلف أنقاض الأطلال، بل هو من أهم العوامل التي أوجدت الأطلال في حياة العرب"[٣].

وبعد أن ذكر أمية بن أبي عائذ العامل الأول الذي غير الطلل، جاء ليصور لنا العامل المُغيِّر الثاني، وهو المطر، يقول:

وكـــلُّ حَـــيِّ ذي رَدِيـــفٍ لِعَرْضِـــهِ ســـنامٌ وهـــادٍ مُتْلَئِـــبٌ وَكَلْكَـــلُ
شـــآمٍ يمـــانٍ مُنْجِـــدٍ مُتَهَـــتِّمٍ حجازيـــةٍ أعجـــازُهُ وَهْـــوَ مُســـهِلُ
هِجـــانٍ إذا مـــا لاحَ في الـــبرق مُغـــرِبٍ وجَـــوْنٍ إذا مـــا غَمَّـــهُ المـــاءُ أكْحَـــلُ
عليـــهِ نَسِـــيلٌ مـــن جَهـــامٍ كأنـــهُ نَعـــامٌ بأجْـــوازٍ مـــن الرَّمْـــل مُجْفِـــلُ
وأعقـــبَ تَلْماعـــاً بـــزأرٍ كأنـــهُ تهـــدُّمُ طَـــوْدٍ صـــخره يَتَكَلَّـــلُ
كـــأنَّ وَمِـــيضَ البَـــرْقِ تحـــتَ كِفافِـــهِ تكشُّـــفُ رمَّـــاحٍ شَـــوَاهُ محجَّـــلُ

---

(١) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج٢، ص ٥٣٣

(٢) لسان العرب، (سردح)، ج٧، ص ١٦٦

(٣) المطر في الشعر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، سلامة السويدي، ص ٢٢٢

مُنِيفٌ مَسانيفُ الرَّبابِ أمامهُ ... لواقِحُ يحبوها أجَشُّ مُجَلْجِلُ
أناخ بأعجاز وجاشت بحاره ... ومد له نيل السماء المنزل
وزمزم في ذي هيدب لِسَحيله ... سِجال كما انسح المَزاد المجزلُ
تروى بأنهار السماء وأرزمت ... سحاب له بالرعد هَزمٌ وأزْمَلُ
تخيلَ في الأطلال يمحو رسومَها ... وآياتِها والتربُ يسحو ويسحَلُ
له نفيانٌ يَحْفِش الأكم وقعهُ ... ترى الترب منه مائلا يتثلل
بأكدر طماحٍ مضرٍّ كأنما ... له كل منجاة من الأرض موئل
فذاك عفاها والفَنَاء مع البِلى ... تعاقَب أحوالٌ بها تتحول(١)

وأمية بن أبي عائذ هنا صوَّر لنا لوحة كاملة للمطر، ابتدأت بوصف سحابه وبروقه ورعده، ثم نزوله واشتداده، ثم وصف سيله الأكدر الطماح الذي غشي أماكن لم تُغْشَ من قبل، وأصبح الطلل إِثْرَ ذلك مدمَّراً، وهذا التدمير له أثر بالغ في نفس الشاعر، لأن معالم الطلل هي الرابط الذي يربط بينه وبين أحبابه، وهي الأثر المحسوس لعلاقة الحب.

وقد تألم الشاعر قبل ذاك لرحيل الأحباب، وبقي الطلل يسليه ويذكره بهم، ولكن قوة المطر لم تبقِ من ذلك المكان شيئا، وفناء الطلل يعتبر موت في نفوس الشعراء ، والمطر يعتبر حياة، ولكنه هنا فناء وتدمير، فمن عجب أن يولد الموت من رحم الحياة.

وقد وقف الشاعر العربي على سر المطر، وأدرك فاعليته في بناء الحياة ودمارها، وأظهر تناقض عنصر الماء في وقفته الطللية بوضوح لا لبس فيه، لذلك وقف الشاعر العربي خاشعا أمام قوة المطر التي لم يستطع تذليلها والسيطرة عليها، فعانى لذلك، وبكى، وتألم، ونعى حبه الضائع ووطنه المدمر(٢).

وقد صور لنا أمية بن أبي عائذ مطراً عظيما، ووصف سحابه بالحَبِيّ(٣)، ويُستنتَجُ من التعريفات أنه سحاب عظيم قد قَرُب من الأرض ، فهو دانٍ من الأطلال، وذو رديف، أي ترادف حتى أنك ترى له كالسنام المستقيم المنتصب، وكذلك له صدر.

وقد غطى كل الجهات:

---

(١) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج٢، ص ٥٣٥

(٢) يُنظر "المطر في الشعر الجاهلي"، أنور أبو سويلم، ص ١٣٤

(٣) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، (حبو)، ج٢، ص ١٣٢، قال عن الحَبِيّ: "وكل دانٍ حابٍ. وبه سُمّي حَبِيُّ السَّحاب، لدنُوّه من الأفق"، وفي شرح الديوان: " السحاب الممتد المرتفع"، وفي لسان العرب، (حبا)، ج٤، ص ٢٦، " والحبي: السحاب الذي بعضه فوق بعض ".

شـــــــآمٍ يمـــــــانٍ منجـــــــدٍ متهـــــــتمٍ حجازيـــــــةٍ أعجـــــــازه وهـــــــو مُســــــهِلُ

فقد أحاط بالطلل من كل جانب، وهذه الإحاطة مع تراكم السحاب ودنوه تنبئ بمطر عظيم مدمر.

وقد رافق شموله المكاني شموله اللوني، حيث يصف الشاعر السحاب بأنه (هِجان) و (جَون)، أي أنه أبيض وأسود[1].

وقد جمع الشاعر بين لونين متضادين، فجمع في هذا السحاب الفناء والحياة، فاللون الأبيض يمثل البداية مقابل النهاية، والأسود يدل على العدمية والفناء[2]

وإذا كان اللون الأسود يمثل الموت والعالم السفلي، واللون الأبيض يمثل لون الحياة والنور والإشراق، فإن اجتماعهما يمثل قوة هائلة[3].

وبعد ذكر لون السحاب قال: (وأعقب تلماعاً)، واللَّمْع هو البَرْقَة ثم الأخرى المرة بعد المرة[4]، وهذا البرق يتبعه رعد مدوٍّ له صوت كزئير الأسد، ثم يشبه هذه الصورة بصورة تهدم الجبل (كأنه تهدم طود صخره يتكللُ)، وتتالي البرق في هذا السحاب المطبق مع صوت الرعد الذي شبهه بزئير الأسد وتهدُّم الطود؛ فيه تهديد ووعيد لذلك الطلل بالهدم والتخريب.

ومن الملاحظ أنه وصف الرعد عدة مرات، فمرة شبهه بصوت زئير الأسد، ومرة بتهدم الطود، ومرة بهدير الفحل(أجش مجلجل)، ومرة بالزمزمة (وزمزم في ذي هيدب)، والزمزمة صوت الرعد المتتابع البعيد تسمع له دوياً[5]، ومرة له (هَزْم)وهو الصوت الذي فيه تشقق[6]، وهذا التنوع في أصوات الرعد فيه من الترهيب ما فيه، وسوف أفصل في شرح هذه التشبيهات في الفصل الثالث بإذن الله.

وهذا المطر لم يهطل إلا على الأطلال (تخيلَ في الأطلال يمحو رسومَها)، وكأنه لم ينزل إلا تدميراً لها.

وقد عبر الشاعر عن فعل المطر الماضي بأفعال مضارعة مع أن التهديم كان بالماضي، يقول:

تخيــــــلَ في الأطـــــلال يمحــــــو رســــــومَها وآياتِهــــــا والــــــتربُ يســــــحو ويســــــحَلُ

لــــــه نفيــــــانٌ يَحْفِــــــش الأكــــــم وقعــــــهُ تــــــرى الــــــترب منــــــه مــــــائلا يَتَثَلَّــــــلُ

وهذا من الالتفات، وسوف أتناوله وأبين بلاغته في الفصل الثالث – بمشيئة الله.

والمطر يمحو الرسوم ويقشر التربة ويسحلها سحلا، ثم استمر هطوله حتى أسال الأُكْم؛ جمع أَكَمَة

---

(١) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج٢، ص ٥٣٣

(٢) يُنظر " اللغة واللون "، أحمد مختار عمر، عالم الكتب- القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م، ص ١٨٥- ١٨٦

(٣) يُنظر " اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي شعراء المعلقات نموذجا "، أمل محمود عبد القادر أبو عون، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية- نابلس- فلسطين، كلية الدراسات العليا، قسم اللغة العربية، ٢٠٠٣م، ص ٣٩

(٤) يُنظر " الفروق اللغوية "، أبو هلال العسكري، تحقيق: عماد زكي البارودي، دار التوفيقية للتراث، ٢٠١٠م، ص ٣٣٥

(٥) يُنظر " لسان العرب "، (زمم)، ج٧، ص٦٠

(٦) يُنظر المصدر السابق، (هزم)، ج١٥، ص ٦٣

وهي: "الموضع الذي هو أَشدُّ ارتفاعاً ممَّا حَوْلَه"(١)، فأخذت التربة تتهدم وتتساقط شيئا بعد شيء(٢).

ثم يقول عن السيل:

بأكـــــدر طمــــــاحٍ مضـــــرٍّ كأنمـــــا لـــه كـــل منجـــاة مـــن الأرض موئـــل

فوصفه بأنه أكدر، والكَدَرُ نقيض الصفاء، وهو ما نَحا نَحوَ السواد والغُبْرَةِ(٣)، ومنه كدر عيشه وتكدّر(٤)، وهذا يعني أنه سيل تدمير وهدم، لأن سبب تلك الكدرة؛ أنه جرف معه الأتربة، وقشر الأرض، وأصبحت كل منجاة من الأرض موئلاً له؛ أي أنه غشيي أماكن مرتفعة كانت في مأمن من السيول.

ثم وصفه بقوله(طَمَّاح)، " وكل مرتفع طامِح "(٥)، وهذا الوصف الذي جاء بصيغة المبالغة (فَعَّال) له وقع في النفوس، لأن ذلك السيل الطمّاح لم يرحم تلك الرسوم، بل دمرها وأسرف في تدميرها.

علاقة صورة المطر بالغرض العام للقصيدة:

من طرائق الشعر الجاهلي أن الشاعر ينشئ القصيدة في المدح أو الهجاء، ويبدأ بذكر الصاحبة والديار والرحلة، ويطيل الكلام في ذلك، ثم لا تجد الهجاء أو المديح إلا في أبيات قليلة في آخر القصيدة، وقد تسمى كل هذه الأبيات مقدمة تسامحاً، والحق أن القول بأنها مقدمة لهذه الأبيات القليلة تنقصه الدقة، والصحيح أن الشاعر يضمر غرضه في كل ما قاله مما يسمى مقدمة تسامحاً، وأن حديث الصاحبة والديار والرحلة بمثابة المنوال الذي ينسج عليه الشاعر غرضه ببراعة، وأن كل كلمة وكل تركيب وكل صورة من صميم الغرض.(٦)

وإن المقدمات الطللية التي شاعت عند الشعراء، وما يطرأ على الأطلال من رياح وأمطار، كل ذلك لم يأتِ عبثاً وتقليداً بلا تَفَكُّر، وإنما يضمر فيها الشاعر الغرض العام للقصيدة، ومن خلالها يتدرج وميض المعنى عن طريق صورها، حتى يصل الشاعر إلى مراده، ويُفصِح عن مكنونه.

ولقد رسم أمية بن أبي عائذ صورة مهولة لمطر عظيم مدمر، جرف الأرض وغير معالمها وآثارها، وصورة المطر هنا لها ارتباط وثيق بمطلع القصيدة؛ لأن القصيدة بدأت بذكر الأطلال (ذو اللِّصاب فجُلْجُل، فجَوُّ المحاني فالرُّبا فالعَقَنْقَل)، وقد عفت رسومها ودرست بسبب عاملين، هما: الرياح، والمطر.

فالرياح كانت قوية تقذف بالحصى نحو الأطلال التي طبيعة أرضها لينة، فتؤثر فيها وتغيرها.

---

(١) لسان العرب، (أكم)، ج١، ص١٢٨

(٢) يُنظر المصدر السابق، (ثلل)، ج٣، ص ٣٦

(٣) السابق، (كدر)، ج١٣، ص٣٢-٣٣

(٤) يُنظر " أساس البلاغة "، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الفكر – بيروت، ط١، ١٤٢٦- ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م، (كدر)، ص ٥٣٨

(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس (طمح)، ج٣، ص٤٢٣

(٦) يُنظر "الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء"، د. مُحَمَّد مُحَمَّد أبو موسى، مكتبة وهبة- القاهرة، ط١، ١٣٢٩هـ- ٢٠٠٨م، ص ١٢

وإذا كانت الرياح بهذه القوة، فمن تمام القول أن تكون الأمطار أكثر منها قوة وتغييراً.

ومن المناسب أن يكون المطر عظيماً يتواءم مع تلك الرياح القوية، ليتشاركا في التدمير، ولأن ضرر المطر أكبر فقد أسهب الشاعر في وصفه.

وبعد أن وصف الشاعر ديار المحبوبة وما غيرها من رياح وأمطار، قال:

وإني بليلـــــى والــــــديارِ الـــــتي أرَى		لكــــالمبتلَى المـــعْنَى بشـــوقٍ مُوَكـــلُ

وقــد خِفْــتُ أن ألقَــى بليلــى مــن الهــوى		كمــا كـــان يلقـــى في رَقَـــاِش الــمُنَخَّلُ

فالشاعر بعد أن تحدث عن أطلال المحبوبة، تحدث عن المحبوبة نفسها، ووصف ما يعانيه من الشوق لها، ومن الملاحظ أن الشاعر قد ذكر في أول القصيدة اسم سليمى (عفا عن سليمى ذو اللصاب فجلجل)، وهنا ذكر اسم ليلى.

وهذا قد جرى عليه الشعراء القدماء، وهو محاولة للتعمية على الاسم الحقيقي للمحبوبة، والأسماء المتعددة لا تدل على تعدد محبوبات الشاعر، وإنما هي محبوبة واحدة يحلو للشاعر أن يدعوها بأسماء عدة حجباً لها، وتعمية على حقيقتها(١).

وقد يئس الشاعر من لقاء المحبوبة بعد رحيلها، ويئس كذلك من رؤية آثارها المدمَّرة، فقال:

فـــــإن تمــــــسِ ليلـــــى في أناس أعـــــزةٍ		إلى كـــــرمٍ قـــــادوا الجيــــاد وأســــهلوا

فــــإنيَ مــــن قــــد أدرك المجـــــد ســــابقاً		بآبائـــه إن كـــان ذو اللـــب يَسْـــأَلُ

فهو ينسبها إلى أناسٍ أعزة؛ أي أنها ذات حَسَبٍ ونسب عالٍ أصيل، ثم قابل ذلك بوصف نفسه بأنه أصيل النسب كذلك؛ فآباؤه قد أدركوا المجد، ويريد أن يقول لنا إنه من قوم أعزة قد أدركوا المجد، ويعشق امرأة من قوم أعزة، ثم يقول مفتخراً بقبيلته:

هــــذيلٌ حمــــوا قلـــب الحجـــاز وإنمـــا		حجــاز هــذيل يفــرعُ النــاسُ مــن عــلُ

وإنيَ لــــو لاقيــــت ثــــروة معشــــرٍ		وجــــدِّكَ آبَى الضــيم مادمـــت أعقِـــلُ

إذا نظــــر المختــــال بالــــبغض نحــــونا		نَـــرُدُّ حســـيراً طرفَـــهُ وهْـــوَ أَقْبَـــلُ

ولم يـــــرنا ذو الضِّــــغْنِ إلا يهابنــــا		وإلا يــــرانا فوقــــه وهــــو أســــفلُ

فيتضح الغرض جلياً، وهو الفخر.

وعلاقة صورة ذلك المطر القوي الجارف الذي دمر الأطلال ومحا معالمها بغرض القصيدة، هي: أن الشاعر لا يريد أن يبدأ قصيدة الفخر إلا بروح قوية تنعكس على كل صور القصيدة، والفخر ينبع من شعور

(١) يُنظر بحث "مليح بن الحكم شاعر من هذيل"، د. سلامة السويدي، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية- الدوحة – قطر- العدد الثامن ١٩٩٦م، ص٦٨

بالقوة، وقصيدة الفخر ليست كقصيدة الغزل، لذلك قال القاضي الجرجاني: " ولا آمرُك بإجراء أنواع الشعر كلّه مُجرى واحداً، ولا أن تذهب بجميعه مذهبَ بعضِه؛ بل أرى لك أن تقسّم الألفاظ على رتَب المعاني، فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مديحُك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك؛ ولا هزْلك بمنزلة جِدِّك، ولا تعريضُك مثل تصريحك؛ بل ترتّب كلاً مرتبتَه وتوفّيه حقّه، فتلطِّف إذا تغزّلت، وتُفخِّم إذا افتخرت"(١).

وأمية ابن أبي عائذ بدأ قصيدة الفخر برياح قوية تقذف بالحصا، ثم أعقبها بمطر أرزمت رعوده إرزاماً مفزعاً، ثم هطل هطولاً عنيفاً، فسحل الترب، وحَفَشَ الأُكْمَ وَقْعُه، والأَكَمَة هي المكان المرتفع، حتى أنك ترى ترابها يَتَثَلَّل. ثم جاء سيل طَمَّاح أكدر مخيف؛ غشي كل منجاة، فأضر بالأرض، ومحا الرسوم والآثار.

وقد جاءت ألفاظ المطر دالة على العلو والإحاطة، فهو متراكم ومُشْرِف، ولعرضه سنام وصدر، ثم قال عنه (مُنِيف)، وغشي جميع الجهات، وأسهب في وصف الرعد، ووصف سيله بالطَّمَّاح، وكأن أميّةَ هنا يشير بطَرْفٍ خفي إلى قومه الذين سيفخر بهم.

وإذا نظرت إلى صور المطر الذي صورها أمية بن أبي عائذ، ونظرت إلى صفات قومه الذين افتخر بهم؛ تجد توافقاً كبيراً، فقد وصف السحاب بالإحاطة والشمول، فقال:

شــــــآمٍ يمـــــــانٍ منجــــــدٍ متهــــــتمٍ ... حجازيـــــةٍ أعجـــــازه وهـــــو مُســـــهِلُ

فقد أحاط بالمكان من كل جهة، وعندما وصف قومه قال:

هـــــذيلٌ حمــــوا قلــــب الحجــــاز وإنمـــــا ... حجــازُ هــذيل يفــرعُ النــاسَ مــن عَــلُ

وحماية قلب الحجاز لا تتم إلا بالإحاطة بالمكان لتأمينه والذود عنه، لكي لا يجد الأعداء مدخلاً له.

وإذا نظرت إلى السحاب المحيط بالمكان الذي صوره الشاعر؛ تجد أنه سحاب أبيض وأسود، واجتماع اللونين —كما مر– يمثل قوة هائلة، وهو سحاب مترادف كثيف، وبه برق ورعد مدوٍ مخيف، ويحمل السحاب ماءً غزيرا دمر الأطلال ومحا معالمها.

وكذلك إحاطة قومه بقلب الحجاز لحمايته لم تكن إلا من مصدر قوة، لأنهم يمتلكون مقومات الحماية؛ من قوة وشجاعة وعدد وعتاد وعُدَّة.

وقد وصف أمية السحاب بصفة العلو فقال عنه: (مُنِيف) ووصف السيل بالارتفاع، فقال عنه: (طمَّاح)، وإذا نظرت إلى قومه وجدتهم في حجازهم المشرف العالي، فقال:

حجاز هذيل يفرعُ الناسُ من عَلُ

وكذلك وصف قومه بالعلو والقوة:

ولم يــــــرنا ذو الضِّـــــغْنِ إلا يهابنــــــا ... وإلا يــــرانا فوقــــه وهـــــو أســـــفلُ

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية – صيدا- بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م، ص ٣٠

وكل أجزاء صورة المطر التي تحمل التخويف والهدم والتدمير، تحمل مضامين التهديد والوعيد للأعداء، وتقابلها صفات القوة والمنعة في القبيلة، وأن الأعداء سيكون مصيرهم مصير تلك الأراضي التي دمرها السيل الأكدر الطماح الذي جرفها ومحا معالمها، وبذلك أستطيع القول أن صورة المطر التي أوردها الشاعر لها ارتباط وثيق بالغرض.

ويقف مُلَيْحٌ الهذلي على الطلل كصاحبه أمية، منادياً الطلل البالي قائلاً:

يا دار ليلـــى مـــن شـــباك الخـــانقِ   إلى البُحــــير النــــاعم الحـــــدائقِ
أمســـت خـــلاف الأُلَّـــه الســـواحقِ   سُـــرى الصَّـــبا وغُـــدوةَ الخرائـــقِ[١]
ودفقـــةٍ مـــــن مُـــــرزِمِ الشـــــقائقِ   ترمـــي بجَـــوْلان حصًـــى دُقـــادِقِ[٢]
مثـــلَ الخُلافـــات مـــن المهَـــارقِ   أُسـقيتِ هَيْجًـا مـن منيـفٍ دافِـق[٣]
مـــن كـــل عـــرَّاص النَّشـــاص راتِـــقِ   داني الـــــرباب لِثِـــــقِ الغَرانـــــقِ[٤]
يســـحل مـــاء المـــزَنِ البـــوارِقِ   غـــادر فيـــهِ حلْبـــةَ الشـــقائق
أكـــدرَ يَغْطـــي عَجُـــلَ التراهُـــقِ   مُغْلَولِـــبِ الأعـــرافِ بالمضـــائقِ[٥]
ســـاجٍ بأعـــراضِ الفضـــاءِ الفـــاهقِ   دارٌ لليلـــى بعْـــد بـــينٍ صـــادِقِ

فقد أصبح الطلل مثل الصُّحف البالية الخَلِقة، وسبب ذلك الرياح الأُلَّه التي تسحق كل شيء، وكانت تداهمه الرياح في كل وقت؛ فمنها رياح الصَّبا السارية، ومنها رياح شديدة الهبوب تأتي وقت الغداة.

ثم يصور لنا مليح الهذلي صورة لمطر متدفق، وقال عنه: (مُرْزِمِ الشَّقائق)، وأَرْزَمَ الرعد اشتد صوته، والمرزم من الغيث والسحاب الذي لا ينقطع رعده[٦].

والشقائق، سحائب تبعجت بالأمطار الغدقة، والشقيقة: المطرة المتسعة[٧]، مثل الوابل[٨].

أي أنه مطر متسع غدق، رعده لا ينقطع، وقد أضفى الشاعر على المطر صورة من صور التهديد والوعيد لهذا الطلل، فالمطر لم يكن وابلاً فحسب، بل كان يهطل ويدمر الطلل، متزامنا مع صوت الرعد المخيف

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص ١٠٥٣، الأُلَّه السواحق: الرياح التي تسحق كل شيء، الخرائق: رياح شديدة الهبوب
(٢) المصدر السابق، والشقيقة: مثل الوابل
(٣) السابق، الخُلافات: أَخْلاق، المَهَارِق: الصُّحُف.
(٤) السابق، راتِق: ليس فيه خلل.
(٥) السابق، ج٣، ص ١٠٥٣، أكْدَر: سَيْلٌ، عَجُل التراهُق: يغشى بعضه بعضاً
(٦) يُنظر " لسان العرب "، (رزم)، ج٦، ص١٤٧
(٧) يُنظر المصدر السابق، (شقق)، ج٨، ص١١١
(٨) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص ١٠٥٣

الذي لا ينقطع.

والمطر وقعه شديد على الطلل، ودليل ذلك أنه يرمي بصغار الحصى، وينقلها من مكان إلى مكان، فإذا كان هذا فعله بالحصى، فما بالك بتراب الطلل ومعالمه؟!

فقد جعل الأطلال مثل الصحف البالية الخَلِقة.

ثم عاد إلى وصف السحاب الذي نزل منه المطر، فقال:

أُسقيتِ هَيْجًا من منيفٍ دافقِ

فوصفه بالمنيف المتدفق ثم قال:

مـــن كـــل عـــرَّاص النَّشـــاص راتِـــقِ　　　دانِي الـــــرَّبَابِ لَثِـــــقِ الغَرانِـــــقِ[1]

فالسحاب من كثرته تراكم حتى أصبح منيفاً مشرفاً، وهو متسع ملتئم؛ لا تكاد ترى فيه فُرجة، وَدَنا رَبَابُه من الأرض، ثم بدأ بالهطول، ويتزامن مع هطوله صوت رعد مخيف مرزم، ولمعان برق لم ينقطع تكاد تُخْطَفُ الأبصار منه، ومن العادة أن طيور الماء لا تبتل منه، لكن هذا المطر قد جعل طيور الغَرانق مُبْتَلَّةً، وذلك لغزارته وشدة هطوله، وأنها لم تجد ملجأً منه.

ثم جاء سيلٌ (أكدر) غزير وجارف، (عَجُل التراهُقِ)، يغشى بعضه بعضاً[2]، (ساجٍ بأعراضِ الفضاءِ الفاهقِ)، فهو قد غطى[3] الأماكن الواسعة[4]، أي أنه ضاقت به مَسَايِلُهُ ففاض وجعل الأماكن الواسعة مسايلَ له، وهذه دلالة على كثرته وقُوَّته.

علاقة صورة المطر بالغرض العام للقصيدة:

أنشأ مليح الهذلي قصيدته ليفخر بقومه، وافتخر كذلك بخِنْدِفَ ومُضَر، ثم ختم ذلك بالفخر بالنبي محمّد ﷺ لأنه خِنْدِفِيّ مُضَرِيّ.

وكما مر في قصيدة أمية ابن أبي عائذ فإن الشاعر يضمر غرضه في كل أجزاء القصيدة، وسأحاول في هذا النص أن أربط أجزاء القصيدة بالغرض وببعضها، مبتدئا بالمقدمة الطللية، وقد مر – أيضاً – أن الشاعر لا يبدأ قصيدة الفخر إلا بروح قوية تنعكس على كل صور القصيدة، انطلاقا من قول القاضي

---

(١) أساس البلاغة، الزمخشري، (عرص)، ص٤١٤، "عرّاص وهو السحاب الذي يعرّص برقه، يقال: عَرِصَ البرق وَأَشِرَ إذا كثر لمعانه"، وجاء فيه – أيضاً – (نشص)، ص٦٣٣، والنَّشَاص هو "السحاب المرتفع"، وجاء في لسان العرب، (نشص)، ج١٤، ص٢٥٩، " النَّشَاصُ، بالفتح: السحابُ المرتفع، وقيل: هو الذي يرتفع بعضه فوق بعض "، وجاء فيه – أيضاً – (رتق)، ج٦، ص٩٦، "والراتق: المُلْتَئِم من السحاب"، وجاء فيه، (ربب)، ج٦، ص٧١، الرَّباب: " هو السَّحابُ المُتَعَلِّقُ الذي تراه كأَنه دُونَ السَّحاب"، وجاء فيه، (لثق)، ج١٣، ص١٦٩، "اللَّثَقُ، بالتحريك: البَلَل. يقال: لَثِقٌ الطائرُ إذا ابتلّ ريشه "، وجاء فيه، (غرنق)، ج١١، ص٤٣، الغَرانِيق: طيورٌ من طيور الماء طويلة العُنُق.

(٢) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج٣، ص١٠٥٣

(٣) جاء في أساس البلاغة، (سجو)، ص٢٨٧، " سجى الميت تسجية: غطاه بثوب".

(٤) جاء في مقاييس اللغة لابن فارس، (فضي)، ج٤، ص٥٠٨، "الفَضاء: المكان الواسِع".

الجرجاني: "وتُفخِّم إذا افتخرت"[1].

فالشاعر مليح الهذلي بدأ قصيدته بذكر ديار ليلى، ثم ذكر أنها أصبحت كالصحف البالية؛ بسبب الرياح القوية التي تسحق كل شيء، وكانت تهب على الطلل حين السُرى وحين الغداة، ويُلاحظ هنا قوة هذه الرياح وشدتها.

والسبب الثاني هو المطر، فقد وصف مطراً قوياً يرمي بصغار الحصى، وهو مُرْزِمٌ لا ينقطع رعده، عَرَّاص كثير اللمعان، حتى أن السحاب أصبح يُعرف به، وأصبح البرق صفة لسحابه، فقال: (المزن البوارق)، واجتماع البرق والرعد وكثرتهما، فيهما من التخويف ما فيهما، فقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ النور: ٤٣. قال ابن كثير: "وقوله:﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أي: يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته"[2].

وقد ضرب الله مثلاً لحال المنافقين، وبين — سبحانه — أثر البرق والرعد في النفوس، فقال:

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ البقرة: ١٧ - ٢٠، قال ابن كثير: "﴿ وَرَعْدٌ ﴾ وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع"[3].

وقال: "﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ أي: لشدته وقوته في نفسه"[4].

وفي أبيات مُلَيْح الهذلي التي كنت بصدد الحديث عنها، تراكم السحاب حتى أصبح منيفاً شامخاً، ودنا رَبَابُه من الأرض، وهو متسع ملتئم لا ترى فيه فُرْجَة، والسحاب بهذا الوصف فيه تهديد للطلل بالتدمير والخراب. ثم تبعجت سحائبه بالأمطار الغدقة وتدفقت، وكانت شديدة الهطول حتى أن طيور الماء ابتلت، ولم تجد من المطر مهرباً لاتساعه.

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، ص٣٠

(٢) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م، ج٦، ص٧٣

(٣) المصدر السابق، ج١، ص١٨٩

(٤) السابق، نفس الصفحة

وإذا كان المطر بهذه الصفة، فإن السيل يأتي عظيماً، فقد جاء السيل أكدر يغشى بعضه بعضاً، فغشي أماكن لم تُغشَ من قبل، ودمر دار ليلى وغير معالمها.

وجعل الشاعر تدمير الطلل وإخفاء معالمه دليلاً على انتهاء الوصال بينه وبين ليلى، وكان الطلل قبل ذلك آخر شيء يربط بينهما، فجاء السيل فأجهز على ما بقي:

سـاجٍ بأعـراضِ الفضـاءِ الفـاهقِ   دارٌ لليلـى بعْـد بـينٍ صـادِقِ[1]

وكما غير المطر الأطلال وأخفى معالمها، فإن الزمان قد قضى على الحب الذي كان بين مليح وليلى، فهاهو قد بلغ من السن مبلغاً جعله يبدي حسرته على شبابه الذي كان مفعما بالحب الغض:

تَهِـيجُ أشـواقَ لجُـوجٍ عاشـقِ   إذْ أنـتَ في غَـضِّ الشـباب الآنِـقِ

إذن، مليح الهذلي نظم هذه القصيدة بعد أن تولى عصر شبابه، وقد يئس من عودته إلى عصر الشباب، ويئس من ليلى، ولذلك جاء المطر مدمراً لمعالم الطلل وماحياً لآثاره.

ثم عاد مليح إلى عصر الذكريات، وسرد قصته مع ليلى، فوصف جمالها، وحسنها.

وذكر أنه كان يحذرها من الهجر، لأن هجرها قد يفضي عليه، ثم قال عنها:

ذاتَ مِـراحٍ ونَجَـاءٍ آفِـقِ   جُبْـتُ لهـا الليـلَ بنـومٍ آرِقِ

مُحتزِمـاً بخَلَـقٍ شِمِـارِقِ   فـوق قمـيصٍ سِـلِسِ البَنَـائِقِ

فقد قضى ليله أرِقاً، وهو محتزم بشمارق خَلِقة بالية، وكان يلبس قميصاً بالياً، قد أصبحت عرى أزراره سلسة[2]، ولما رأته هكذا حاله، تغير حالها وتبدل، فقال:

فأصـبحت ترمـي بطـرف تائـقِ   تلمـح لمـح الفـارِك الـمُعالقِ

أي أنها لما رأته بتلك الحالة أصبحت ترمي بطرف حديد[3]، وتنظر إليه لحاً، وعرف من نظرها أنها نظرة المفارقة[4].

وبعد أن بدأت بالهجر وآذنت بالصرم؛ تجلد مليح ولم يجرِ له ما كان يخشاه على نفسه بعد هجرها، فأخذ يفتخر بنفسه وبقومه، لأنه من نسل الشُّمِّ الذين لا يزحزحهم كيد النساء، ولم يغلبه الهوى، يقول:

إني لأنْمِـي في الأشَـمِّ الباسِـقِ   بـين بيـوت خِنـدِفَ الـمَصَالِقِ

ومُضَـرَ الـمُنْهَرِتِي الشـقائق   تمـلأ بـين الغـرب والمشـارق[5]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص ١٠٥٣

(٢) جاء في لسان العرب، (بنق)، ج٢، ص١٥٥، البَنَائق: " العُرَى التي تدخل فيها الأزرار ".

(٣) ينظر شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص ١٠٥٥

(٤) أساس البلاغة، الزمخشري، (فرك)، ص٤٧٢، "وفاركتُ صاحبي ففارقته".

(٥) لسان العرب، (هرت)، ج١٥، ص٤٨، " أَسَدٌ هَرِيتُ الشِّدْقِ أي مَهْرُوتٌ ومُنْهَرِتٌ، وهو مَهرُوتُ الفم ".

وبـــــين أرضِ عـــــــدنٍ وغَـــــافِقِ | وبـــين أعلـــى جَـــدَسٍ ودابِـــقِ
بالخيـــــــل والقـــــــوم وبالأَيَانِـــــــقِ | لَـــوْ وَرَدُوا ذا اللُّجَـــجِ العَوَامِـــقِ[1]
لشَــــــــرِبوهنَّ بِـــــــوِرْدٍ داعِـــــــقِ | ولـــو رُمُـــوا بالطَّـــوْدِ ذي الطَّرَائِـــقِ
لَنَطَحُـــــــــوهُ بأَشَــــــــدٍ فَـــــــائِقِ | نطْحـــاً يُزِيـــلُ عتَـــبَ الشَّـــوَاهِقِ
لهـــم غـــداةَ الـــرَّوْعِ والحَزَائـــقِ | رَجَّالـــةٌ مِثْـــلُ حِقَـــافِ الحَـــالِقِ
يمشــــون بـــــين نابِـــــلٍ ودارِقِ | ودارعٍ مُسْـــــــــــــــتَلْئِمٍ وَزَارِقِ
وضـــــارب بالســـــيفِ أو مُعَـــانِقِ | لا يَتَّقُـــــونَ كَلَـــــبَ الحَنَـــــائِقِ
إلا بوقـــــع القُضُـــــبِ الخَوَافِـــقِ | يُطـــأطِئُ البَـــيْضَ علـــى الـــمَفَارِقِ
والطعــــنُ بالأسِــــنَّةِ الــــمَخَارِقِ | يَتْبَـــعُ أطـــرافَ قَنـــاً مَـــوَارِقِ
يرْمُـــونَ بالـــمَحْشورَةِ الـــمَخَاسِقِ | فُـــرُوجَ بـــينَ الحَلَـــقِ الـــمَضَائِقِ
حـــتى يُخِـــروهم علـــى المرَافِـــقِ | والخيـــلُ تَنْـــزُو في عَجَـــاجٍ نَازِقِ

إلى أن يقول:

فَضَّـــــلَنَا الله بأمـــــرٍ رائـــــقِ | بالعَـــدْلِ فينـــا والنـــبيّ الصـــادقِ
ونحـــن أهـــلُ الـــدارِ والسُّـــرادِقِ | والبـــابِ والمِنْـــبَرِ والـــبَرازِقِ
والمســـجدِ الأوْسَـــعِ والرَّسَـــائِقِ | والمـــوْجِ والمِلْجَـــإِ في الفَوَاهِـــقِ
وخـــاتِمِ الملـــوكِ غَـــيْرِ العَـــالِقِ | ونحـــنُ وُلِّينـــا حُـــدُودَ الفَاسِـــقِ

وقد تفخَّم مليح الهذلي في كل القصيدة، فالرياح التي غيرت الطلل كانت قوية تسحق كل شيء، وصورة المطر كانت لمطر عظيم سحابة متراكم مُشرِف مُنِيف، كَثُرَ فيه الرعد والبرق، ولم ينقطعا، والمطر كان متدفقاً قوياً يرمي بدقاق الحصى، وكان السيل أكدر يغشى بعضه بعضاً يحمل معه الدمار والهلاك.

ومليح كان يُكِنُّ لليلى حباً عظيماً، ويرى أنه سيلقى الهوان لو هجرته، ولكنها لما رأته رث الثياب ويحتزم بِخَلَقٍ بالٍ أبدت له الهجر، فما ضعفت نفسه أمام هواها، بل تجلد ولم يقده الحب إلى مصارع العشاق، ثم بدأ يفخر بقومه وأجداده، وأسهب في وصفهم، ليقول لها: إنني لَدَيَّ عِزَّة تمنعني من أن أُذِلَّ نفسي في سبيل امرأة هجرتني، وهذا من التفخم الذي أراده القاضي الجرجاني في الفخر، لأنه من غير المناسب للفخر أن يشتكي الشاعر الهجر، وتضعف نفسه أمام هواها.

---

(١) ينظر "لسان العرب"، (نوق)، ج١٤، ص٣٨٨، الأَيَانِق: جمع ناقة.

وأما قومه الذين افتخر بهم، فهم كالأسود الضَّارِية، وهم يملؤون بعددهم وخيلهم وإبلهم ما بين المشرق والمغرب واليمن والشام، ولو وَرَدُوا البحر لشربوه، ولو رُمُوا بجبل عظيم لنطحوه حتى أزالوا شَوَاهِقَه، وكلهم يحمل السلاح، وقُوَّتهم تجعل الأعداء يَخِرُّون على مرافِقِهم.

وعند مقارنة صورة المطر بأبيات الفخر التي جاءت في آخر قصيدة مليح الهذلي، يجد المتأمل توافقاً في الصور، ولم تَنْبُ عن الغرض، مما يبين العلاقة الوثيقة بين صورة المطر وغرض القصيدة.

فعندما وصف المطر؛ وصف سحابه بأنه كثيف متراكم، ووصفه بالاتساع، وأنه راتِقٌ مُلْتَئِمٌ لا تكاد ترى فيه فُرجة، ومقابل ذلك فإن قوم مليح كثير ويملؤون ما بين المشرق والمغرب، وما بين أرض اليمن والشام، يقول:

ومُضَـــرَ الـــمُنْهَرِتي الشـــقائق ... تمـــلأ بـــين الغـــرب والمشـــارق(١)

وبـــين أرضِ عـــدنٍ وغَـــافِقِ ... وبـــين أعلـــى جَـــدَسٍ ودابِـــقِ

بالخيلِ والقـومِ وبالأَيَانِقِ

وفي صورة المطر قال عن السحاب بأنه "عَرَّاص النَّشاص"، والنَّشاص هو السحاب المرتفع، وكذلك وصف السحاب بالمُنِيف، وعندما افتخر قال:

إني لأنْمِـــي في الأشَـــمّ الباسِـــقِ ... بـــين بيـــوت خِنـــدِفَ الـــمَصَالِقِ

ويقصد أنه يرتفع وينتسب إلى نسب أَشَمٍّ باسق من خِنْدِف(٢)، ووصف نسبه بالأشم، والأَشَمّ هو السَّيِّد والشَّمَمُ هو طُول الأنف، وجبل أَشَمُّ أي طويل الرأْس(٣)، و"الباسِقُ المرتفع في عُلُوّه"(٤).

فقومه لهم مكانة عالية وسيادة، وذلك بأفعالهم ومآثرهم.

وعندما وصف المطر ذكر أنه مدمر يرمي بالحصى من شدة وقعه، وقد دمر المطرُ الطللَ وجعله مثل الصحف البالية، وبالمقابل فإن قومه يرمون الأعداء بالسهام حتى يَخِرُّوا على مرافقهم: يقول:

يرْمُـــونَ بالـــمَحْشورَةِ الـــمَخَاسِقِ ... فُـــرُوجَ بـــينَ الحَلَـــقِ الـــمَضَائِقِ

حتى يُخِروهم على المَرَافِقِ

وإذا نظرت إلى صورة المطر تجدها تحمل التخويف والتدمير، لما تحتويه من رعد وبرق فيهما من التخويف ما فيهما، وكذلك وقع المطر شديد، وسيله عظيم مُدَمِّر، وإذا نظرت إلى صفة قوم الشاعر؛ فإن

---

(١) لسان العرب، (هرت)، ج١٥، ص٤٨، " أَسَدٌ هَرِيتُ الشِّدْقِ أَي مَهْرُوتٌ ومُنْهَرِتٌ، وهو مَهرُوتُ الفم ".

(٢) يُنظر المصدر السابق، (نمي)، ج١٤ ،ص٣٦٣

(٣) يُنظر السابق، (شمم)، ج٨، ص١٣٩ - ١٤٠

(٤) السابق، (بسق)، ج٢، ص٨٧

صفاتهم تحمل التخويف، لما يحملونه من سلاح متنوّع، وأما فعلهم فشديد، فسيوفهم تجعل بيضة الحديد التي يضعها الفارس على الرأس تدخل في مَفْرِقِ رأسه، ويطعنون الأعداء بالرماح، ويمطرونهم بالنبال، وفي النهاية يتساقط الأعداء هَلْكَى، يقول:

لهـــم غـــداةَ الـــرَّوْعِ والحَزَائـــقِ ... رَجَّالـــةٌ مِثْـــلُ حِقَـــافِ الحَـــالِقِ

يمشـــون بـــين نابِـــلٍ ودارِقِ ... ودارِعٍ مُسْـــــــــــتَلْئِمٍ وَزَارِقِ

وضـــارب بالســـيفِ أو مُعَـــانِقِ ... لا يَتَّقُـــونَ كَلَـــبَ الحَنَـــائِقِ

إلا بوقـــع القُضُـــبِ الخَوَافِـــقِ ... يُطـــأطئُ البَـــيْضَ علـــى المِفَـــارِقِ

والطعـــنُ بالأسِـــنَّةِ المخَـــارِقِ ... يَتْبَـــعُ أطـــرافَ قَنـــاً مَـــوَارِقِ

يرْمُـــونَ بالمِحْشـــورَةِ المخَاسِـــقِ ... فُـــرُوجَ بـــينَ الحَلَـــقِ المِضَـــائِقِ

حـــتى يُخِـــروهم علـــى المَرَافِـــقِ ... والخيـــلُ تَنْـــزُو في عَجَـــاجٍ نَازِقِ

ويقف أبو صخر الهذلي على الطلل، قائلاً[(١)]:

لِمَـــنِ الـــديار تَلُـــوحُ كالوشْـــمِ ... بالجـــابتين فروضـــةِ الحـــزمِ

فَبِرَمْلَـــتَيْ قَـــرْدَى فـــذي عُشَـــرٍ ... فـــالبِيضِ فـــالبَرَدانِ فـــالرَّقْمِ

وبِضـــارِحٍ طلـــلٌ أجـــدَّ لنـــا ... شـــوقاً إلى فيْحـــانَ فـــالنَّظْمِ

وَلَهـــا بـــذي نَبْـــوانَ منزلـــةٌ ... قَفْـــرٌ سِـــوَى الأرْوَاحِ والـــرَّهْمِ[(٢)]

فأعاد له الطللُ الحُبَّ القديم، وجدد له شوقه، فالديار التي كانت عامرة بالأحباب أصبحت مُقْفِرة وليس بها إلا الرياح، والمطر الضعيف صغير القَطْر.

ولكن هذا المطر الضعيف لم يُحْيِ الطلل، وهذا هو الذي جعل أبا صخر يدعو له بالغيث العميم:

فبِرامـــةَ العُليـــا غَشِـــيتَ لهـــا ... رسمـــاً ســـقاكَ الغيـــثُ مـــن رســـمِ

بكـــرَت عليـــك لهـــا مبشـــرةٌ ... رَيّاً تُخضِّـــــــــرُ بالي الهِـــــــدْمِ

طِفْـــلٌ يمانيـــةٌ لهـــا رهَـــجٌ ... تَمْـــري قـــوادم دُلَّحٍ دُهْـــمِ[(٣)]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٧٢

(٢) جاء في المصدر السابق في حاشية الصفحة السابقة: أن الرَّهْمِ تصحيف، والصحيح: الرِّهْم من الرِّهَم جمع رِهْمة، جاء في أساس البلاغة، الزمخشري، (رهم)، ص٢٦٢، الرِّهْمة "مَطْرة لَيِّنَة صغيرة القَطْر"

(٣) جاء في أساس البلاغة (طفل)، ص٣٩٢، " ومن المجاز ... وريحٌ طِفْلٌ: ليّنة ". لسان العرب، (مرا) ، ج١٤، ص٦٣، " والمرْيُ: مسح ضرع الناقة لِتَدِرَّ، مَرَى الناقة مَرْياً: مسحَ ضَرْعَها للدِّرَّة "، وجاء فيه، (دلح)، ج٥، ص٢٨٦، "الدَّلْحُ: مَشْيُ الرجل بِحِمْلِه وقد

يتلـــــونَ مرتجـــــزاً لــــــه نَحَـــــمٌ	جَـــوْناً تحيَّـــرَ برقـــه يَســـمي[1]
يَزْهَـــى الـــرَّبابَ إذا يجـــيشُ كمـــا	يزهَـــى القِـــلاصَ تغـــذُّمُ القـــرْمِ[2]
يـــدعُ الأفـــاعي ودقُـــهُ قِطعـــاً	صـــرعى ويُنـــزِلُ آمـــن العُصْـــمِ
ويتُـــــلُّ بالعُمْـــــريِّ رَيِّقُـــــهُ	تـــلَّ الفنيـــقِ الشَّـــوْلَ إذ يَحمـــي
سَـــقْياً لِمـــا هيَّجـــتَ لي حَـــزَناً	فاضـــت لـــه العينـــان بالسَّـــجْمِ

ولما رأى أبو صخر الطلل بالياً مقفراً دعا له بالسقيا،وهذه السقيا تبدأ بالرياح المبشرة، وهي التي تسبق المطر وتبشر به، والعرب تقول: "هَبَّت المبشرات، وهي الرياح التي تبشر بالغيث"[3].

والرياح المبشرة رياح خير لأنها تبشر بالرحمة، قال سبحانه في محكم التنزيل:

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ النمل: ٦٣ . قال ابن كثير: "﴿ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ أي: بين يدي السحاب الذي فيه مطر، يغيث به عباده المجدبين الأزلين القنطين"[4]. والرياح المبشرة تسبق المطر وتبشر به، قال سبحانه:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ الأعراف: ٥٧. والرياح التي ذكرها أبو صخر تخضر الطلل البالي، وتبعث فيه الحياة، لأن "المطر هزة كونية كبرى، وقوة فاعلة قادرة على الخلق والتغيير، فيبعث الحياة في الجماد"[5].

ورحيل المرأة موت وفناء، والمطر حياة، والشاعر يستعيض عن ذلك الفقد بالمطر، "فجاء مطر الأطلال ليؤكد حقيقتين: وهما، الموت والحياة ..."[6]

أثقله... وكذلك البعير"، وقال الزمخشري في أساس البلاغة، (دلح)، ص١٩٢: " ومن المجاز سحابة دلوح ... والسحابة تدلح من كثرة مائها ".

(١) لسان العرب، (نحم)، ج١٤، ص٢١٣، " والنَّحِيمُ صوتُ الفَهْدِ ونحوه من السباع "، أساس البلاغة، (رجز)، ص٢٢١، " "ارتجز الرعد إذا تدارك صوته كارتجاز الراجز "، أساس البلاغة، (جون)، ص١٠٦، " شيء جَوْنٌ: أسود الذي فيه حُمرة "، لسان العرب، (وسم)، ج١٥، ص٢١٤، " برقه يَسْمِي أراد يَسِمُ الأَرضَ بالنبات "

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٧٢، يَزْهَى: يستَخِفُّ، يطرد الرَّبابَ من السحاب، و " تَغَذُّمُه "، إبعادُهُ وطَرْدُه. لسان العرب، (ربب)، ج٦، ص٧١، الرَّباب: " هو السحاب المتعلق الذي تراه كأنه دون السحاب "، " وبها سُمِّيَت المرأة الرَّباب "، وجاء فيه: (قلص)، ج١٢، ص١٧٦، "القَلُوص: الفَتِيَّة من الإبل بمنزلة الجارية الفَتَاة من النساء".

(٣) أساس البلاغة، (بشر)، ص٤٠

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٦، ص٢٠٦

(٥) المطر في الشعر الجاهلي، أنور أبو سويلم، ص ١٣٨

(٦) المطر في الشعر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، سلامة السويدي، ص٢٢٣

ووصف أبو صخر الرياح بأنها (يمانية)، وهي من اللواقح، واللاقح، الجنوب؛ لأنها تلقح السحاب، والحائل الشمال، لأنها لا تنشئ السحاب، وسموا الجنوب لاقحاً والشمال عقيماً، وأكثر العرب تجعل الجنوب هي التي تنشئ السحاب بإذن الله وتستدره، وتصف بواقي الرياح بقلة المطر والهبوب في سنيّ الجدب، قال أبو كبير الهذلي:

إذا كـــان عـــامٌ مـــانعَ القطـــرِ ريحـــهُ   صـــــباً وشمـــــال قـــــرّة ودبـــــور[١]

وهذه الرياح المبشرة تستدر السحاب، ثم يصبح دُلَّحاً ممتلئاً بالماء، كالبعير الذي أثقله حِمْلُه.

ثم وصف السحاب بأنه دُهْم، أي سُود، وشبه رعده بالرجل المُرْتَجِز، وذلك من ناحية تدارُكِ الصوت، أما صوت الرعد نفسه، فهو كَنَحِيم الفَهْدِ ونحوه من السِّباع.

ثم عاد أبو صخر إلى وصف السحاب بالسواد فقال عنه:"جون"، أي أسود فيه حُمرة.

وقد كرر ذِكر اللون الأسود، ليؤكد ذلك، لأن السحاب الأسود كثير الماء وهو سحاب خير، وهو مظنة المطر، قال ابن قتيبة:

"وإذا كان السحاب أسود، فذلك من علامات الغيث. وفي الحديث الذي سأل فيه رسول الله ﷺ عن السحاب، فقال: أَجَوْنٌ أم غير ذلك؟ فقالوا جَوْن، فقال: جاءكم الحياء"[٢]

وهذا السحاب الذي يبشر بالخير له برقٌ يبشر بالخير – أيضاً، فقال عنه : (برقه يَسْمي)، أي: يَسِمُ الأَرضَ بالنبات، وقد شبه البرق بالرجل البدوي الذي يُعَلِّمُ على البعير بِسِمةٍ يُعْرَفُ بها[٣]، فحذف المشبه به وصرَّح بشيء من لوازمه، وهو قوله: (يَسْمِي)، على سبيل الاستعارة المكنية، فهذا البرق يضع علامة على الأرض وهي النبات.

وهذا المطر مطر خير، فقد قضى على الشر؛ وعبر الشاعر عن ذلك بتقطّع الأفاعي:

يـــــدعُ الأفـــــاعي ودقُـــــهُ قِطعـــــاً   صـــــرعى ويُنـــــزِلُ آمـــــن العُصْـــــمِ

وإنزال العُصْمِ؛ وهي الوعول[٤]، دليل على كثرة المطر، وليس دليلاً على التدمير، لأن السيل لو كان مدمِّراً لصرعها وحملها معه، ثم وصف السيل بأنه يتل كبار الأشجار المعمرة، وهذا يدل على قوة السيل، وقوة السيل ناتجة عن مطر غزير، والشاعر عندما صور لنا تَلَّ السيل للأشجار المعمرة؛ لم يُرِد بذلك تدمير الأطلال، بل ليصور لنا كثرة المطر الذي أحيا الأطلال، وأنه ليس كالمطر الرّهم الضعيف الذي ذكره في مقدمة الأبيات. وهذا السيل سار مع أوديته، ولم يذكر الشاعر أنه طفح عن مجراه ودمر الأطلال، بل أحياها وأعاد لها بهاءها؛ لأن الأطلال عندما كانت مأهولة كانت وفيرة الخضرة، وسبب رحيل الأحباب

---

(١) يُنظر "كتاب الأنواء في مواسم العرب "، ابن قتيبة، ص ١٦٣ – ١٦٤

(٢) المصدر السابق، ابن قتيبة، ص١٧٠

(٣) يُنظر " لسان العرب "، (وسم)، ج١٥، ص٢١٣– ٢١٤

(٤) يُنظر المصدر السابق، (عصم)، ج١٠، ص١٧٦

هو إقفارها، فهو يدعو لها بالسقيا لعلها تحيا مما هي فيه من موات، فقد أحزنه إقفارها وخلوها من الأحباب، ولذلك يقول:

سَــــقْياً لِمـــا هيَّجـــتِ لي حَــــزَناً　　　فاضــــت لــــه العينـــان بالسَّـــجْمِ

علاقة صورة المطر بغرض القصيدة:

بعد البيت السابق الذي أنهى به أبو صخر صورة المطر، ذكر السبب الذي من أجله فاضت له عيناه، وهو شدة ما يحمله من لوعةٍ إثْرَ الفراق، وأن الجبال لا تتحمل ما يجد، يقول:

ولـــو ان مـــا حُمِّلـــتُ حُمِّلَـــهُ　　　شَـــعَفاتُ رضـــوى أو ذرى بُـــرْمِ

لكَللـــنَ حـــتى يختشِـــعْنَ لـــه　　　والخلـــق مـــن عُـــرْبٍ ومـــن عُجْـــمِ

ثم يعود إلى ذكريات رحيل المحبوبة عن الطلل فيقول:

قـــد كـــان صُـــرمٌ في الممـــات لنـــا　　　فعجِلـــتِ قبـــل المـــوتِ بالصُّـــرم

ثم يعود إلى الأطلال، ويشتكي قلبه الذي كلف بالمحبوبة وآثارها:

أطــــلال نُعْـــمٍ إذ كلِفـــتُ بهـــا　　　ياديـــن هـــذا القلـــبِ مـــن نُعـــمِ

إذ تســـتبي قلـــبي بـــذي عُـــذَرٍ　　　ضـــافٍ يَمُـــجُّ المســـكَ كـــالكَرْمِ

ثم يقول:

ولقـــد عجبـــت لنبـــل مقتـــدرٍ　　　يَسِـــطُ الفـــؤاد بهـــا ولا يُـــدمي

يرمـــي فـــلا تشـــويك رميتـــه　　　فلـــوَ انـــني أرمـــي كمـــا يرمـــي

ولـــوَ ان قلـــبي إذ عزمـــت لـــه　　　صُـــرمي وهجـــري كـــان ذا عـــزمِ

أو كـــان لي غُنْمًـــا تـــذكُّرُكم　　　أمســـيت قـــد أثريـــتُ مـــن غُـــنْمِ

بيَـــدِ الـــذي شـــعفَ الفـــؤاد بكـــم　　　فَـــرَجُ الـــذي ألقـــى مـــن الهـــمِّ

كَـــرْبٌ مـــن اجلـــكِ لـــيس يُفرجـــهُ　　　إلا مليـــكُ النـــاس ذو الحُكْـــمِ

مـــا في الحيـــاةِ إذا تلفـــتِ لنـــا　　　خـــيرٌ ولا للعـــيش مـــن طَعْـــمِ

وَلَمَـــا بقيـــتِ ليبْقـــيَنَّ جـــوًى　　　بـــين الجـــوانح مُضـــرِعٍ جســـمي

فاســـتبْقِني أن قـــد كَلِفْـــتُ بِكُـــمْ　　　ثم افعلـــي مـــا شـــئتِ مـــن عِلْـــمِ

وبهذا أنهى أبو صخر الهذلي قصيدته، وغرضها الغزل، فهو يشكو من الفقد وتظهر في أبياته أثار اللوعة والحسرة لفراق المحبوبة.

وبما أن غرض القصيدة هو الغزل؛ فقد جاءت صورة المطر مع الطلل مختلفة عن صورة المطر عند أمية بن

أبي عائذ ومليح الهذلي، فالمطر عندهما فيه خاصية التدمير، وأما عند أبي صخر فلا يجد المتأمل في صورة المطر تدميراً أو هدماً للأطلال، بل يجد مطراً هانئاً أعاد لطلل حياته، وهذا من المواءمة اللفظية والمعنوية بين الكلام التي قال عنها القاضي الجرجاني: "تلطف إذا تغزلت"(١).

وعندما وقف أبو صخر على الطلل وقف مشدوهاً من تلك الديار المقفرة، التي كانت حية ترفل بالأُنس واجتماع الشمل، وقد أقفرت وأوحشت، ولكنها أعادت له الشجن، فبدأ أبياته بسؤال:

لِمَـــنِ الـــديارُ تَلُـــوحُ كالوَشْـــمِ　　　بالجـــــابتين فروضـــــة الحَـــــزْمِ

وكأنه يسأل غيره عن تلك الرسوم، لأنها لما أقفرت تغيرت، أو كأن رجلاً آخر يسأله، أو كأنه يسأل نفسه، لأنه هو الوحيد الذي أثارته تلك الرسوم، وهو الوحيد الذي يعرفها قلبه.

وقد ينتزع الشاعر من نفسه نفساً أخرى يخاطبها، ويحاورها ويحكي لها أحواله، وأشجانه، ولا يكون ذلك إلا في المعاني التي لها شأن، والشاعر فيها هو الذي يقول، وهو الذي يسمع، هو المتكلم والمخاطب معاً، هو الذي يرسل أشجانه وآلامه، وهو الذي يستقبل هذا كله(٢).

ثم لما ذكر رياح الطلل لم تكن من (الأُلَّه السَّواحِق) كما عند مليح الهذلي، ولم تكن (صبا ترمي السراديح بالحصى) كما عند أمية بن أبي عائذ، بل ذكر أنها رياح لم تحمل معها التدمير، يقول:

وَلَهَـــا بـــــذي نَبْـــوانَ منزلـــةٌ　　　قَفْـــرٌ سِـــوَى الأَرْوَاحِ والـــرَّهْمِ(٣)

ثم دعا للطلل برياح مبشرة بالغيث يعقبها المطر، واختار الشاعر وقت المطر بأن يكون في الغداة، وهذا له مزية، لأن استقبال اليوم الجديد بالمطر يبعث في النفس الاستبشار، وما أجمل أن يُستقبَلَ اليوم بالرحمة.

وأبو صخر يعز عليه أن يرى ديار المحبوبة مقفرة، فدعا لها بالخير لعلها تعود كما كانت فيحيا بالي الهِدم، ولعل خضرة المكان تُعيد الشمل فيعود الأحباب للمكان، لأن المطر هو سر اجتماعهم، وبسبب انقطاعه تفرق الشمل.

ويذكر أبو صخر الرياح اللَّيِّنة اليَمانيَّة التي تَمْرِي السحاب، أي "تستخرجه وتَسْتَدِرُّه"(٤)، فهي تجمعه وتضمه وتُلَقِّحُه حتى يصبح دُلَّحاً كثير الماء، فيقول:

طِفْـــلٌ يمانيـــةٌ لهـــا رهَـــجٌ　　　تَمْـــري قـــوادم دُلَّحٍ دهـــمِ

والشاعر مولع بلم الشمل واجتماع الأحباب، ولذلك جاء بهذه الصورة البديعة لاجتماع السحاب من كل جانب، حتى يصبح أدهم من كثرة الماء، ويرى أن اجتماع الأحباب فيه خير وبركة كما اجتمع السحاب

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، ص ٣٠

(٢) يُنظر " قراءة في الأدب القديم "، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة – القاهرة، ط٣، ٢٠٠٦م، ص١١٤

(٣) لسان العرب، (روح)، ج٦، ص٢٥٣، " وجمع الرِّيح أَرواح ".

(٤) لسان العرب، (مرا)، ج١٤، ص٦٣

المتباعد فأمطر.

ولم يغفل أبو صخر صفة الجمال للسحاب، عندما ذكر الرَّبَاب، وهو السحاب الذي تراه دون السَّحاب، ولجَمالِه سُمِّيَت باسمه المرأة الرَّبَاب.

يَزْهَـــى الـــرَّبابَ إذا يجـــيشُ كمـــا يزهَـــى القِـــلاصَ تغـــذُّمُ القـــرْمِ[1]

وصوَّر الرَّعد وهو يسوق السحاب بصورة فحل من الإبل يسوق قِلاصاً، والقَلُوص: الفَتِيَّة من الإبل بمنزلة الجارية الفَتَاة من النساء، وكأنه في هذه الصورة يشير إلى أن المرأة لا غنى لها عن الرجل، والرجل لا غنى له عن المرأة، وحاجة كل منهما إلى الآخر مُلِحَّة.

وبما أن غرض القصيدة الغزل؛ فمن المناسب لذلك أن يكون المطر محيياً للأطلال، يحمل تباشير الحب ويعطي النفس آمالاً بالحياة، ومدمراً لقوى الشر (يدع الأفاعي ودقه قِطعاً)، فلم يقتلها فحسب بل قطَّعها، والأفاعي رمز للموت، وإقفار الطلل رمز لموت الحب، فجاء المطر يحمل حياة الطلل ويقضي على قُوى الشر.

وفي ختام هذا المبحث أستطيع أن أقول: إن صورة المطر الذي يقع على الأطلال لها علاقة وثيقة بغرض القصيدة، فإذا كان غرض القصيدة الفخر فإن المطر يكون قوياً مدمراً، لما في ذلك من التَّفخُّم، وأن الشاعر يضمر ما سيفخر به من علو شأن وشجاعة وشدة بأس وفتك بالأعداء في صورة المطر الذي يرهب النفوس، وفي شدة رعده، ولمعان برقه المتكرر المخيف، وفي علو سحابه وإحاطته بالمكان، وسده للأفق، وفي شدة وقع المطر وتدمير سيله.

وأما إذا كان غرض القصيدة الغزل؛ فإن صورة المطر لا تحمل التدمير، بل تأتي محيِيَةً للطلل مخضرةً لأرجائه، لما في ذلك من المناسبة لغرض الغزل، وأن الشاعر يضمر مضامين غزله في صورة ذلك المطر الهانئ الذي هدفه السقيا وليس التدمير.

وبما أن قصيدة أمية ابن أبي عائذ الهذلي غرضها الفخر، وكذلك قصيدة مُلَيْح الهذلي، فإن صورتي المطر لدى الشاعرين جاءتا متفقتين في أشياء عدة، وسوف أجملها في النقاط التالية:

١- الرياح التي كانت تهب على الطلل كانت قوية مدمرة، فعند أمية بن أبي عائذ (صبا ترمي السراديح بالحصى)، وعند مليح (الأله السواحق).

٢- عند أمية بن أبي عائذ كان السحاب مرتفعاً كثيفاً، أسفله دانٍ وأعلاه ممتد مرتفع (حبي، ذو رديف ، لعرضه سنام وهادٍ متلئبٌ وكلكلٌ)، وعند مليح (النشاص)، والنشاص هو السحاب المرتفع الذي يرتفع

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٧٢، يَزْهَى: يستَخِفُّ، يطرد الرَّبابَ من السحاب، و " تَغَذُّمُه "، إبعادُهُ وطَرْدُه. لسان العرب، (ربب)، ج٦، ص٧١، الرَّباب: " هو السحاب المتعلق الذي تراه كأنه دون السحاب "، " وبها سُمِّيَت المرأة الرَّباب "، وجاء فيه: (قلص)، ج١٢، ص١٧٦، "القَلُوص: الفَتِيَّة من الإبل بمنزلة الجارية الفَتَاة من النساء".

بعضه فوق بعض، و (منيف).

٣- عند أمية بن أبي عائذ، غطى السحاب كل الجهات :

شـــــآمٍ يمـــــانٍ منجـــــدٍ متهـــــتمٍ حجازيـــــةٍ أعجـــــازه وهـــــو مُســـــهِلُ

وعند مليح (مرزم الشقائق)، مفرد شقيقة، ومن معاني الشقيقة: المطرة المتسعة، فهو ليس شقيقة واحدة متسعة بل شقائق، ووصف السحاب بأنه (راتق)، أي ملتئم، واتساع السحاب والتئامه يدل على أنه غطى كل الجهات.

٤- في أبيات أمية بن أبي عائذ نجد الرعد عظيماً مدوياً، وقد صورة في عدة تشبيهات، فمرة يشبهه بزئير الأسد، ومرة بتهدم الطود، ومرة بهدير الفحل، ومرة يصفه بالتشقُّق، والبرق يتتالى (وأعقب تلماعاً).

أما عند مليح، فالرعد شديد لا ينقطع (مرزم)، والبرق كثير اللمعان (عرَّاص)، وترى البرق كثيراً في المزن حتى سميت به (المزن البوارق).

٥- عند أمية بن أبي عائذ، وقع المطر قوي على الأطلال، فقد سحل ما برز منها، وهدَّم تُرابها، يقول:

لـــــه نفيـــــانٌ يَخْفِـــــش الأكـــــم وقعـــــهُ تـــــرى الـــــترب منـــــه مـــــائلا يتثلـــــل

وعند مليح نجد المطر متدفقاً شديد الوقع يرمي وقعه بصغار الحصى حتى غيَّر معالم الأطلال:

ودفقـــــةٍ مـــــن مُـــــرزِمِ الشـــــقائقِ ترمـــــي بجَـــــوْلان حصًـــــى دُقـــــادِقِ

٦- السيل عند أمية أكدر اللون طَمَّاح مرتفع، غشي كل منجاة فأسرف في التدمير:

بأكـــــدرَ طمَّـــــاحٍ مُضِـــــرٍّ كأنمـــــا لـــــه كـــــل منجـــــاة مـــــن الأرض موئـــــل

وعند مليح يحمل السيل اللون نفسه، وجاء يغشى بعضه بعضاً من شدته:

أكـــــدرَ يَغْطـــــي عَجُـــــلَ التراهُـــــقِ مُغْلَولِـــــبِ الأعـــــرافِ بالمضـــــائقِ

وقد فاض عن مجراه حتى غطى أماكن واسعة ما غَشِيَتْها السيول من قبل:

ساجٍ بأعراضِ الفضاءِ الفاهقِ

أما صورة المطر عند أبي صخر الهذلي، فهي تختلف عن الصورتين السابقتين لاختلاف الغرض —كما أسلفت — وأجملها في النقاط التالية:

١- الرياح التي تهب على الطلل لم تكن قوية مدمرة.

٢- سبقت المطر رياح مبشرة، والبشرى لا تكون إلا في الخير، يقول:

بكـــــرَت عليـــــك لهـــــا مبشـــــرةٌ رَيّاً تُخَضِّـــــــرُ بالي الهِهـــــــدم

وينتج عنها اخضرار الطلل وتجدد بهائه.

٢- لم يصف أبو صخر السحاب بالاستعلاء، ولم يصفه بأنه غطى كل الجهات، بل وصفه بالدُّلَّحَ الكثير الماء، وكذلك وصفه بالسواد في موضعين، وهذا يدل على غزارة مائه.

٤- أنه لم يصف الرعد بالشدة، ولم يصفه بعدم الانقطاع، وكذلك البرق لم يكن كثير اللمعان، وإنما جاء البرق للتبشير لا للتخويف فقال عنه (برقه يسمي) فأَراد أنه يَسِمُ الأَرضَ بالنبات.

٤- أن المطر جاء لسقيا الديار، وقد قضى على قوى الشر (الأفاعي)، وليس هدفه التدمير.

ثانياً: صورة المطر والمرأة

وجد العربي الجمال في باديته متمثلاً في مصدرين أساسيين هما: الطبيعة والمرأة، وقد فتنه جمال الطبيعة الساحرة فتغنى بصحرائها وحيواناتها ووديانها ورياضها ومطرها. وسحره جمال المرأة فتغزل بمفاتنها، ووجد أن الصلة بين جمال المرأة وجمال الطبيعة صلة كبيرة، لأنها بمفاتنها الجميلة ترمز إلى ما في الطبيعة من جمال وسحر، لذلك تجلت الطبيعة في تشبيهاته وأوصافه للمرأة. وظاهرة المطر من أهم الظواهر الطبيعية التي أَثْرَت فن الغزل. والمطر متغلغل في نفس العربي يرتبط معه بعلاقة مصيرية أساسها الحياة والموت، والخصب والجدب، والغنى والفقر، والمرأة كالمطر رمز للخصب والحياة والنماء، وشوقه وحبه لها كشوقه وحبه للمطر، لذلك استعار لوصفها أجمل ما في فكرة المطر من معانٍ.[1]

وبعد حصري لشواهد صور المطر عند الهذليين؛ وجدت أن صورة المطر والمرأة قد نالت النصيب الأوفر من شواهد صور المطر في أشعارهم، مما يدل على مكانة المرأة في نفوسهم، فهي الحياة والخصب وفقدها جدب وفَنَاء.

والشاعر عندما يذكر المرأة يرفع بصره إلى السماء فيشبهها بالسحابة، ويذكر أنها مصدر البرق، ويذكر السيل واخضرار الأرض، وهذا دلالة على معنى العلو والطهر والنقاء والخير.

والشاعر إذ ينظر إلى المرأة في ضوء ذلك إنما يجردها من صفتها الأرضية حتى تصبح أقرب ما تكون إلى عالم من السمو والطهر.[2]وعندما يصور المرأة ويذكر البرق والخصب فإنه يتجاوز المعنى القريب المحسوس إلى معانٍ سامية.

وقد واجه تراثنا عدداً من الذين يتهمونه بأن النزعة الحسية غالبة عليه[3]، وأن الشاعر القديم كان ينزع في تصويره إلى تشبيه المحسوس بالمحسوس لأن عقله قاصر على تجاوز المحسوسات[4].

والأرجح أن الذين يقولون بأن الشاعر القديم لم يكن قادراً على تجاوز الأمور المادية التي يقع عليها حسه؛ يعانون هم أنفسهم من سيطرة النظرة الحسية على تصوراتهم، من حيث كانوا غير قادرين على تجاوز المعنى الحرفي للمقولات الشعرية. وليست الحسية شيئاً غير هذا. وإذا كان لبعض المستشرقين شيء من العذر في القول بحسية الشاعر القديم التي قصرت به عن تجاوز المحسوس إلى المعقول لأنهم ربما واجهوا شعراً يختلف عما أَلِفوه في ثقافتهم الأصلية، فلا عذر لأبناء الثقافة العربية في متابعتهم والسير على خُطَاهم[5].

---

(١) يُنظر " المطر في الشعر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي "، د.سلامة السويدي، ص١٠٨

(٢) يُنظر " الأسلوبية والتقاليد الشعرية "، د.مُحَمَّد أحمد بربري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية – ٦ شارع يوسف فهمي – الهرم، ط١، ١٩٩٥م ص١٣٢

(٣) يُنظر "دراسة في البلاغة والشعر"، د. مُحَمَّد أبو موسى، مكتبة وهبة، ٤ شارع الجمهورية– عابدين– القاهرة، ط ١، ١٤١١هـ – ١٩٩١م، ص ١٠٠–١٠١

(٤) يُنظر " الأسلوبية والتقاليد الشعرية "، د.مُحَمَّد أحمد بربري، ص٩٩

(٥) يُنظر المصدر السابق، ص١٠١

وعند دراستي لصورة المطر والمرأة عند الهذليين وجدت أن صورة المرأة تجاوزت المحسوس إلى معاني الحب السامي الذي يجعلها ينبوع الحياة ومصدرها.

والشاعر حينما يصور المرأة بصورة مُزْنَة، فإن ذلك يُحِيلها إلى نوع من الوجود الشعري لا تَنْفَكُّ فيه عن الماء مصدر الحياة[١].

يقول أمية بن أبي عائذ عن المرأة:

وكأنها وسط السماء غمامةٌ فرعت بِرَيِّقِها نشيءَ نَشاصِ

فقد جعلها كالغمامة، والغمامة مصدر للخير والخصب، واتصفت بالعلو المكاني والمعنوي، وهذا من قوله " فرعت " أي ارتفعت[٢]، ولا يمكن إغفال الصورة الجمالية والنفسية للغمامة، فهي تُمْتِعُ النظر وتبعث في النفس الأمل وتبشر بالخصب.

ويقول أبو صخر الهذلي جاعلا ثنايا محبوبته سحابا ممطراً:

تجلو عَوَارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتسمت كلوح مُزْنَةِ عَرْضٍ ذات أرصادِ[٣]

ومن التقاليد الشعرية عند الهذليين؛ أنهم يشبهون ثغر المرأة بالخمر والماء الصافيتين، أو العسل المشوب بماء المطر، وكأنهم يرون أن الماء وحده غير كافٍ لوصف المرأة، ويدخلون في تفاصيل العوامل التي نقَّت الماء وبرَّدته، أو وصف رحلة المشتار الشاقة للحصول على العسل.

ومن التشبيهات التي يشبه مُقَبَّلُ المرأة بالخمر المشوب بماء المطر، قول أبي صخر الهذلي[٤]:

كأنَّ مُعْتَقَةً في الدَّنِّ مُغْلَقَةً صهباءَ مِصْعَقَةً من رانئٍ رَذِمِ[٥]
شيبت بمَوْهَبَةٍ من رأس مرقبةٍ جرداءَ مَهْيَبَةٍ في حالقٍ شَمَمِ[٦]
من رأسِ عاليةٍ من صوب غاديةٍ في إثر ساريةٍ أعقابَ محتدِمِ[٧]
خالطَ طعْمَ ثناياها وريقتَها إذا يكون توالي النَجْمِ كالنُّظُمِ[٨]

عندما نفكر في رموز الشعر العربي ندرك القيمة المعنوية لكثير من التفصيلات التي تبدو من حيث الظاهر نوعاً من الاستغراق الممل فيما لا يؤدي إلى معنى ذي خطر. ومن ذلك أبيات أبي صخر السابقة،

---

(١) يُنظر " الأسلوبية والتقاليد الشعرية "، د.محمد أحمد بريري، ص١٥٠
(٢) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج٢، ٤٨٩
(٣) المصدر السابق، ج٢، ص٩٣٩
(٤) السابق، ج٢، ص٩٦٩
(٥) السابق، ج٢، ص٩٦٩، الرانئ: الشديد، مصعقة: يُصعق صاحبها إذا شربها،
(٦) السابق، موهبة: غدير، وجمعه مواهب.
(٧) السابق، يحتدم السيل كما تحتدم النار.
(٨) ينظر تحليل الأبيات في المبحث الأول من الفصل الأول ص٢٢

ولكن حينما نراجع قراءة الأبيات نجد أنها تتضمن إشارات متعاقبة إلى فكرة العلو والخطر، ومن جهة أخرى فقد ذكر الشاعر السحاب والسيل والمطر، وهذا كله دلالة على معنى الطهر والنقاء الذي يرتبط بالمعنى الشعري لماء السحاب، والشاعر إذ ينظر إلى ليلى في ضوء ذلك كله إنما يجردها من صفتها الأرضية حتى تصبح أقرب ما تكون إلى عالم من السمو والطهر(١)، والأبيات فيها مَزْجٌ بين شيئين نَفيسَيْن؛ فالخمر معتقة ومُحصنة لم تصل إليها الأيدي، وماء المَوْهَبَة في أعلى جبل لا يصعده كل أحد، وقد توالى المطر عليه حتى كَمُلَ صفاءُ الماء، وهذه الصفات جعلت المرأة أكثر سمواً وطُهْراً.

وتأتي صورة المطر عند الهذليين ضمن تشبيه ضمني يقوم على النفي بـ (ما) و(أَفْعل) التفضيل، فليست الخمر الصافية الغالية الممزوجة بماء بارد صافٍ تعاقبت عليه عوامل التنقية الطبيعية بأطيب من فم المحبوبة في آخر الليل، وهو وقت تغير الأفواه، يقول أبو ذؤيب(٢):

فمـــا إنْ رحيـــقٌ سَـــبَتْها التِّجَـــا ... رُ مـــن أَذْرِعَـــاتٍ فَـــوادي جَـــدَرْ

سُــــلافَةُ راحٍ تُرِيـــكَ القَـــذَى ... تُصَـــفَّقُ في بطـــنِ زِقٍّ وَجَـــرْ

بِمَــزْجٍ مــن العَــذْبِ عــذبِ السَّــراةِ ... تُزَعْزِعُـــهُ الـــريحُ بعـــدَ المطـــرْ

تَحَـــدَّرَ عَـــنْ شـــاهِقٍ كالحَصيـــ ... ـــرِ مُسْـتَقْبِلِ الـريحِ والفَــيْءِ قَــرٌّ

فَشَـــجَّ بـــهِ ثَـــبَراتِ الرِّصـــا ... فِ حـــتى تَزَيَّـــلَ عنْـــهُ الكَـــدَرْ

فجـــاءِ وقـــدْ فَصَّـــلَتْهُ الشَّـــما ... لُ عَــذْبَ الــمَذاقَةِ بَسْــرَ الخَصِــرْ

بأطْيَـــبَ منهـــا إذا مـــا النجـــو ... مُ اعْتَــنَقْنَ مِثْــلَ هَــوَادِي الصَّــدَرْ(٣)

وقد جعل الشاعر الطبيعة بحيث تتآزر من أجل صفاء هذا الماء، وقد سخر الشاعر في هذه الأبيات الرياح والجبال والأمطار وسائر العناصر الطبيعية من أجل إثبات معنى يُلِحُّ على وجدانه، هو معنى الصفاء، وما يوحي به من الشعور بالطهر، ولا يستطيع القارئ أن يغض النظر عن المعنى الروحي لماء المطر الذي يحرص الشعراء على مزج خمرهم به، يرتبط هذا الماء بفكرة النقاء والطهر. وقد أنهى الشاعر كلامه عن الخمر الممزوجة بهذا الماء الطاهر ببيت يتطلع فيه إلى النجوم والسماء، لأن وجود المرأة في مثل هذا الصفاء الذي أحاطها به الشاعر هو أجدر شيء بهذا التطلع إلى السمو والعلو. ولا يكفي في مثل هذا الشعر أن يقال إن الشاعر إنما يصف ثغر المحبوبة وصفاً حسياً يشبهه في أثنائه بالخمر والماء. ولا يستطيع أن يسلم بهذا النظر إلا من يكتفي من الشعر بمعناه الحرفي أو الخبري(٤).

---

(١) الأسلوبية والتقاليد الشعرية، مُحَّد بريري، ص ١٣٢

(٢) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج١، ص١١٥

(٣) ينظر تحليل الأبيات في المبحث الأول من الفصل الأول ص٢٠

(٤) يُنظر "الأسلوبية والتقاليد الشعرية"، مُحَّد بريري، ص ١١٠- ١١١

ويصف أبو ذؤيب الهذلي ريق محبوبته، ويجعله أطيب من العسل المجتلب من أعالي الجبال ممزوجاً بماء مَوْهَبة نقيّ بارد عذب، وهو يجعل ريق المحبوبة يفوق الماء مصدر الحياة، ويفوق العسل في حلاوته وشفائه للناس. يقول[(١)]:

وما ضَرَبٌ بيضاءَ يأوي مليكُها ... إلى طُنُفٍ أعْيا بِراقٍ وَنازِلِ[(٢)]

تُهالُ العُقابُ أنْ تَمُرَّ بِرَيْدِهِ ... وتَرْمِي دُرُوءٌ دُونَهُ بالأجادِلِ[(٣)]

تَنَمَّى بِها اليَعْسوبُ حتى أَقَرَّها ... إلى مَأْلَفٍ رَحْبِ المَبَاءَةِ عَاسِلِ[(٤)]

فلو كان حبلٌ من ثمانينَ قامةً ... وتِسعينَ باعاً نالَها بالأنامِلِ

تَدَلَّى عليها بالحِبالِ مُوَثَّقاً ... شَدِيدُ الوَصاةِ نابِلٍ وَابْنُ نابِلِ[(٥)]

إذا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا ... وَخَالَفَهَا في بيتِ نُوبٍ عَوامِلِ

فَحَطَّ عَلَيْهَا والضُّلوعُ كأنها ... من الخوفِ أمثالُ السهامِ النواصِلِ

فَشَرَّجَهَا مِنْ نُطْفَةٍ رَجَبِيَّةٍ ... سُلاسِلَةٍ مِنْ ماءِ لِصْبٍ سُلاسِلِ[(٦)]

بماءِ شُنانٍ زَعْزَعَتْ مَتْنَهُ الصَّبَا ... وجادَتْ عَلَيْهِ دِيمَةٌ بَعْدَ وَابِلِ[(٧)]

بِأَطْيَبَ مِنْ فِيهَا إذا جِئْتُ طارِقاً ... وَأَشْهَى إذا نامَتْ كِلابُ الأسَافِلِ

فقد اعتنى أبو ذؤيب بالعسل ووصفه، ووصْفِ صعوبة الوصول إليه حينما عرَّض المشتار نفسه للمهالك فتدلى بالحبال من مكان شاهق ليصل إلى مكان العسل، وبعد أن جاء بالعسل "ضَرَب بيضاء" خلطها ومزجها بماء رجبي بارد نزل في الشتاء، وهذا الماء جاء من شِقِّ الجبل، وهو سلس سهل عذب.

يقول الدكتور محمد أبو موسى معلقاً على بيت:

---

(١) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج١، ص١٤٢

(٢) المصدر السابق، استضرب العسل: اشتد بياضه، الطُّنُف: حَيْدٌ من الجبل يَنْدُر، ورأس من رؤوسه، أعْيا: غَلَبَ مِنْ أن يُرْقَى عليه أو يُنْزَل.

(٣) السابق، الرَّيْد: ما نَتَأَ من الجبل، فنَدَرَ حَرْفٌ منه ناتئٌ. والدُّروء: الشاخِصُ من الجبل. الأجادِل: الصقور، يقول: إذا طارت الصقور إلى هذه الدُّروء، قَصَّرت عنها فلم تبلغْها، وعجزت أن تنالها فتسقط، فجعل سقوطها رمياً من الجبل لها.

(٤) السابق، تَنَمَّى: أي تَرَفَّع بها هذا اليعسوب حتى وضعها في مألف واسع، أَقَرَّها: أنزلها وأسكنها، المباءة: المنزل، عاسِل: كثير العسل.

(٥) السابق، شَدِيدُ الوَصاةِ: شديد الحِفاظ لما أُوصِيَ به.

(٦) السابق، شَرَّجَها: مزجها وخلطها، نطفة رجبية: ماء أصابهم في رجب، وكان رجب يكون في الشتاء، سلاسلة: سهلة سريعة الدخول في في الحلق، اللصب: الشق في الجبل، سلاسل: عذب بارد

(٧) السابق، شُنان: الماء البارد الذي يسيل في الجبل، زعزعت متنه: حركت أعلاه، الديمة: المطر الدائم، الوابل: المطر الشديد الوقع، العظيم القدر.

فَشَـــرَّجَهَا مِـــنْ نُطْفَـــةٍ رَجَبِيَّـــةٍ   سُلاسِـلَةٍ مِـنْ مـاءِ لِصْـبٍ سُلاسِـلِ

" وعناية الشاعر في هذا البيت بعذوبة الماء ونقائه وصفائه وبرده عناية ظاهرة والبيت يُبنى على ذلك، وكل كلمة فيه تؤكد هذا المعنى ابتداء من كلمة رجبية المؤذنة بطيب الجو وكلمة سلاسلة التي كررها ومعناها إقبال النفس عليه وبهجتها به وكلمة لصب وماؤه أبرد الماء وأنقاه لأنه ليس ماءً وارداً وإنما هو في ركن بعيد لا يصل إليه الوارد "[1].

وهذا البيت يومئ إيماءات خفية إلى مكانة المرأة وصفاتها، فالماء في صفائه وعذوبته وبرودته يومئ إلى النقاء والطهر وجميل الطبع.

ويرى الدكتور محمد أبو موسى أن الشاعر في قوله: "سُلاسِلَة من ماء لصب سُلاسِلِ" جعل السلاسلة عِرْقاً في نسب هذه النطفة فهي سلاسلة وأبوها ماء لصب سلاسل[2].

ويرى – أيضاً – أن أبا ذؤيب يومئ إيماءة خفية إلى قوله "نابل وابن نابل"، وهو الرجل الحاذق الذي تدلى بالحبال ليصل إلى العسل[3].

وقوله "سلاسلة من ماء لصب سلاسل" فيه إيماء إلى علو نسب المرأة ومكانتها وعزة آبائها، وأن هناك علاقة بينها وبين ذلك الحاذق الذي ورث الحذق عن آبائه، لأن العسل لن يصل إليه إلا النابل ابن النابل، ونطفة الماء سلاسلة من ماء لصب سلاسل، وكأنها لن ترتضيَ شريكاً لها إلا الحاذق ابن الحاذق.

ثم جعل فاها أطيب من الماء العذب البارد ومن العسل الأبيض الذي لم يصل إليه المشتار إلا بعد أن خاطر في مَهلكة من أجل الحصول عليه. وهناك إشارات إلى علو شأن المرأة وحصانتها وصعوبة الوصول إليها.

ويقول أبو ذؤيب الهذلي[4]:

ومـــا إنْ فضـــلةٌ مـــن أذرِعـــات   كعـين الـديك أحْصَـنَها الصُّـرُوح[5]

مُصـــفَّقةٌ مُصَـــفَّاةٌ عُقـــارٌ   شـــآمية إذا جُلِيَـــتْ مَـــرُوح[6]

إذا فضـــت خواتمهـــا وفُكَّـــت   يقـــال لهـــا دم الـــوَدَجِ الـــذبيح

ولا مُتَحَـــيِّرٌ باتـــت عليـــه   ببلقعـــة يمانيـــة نفـــوح[7]

---

(١) الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، د. محمد أبو موسى، ص٥٨٠

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة

(٣) السابق، نفس الصفحة

(٤) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٧١- ١٧٢

(٥) المصدر السابق، نفس الصفحة، فضلة: يعني الخمر، الصروح: القصور.

(٦) السابق، مصفقة: تحول من إناء إلى آخر، عُقار: لازمت العقل والدن، مروح: لها سورة في الرأس، ويمرح من يشربها.

(٧) السابق، ج١، ص١٧٢، متحير: ماء قد تحير من كثرته، فليست له جهة يمضي فيها.

خــــلافَ مَصَــــابِ بارقـــةٍ هَطُـــول مُخــــالِطُ مائهـــا خصـــر وريـــح

بأطيـــبَ مـــن مُقَبَّلِهـــا إذا مـــا دنا العيـــوق واكتــــتم النُّبُــوح

فجعل مُقَبلها حين دنو نجم العيوق واكتتام أصوات الكلاب وهو وقت الهجوع وعنده تتغير الأفواه، جعله حين ذلك أطيب من الخمر المصفاة الممزوجة بماء صافٍ بارد.

وقد اعتنى في وصف الخمر والماء لعنايته بالمرأة، فالخمر محصنة، وقد صُفِّيت أكثر من مرة، وهي تجلب المرح لصاحبها، والماء متحير من كثرته هطلت عليه السماء ثم هبت عليه رياح باردة.

ويعلق الدكتور محمد بربري على هذه الأبيات:

وتبدو الخمر في مثل هذا الشعر كالأنثى "المحصنة" غير المبذولة. مما يقوي هذا المعنى قوله بعد ذلك "إذا جُلِيَتْ مَروح" إذ يشخص الشاعر الخمر فيجعلها أقرب شيء إلى عروس تمرح يوم جلوتها، و الشُّرَّاح يقولون أن المقصود بقوله "مروح" أن من يشربها يمرح، ولكننا لا نستطيع أن نغفل المعاني المضمرة التي تتجاوز المعنى الحرفي الذي يسعى الشراح لبيانه. فالوعي الشعري لا يفصل في "مروح" و"جليت" و"أحصنها الصروح" بين الخمر رمز الصفاء، والأنثى المصونة المحصنة. وقد ربط الشاعر بين المرأة و"العيوق" وأضاف إلى التطلع إلى السماء شيئاً آخر هو قوله: "إذا ... اكتتم النبوح" مما يبعث في النفس الإحساس بالجلال الذي يصاحب لحظة السكون الكوني الذي يوحي به الشاعر حين يربط بين العيوق وهذا الصمت الذي يكتنف الحياة والأحياء(١).

ومن الملاحظ أن الشعراء الهذليين يختمون حديثهم في بعض صور المطر والمرأة بذكر النجوم، كقول أبي صخر:

خــــالطَ طعْـــمَ ثناياهـــا وريقتَهـــا إذا يكـــون تـــوالي الـــنَجْمِ كـــالنُّظُمِ

وقول أبي ذؤيب:

بأطْيَـــبَ منهـــا إذا مـــا النجـــو مُ اعْتَـــنَقْنَ مِثْـــلَ هَـــوَادِي الصَّـــدَرْ

وقوله:

بأطيـــبَ مـــن مُقَبَّلِهـــا إذا مـــا دنا العيـــوق واكتــــتم النُّبُــوح

وكأن الوعي الشعري يريد أن يوحد بين الصفاء والطهر الذي يوحي به ماء السماء، وبين المرأة التي يقترن ذِكْرُها بالنجوم الدائرة في أفلاكها، وهذا يخلق إحساساً بأشواق عميقة إلى عالم من التعالي والسمو(٢).

ويتميز الهذليون عن غيرهم بأن حديث البرق والسحاب والمطر يبتدئ عندهم من المرأة، وهذا من

---

(١) يُنظر "الأسلوبية والتقاليد الشعرية"، محمد بربري، ص١١١

(٢) يُنظر المصدر السابق، ص ١١٦

التقاليد الشعرية لديهم، أما غيرهم فليس لازماً في تقاليدهم الربط بين المرأة والمطر في أول صورة المطر[1].

يقول أبو ذؤيب الهذلي:

أمنـــكِ بـــرقٌ أبيـــتُ الليـــلَ أرقبُـــهُ كأنــه في عِــراضِ الشــأمِ مصــباحُ[2]

ويقول:

أمنـــكِ الـــبرقُ أومـــضَ ثم هاجـــا فَبِـــتُّ إخالُـــهُ دُهمـــاً خِلاجـــا[3]

ويقول صخر الغي:

لشـــماءَ بعـــدَ شـــتاتِ النَّـــوَى وقــدْ بِــتُّ أَخْيَلْــتُ برقــاً وَلِيفــا[4]

ويقول ساعدة بن جؤية:

أفعنـــكِ لا بـــرقٌ كـــأن وميضـــه غـــابٌ تَشَـــيَّمَهُ ضِـــرامٌ مُثْقِـــبُ[5]

وقوله:

ومنـــكِ هـــدوَّ الليـــلِ بـــرقٌ فهـــاجني يصـــدِّع رُمكـــاً مســـتطيراً عقيرهـــا[6]

ويقول أبو قلابة:

يا بـــرق يَخْفِـــى للقتـــولِ كأنـــه غـــابٌ تَشَـــيَّمَهُ حريـــقٌ يُـــبَّسُ[7]

ويقول المتنخل:

هـــل هاجـــكَ الليـــلَ كَلِيـــلٌ علـــى أسمـــاء مـــن ذي صُـــبُرٍ مُخْيِـــلِ[8]

"وقد أكثر الشعراء من ذكر البرق، لاسيما في الليل، وهذا يرجح أن يكون البرق في الشعر الجاهلي هو بصيص الأمل الذي ينير لهم السبيل في هذه الحياة"[9]

وهناك صور كاملة للمطر والمرأة تبدأ بالبرق وتنتهي بالنَّبْتِ على نواحي الأرض، ومنها مقطوعة لأبي ذؤيب الهذلي، يقول مخاطباً المرأة[10]:

---

(١) يُنظر "الأسلوبية والتقاليد الشعرية"، مُحَمَّد بربري، ص١٤٠ – ١٤١

(٢) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج١، ص١٦٧

(٣) المصدر السابق، ج١، ص١٧٧، خلاجا: إبل.

(٤) السابق، ج١، ص٢٩٤

(٥) السابق، ج٣، ص١١٠٣

(٦) السابق، ج٣، ص١١٧٦

(٧) السابق، ج٢، ص٧١٥، يخفى: يظهر، تشيمه: دخله

(٨) السابق، ج٣، ص١٢٥٤، كليل: برق ضعيف، صُبُر: جمع صبير وهو الغيم الأبيض.

(٩) اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي شعراء المعلقات نموذجا، أمل محمود عبد القادر أبو عون، ص١٢٠

(١٠) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج١، ص١٧٧

أمنـــكِ الـــبرقُ أومـــضَ ثم هاجـــا فبـــتُّ إخالـــهُ دهمـــاً خِلاجـــا[١]

تَكَلَّـــلَ في الغِمـــادِ فـــأرضِ ليلـــى ثـــلاثاً مـــا أُبِـــينُ لـــه انفراجـــا[٢]

فمـــا أصْـــحَى انْقِـــلاعُ المـــاءِ حـــتى كـــأنَّ علـــى نـــواحي الأرضِ ســـاجا[٣]

جاء في شرح الديوان " أمنكِ، أمِن ناحيتك، أمِن شق منزلك"[٤].

والبرق بشير المطر، والمطر مادة الحياة التي خلق الله منها كل شيء، وتتلقاه الشفاه الظمأى والصحراء القاحلة بشغف كبير ولهفة، وكانوا يراقبون البروق، وهي بمثابة بشارات خير وافر، ولكن البرق هنا له ارتباط وثيق بالمرأة، و الشاعر يستعيض بمراقبة البرق عن فقد المحبوبة، فيراقب بشير الحياة الذي يحييه من ميتة فراق الأحباب، ومراقبته للبرق انتظاراً للغيث هو مراقبة لها وانتظار لعودتها. ولدى الشاعر سر عندما جعل المطر صادراً من ناحيتها، وكأنه يرى أنها مصدر البرق.

وللدكتور مُحَمَّد بربري كلام حول هذا؛ فهو يرى أن الهذليين لهم أسلوب واحد في الربط بين البرق والمرأة، فيقولون: أمنكِ برق، أو أعنكِ برق، أو لشماء برق. ثم يقول: والشراح يقولون إن هذا يعني أن الشاعر يرى البرق من جهة المحبوبة أو من أرضها، ولكننا لا نستطيع أن نهمل ما تتضمنه هذه الخصوصية الأسلوبية من إيحاء بأن البرق يتولد عن المرأة، أو أن المرأة تتضمن البرق على نحو من الأنحاء. ودلل على هذا، بأنه استقرأ بعض نصوص الهذليين فوجد أنهم ينتقلون أحياناً انتقالاً مفاجئاً من الحديث عن البرق والمطر إلى الكلام عن المرأة بحيث تبدو وكأن المطر والبرق ينشقان عن المرأة[٥].

وعند أبي ذؤيب في المقطوعة السابقة، بدأ البرق بالوميض، وهو بداية الأمل، ثم هاج البرق وأصبح مطراً حقيقياً. أما تفاصيل الصورة، فتبدأ من نظر الشاعر إلى السماء لعله يرى أملاً يبشره، فيرى وَمِيض برق خفيف من بعيد، فيعتقد أنه صادر عن محبوبته، فيظل يراقب ذلك البرق حتى يقترب سحابه، فتستطير بروقه وتهيج، ويرى السحابة في لونها وصوت رعدها كالإبل الدُّهْم التي فقدت أولادها فَتُكْثِرُ الحَنين، وهي محملة بالماء كحال تلك الإبل التي لم تُحلب لأن أولادها فُقِدوا.

أما قوله: (تَكَلَّل)، فقد ذكر الشارح في تفسيره قولين: أحدهما: تَنَطَّق واستدار، الآخر: تَبَسَّم، وقد

---

(١) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج١، ص١٧٧، أومض: برق برقاً خفيفاً، دُهْم: سود، خِلاج: التي اخْتُلِجَتْ أولادها عنها إما بموت أو أو ذبح.

(٢) المصدر السابق، تكلل: تَنَطَّق واستدار، ووجه آخر: تَبَسَّم، مثل: " امرأة تَنْكَلُّ "، أي تضحك، وانْفِراجه: انكشافه. وجاء في ديوان أبي أبي ذؤيب الهذلي، شرح: سوهام المصري، المكتب الإسلامي — بيروت، ط١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م، ص٤٤، والغِمَاد: مَوْضِع.

(٣) السابق، أَصْحَى: كَفَّ، يقول: لم ينقطع انصباب الماء حتى كأن الأرض أُلْبِسَتْ لخُضْرَتُها طَيْلَساناً. جاء في لسان العرب، (سوج)، ج٧، ص٢٩٣، السَّاج: " وهو الطَّيْلَسَان الأخضر "، وجاء فيه (طلس)، ج٩، ص١٣٢، " والطَّيْلَسانُ: ضرب من الأكسية ".

(٤) السابق، ج١، ص١٧٧

(٥) يُنظر " الأسلوبية والتقاليد الشعرية "، مُحَمَّد بربري، ص١٤٢

اختار محمد الحسن الأمين المعنى الثاني، وقال بأن في ذلك استعارة مكنية، وهي في تشبيه السحاب بامرأة، وقد تأتي تبعية في تشبيه الإيماض بتبسم المرأة، والتبسم هنا يعني الاستبشار والأمل، ويميل إلى قيام الصورة في الفعل، لأن وميض البرق يتجلى فيه معنى وميض الابتسام سيّما وأن الشعراء ينظرون إلى أسنان المحبوبة بمنظار مثالي، والشاعر يريد أن ينتزع الصورة من الحبيبة نفسها لأنها مصدر البرق(١).

واستمر المطر يهطل على الغِماد (وهي أرض الشاعر) وديار ليلى ثلاثة أيام لم ينفرج سحابه، ولم ينقطع حتى كأن الأرض قد أُلبِست ساجاً من خضرتها، أي طيلساناً من النبت(٢).

وصورة المطر هنا جاءت في غرض الغزل، والمرأة هي مصدر ذلك المطر، لذلك جاء الخطاب موجَّهاً لها، ويُلاحظ أن الشاعر في هذه المقطوعة لم يُفَصِّل كثيراً في صورة المطر، بل اقتصر على تحديد مصدر البرق، وشكل السحاب، ومدة المطر ونتيجته، ومكان هطوله، ولم يتطرق إلى الرعد ولا إلى التفصيل في وصف السحاب وذِكْر دُنُوِّه أو إشْرافِه، ولم يصف شدة المطر والسيل، فترك كل هذه التفاصيل وانتقل إلى ذكر النتيجة التي يريدها الكل من المطر، وهي حياة الأرض وزينتها.

ولم يرد في صورة المطر هذه أن وقع المطر شديد وأن السيل مدمِّر، لأن ذلك لا يتناسب مع الغرض الذي أراده الشاعر،بل كان وقْع المطر تَبَسُّماً على الديار.

كما يلاحظ تركيز الشاعر على الجانب الجمالي، لأنه يخاطب المحبوبة، فانتقى لها أجمل ما في المطر من صور، فالبرق بدأ بالوميض الذي يبعث البشرى في النفس، ثم تَصْدُقُ البشرى ويعبر الشاعر عن ذلك بتبسم البرق والسحاب للأرض، وهذه الصورة الجميلة سببها أن البرق صادر عن المحبوبة، وبعد المطر لبست الأرض أجمل لَبُوس، وهو الكِساء الطَّيْلَسانيّ الأخضر الجميل.

ولي وقفة مع تحديد أيام المطر ثلاثة أيام، فقد وجدت بعض الشعراء الهذليين يحددون وقت المطر بهذه المدة، كقول أبي ذؤيب:

ثـــــلاثاً فلمـــــا اســــتُجيلَ الــــربا ... بُ واســتجمعَ الطِّفْـلُ فيــه رُشُــوحا(٣)

وقول أبي صخر:

ثــــلاثاً فأســـــرت مُزنــــة حضــــرمية ... لهـا ثائـب طـلُّ النـدى بعـد ثائـبِ(٤)

ولعل هذا التحديد له علاقة بالجود والكرم، فقد ورد في أشعارهم أن المطر من جود السماء، يقول أبو ذؤيب:

---

(١) يُنظر " الصورة البيانية في شعر الهذليين دراسة وتحليل ومقارنة "، محمد الحسن علي الأمين، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، فرع البلاغة والنقد، ١٤١٠هـ، ص ٢٠٣ – ٢٠٤

(٢) ديوان أبي ذؤيب الهذلي، شرح: سوهام المصري، ٤٤

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٩٩

(٤) المصدر السابق، ج٢، ص٩١٩

بمـــاءِ شُـــنانٍ زَعْزَعَـــتْ مَتْنَـــهُ الصَّـــبَا وجـــادَتْ عَلَيْـــهِ دِيمَـــةٌ بَعْـــدَ وَابِـــلِ[١]

ويقول قيس بن العيزارة:

ســـقى الله ذات الغَمْـــرِ وبـــلا ودِيمـــةً وجـــادتْ عليـــهِ البارِقـــات اللوامِـــعُ[٢]

وبما أنهم يرون ما ينزل من السماء جوداً وَكَرَماً فقد حددوا وقته بالثلاثة أيام، وعادة الكرم من الخصال الحميدة عند العرب التي بها يتفاخرون، ولما جاء الرسول ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق حث على الكرم وحدد أن إكرام الضيف ثلاثة أيام. جاء في صحيح مسلم: "حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ. حَدَّثَنَا لَيْثٌ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ؛ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعَتْ أُذُنَایَ وَأَبْصَرَتْ عَيْنَایَ حِينَ تَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– فَقَالَ "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ". قَالُوا: وَمَا جَائِزَتُهُ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ "يَوْمُهُ وَلَيْلَتُهُ وَالضِّيَافَةُ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ".[٣]

أما مليح الهذلي فقد ذكر صورة للمطر ثم تطرق للمرأة، يقول[٤]:

تَنَبَّـــهْ لِـــبرقٍ آخِـــرَ الليـــلِ مُوصِـــبِ رفيـــعِ السَّـــنا يبـــدو لنـــا ثم ينضُـــبُ[٥]

تـــراهُ كَتَخْفَـــاقِ الجَنـــاحِ ودُونَـــهُ مـــن النَّـــيرِ أو جَنْـــبَيْ ضَـــرِيَّةَ مَنْكِـــبُ[٦]

ســـرى دائبـــا في الرمـــلِ يـــترك خلفَـــهُ مَوَاهِـــبَ لم يعتِـــكْ علـــيهِنَّ طُحْلُـــبُ[٧]

بـــذي هَيْـــدَبٍ أمـــا إذا مـــا عـــلا الـــرُّبَى فَيُـــرْوِي وأمـــا كـــل وادٍ فَيَرْعَـــبُ[٨]

تـــرى مُرَعـــاً يَخْـــرُجْنَ مـــن تحـــتِ وَدْقِـــهِ مـــن المـــاءِ جُـــوناً رِيشُـــها يَتَصَـــبَّبُ[٩]

فراقبتُـــهُ حـــتى تَيَـــامَنَ واحْتَـــوَتْ مَطافِيـــلَ مِنْـــهُ حُـــرَّيَاتٌ فـــأغرُبُ[١٠]

في صورة المطر هذه، تنبه مليح للبرق قبل صاحبه، فخاطب صاحبه منبهاً له.

وكثيراً ما يذكر الشعراء أنهم هم الذين يرون البرق أولاً، فينبهون الصاحب لذلك. يقول الدكتور محمد

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٤٢

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٥٩٢

(٣) صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القُشَيْرِي النَّيْسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م، ج٣، "باب الضيافة ونحوها"، ص١٣٥٢– ١٣٥٣

(٤) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج٣، ص١٠٥٠

(٥) المصدر السابق، موصب: دايم، ينضب: يخفى.

(٦) السابق، ج٣، ص١٠٥٠، النير: جبل، ضرية: أرض، منكب: جانب منه.

(٧) السابق، مواهب: غدران، يعتك: يلصق.

(٨) السابق، هيدب: سحاب متدلٍ، يرْعَبُ: يملأ.

(٩) السابق، ج٣، ص١٠٥١، مُرَعٌ: طير، واحدتها مُرَعَة.

(١٠) السابق، احْتوَت: أخذت ماءها، مطافيل: سحاب كبار معه صغار، ومطافيل غزيرة فيها ماء كالمطافيل من الإبل، حُرَّيات: بلد.

أبو موسى: " شَيْم البرق كان بمثابة الرَّبِيئَة[1] لا تكون إلا من الأفضل الأكرم، الذي يحمل هم العشيرة، وكان من المناقب التي تغنى بها الشعراء، وحاله في ذلك كحال خدمة الشرب وإنفاقه المال عليهم، وأنه يُرْزأ ثمناً لهم، وحال اللحوق بأولى الخيل، وأنه يكون في مقدمة الغزاة"[2].

وجاء في لسان العرب: "وَشَامَ السحابَ والبرقَ شَيْماً: نظر إليه أين يَقْصِد وأين يُمْطِر، وقيل: هو النظر إليهما من بعيد"[3]. وهذا الأمر يحتاج إلى كثير تجربة وفِراسة.

وقد عد فخر الدين الرازي الاستدلال بأحوال البروق وتأمل أنواع السحاب على نزول الغيث وعدم نزوله من الفراسة، ولشدة حاجة العرب إلى الغيث يراعون أحوال السحب والبروق، ولأجل كثرة التجربة فقد وقفوا على ضوابط تلك الأحوال وعرفوا أنه متى يكون الشكل الفلاني والهيئة الفلانية في الغيم نزل المطر، ومتى لم يحل لم ينزل. ثم إن مجامع تلك الاستدلالات محصورة في أمور، أحدها موضع منشأ السحاب، ومعرفة كون ذلك السحاب رقيقاً أم كثيفاً، ومعرفة لون السحاب، ومعرفة كيفية أحوال الرياح ، ومعرفة أحوال البروق. وبهذه الاستدلالات يعرفون السحاب الماطر، وأي البروق خُلَّب وأيها ذات صيب، ولما كثرت تجاربهم في هذا الباب صاروا قادرين على الأحكام الصائبة في هذا الفن[4].

وقد سمي الشاعر شاعراً "لأنه يَشْعُرُ مالا يَشْعُرُ غيره أي يعلم ... وسمي شاعراً لفطنته"[5].

ولفطنة الشعراء وفِراستهم نجدهم هم الذين يتنبهون للبرق الذي هو مظنة المطر، فينبهون الصاحب له. وللشعراء أحوال حين التنبه للمطر، فصاحبنا مليح رأى البرق ثم نبه صاحبه فظل صاحبه يراقب البرق معه، ومنهم من ينبه صاحبه ثم يغفل الصاحب عن مراقبة البرق وربما نام، ويبقى الشاعر وحده يساهر البرق، ومنهم من يأرق وحده وليس معه صاحب ينبهه أو ربما كان معه وتجاهل تنبيهه.

وصخر الغي – مثلاً – أرق وحده حينما قال:

لِشَـــمَّاءَ بعـــد شـــتات النـــوى ... وقـــد بِـــتُّ أَخْيَلْـــتُ برقـــاً وَلِيفَـــا

أَجَـــشَّ رِبَحْـــلاً لـــه هَيْـــدَبٌ ... يُكَشِّـــفُ للخـــالِ رَيْطـــاً كَثِـــيفا

كـــأن تواليـــه بالمـــلا ... ســـفائن أعجـــم مـــايحن ريفـــا

أرقـــت لـــه مثـــل لمـــع البشيـــ ... ـــر يقلـــب بالكـــف فرضـــاً خفيفـــا[6]

---

(١) يُنظر " أساس البلاغة "، (ربأ)، ص ٢١٤، " ربأ للقوم وربأهم: كان لهم ربيئة أي عينا يرقب لهم ".

(٢) الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، مُحَمَّد أبو موسى، ص ١٣٧

(٣) لسان العرب، (شيم)، ج٨، ص١٧٩

(٤) يُنظر "الفراسة عند العرب وكتاب الفراسة لفخر الدين الرازي"، تأليف د. يوسف مراد، ترجمة وتقديم د. مراد وهبة، مراجعة د. إبراهيم بيومي مدكور، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م، ص ١٠٦

(٥) لسان العرب، (شعر)، ج٨، ص٨٩

(٦) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص٢٩٤

وكذلك ساعدة بن جؤية يأرق وحده:

ومنــكِ هــدو الليــل بــرقٌ فهــاجني ... يصـــدع رمكـــاً مســـتطيراً عقيرهـــا

أرقـــت لـــه حـــتى إذا مـــا عروضـــه ... تحـــادت وهاجتهـــا بـــروق تطيرهـــا[١]

وظاهرة شيم البرق كانت عادة عند شعراء هذيل وغيرهم، ولكن تفاصيلها تختلف من شاعر لآخر، فهاهو امرؤ القيس يأرق للبرق وينام صاحبه:

أرقت له ونام أبو شريحٍ[٢]

وأوس بن حجر يأرق ويعاتب صاحبه لأنه نام ولم يأرق معه، يقول:

إني أرِقْـــتُ ولم تأرق معـــي صـــاحي ... لمســـتكفٍ بعيـــد اللـــوم لـــواح

قـد نمـت عـني وبات الـبرق يسـهرني ... كمـــا استضـــاء يهـــودي بمصـــباح[٣]

وأعود إلى أبيات مليح الهذلي عن المطر وسياقها الذي وردت فيه، وقبل أن أربط الأبيات بالسياق، استوقفني رأي للدكتورة سلامة السويدي. فهي ترى أن المحبوبة في شعر مليح مفارقة دائماً، وتتعدد الفواصل والموانع التي تحول بينه وبينها، فهناك الفاصل المكاني، حيث ترحل المحبوبة إلى مكان تفصل الشاعر عنه فيافٍ وجبال وأسفار، وهناك فاصل آخر من العداوة، فقوم مليح في حرب مع قومها، أو أن رجالاً من قوم المحبوبة تشتعل أنفسهم حقداً له وكراهية، وإذا ذكر اسمه لهم ظل لأضلعهم زفير من شدة الحنق[٤].

وقد صدقت الدكتورة سلامة السويدي فيما قالت، فعندما عدت إلى أبيات مليح الهذلي الذي راقب في مقدمتها البرق وصور لنا المطر، وقرأت القصيدة كاملة وجدته يقول بعد صورة المطر مخاطباً المرأة:

فقلـــتُ لهـــا يا لَيْـــلُ كيـــف أزورُكـــمْ ... وقـد جعلـت في جنبِـكِ الحـرب تَحْـدَبُ[٥]

بلـــى ثم ترمـــي بالنجائـــب نحوهـــا ... دُجَـى الليـل عـن هاماتهـا يَتَجَـوَّبُ[٦]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٧٦

(٢) ديوان امرئ القيس، تحقيق: مُحَّد أبو الفضل إبراهيم، شطر البيت كان في منازعة بين امرئ القيس والتوءم اليشكري، حيث قال له: إن كنت شاعراً فملِّط أنصاف ما أقول وأجزها، فقال امرؤ القيس:

أحارِ ترى بريقاً هبّ وهنَا ، فقال التوءم: كنارِ مجوس تستعر استعارا

فقال امرؤ القيس: أرقت له ونام أبو شريح ، فقال التوءم: إذا ما قلت قد هدأ استطارا

فقال امرؤ القيس: كأن هزبزه لوراء غيب ، فقال التوءم: عِشار وُلَّهٌ لاقت عشارا

فقال امرؤ القيس: فلما أن دنا لِقَفَا أُضاخٍ ، فقال التوءم: وهت أعجاز ريّقه فحارا

فقال امرؤ القيس: فلم يترك بذات السر ظبيا ، فقال التوءم: ولم يترك بجَلهَتِها حمارا

(٣) ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح د. مُحَّد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م، ص١٥

(٤) يُنظر بحث "مليح بن الحكم شاعر من هذيل"، د. سلامة السويدي، ص٦٨

(٥) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص ١٠٥٢، تَحْدَبُ: تَحَرَّكُ وتَجِدُّ.

(٦) المصدر السابق، يَتَجَوَّبُ: يتكشَّف

فالمحبوبة بعيدة عن مليح مُفارقة، ويصعب الوصول إليها لأن هذيل في حالة حرب مع قومها، ولذلك أصبح مليح يقاسي ما يقاسيه من لوعة الفقد وآلام الفراق، وعندما حدد زمان البرق في قوله:

تنبه لبرق آخر الليل موصبِ

يعني ذلك أنه لم ينم ليله لما يقاسيه من فراق الأحباب، وتعذر الوصال، وكذلك صاحبه لم ينم تلك الليلة إشفاقاً عليه، فلم تطاوعه نفسه أن ينام وصاحبه مُلَيْح يقاسي ما يقاسي، فظل مستيقظاً معه.

وفي آخر الليل جاء الفرج بعد الشدة وظهر البشير والأمل، فأمر مليح صاحبه أن يتنبه للبرق، وكانت بارقة أمل تعيد له أمانيه، وقد عرف مليح بفراسته أنه برق يتبعه المطر، وكانت صورة المطر التي صورها الشاعر تفاؤلاً منه بأنه سيلقى محبوبته مهما كانت الظروف.

وظل مليح يراقب البرق وصاحبه معه لم يغفل عن ذلك حتى أمطر المطر وسال السيل وأصبحت الغدران تملأ المكان، وكان المطر من سحاب متدلٍ غشي مطره الرُّبَى والأودية وذلك بسبب كثرته، ودليل كثرته ابتلال الطيور.

ومن الملاحظ أن مليح الهذلي حينما نبه صاحبه للبرق أخذ يثبت له صدق فراسته في أكثر من موضع، وذلك بتكرار كلمة (ترى)، وقد بدأها بالتنبيه على هيئة البرق(تراه كَتَخْفَاقِ الجناح)، وكأنها هيئة يعرف من خلالها أن البرق غير خُلَّب، ثم كررها ليثبت له تحقق فراسته بأن المطر كثير، وذلك عندما أراه الطير وريشها يتصبب ماءً:

ترى مُرَعاً يخرجن من تحت ودقه ... من الماء جُوناً ريشها يتصبب

"والشاعر حين يقول ترى كأنه يضع بين عينيك ما يجب أن تنظر فيه ويصوره، ويحضره شاخصاً حياً"(١).

وعند هذا البيت انتهى دور الصاحب، ولم يعد له ذكر في لوحة المطر، وظل مليح يراقب وحده سير السحاب بعدما أمطر:

فراقبته حتى تيامن واحتوت ... مطافيل منه حرياتٌ فأغرُبُ

والصاحب حينما رأى تحقق فِراسة الشاعر انتهى دوره، لأنه عندما نبهه الشاعر للبرق أخذ يراقبه معه ليتأكد من صدق فِراسته، ولما تحقق المراد وارتوت الأرض غفل الصاحب عن مراقبة السحاب.

ولكن المطر له معنى آخر في نفس الشاعر، فهو يستعيض به عما يلاقيه من فراق كان بمثابة الموت لديه، ولذلك احتفى كثيراً به، وكان يكرر لصاحبه كلمة (ترى)، ليريه تفاصيل المطر باستبشار وفرح بما يراه. ثم أخذ يراقب السحاب حتى رآه تيامن، أي: "أخذ ناحية اليمن"(٢).

---

(١) قراءة في الأدب القديم، محمد أبو موسى، ص١١٩

(٢) لسان العرب، (يمن)، ج١٥، ص٣٢٧

وانتقال المطر إلى هذه الجهة له وقع في نفس الشاعر، لذلك احتفى بذلك وأخذ يصف السحاب ويشبهه بالإبل المطافيل، ولعل المحبوبة كانت ديارها ناحية اليمن.

ويُلاحظ أن الشاعر في وصف المطر اهتم بمضمون المطر ولم يسهب في وصف مقدماته، إلا أنه ذكر البرق ثم شبهه بتَخْفَاق الجناح، ولكنه لم يذكر الرعد ولم يذكر لون السحاب، بل انتقل مباشرة إلى وصف السيل، فقال في البيت الثالث:

سرى دائبا في الرمل يترك خلفه ... مواهب لم يعتِك عليهن طحلب

وأرى أن تعليل ذلك هو أن الشاعر لَمَّا بَعُدَت محبوبته عنه وتعذر الوصول إليها جعل المطر متنفساً له ليشفي ما في صدره، ورمزاً لأمله في لقاء المحبوبة، وأنه ينتظر لقاءَها انتظارَه المطر بعد الجدب، ويرى أن تحقق السقيا هو تحقق الوصال، وجاءت الصورة الكنائية التي تصف صفاء غداران الماء التي خلَّفها السيل في قوله (لم يَعْتِك عليهن طُحْلُب) مُعَزِّزَةً جانب الصفاء والطهر من هذه السقيا.

وكان الشاعر شغوفاً بشيئين، هما: البرق، لأنه البشير، والسقيا ذاتها، فانتقل مباشرة من البرق إلى السيل.

ويلاحظ — أيضاً — اهتمام الشاعر بالجانب الجمالي في صورة المطر، فالبرق خفقانه كجناح الطائر، والماء صافٍ لا ترى به الطحالب، والسحاب متدلٍ قريب من الأرض كأنه هُدْب الثوب، وكذلك تخلو الصورة من صوت الرعد المخيف المفزع.

ويقول ساعدة بن جؤية الهذلي[1]:

أَخْيَلَ برقاً متى حابٍ له زجلٌ ... إذا يُفَتِّرُ من توماضه حَلَجا[2]

مستأرضاً بين بطن الليثِ أيمنه ... إلى شمنصيرَ غيثاً مُرسَلاً مَعِجا[3]

فأسأد الليلَ إرقاصاً وزفزفةً ... وغارةً ووسيجاً غملجاً رَتِجا[4]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج٣، ص١١٧٣، وقد وردت القصيدة — أيضاً- في ديوان الهذليين، تحقيق: أحمد الزين، ومحمود أبو الوفا، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٩٩٥م، ج٢، ص٢٠٨، وجاء ما نصه: "قال في الأم: هذا من غير رواية أبي سعيد جعلناه في هذا الموضع" ، وجاء في الحاشية ما نصه: "لعل الشارح أراد بالأم هنا الأصل الذي نقل منه هذه النسخة التي بين أيدينا وأم الشيء أصله ". والقصيدة لا يستقيم معناها إذا قيل أن الشاعر نظمها في أمه.

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٧٣، أخيل برقاً: أي رأى خَلاقَةَ المطر، وأخَلْتُ السحابة وأخْيَلْتُها إذا رأيتها مخيلة المطر، متى حاب: من حاب، الحابي السحاب المرتفع، " حَلَجَ يَحْلِجُ حَلْجاً "، حَلَج: مَطَر

(٣) المصدر السابق، مستأرض: أي استأرض وثبت بالأرض، مَعِجٌ : سريع.

(٤) السابق، الإسآد: سير الليل، الزفزفة: صوت مَرِّه وحفيفه، الغارة: العدو، الغَمْلَج: العدو المتدارك، الرِّتج: هو نفسه مسرعٌ.

حـــــتى أضـــــاف إلى وادٍ ضـــــفادعهُ غرقـــى رُدافَ تراهـــا تشـــتكي النشـــجا[1]

رأى ساعدة الهذلي البرق الممطر، ولم يذكر أنه راقبه وسهر الليل له، بل رآه مباشرة، ثم وصف سحابه بالارتفاع، وكلما سكن البرق أمطر المطر، أي أن ذلك متكرر، ويدل على أنه برق صادق، ونتيجته مباشِرة. والسحاب قريب من الأرض، وممتد من الليث إلى شمنصير[2]، وسار السحاب حتى استقر بوادٍ فأرواه حتى أصبحت الضفادع تردد نقنقتها من الرواء.

ولكي يتسنى تأويل جزئيات الصورة، فلا بد من ربط الصورة بسياق القصيدة.

يقول ساعدة الهذلي في مستهل القصيدة:

يا نُعْـــمَ إني وأيـــديهم ومـــا نحــروا بالخَيْـفِ حيـثُ يَسُـحُّ الـدافقُ المهَجـا[3]

إني لأهـــواكِ حقـــاً غـــير مـــا كـــذِبٍ ولـو نأيـتِ سِـوانا في النـوى حِجَجَـا[4]

حُـــبَّ الضـــريكِ تِـــلادَ المـــال زَرَّمَـــهُ فقـــرٌ ولم يتخـــذ في النـــاس مُلتَحجـــا[5]

صِـــفرِ المبـــاءةِ ذي هِرســـين مُنْعَجِـــفٍ إذا نظـــرتَ إليـــه قُلـــتَ قـــد فَرَجَـــا[6]

أَنَـــدَّ مـــن قـــارِبٍ رُوحٍ قوائمُـــهُ صُـــمٍّ حـــوافرُهُ مـــا يفْتـــأُ الـــدَّلَجا[7]

استهل ساعدة قصيدته بنداء صاحبته نُعْم ليلفت انتباهها، فأقسم لها بما يفعل الحجاج في منى وهو النحر، حيث يسيل دم الهدي، وقد أقسم الشاعر بشيء يعد من أكثر ما يقدسه العرب في جاهليتهم وهو الذبح في منى أثناء الحج. ثم كان جواب القسم أنه يحبها حباً صادقاً. وهو متمسك بحبها حتى لو تركته وذهبت إلى غيره وبقيت حِجَجاً، أي أن حبها يتجدد ولا تمحوه السنين. ثم يبين لها أنه يحبها حب الفقير للمال، وبَيَّنَ حالة الفقير بأن فقره قطع عنه الخير، وليس له من الناس من يلجأ إليه، فهو وحيد بلا عشيرة ولا صديق مُعِين، وهذا الأمر له دلالة في زمن تسيطر عليه الحياة القبلية ومناصرة أبناء العمومة، فالذي يفتقد القبيلة في الجاهلية يعش في أخس حال، وإذا كان فقيراً فذلك أنكى له. وهذا الفقير إذا رأيته حسبته قد فتح فاه للموت. وهو أنفر من حمار وحش في قوائمه اتساع ما يزال يسير ليلته كلها، وفي البيت الأخير لا يقصد بالنفور أنه نشيط، فكيف يكون بهذا النشاط وترى على وجهه علامة الموت، ولكن يقصد بذلك

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٧٤، رُدافى: يتبع بعضها بعضا، النَّشَجُ: تقلع النفس من أجوافها قلْعاً

(٢) يُنظر الفصل الأول، مبحث " البيئة الهذلية وأثرها في تخير صورة المطر" ، ص٢٨

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٧٢، وأيديهم: يمين، الخَيف: خَيْف مِنَى، الدَّافِق: النّاحِر، المهَج: خالص الأنفُس.

(٤) المصدر السابق، نأيتِ سوانا: أي عند غيرنا، و " النَّوَى "، النِّيَّة، وهو الوجه الذي تُريده.

(٥) السابق، الضريك: الفقير، زَرَّمَهُ فقره: أي أفقره وقطع عنه الخير، الملتَحج: الملجأ.

(٦) السابق، صِفرِ المباءة: أي خالِي مَبَارِكِ الإبل، ذي هِرسين: ذِي خَلَقَيْن، مُنْعَجِف: مهزول، قد فَرَجَا: قد فتح فاه للموت.

(٧) السابق، ج٣، ص١١٧٣، أَنَدَّ من قارِب: يقول: هو أنفر من حمار وحش في قوائمه " رَوَح "، أي اتساع، ما يفْتأُ الدَّلَجا: ما يزال يسير، يسير، أي يُحْيِي ليلته جميعاً.

شدة كرهه للناس ونفوره منهم.

وهناك علاقة بين اختيار اسم (نُعْم) في مستهل القصيدة وحال الفقير المعدم وحال الشاعر المحِب؛ فاسم (نُعْم) مشتق من النعمة والخير، وهو يحبها حب الفقير للمال ويحتاجها كحاجته له، وقد جعلها الشاعر هي النعمة التي تغنيه عن المال وعن العشيرة والأصحاب.

والفقير الذي وصفه الشاعر ومَثَّلَ به نفسه، قد فتح فاه للموت بسبب فقره وانعدام أسباب الحياة لديه، ويعتبر المرأة هي التي سترد له حياته. وبَيَّنَ صدق حبه لها، بأنه لن ينسى حبها حتى لو ابتعدت عنه وتعاقبت على فراقها السنون.

بعد ذلك جاء الشاعر بصورة المطر لأن المطر حياة، والشاعر في هذه القصيدة يبحث عن الحياة، لأنه مثل الفقير الذي أشرف به فقره على الموت،ولجأ الشاعر لصورة المطر لأنه يرى علاقة بين احتياج الإنسان للمطر واحتياجه للمرأة.

وبدأ بالبرق الذي رآه، لأنه هو الأمل والبشير، يقول:

أَخْيَـلَ[1] برقـاً مـتى حـابٍ لـه زجـلٌ إذا يُفـتِّرُ مـن توماضـه حَلَجـا

وساعدة لم يذكر أنه راقب البرق وسهر ليله يرقبه، بل ذكر أنه رأى البرق مباشرة، وسحابه ممطر، وكلما كف البرق عن الوميض أمطر السحاب.

ورؤية البرق الممطر بلا مراقبة وطول انتظار جاءت مُسْعِفَةً لحاله، وجاء هذا البرق لينقذه ويعيد له الأمل، لأنه لا يستحمل انتظار البرق، فهو مثل الفقير الذي فتح فاه من الجوع وقلة ذات اليد منتظراً الموت.

والسحاب دانٍ من الأرض (مستأرِض)، ودنوه من الأرض عَطْفٌ على حال الشاعر.

مستأرضـاً بـين بطـن الليـثِ أيمنـه إلى شمنصـيرَ غيثـاً مُرسَـلاً مَعِجـا

والغيث لم يخص مكاناً محدداً بل شمل مساحة شاسعة، لأن شدة حاجة الشاعر إلى الغيث جعلته يستكثر منه ويسقي ما حوله من الديار.

فأسـأد الليـلَ إرقاصـاً وزفزفـةً وغـارةً ووسـيجاً غملجـاً رَتِجـا

والسحاب لسيره صوت وحفيف مثل سير الإبل.

ثم يصل الشاعر إلى مبتغاه وهو سقيا الوادي:

حـتى أضـاف إلى وادٍ ضـفادعهُ غرقـى رُدافَى تراهـا تشـتكي النشـجا

---

(١) ضبطت هكذا في شرح أشعار الهذليين، أما في متن ديوان الهذليين تحقيق: أحمد الزين، ومحمود أبو الوفا، ج٢، ص٢٠٩، فقد ضبطت (أَخِيلُ)، وجاء في الحاشية ما نصه "ضبط هذا اللفظ في الأصل بفتح الألف وسكون الخاء وفتح الياء واللام وهو غير مستقيم الوزن وقد ضبطناه هكذا نقلاً عن اللسان (مادة حلج) على أنه قد ورد في اللسان (مادة ومض) مضموم الألف".

وأضاف بمعنى "مال ودَنا "[1]، أي: مال على الوادي فامتلأ بالماء، وعبر عن ذلك بصورة كنائية، وهي ارتواء الضفادع، فأصبحت تطلق أصواتاً تشبه الذي يقلع النفس من جوفه.

ويُلاحظ في صورة المطر أن البرق صادق، والمطر جاء ليُحيي الأرض، فإن الشاعر يتمنى صِدق حب محبوبنته، ويتمنى لقاءها لتحيي قلبه، وجعل صورة المطر توحي بهذا الأمر.

ثم يقول:

ولا أقـــــيمُ بـــــــدار الهُـــــــون إنَّ ولا آتي إلى الغـدر أخشـى دونـه الخَمَجَـا[2]

وهذا هو الأمر الثاني الذي أقسم عليه، حيث أقسم بما يفعله الحجاج من الذبح بمنى على أمرين:

الأول: أنه يهواها حباً صادقا، حتى لو ابتعدت عنه سنين عديدة.

والثاني: أنه لا يقيم بدار الهوان، ولا يأتي الغدر، وهو هنا يفخر بنفسه، ويبين لها حُسْنَ مَعْشَرِهِ، وطيب معدنه، وكأنه يغريها بحبه، ويبين لها أنها إذا اصطفته حبيباً لها فسوف يجعلها تقيم معه بدار العز والكرامة وطيب المعشر.

ويقول في صورة أخرى للمطر[3]:

ومنـــكِ هُـــدُوَّ الليـــل بـــرقٌ فهـــاجني يُصَـــدِّع رُمْكـــاً مســـتطيراً عَقيرُهـــا[4]

أَرِقـتُ لـه حـتى إذا مـا عُرُوضُـهُ تحـادت تحـــادت وهاجتهـــا بُـــرُوقٌ تُطيرُهـــا[5]

أَضَـــرَّ بـــهِ ضَـــاحٍ فَنَبْطـــا أُسَـــالةٍ فَمَـــرٌ فـــأَعْلَى حَوْزِهـــا فَخُصُـــورُها[6]

فرَحْـــبٌ فـــأعلام الفُـــرُوطِ فكـــافِرٌ فنخلـــةُ تَلَّـــى طلْحُهـــا وسُـــدُورُها[7]

ومنـــهُ يمـــانٍ مســـتطيلٌ وجـــالسٌ بِعَـــرْضِ السَّـــراةِ مُكْفَهِـــرًّا صَـــبِيرُها[8]

فَحَـــطَّ مـــن السُّـــولِ الملِـــمِّ وتَلَّـــهُ يَحِـــــفُّ بأرْباض الأراكِ ضَـــــرِيرُها[9]

---

(١) لسان العرب، (ضيف)، ج٩، ص٧٧

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٧٤، دار الهون: دار الهوان، إنَّ: بمعنى نَعَم، الخَمَج: سوء الثناء، ومنه خَمِج اللحم إذا أرْوَح.

(٣) المصدر السابق، ج٣، ص١١٧٦

(٤) السابق، نفس الصفحة، هُدُوّ الليل: بعد ساعة من الليل، يصدع رمكاً: تفرج عن سحاب رمك، العقير: الذي عقر من الخيل، فهو يتحامل، مرة يرتفع، ومرة يسقط. جاء في لسان العرب، (رمك)، ج٦، ص٢٢٧، " الرُّمْكة في ألوان الإبل حمرة يخلِطها سواد ".

(٥) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٧٧، عُروضه: يعني سحابه، تحادت: حدا بعضها بعضا، أي تلا بعضها بعضا.

(٦) المصدر السابق، أضر به: لصق به ودنا، ضاحٍ: وادٍ، خصورها: ما حولها.

(٧) السابق، تَلَّى: صرعى.

(٨) السابق، مستطيل: استطل وأشرف، جالس: أتى نجداً، العرض: الوادي، مكفهر السحاب: الذي قد ركب بعضه بعضا، الصبير: الغيم الأبيض البطيء البَراح، ومنه "صبرته"، حبسته، والصبير: الكفيل، لأنه محبوس بصاحبه.

(٩) السابق، الملم: جبل، الأرباض: ما عظم من الشجر، يَحِف: من الحفيف، ضريرها: ما أضر به من الشجر واقتلعه.

فالبرق الذي رآه ساعدة الهذلي كان بعد ساعة من الليل، حينما نام الناس، وهدأ الكون، وغُمِرَ المكان بالسكون، وكانت نفس الشاعر ساكنة لهذا السكون الذي يغطيه الليل ويستره. ولكن البرق اقتحم هذا الهدوء، فأخذ البرق يشع ويتشعب ويصدع السحاب الذي بدا سواده كالإبل الرُّمْك، فتغير الشاعر لهذا، وثارت نفسه وهاجت، وذهب سكون النفس وهدوؤها، فأصابه الأرق وظل يراقب السحاب حتى أمطر وارتوت كل الأماكن التي كانت ذات أهمية لديه، ولم ترتوِ فحسب؛ بل تلَّ السيل كبار أشجارها وصرعها.

ولا تتبين أسرار صورة المطر هذه إلا بعد أن تربط بالنص. يقول في أول القصيدة:

أهاجَــكَ مــن عِــير الحبيــب بكورُهــا	أجـــدّت بليـــل لم يعـــرّج أميرهـــا
تحمّلـــن مــــن ذات السُّـــلَيْمِ كأنّهـــا	ســـــفائنُ يَمٍّ تنتحيهـــــا دَبُورُهـــا
وكانـــت قـــذوفاً بالنـــوى كـــلَّ جانـــبٍ	علـــى كـــل مَـــرٍّ يســـتمرُّ مُرورُهـــا
مُيَمِّمـــــةً نجـــد الشـــرى لا تَرِيمُـــهُ	وكـــان طريقـــاً لا تـــزال تســـيرها
ومـــا مُغْـــزِلٍ تقـــرو أسِـــرَّةَ أيكـــةٍ	مُنَطَّقـــةٍ بالـــمَرْدِ ضـــافٍ بَريرُهـــا
إذا رفعـــت عـــن ناصـــلٍ مـــن سُـــقاطةٍ	تُعـــالي يـــديها في غصـــونٍ تُصِـــيرُها
بـــوادٍ حـــرامٍ لم تَرُعهـــا حِبالـــةٌ	ولا قـــانصٌ ذو أســـهمٍ يســـتثيرها

بدأ الشاعر يسال نفسه، فجرد من نفسه نفساً أخرى يخاطبها، ويحاورها، وهذا لا يكون إلا في المعاني التي لها شأن[١]، ولا شك أن رحيل المحبوبة أمرٌ ذو شأن عنده، فقد هاجه ذلك الأمر، سيما أنه لم يكن على علم مسبق بالرحيل، فقد بكَّرت في الرحيل، وكان الرحيل قبل فلق الصبح. وهذا القدر المحتوم جعل الشاعر يهتاج، ووصل به الحال إلى أن يَعْتَب على أمير الرحلة.

وهنا لفته جميلة من الشاعر، فقد عَتِب على أمير الرحلة عندما لم يعرج عليه وقت الرحيل ليودع أحبابه، مع أن الأمير لا ذَنْبَ له، وربما لم يكن على علمٍ بحبه، وحتى لو علم فإنه من المستحيل أن يأتيه ليخبره بالرحيل ليودع المحبوبة، لأن شِيَم العرب لا تقبل ذلك، ولكن الشاعر في هذه الساعة يختلق السُّخطة من كل شيء في هذه الرحلة حتى وصل به الأمر إلى ذم الإبل التي حملتهم حينما جعل صفتها أنها تقذف بالنوى في كل مُضِيٍّ وذهاب.

أما الحبيبة فيبدو أن الشاعر قد يئس من عودتها عندما قال بأن الإبل ميممة نجد الشرى ولن تبرحه.

وكما هاج الرحيل الشاعر، فقد هاجه البرق، ويُلاحظ تكرر كلمة (هاج) في أول ذِكْر الرحيل وكذلك في أول صورة المطر، وذلك لوجود علاقة كبيرة بين مستهل القصيدة وصورة المطر، وقبل ذكرها، سأبين

(١) قراءة في الأدب القديم، د. محمَّد محمَّد أبو موسى، ص١١٤

معنى هاجَ، فمعناها: " ثار لمشقة أَو ضرر"[١]، "ومن المجاز: هاج الشرّ بين القوم، وهيّجه فلان. وهاج الفحل هيجاً وهياجاً: هدر. وإذا استقلّ الرجل غضباً قيل: هاج هائجه"[٢].

وقد كان الشاعر هانئ البال بقرب المحبوبة، ولكن جاء الرحيل ففرق الشمل ، وكان الرحيل ليلاً دون أن يعلم، فثارت نفسه لتبدل الوصال إلى فراق والقربِ وراحة البال إلى بُعْدٍ عذاب، والذي أثاره وأغضبه أنّ المحبوبة لم تخبره بأنها سترحل ليستعدَّ للرحيل ويودعها وتودعه، ولكنها فاجأته بهذه الرحلة التي كان يكتنفها الليل بأستاره.

وفي ليلة من الليالي وبعد هزيع منه، لمع البرق من جهة المحبوبة، فهاجت أشجانه، وانّكأت جروحه. وهذا البرق لم يكن هيّناً، فهو يتفرق عن سحابٍ كالإبل الرمك.

ثم جاءت كلمة (هاج) للمرة الثالثة في القصيدة عندما قال:

أَرِقتُ له حتى إذا ما عُرُوضُهُ تحادت ... تحادت وهاجتها بُرُوقٌ تُطيرُها

وكما أثار الرحيل الشاعر وأثاره البرق، فإن البروق قد أثارت السحاب، فأمطر على أماكن عدة ذكرها الشاعر، وهي :

وادي ضاحٍ، ووادي نَبْط، وموضع مَرّ، وموضح رَحْب، وموضع أعلامِ الفُرُوط، وموضع كافِر، ووادي نخلة. وهذه الأماكن لم تكن تذْكر حشواً، وإنما لكل مكان قصة وموقف ظل مكنوناً في أعماق قلبه.

والشاعر لا يذكر إلا الأمكنة التي تتراءى فيها الذكريات والأحوال الشاجية، وفي تعدادها ما يكشف عن قوة علقتها بنفسه، وارتباطها بشجنه وقد أكثروا من ذكر الأمكنة، وكان الشعراء يحددون رحلة الصاحبة ويتابعون حركة الركب متابعة دقيقة حتى كأنهم يرسمون خرائط، ويلاحظ أن تعدد الأماكن في الشعر يكون معطوفاً بالفاء غالباً، وفي هذا دلالة على أن لها درجاً ومنازل سواء كان ذلك من حيث ذكريات الأيام الخالية، أو كان ذلك لتتابعها في الرحلة منزلاً بعد منزل.[٣]

ويُلاحظ أن صورة المطر متأثرة بهيجان الشاعر، فجاءت صورة السيل قوية جارفة صرعت النخل والطلح والسدر، وهي أشجار كبيرة معمرة. وهذه الصورة تعبر عن مشاعر جارفة، وغضبةٍ من ذلك الرحيل الذي جاء بغير مقدمات، وكان سرّاً تحوطه أستار الظلام. وهذا الرحيل يصعب اللقاء بعده، وربما لا يكون.

وبعد صورة المطر أتى ساعدة بقصة عجيبة لامرأة كبيرة لها ولد وحيد، فأخبرها الناس بأنه قد مات فأصابها من الوجد ما أصابها، وساعدة يقسم بالله أن تلك المرأة ليست بأوجد منه، يقول:

---

(١) لسان العرب، (هيج)، ج١٥، ص١٢٠

(٢) أساس البلاغة، الزمخشري، (هيج)، ص٩٠٧

(٣) الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، د. مُحَمَّد مُحَمَّد أبو موسى، مكتبة وهبة – القاهرة، ط٢، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ص٢٨٧

وتالله مـــــا إن شـــــهلةٌ أمُّ واحــــــدٍ بأوجـــدَ مـــني أن يُهـــان صـــغيرُها[(١)]

رأتــه علـــى يأسٍ وقـــد شـــاب رأســـها وحـــين تصـــدَّى للهَـــوَانِ عشـــيرُها[(٢)]

فشـــب لهـــا مثـــل الســـنان مـــبرأٌ إمــــام لنــــادي دارِهــــا وأميرُهــــا

عِنــــاشُ عــــدوٍّ لا يــــزال مشــــمرا بِرَجــلٍ إذا مــا الحــرب شُــبَّ سـعيرُها[(٣)]

تقــــدمَ يومــــا في ثلاثــــةِ فتيــــةٍ بجــــرداء نُصــــبٍ للغــــوازي ثغورُهــــا

فبينــــا هــــمُ يتَّــــابعون لينتهــــوا بقـــذْفٍ نِيـــافٍ مُســـتَقِلٍ صـــخورها

رأوا مـــن قِـــدَى الكفـــين قُـــدّامَ عَـــدْوَةٍ مُحيطـــاً بـــه مـــن كـــل أَوبٍ حُضُـــورها[(٤)]

فَـــوَرَّك لَيْنـــاً أخْلَـــصَ القَـــينُ أَثْـــرَهُ وحاشِـــكةً يَحْصَـــى الشِّـــمالَ نـــذيرُها[(٥)]

يُزَحْـــزِحُهُمْ عنـــه بِنَبْـــلٍ سَـــنِيَنةٍ يُضِـــرُّ بحبـــات القلـــوب حَشُـــورُها[(٦)]

فلمـــا رآهـــم يركبـــون صـــدورَهم كبُـــدْنِ إيادٍ يـــوم تُجَّـــتْ نُحُورُهـــا[(٧)]

تَمَلَّـــزَ مـــن تحـــتِ الظُّبـــاةِ كأنـــه رَدَاةٌ إذا تَعْلُـــو الخَبـــارَ نُـــدُورُها[(٨)]

بِســـاقٍ إذا أُولَى العَـــدِيِّ تَبَـــدَّدوا يُخَفِّـــض رَيعـــان السُّـــعاةِ غَويرُهـــا[(٩)]

وجـــاء خلـــيلاه إليهـــا كِلاهمـــا يفـــيضُ دُموعـــاً لا يَريـــثُ هُمُورُهـــا[(١٠)]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٧٧، شَهْلة: امرأة كبيرة، بأوجدَ: بأشدّ وَجْداً، أن يُهان صغيرُها: أن يُهانَ ولدها. ومسمَّى شَهْلة للمرأة الكبيرة مأخوذ من لون العينين، فقد جاء في لسان العرب، (شهل)، ج٨، ص١٥٦، " الشُّهْلة في العَينِ: أَن يَشُوبَ سَوادَها زُرْقةٌ "، وجاء في أساس البلاغة، (شهل)، ص٣٤٢، " هو أشهل العين، وفي عينه شُهْلَة: يشوب شوادَها زُرقة، وتقول: شَهله، في عينها شُهْله؛ وهي العجوز "، فهي مع تقدم العمر يتغير لون عينيها ويَقِلُّ نظرُها.

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٧٨، رأت ولدها " على يأس " من أن تلد. " تَصَدّى " لهوانها " عشيرها "، زوجها، أي كَبِرت فهانت عليه.

(٣) المصدر السابق، عِناشُ عدوٍّ: مُعانِق عدوّ، شُبَّ: أُوقِد.

(٤) السابق، قِدَى الكفين: أي من قَدْر الكفين.

(٥) السابق، ج٣، ص١١٧٩، فَوَرَّك لَيْناً: أمالَ إلى يده سيفا لَيْناً، أَثْرَهُ: فِرِنْده، حاشِكة: القوس، يَحْصَى الشِّمالَ نذيرُها: يؤثّر في الشِّمال وترها.

(٦) السابق، يُزَحْزِحُهُمْ: يُنَحّيهِم عنه، بِنَبْلٍ سَنِيَنةٍ: مُحْدودَة، حَشُورُها: حَديدها.

(٧) السابق، يركبون صدورَهم: يَقَعون على صدورهم، كبُدْنِ إيادٍ يوم تُجَّتْ: أُسِيلَتْ دِماؤها من نُحُورِها.

(٨) السابق، تَمَلَّزَ: نَجا وأفْلَت، الظُّبَّة: حدّ السيف، رَدَاةٌ: صخرة، شبهه بها في عَدْوِه، نُدُور: أعلى الجبل، الخَبار: الأرض الرَّخْوة.

(٩) السابق، بِساقٍ: أي بِعَدْوٍ على ساقه.

(١٠) السابق، لا يَريثُ: لا يُبْطِئ، هُمُورُها: ما هَمَرَ وسال.

يُنـــــيلان باللهِ المجيـــــد لقـــــد ثـــــوى   لـــدَى حيـــثُ لاقـــى زَيْنُهـــا ونَصـــيرُها[1]

فقامـــت بسِـــبْتٍ يَلْعـــجُ الجلـــدَ مـــارِنٍ   وعـــــزَّ عليهـــــا هُلْكَـــــهُ وغُبُورُهـــــا[2]

فبينـــــا تنـــــوح استبشـــــروها بحُبِّهـــــا   صـــحيحا وقـــد فـــتَّ العظـــامَ فُتورُهـــا

فخـــرت وألقـــت كـــل نعـــلٍ شَـــراذِماً   يلـــوح بضـــاحي الجلـــد منهـــا حُـــدُورُها[3]

وهذه المرأة كانت عقيماً، فرأت الهوان من أقرب الناس لها، وكان همها يزداد كلما تقدمت في العمر. وبعد أن يئست وشاب رأسها رُزِقت بولد، فشبَّ وكان يفوق أقرانه، فأصبح إمامهم وأميرهم، وفي يومٍ من الأيام كان مع اثنين من صحبه، فبينا هم في ناحية من جبل، إذ واجههم الأعداء فأحاطوا بهم، فأبلى الشاب ذلك اليوم بلاء حسناً وكان يضربهم بسيفه ويرميهم بقوسه، ولما رأى الأعداء يقعون على صدورهم تسيل منهم الدماء نجا منهم على ساقيه، وكان شديد العدو. ثم جاء خليلاه إلى أمه كل واحد منهما تفيض دموعه، فحلفا بالله المجيد أن ابنها قد مات، فقامت وأخذت حذاءها تلطم وجهها وتنوح، وبينا هي في نوحها ولطمها بشروها بولدها صحيحاً، فألقت النعلين و جلدها قد نتأ وَوَرِم.

ويظهر في هذه القصة عنصر المفاجأة، فقد يظن القارئ أن الشاعر سيكتفي عند ضرب هذا المثل بخبر موت الولد، لأنه لو ربط القصة بحال الشاعر عندما يئس من عودة المحبوبة، فإنه هنا قد يتوقع موت الولد، وعدم عودته، ولكن الشاعر فاجأ القارئ بأن خبر الوفاة كان كاذباً، فاستبشرت المرأة، بعد أن كادت تقضي على نفسها. ولعل الشاعر يريد من ذلك أن يصنع لنفسه شيئاً من الأمل بعودة المحبوبة بعد أن يئس منها.

ولم تكن صورة المطر وقصة المرأة إلا من صميم غرض الشاعر وهو رحيل المحبوبة، وفيهما يضمر ما يضمر من معانية، وتفسر بعضها بعضاً، وإن حال المرأة بعد أن سمعت خبر وفاة ابنها كاد أن يقضي عليها، فقد أوجعت نفسها ضربا حتى تورم جسمها وتغير، وهذا الحال يشبه الأرض التي أصابها المطر الشديد فاقتلع كبار أشجارها وتغيرت بعض معالمها وضرها هذا التدمير.

والمرأة بعد تلك الشدة والكرب بُشِّرت بأن ابنها حيّاً، وأن الخبر كان كاذباً، فعاد لها ابنها وهنئت بقربه، وكذلك الأرض بعد ذلك التدمير الذي سببته السيول فإنها سوف تخضرّ ويعود لها زخرفها وترتوي بالمياه وتحيا بعد موات، وقد تعود المحبوبة إلى الأرض التي رحلت عنها، لأن رحيل أهلها كان بسبب قلة الماء والمرعى، ولكن بعد توفرها فإنَّ هناك أمل بعودتها، ويأمل الشاعر عودتها كما عاد ولد المرأة، بعد أن كانت يائسة منه، ولم يكن في بالها أي أمل بعودته، لأن صاحبيه قد حلفا بالله أنه قد هلك ودموعهما

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ١١٨٠، يُنيلان: يَحْلِفان، زَيْنُها ونَصيرُها: ابنها.

(٢) المصدر السابق، يَلْعجُ: يَحْرِق، مارِن: لَيِّن، غُبُورُها: بقاؤُها.

(٣) السابق، شَراذِماً: قِطَعاً، بضاحي الجلد ... حُدُورُها: الواحد " حَدْرٌ "، وهو الوَرَم، يُقال: " حَدَرَ جِلْدُه "، إذا نَتَأَ وَوَرِمَ ".

كانت تسيل، والشاعر يريد أن يقول لنا إن اخضرار الأرض فيه أمل كبير بعودة المحبوبة، وكيف لا يكون ذلك وقد تحقق للمرأة شيءٌ لا أمل فيه.

ويقول ساعدة بن جؤية في صورة أخرى للمطر[١]:

أفعنـــكِ لا بـــرقٌ كـــأن وَمِيضَـــهُ ... غـــابٌ تشَـــيَّمَهُ ضِـــرامٌ مُثقَـــبُ[٢]

ســـادٍ تجـــرَّم في البضـــيعِ ثمانيـــاً ... يلـــوي بِعَيقـــاتِ البحـــارِ وَيُجْنَـــبُ[٣]

لمـــا رأى عَمْقـــاً ورجَّـــع عَرْضُـــهُ ... رعـــداً كمـــا هـــدر الفنيـــقُ المِصْـــعَبُ[٤]

لمـــا رأى نعمـــان حـــل بِكِرْفِـــئٍ ... عَكَـــرٍ كمـــا لـــبج النُّـــزولَ الأركـــبُ[٥]

فالســـدر مُخْـــتَلَجٌ وأنـــزِل طافيـــاً ... مـــا بـــين عـــينَ إلى نبـــاةَ الأثأبُ[٦]

والأَثْـــل مـــن ســـعيا وحَلْيـــةَ مُنْـــزَلٌ ... والـــدَّوْمُ جـــاء بـــه الشُّـــجونُ فَعُلْيَـــبُ[٧]

ثم انتهـــى بصـــري وأصـــبح جالســـاً ... منـــهُ لِنَجْـــدٍ طـــائقٌ مُتَغَـــرِّبُ[٨]

وهو يسألها: أفَمِنْكِ هذا البرق الذي وميضه كاشتعال النار في الغاب.

وظل هذا البرق لم ينم ليله، وظل في جهة البحر ثمانية أيام والشاعر يرقبه، وهذه المدة تعتبر طويلة إذا ما قورنت بالمدة التي يرقب فيها الشعراء البرق، فالشعراء الهذليون يرون البرق ثم يمطر في حينه، أما ساعدة هنا، فظل يرقبُ ثمانية أيام، ولابد لذلك من سر أراده.

وبعد مدة الانتظار تلك، جاء السحاب من البحر، ولما وصل عَمْقاً أرعد فأمطر، ثم تجاوز عمقاً إلى نعمان، وكان السحاب متراكباً فحلَّ به وحط أحماله.

ويُلاحظ شدة السيل وقوته، وذلك من خلال فعله بكبار الأشجار، فقد انتزع السِدْر، وحمل معه الأَثْأَب وجعله طافياً، وجاء بالأَثْل والدَّوْم[٩].

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٠٣

(٢) المصدر السابق، أفعنكِ: أفمن شِقِّك، و"لا" زائدة، تشيمه: دخل فيه.

(٣) السابق، سادٍ: "أسأد ليلته"، لم ينمها، تجرَّم: استوفى ثمانياً، البضيع: جزائر البحر، يلوي بها: كأنه يذهب بها إلى البحر تشرب ماءه كله، عيقة: ساحة: فناء من الأرض، يُجنَب: تصيبه الجنوب.

(٤) السابق، رأى عمقاً: صار بِعَمْق، وهو موضع، رجَّع: ردده، الفنيق: الفحل.

(٥) السابق، الكِرْفِئ: السحاب المتراكب بعضه فوق بعض، كما لبج النزولَ الأركب: كما ضربوا بأنفسهم للنزول، الأركب: جمع رَكْب، العَكَر: الكثير.

(٦) السابق، مختلج: مُنْتَزَع، يقلعه السيل، الأَثْأَب: نَبْتٌ، وهو المِنْزل طافياً، أي وأُنْزِل الأثأب طافياً، عين ونبْاَة، بَلَدان.

(٧) السابق، ج٣، ص١١٠٥، سعيا وحَلْيَة، بلدان، الشجون: شعاب تكون في الحِار والغِلَظ، عُلْيَب: موضع.

(٨) السابق، يقول: ثم انقطع بصري دون هذا الغَيْم، أصبح جالساً: أي علا نجداً من تهامة، الطائق: الحَيْد ينذُر من الجبل، متغرب: إما بعيد بعيد من الغربة، وإما أخذ من قِبَل المغرب.

(٩) يُنظر الفصل الأول، مبحث: خصوصية البيئة وأثرها في تخير عناصر صورة المطر، ص٢٦

واحتفى ساعدة الهذلي بالأماكن التي نزل عليها المطر، فعددها، وهي: عَمْق، ونعمان، وعَيْن، ونباة، وسعيا، وحَلْيَة، وعُلْيَب.

وفي آخر بيت من صورة المطر يقول بأن بصره انقطع دون السحاب، وظل السحاب يعلو نجد تهامة وهو كالحَيْد من الجبل.

وبعد أن أوفى صورة المطر قال:

وافــت بأســحَمَ فــاحمٍ لا ضَــرَّهُ　　　قِصَــرٌ ولا حَــرِقُ المِفَــارِقِ أشــيبُ

فانتقل الشاعر من الحديث عن البرق والمطر إلى الكلام عن المرأة مباشرة، وكأن المطر والبرق ينشقان عن المرأة[1]، وهذا يبين شدة الترابط بينهما سيما وأن الشاعر جعل المرأة هي مصدر البرق، ولن تنكشف لنا العلاقة بينهما وتتجلى وتستبين أسرار الصورة حتى تُربط أبيات المطر بسياق القصيدة.

والقصيدة تقع في ثلاثة وستين بيتاً، وأستطيع أن أقسمها إلى خمسة مقاطع:

المقطع الأول: هجر الصاحبة له وتمنعها وتعلقه بها.

المقطع الثاني: تشبيهها بالظبي، وحلفه بأنه يحبها، ولومه نفسَه.

المقطع الثالث: صورة المطر.

المقطع الرابع: قصة اشتيار العسل، وتفضيل فاها على العسل الممزوج بالخمر.

المقطع الخامس: قصة الجماعة الكثيرة العدد.

وغرض القصيدة يستبين من أول كلمتين فيها، يقول:

هجــرت غَضُــوبُ وَحُــبَّ مــن يتجنــبُ　　　وَعَــدت عَــوادٍ دون وَلْيِــكَ تَشْــعَبُ[2]

واختار اسم غَضُوب، وهو على وزن (فَعُول)، وهذه من صِيَغ المبالغة، هي كثيرة الغضب منه، وظلت على هذا الحال حتى هجرته، وكانت تصنع الصوارف بينه وبينها، ومن ذلك أنها تتقيه بقوم يبغضونه وتتباعد عنه. ثم يقول:

شــابَ الغــراب ولا فــؤادُكَ تاركٌ　　　ذِكْــرَ الغضــوب ولا عِتابُــكَ يُعْتَــبُ[3]

فقد طال به الأمد حتى كان ما لا يكون أَبداً وهو شَيْبُ الغُراب، وقلبه لا يستطيع أن يترك حُب الغضوب، وعِتابُه لا يُسْتَقْبَلُ بعُتْبَى، وهذا يعني أن تركه حُبَّها أمر مستحيل، بل وراء المستحيل، وكذلك هي لن تعود عن أفعالها.

---

(١) يُنظر "الأسلوبية والتقاليد الشعرية دراسة في شعر الهذليين"، مُحَمَّد بربري، ص ١٤٢

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١٠٩٧، حُبَّ من يتجنبُ: أي حُبَّ بها مُتَجَنِّبَةً إليّ، عَدت عَوادٍ: صرفَتْ صَوارِف، وَلْيِكَ: قربك، تَشْعَبُ: تُفرّق.

(٣) لسان العرب، (عتب)، ج١٠، ص٢٢، عَلَّق المؤلف على هذا البيت فقال: " أي لا يُسْتَقْبَلُ بعُتْبَى. وتقول: قد أَعْتَبَني فلانٌ أَي تَرَكَ ما كنتُ أَجد عليه من أَجلِه، ورَجَع إلى ما أَرْضاني عنه، بعد إِسْخاطِه إِيَّايَ عليه ".

ثم جاء في القسم الثاني من القصيدة ليشبهها بالظبي الشرود، يقول:

وكأنمــــا وافــــاكَ يـــوم لقيتَهــــا ... مــن وحــش وَجْــرةَ عاقِـدٌ مُتَرَبِّــبُ[(١)]

خَـرِقٌ غَضِـيضُ الطَّـرْفِ أحـورُ شـادِنٌ ... ذو حُـوَّةٍ أُنُـفُ المســارِبِ أخْطــبُ[(٢)]

وبعد أن وصفها قال:

إني وأيْــــدِيها وكـــــلِّ هديـــــةٍ ... ممــا تَــثُجُّ بــه ترائِــبُ تثْعَــبُ[(٣)]

ومقــــامِهِنَّ إذا حُبِســــنَ بمــــأزِمٍ ... ضَـيْقٍ ألَـفَّ وصـدَّهنَّ الأخشــبُ[(٤)]

حَلِــفَ امــرئٍ بَــرٍّ سَــرِفْتِ يمينــه ... ولكــلِّ مــا تُبـدي النفـوسُ مُجَـرَّبُ[(٥)]

إني لأهواهــــا وفيهــــا لامـــــرئٍ ... جــادت بنائلهـــا إليـــه مَرْغَـــبُ[(٦)]

ولقـــد نَهَيْتُـــكَ أن تَكَلَّـــفَ نائيـــاً ... مِـن دونـهِ فَـوْتٌ عليـك ومَطْلَـبُ[(٧)]

فهو يحلف بالهدايا التي كان يهديها لها، ويحلف بأيديها التي كان تأخذها بها، وفي ذلك دلالة على كثرة الهدايا، وليذكرها بما أعطاها من الهدايا، ولأن هذه الهدايا لها مكانة عظيمة عنده، وساعدة الهذلي شاعر جاهلي يحلف بما يعظِّم، والعرب كانت لا تحلف إلا بما تعظمه، ولذلك قدمها على الحلف بما يفعلون في الحج، فيحلف أنه يهواها، ثم يلوم نفسه التي تكلفه حب من هي نائية عنه، ومن دونها فْوتٌ لن يدركه.

ثم بعد ذلك جاء المقطع الثالث من القصيدة، وهو صورة المطر:

أفعنـــكِ لا بـــرقٌ كـــأن وميضـــهُ ... غـــابٌ تشَـــيَّمَهُ ضِـــرامٌ مُثقَـــبُ

وكانت صورة البرق أملاً له، فهو مهما بلغ من اليأس منها، إلا أنه يتمنى وصالاً، ويمنى نفسه بحبها، وهو مازال يتألف قلبها، ويُذَكِّرها بما عاناه في سبيلها، ويذكرها بما كان يهدي لها، ويتمنى أن ترد له الجميل، وتترك الهجر، ولذلك جعل البرق من جهتها، وكأنها مصدرٌ له.

وظل الشاعر يرقب البرق وهو ما يزال جهة البحر، وظل في مراقبته ثمانية أيام.

وعادة الشعراء أنهم حينما يرقبون البرق فإنهم لا يذكرون أن المطر أبطأ عنهم أياماً، وحتى يوماً واحداً

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١٠٩٩، وافاك: لَقِيك، العاقِد: الذي ثنى عنقه، مُتَرَبِّب: أي متربب من النبْت.

(٢) المصدر السابق، خَرِقٌ: صغير، غَضِيضُ الطَّرْفِ: أي فاترُه، الشَّادن: المتحرك، ذو حُوَّةٍ: فيه خطوط تضرب إلى السواد، أُنُفُ المسارِب: مستأنف الربيع ولم يُرْعَ قبلة، المسارِب: مَسارِحه التي يسرب فيها، الأخْطب: الأخضر في لونه.

(٣) السابق، إني وأيْدِيها: يحلف بالهدايا.

(٤) السابق، المأزَم: مضيق بين عَرَفَة وَجَمْع، الأخْشَبان: جبلا مِنَى، ألَفّ: أي مُلْتَف.

(٥) السابق، بَرّ: صادق، سَرِفْتِ يمينه: أي لم تعرفيها، مُجَرَّبُ: يقول: كل ما أخفيت وأبديتِ سيظهر في التجربة.

(٦) السابق، يقول: فيها مرْغَب لمن جادت له بنائلها، وأما من لم يجد ذلك عندها فإنه يَأْيَسُ من نائلها، فلا يطلبه، ولا يتعنَّى.

(٧) السابق، ج٣، ص١١٠٣، نَهَيْتُكَ: يعني فؤاده، مِن دونهِ فَوْتٌ عليك ومَطْلَبُ: أي لا تقدر عليه إلا بطلب.

لا يذكرونه، إنما يذكرون أن المطر هطل بُعيد أن رؤوا البرق. وكذلك فإن ساعدة نفسه في القصيدتين السابقتين فإنه ذكر هطول المطر مباشرة بعد رؤية البرق.

وهذه المدة التي ذكرها الشاعر هنا تعتبر طويلة في عُرف الشعراء، ولكنه يرمز هنا إلى طول أمد انتظاره للمحبوبة الهاجرة، وشدة حبه لها وشوقه. وهو يمني نفسه بمراقبة البرق كل هذه المدة لعل المطر يأتي فيروي دياره، والمطر هو المحبوبة التي كان في أمس الحاجة إلى عودتها.

وقد أثرت قوة المشاعر واضطرابها؛ من هجر، وغضب، ويأس من المحبوبة، وأمل عودتها، وعدم استطاعة منع النفس عن هواها؛ أثرت في صورة المطر؛ فجاء المطر بسيلٍ قوي صرع كبار الأشجار وحملها طافية معه.

ولعل الشاعر في صورة هذا السيل يمني النفس بأن تعود له المحبوبة بمشاعر قوية نحوه، تنسيه هم الأيام التي عانى فيها من الهجر والبُعْد.

ثم جعل السيل يسقي كل الأماكن التي كانت له معها ذكريات، ولكن المطر لم ينتهِ عند حد السقيا؛ بل ظل جزءٌ من السحاب يعلو نجد تهامة، لكي يعود فيمطر مرة أخرى إذا احتاجت الأرض للسقيا، ولعله يريد من ذلك أنه يأمل أن يكون الوصال من المحبوبة متجدداً لا ينقطع بعد الوصال الأول.

وفي المقطع الرابع شبه فاها بالعسل الممزوج بالماء والخمر، بل فضله عليها جميعها.

وفي بَدْءِ المقطع ذكر قصة المشتار الذي رأى العسل في مكان شامخ صعب ودونه مهلكة، ولكنه كان ذا عزم اقتحم به تلك الصعاب، وقضى مشارته في آخر الأمر، ثم نزل من الصخرة ولم ينشب بل انسل كأنه الثوب، ثم مزج العسل بماء الغدير البارد الصافي ثم بالخمر، ثم أقسم بالله العظيم أن فاها أشهى إليه من ذلك المزيج وأطيب.

ولعل قصة المشتار هذه، ترمز إليه وإليها، فهي العسل الذي يصعب الوصول إلى مكانه المهلك، ودونه لسعات النحل، وهو المشتار الحذق الذي عرض نفسه للمهالك من أجل أن يصل إلى الشَّهْدَة، ولكنه في نهاية الأمر حصل على مراده ونالت يداه العسل.

وهذا فيه إضمار وإيماء لمراد الشاعر، فهو يؤمل النفس بأنه سوف يغنم حبَّها بعد المكابدة والعناء الذي قاساه في سبيل حبها، مثل المُشْتار الذي غنم في تالي الأمر.

أما المقطع الخامس، فهو يتحدث عن جماعة كبيرة من الناس في عِزَّة ومنَعَة، يقول في مقدمة المقطع:

فالـــدهر لا يَبْقَـــى علـــى حَدَثانِـــهِ ... أَنَـسٌ لفيـفٌ ذو طوائـفَ حوشـبُ[1]

في مجلـــس بـــيضُ الوجـــوهِ يَكُـــنُّهُمْ ... غـابٌ كأشْـطَان القَلِيـبِ مُنَصَّـبُ[2]

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١١٤، أَنَسٌ لفيفٌ: جماعة كثيرة من الناس، طرائق: نواحٍ.

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١١٤، يَكُنُّهُمْ: يُظلُّهُم من الشمس، غابٌ: يقول: فوقهم مثل الأَجَمِ، والغاب جمع غابة، والغابة

متقـــــــاربٌ أنســــــــابهم وأعـــــــزةٌ　　　يـــؤبى بمـــثلهم الظُّـــلامُ ويُرهـــبُ[1]

فـــإذا تُحُـــومِيَ جانـــبٌ يَرْعَوْنَـــهُ　　　وإذا تَجِـــيءُ نَـــذِيرَةٌ لم يَهْرُبـــوا[2]

فهم جماعة كبيرة يرهبهم الناس لقوتهم، ولهم خيل وسلاح، وبأس شديد، ورماحهم كأنها الغاب تظلهم من الشمس، ونساؤهم في بسطة من العيش ونعمة، وإذا هابَ الناس أن يَرْعَوا مواشيهم من مكان، فإن هؤلاء القوم يرعونه ويُقِيمون فيه. ولكن الدهر لا يبقى على حدثانه، فغار عليهم قوم أكثر منهم عدداً وعُدة، وأقوى منعة منهم، ثم ما لبثوا أن قتل العدو أكثرهم وسبى نساءهم المتطيِّبات، ونهبوا أموالهم، وظلوا يطردونهم من أرض إلى أرض وهم في ذلة وصَغَار، يقول:

فَـــأَبَارَ جَمْعَهُـــمُ الســـيوفُ وأبْـــرَزوا　　　عـــن كـــل راقِنَـــةٍ تُجَـــرُّ وتُســـحبُ[3]

واسْـــتَدْبَرُوهُمْ يَكْفَئُـــونَ عُـــرُوجَهُمْ　　　مَـــوْرَ الجَهَـــامِ إذا زَفَتْـــهُ الأَزْيَـــبُ[4]

وكانت نهاية أولئك القوم نهاية مأساوية محزنة.

وهذا المقطع الحزين يختلف تماما عما سبقه، فليس فيه أي بارقة أمل، بل انتهى بمصيبة وفاجعة حلت بأولئك القوم، وأرى أن الشاعر قد جعل هذا المقطع افتراضاً لأسوأ الأحوال. وهذه القصة رغم مأساتها، إلا أنها تُهَوِّنُ على الشاعر ما يجده، لأنه لما عانى من الهجر كان يضع أمامه آمالاً عديدة، وكلها آمالٌ لعودة المحبوبة، وعبر عن ذلك عن طريق صورة المطر حينما ظل يراقب البرق ثمانية أيام، حتى جاء الغيث فأسقى الديار، وعن طريق قصة اشتيار العسل، حينما جعل المشتار يحصل على الشهدة في آخر الأمر.

أما هذا المقطع ذو المأساة، فقد قَدَّم له الشاعر بمقدمة، يقول:

فـــاليومَ إمـــا تُمْـــسِ فـــات مزارهـــا　　　مِنَّـــا وتُصْـــبِحْ لـــيسَ فيهـــا مـــأربُ

فقال بعده:

فالـــدهر لا يبقـــى علـــى حدثانـــه　　　أَنَـــسٌ لفيـــفٌ ذو طوائـــفَ حوشـــبُ

أي أنه إذا فقد المحبوبة وتعذر مزارها، فإن ذلك ليس غريباً في هذا الدهر، لأن الدهر لا يبقى على حدثانه، ثم ساق قصة القوم، ليقول لنا إن فقده للمحبوبة يعد من مآسي الدهر، وقصة تفرق القوم وسبي نسائهم – أيضاً – من مآسي الدهر، ولكنك إذا قارنت مأساته مع هذه المأساة، فإن مأساته تهون عليه،

الأَجَمَة، يعني من الرِّماح، كأنها أجَمة من كثرتها، مُنَصَّب: مَرْكُوز، القليب: بئر، الأشْطان: الحِبال.

(١) المصدر السابق: الظُّلامُ: الظُّلامَة.

(٢) السابق: تُحُومِيَ: يقول: إذا تَحامِى الناس جانباً يَرْعَوْنَهُ من خُبْثِه وخوفه، رَعَوْهُ وأقاموا فيه، النَّذِيرة: هم القوم الذين يُنْذِرونهم بالشر.

(٣) السابق، أبْرَزوا: كَشَفُوا لهؤلاء المغِيرين عن الرَّواقِن، وهي المرأة المتَضَمِّخةُ بالزَّعْفَران.

(٤) السابق، اسْتَدْبَرُوهُمْ: طردوهم، " يَكْفَئُونَ عُرُوجَهُمْ " من أرض إلى أرض، العَرْج: الإبل الكثيرة، ألف، تسع مئة، ثمان مئة، " مَوْرُهُ "، مَوْجُه كما يموج السحاب، الجَهَام: السحاب الذي قد هَراق ماءه، زَفَتْهُ: استخَفَّتْه، الأَزْيَب: الجَنُوب.

لأن هؤلاء القوم قد ذُلُّوا أيما إذلال وسُبِيَت نساؤهم وقُتِلَ أكثرهم ومن بقي منهم ظلوا مشردين في القفار يحيط بهم الخوف من كل جانب.

ولما رجعتُ إلى المقاطع التي سبقت المقطع الخامس، وجدت أن الأبيات بها إرهاصات بأنه لن ينال من غضوب حبّاً، ولكنه لا يستطيع أن يترك حبها، لأن قلبه لا يطاوعه، ولكنه رغم ذلك لم ييأس من الوصل، فتمنى أن تسمع منه وتبادله الحب، ولما لم يحصل ذلك عزى نفسه بهذه القصة، لعل مصيبته تهون عليه إذا ما قورنت بمصيبة القوم، لأن مصيبتهم أعظم، فهي مصيبة جماعة لا مصيبة فرد، وقد فقدوا أغلى ما يملك العربي وهي الأعراض التي انتهكت، وظل النساء اللاتي كن في عزة سبايا كالجواري، ولا مجال هنا للمبالغة والقول بأن ما يجده الشاعر من فقد المحبوبة أكثر مما فقده أولئك القوم، لأن العربي أكثر ما يملك هو عرضه وعزته، وهؤلاء القوم أهينت عزتهم وانتهكت أعراضهم، وظلوا في خوف وذل، وهذا ما يُعزي به ساعدة الهذلي نفسه.

وقد علق الدكتور مُحَمَّد أبو موسى على القصيدة قائلاً: بأن القصيدة تدور حول معنيين، المعنى الأول هو افتتانه بغضوب التي هجرت وافتتانه بحسنها ثم انتهى كل هذا وفات مزارها وأصبحت ليس فيها مأرب. والمعنى الثاني ذاهب هذا المذهب يعني بيان بلوغ الشيء غايته ثم الانتهاء به إلى العدم(١).

أما الدكتور عبد الناصر مُحَمَّد السعيد، فيرى أن ساعدة الهذلي عندما قال:

فـــاليومَ إمـــا تُمْـــسِ فـــات مزارهـــا   منـــا وتصـــبحْ لـــيس فيهـــا مـــأربُ

فإنه قد وصل إلى حالة من اليأس من مزار المحبوبة، وأصبحت وليس فيها مأرب، فساق قصة القوم، ولذلك جاءت النهاية مفجعة مدمرة. وقد ربط الدكتور عبد الناصر السعيد بين القوم وحال الشاعر، وأن ما فقدوه (أي نساءهم السبايا) هو ما فقده الشاعر، وهو ما ساق القصيدة من أجله(٢).

ويدعو أبو ذؤيب لأم عمرو بالسقيا قائلاً(٣):

سَـقَى أُمَّ عَمْـروٍ كـل آخِـرِ ليلـةٍ   حَنـــاتِمُ سُـــودٌ مـــاؤهُنَّ ثَجِـــيجُ(٤)

إذا هَـمَّ بالإقْـلاعِ هَبَّـتْ لـه الصَّـبا   فأعْقَـــبَ نَـــشْءٌ بعـــدها وخُـــرُوجُ(٥)

---

(١) يُنظر "الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء"، د. مُحَمَّد أبو موسى، ص٥٨٦

(٢) يُنظر "الحس القصصي في شعر الهذليين"، د. عبد الناصر مُحَمَّد السعيد، دار الإيمان للطباعة، ط٢، ٢٠٠٤م، ص ١٣٨ – ١٤٥

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص ١٢٨

(٤) المصدر السابق، كل آخر ليلة: مثل قوله: "لا أكلمك آخر الليالي"، ومعناه: لا أكلمك ما بقي من الزمان ليلةٌ، أبدا. الحناتم: الجِرَار الخضر. ثجيج: صبوب. يُنظر كذلك "الأنواء في مواسم العرب"، ابن قتيبة، ص ١٧٥

(٥) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص ١٢٨، يُقْلِع: يتَقَشَّع. هبت له الصبا: فجمعته.

تَـــرَوَّتْ بمـــاءِ البَحْـــرِ ثُمَّ تَنَصَّـــبَتْ عَلَـــى حَبَشـــيَّاتٍ لَهُـــنَّ نَئِـــيجُ[١]

يُضِـــيءُ سَـــنَاهُ رَاتِـــقٌ مُتَكَشِّـــفٌ أغَـــرُّ كَمِصـــبْاحِ اليَهُـــودِ دَلُـــوجُ[٢]

كما نـوَّرَ المِصْـبَاحُ لِلعُجْـمِ أَمْـرَهُمْ بُعَيْـــدَ رُقـــادِ النَّـــائمينَ عَـــرِيجُ[٣]

أرِقْـــتُ لَـــهُ ذَاتَ العِشَـــاءِ كأَنَّـــهُ مَخَـــارِيقُ يُـــدْعَى تَحْـــتَهُنَّ خـــريجُ[٤]

تُكَرْكِـــــرُهُ نَجْدِيَّـــــةٌ وتَمُـــــدُّهُ مُسَفْسِـــفَةٌ فَـــوْقَ التُّـــرَابِ مَعُـــوجُ[٥]

لـه هَيْـدَبٌ يَعْلُـو الشِّـراجَ وهَيْـدَبٌ مُسِـــفٌّ بأَذْنَابِ الـــتِّلاعِ خَلُـــوجُ[٦]

ضَـــفادِعُهُ غَرْقَـــى رِواءٌ كأنّهـــا قِيـــانُ شُـــروبٍ رَجْعُهُـــنّ نَشِـــيجُ[٧]

لِكُـــلِّ مَسِـــيلٍ مـــن تهامَـــةَ بَعْـــدَمَا تَقَطَّـــعَ أَقْـــرَانُ السَّـــحَابِ عَجِـــيجُ[٨]

كـــأنَّ ثِقَـــالَ المـــزنِ بـــين تُضَـــارِعٍ وشَـــابَةَ بَـــرْكٌ مـــن جُـــذَامَ لَبِـــيجُ[٩]

فـــذلك سُـــقْيا أُمِّ عمـــروٍ وإنـــني بمـــا بَـــذَلتْ مـــنْ سَـــيْبِها لَبَهـــيجُ[١٠]

يُلاحظ أن أبا ذؤيب لم يعيّن المرأة باسمها بل بكنيتها.

ولعل أول شيء تجدر ملاحظته في شعر المرأة عند الهذليين، هو طريقتهم في تعيين المرأة التي يتحدثون عنها. إذ يُلاحظ أنهم يعملون أحياناً إلى تعيينها عن طريق كنيتها، فالمرأة عند إياس بن سهم هي "أم عمرو"، وعند الداخل بن حرام "أم عبد الله"، وعند أمية بن أبي عائذ "أم الصبي"، وعند ساعدة بن جؤية "أم الصبيين"، وكذلك عند أبي ذؤيب، وأبو ذؤيب أكثر الهذليين ذِكراً للمرأة عن طريق كنيتها، فهي عنده

---

(١) المصدر السابق، تروَّت: شربت فرويت. حبشيات: سحابات سود. لهن نئيج: لها مَرٌّ سريع وصوت.

(٢) السابق، الراتق: المنضَمُّ من السحاب. دَلوج: يَدْلِج بالماء، والدالج، الذي يدلج بالدلو من البئر إلى الحوض.

(٣) السابق، عريج: يريد رجلاً عرّج عليهم، فاستصبح لهم بعد ما ناموا.

(٤) السابق، مخاريق: مخاريق الصبيان التي يلعبون بها.

(٥) السابق، تكركره: تُرَدِّده. مسفسفة: ريح قريبة من الأرض. معوج: تَمُرُّ مرّاً سهلا.

(٦) السابق، له هَيْدَب: ما أسبل من السحاب كأنه هُدْبُ الثوب. الشِّراج: شُعَبٌ تكون في الحِرار. المسِفُّ: الداني. التَّلْعة: مَسِيل من ارض ارض مرتفعة إلى الوادي

(٧) السابق، نشيج: متقطع. غرقى: لا تغرق، وإنما يريد كثرة الماء. شُرُوب: ندامى

(٨) السابق، أقران السحاب: ما تآلف منه. عَجِيج: صوت الماء، وذلك لصوت السيل في الأودية وهي تعج بالماء.

(٩) السابق، شابة: موضع. تضارع: جبل، ويُروى جبلان بنجد. البَرْك: إبل الحي كلهم. اللبيج: المضروب بالأرض.

(١٠) السابق، سَيبها: عَطِيّتها. بهيج: مبتهج فَرِح.

"أم عمرو"، و"أم الرهين"، و"أم وهب"، و"أم سفيان". ويُستنتج من هذه الظاهرة أن الشعراء يحاولون إثبات معنى الأمومة عن طريق ذكر كنيتها، ففكرة الأمومة كامنة في الكنية، غير أن الشعراء لا يقصدون المعنى الحرفي للأمومة، بل يقتنصون فيها معنى الخصب وإثراء الحياة والقدرة على حمايتها وتنميتها. ومما يدل على أن الأمومة قوة معنوية تعني في الشعر القديم حماية الحياة والقيام على أمر الأحياء ما فعله الشنفرى عندما سمى تأبط شراً "أم العيال"[1].

وأبو ذؤيب في أبياته هذه، يدعو لأم عمرو بالسقيا، وهذا المطر دائم لا ينقطع، سحائبه سود، وشبهه بالجرار السود التي ينسكب منها الماء، والسحاب إذا كان أسود اللون فهو غزير المطر ويبشر بالخصب[2]، وهو يدعو لأم عمرو بمطر لا ينقطع فقال: "كل آخر ليلة"، ولا ينقشع سحابه، وإذا همَّ السحاب أن ينقشع ويتفرق؛ هبت له الصبا فجمعته ولقّحته فنشأ غيم آخر، فيظل السحاب يتولد من السحاب والريح تلقحه، وبالتالي لا ينقشع ولا ينقطع المطر. وهذه الصورة تظهر فيها الأمومة والولادة لأن السحاب يتولد من السحاب، وهي تناسب أم عمرو التي هي رمز للأمومة والولادة.

وقد هدت الفطرة أبا ذؤيب إلى سر تكوين السحاب، وذلك بأن مصدره بخار الماء الصادر من البحر في زمن لم يكن لدى الناس آلات كما لدينا هذا العصر، فقال:

تَرَوَّتْ بماءِ البَحْرِ ثُمَّ تَنَصَّبَتْ

حيث يصف أولى مراحل تكوين السحاب، وهي صعود بخار الماء من البحر ثم ارتفاعه إلى طبقات الجو العليا.

ثم يصف البرق ويشبهه بمصباح اليهود ليعطيه شيئاً من القداسة، ثم يبين أن البرق لم ينقطع بل ظل حتى آخر الليل حين هجوع الناس.

وهذا البرق في وقته المتأخر من الليل جعل الشاعر يأرق له، فيظل يراقبه، ثم شبهه في حركته بلعبة من لعب الصبيان، وهي المخاريق.

ثم يذكر الريح التي تردد السحاب، وهي ريح نجدية وريح قريبة من الأرض، والسحاب متدلٍ كالثوب المُسبَل (لهُ هيدب)، والهَيْدَبُ السحاب الذي يَتَدَلَّى ويدنو مِثلَ هُدْب القَطِيفة، والمطر يَنْصَبُّ منه كأنه خيوط مُتَّصِلة[3].

وقد عمَّ المطر أعالي الشِّعاب وحتى آخر بطون الأودية، وبعد هذا الخير العميم جاء الشاعر بصورة حافلة بالفرح واللهو، وهي صورة الغناء والشراب، عندما شبه الضفادع وهي تُصَوِّتُ حول الماء بالقِيَان المغنيات في مجلس شَرَاب.

---

(١) يُنظر " الأسلوبية والتقاليد الشعرية دراسة في شعر الهذيين "، مُحَمَّد بربري، ص١٤٣- ١٤٤

(٢) يُنظر "كتاب الأنواء في مواسم العرب "، ابن قتيبة، ص١٧٠

(٣) يُنظر " لسان العرب "، (هدب)، ج١٥، ص٣٣

ثم أتى مشهد السيل بعد تقطُّع السحاب وتفرقه، وقد حدد الشاعر هذا المشهد بتهامة (لكل مسيل من تهامة)، واقتران مشهد السيل بتفرق السحاب، فيه استمتاع برؤية منظر السيل، لأن سيول تهامة عظيمة، وإذا انقشع السحاب فأمن الناظر المطر، ووقف في منجاة من السيل، فإنه سوف يستمتع بمنظره، خلاف لو كانت السماء تمطر، لأن مطرها سوف يمنعه من مشاهدة السيل والاستمتاع به.

ولكي لا ينقض أبو ذؤيب فكرته التي بدأها، وهي أن المطر لا ينقطع عن أم عمرو، وأن السحاب لا ينقشع عن أرضها، فقد عاد وقال:

كــأنَّ ثِقَــالَ المـزنِ بـين تُضَــارِعٍ   وشَـــابَةَ بَـــرْكٌ مـــن جُـــذَامَ لَبِـــيجُ

فقد حدد استقرار السحاب بين تضارع وشابة، وهما جبلان، وأظن أن أرض أم عمرو بينهما، وقد خص تلك الأرض بثقال المزن الكثيرة الماء، التي تظل تهطل على ذلك المكان (كل آخر ليلة)، ليعود أبو ذؤيب بالصورة إلى ما بدأها به.

وبعد ذلك بيَّنَ أن كل ما مرَّ من صورة للمطر، هو دعاء بالسقيا لأم عمرو، وذلك جزاء لها لما بذلته له من عطية جلبت له البهجة. وهذه لفته إلى أن علاقة الحب بينهما وثيقة الأواصر.

وقد جعل أبو ذؤيب صورة المطر هذه حافلة بالكرم والجمال والمرح، لأن هذه الصورة قدمها هدية لحبيبته أم عمرو؛ فالجرار الخضر بها حفاوة وكرم لمن تُقدَّم له، والسحاب كلما أمطر وهمَّ بالتفرق لقحته الرياح فعاد نشْأً جديداً؛ حاله كحال الكريم الذي يظل يكرم ضيوفه، والبرق كالمصباح، والسحاب له هيدب مثل الثوب المسْبَل الجميل، والبرق له حركة مثل حركة المخاريق التي يلعب بها الصبيان في ساعة الفرح والمرح، والضفادع كأنها القيان المغنيات يغنين للندامى في مجلس مليء بالبهجة.

علاقة صورة المطر بغرض القصيدة:

غرض أبي ذؤيب في هذه القصيدة هو رثاء ابن عمه نُبيشة، وقد صرَّح بذلك في نهاية القصيدة.

أما مطلع القصيدة فكان في الحديث عن رحيل المحبوبة،يقول:

صــبَا صَــبْوةً بــلْ لَجَّ وهــو لَجُــوجُ   وزَالَـــتْ لـــه بالأَنْعَمَـــيْن حُـــدوجُ
كمـــا زالَ نَخْـــلٌ بالعِـــراقِ مُكَمِّـــمٌ   أُمِـــرَّ لـــه مِـــن ذي الفُـــراتِ خَلـــيجُ
فإنَّـــكَ عَمْـــري أيَّ نظـــرةِ عاشـــقٍ   نظـــرتَ وقُـــدْسٌ دوننـــا ودَجُـــوجُ
إلى ظُعُـــنٍ كالـــدَّوْم فيهـــا تَزايُـــلٌ   وهِـــزَةُ أَجْمـــالٍ لهـــنّ وَسِـــيجُ
غَـــدَوْنَ عَجَـــالَى وانْتَحَـــتْهُنَّ خَـــزْرَجٌ   مُقَفِّيَـــةٌ آثارَهُـــنَّ هَـــدُوجُ

وبعد هذه الأبيات التي وصف بها صبوته بعد أن رحلت المحبوبة، جاءت صورة المطر التي دعا فيها بالسقيا للمحبوبة، وقدم للمحبوبة صورة المطر هدية لها.

وبعد صورة المطر، وصف المحبوبة وشبهها بدرة الغواص، التي يفوح منها الطيب، وجاء ذلك في أحدَ عشرَ بيتاً. ثم أحسن التخلُّص من الغزل إلى رثاء ابن عمه نُبَيْشَة، فدخل في الرثاء، فقال:

فـإن تُعْرِضـي عَـنِّي وإن تَتَبـدَّلي ... خَليلاً ومِـنْهُمْ صَـالِحٌ وسَمِـيجُ[١]

فـإني صـبرتُ الـنفسَ بعـدَ ابـن عَنْـبَسٍ ... وقـد لجّ مـن مـاء الشـؤون لجَـوجُ[٢]

لأُحْسَـبَ جَلْـداً أوْ ليُخْبَـرَ شـامِتٌ ... وللشَّـرِّ بَعْـدَ القَارِعَـاتِ فُـرُوجُ[٣]

وذلـك أَعْلَـى منْـكِ فَقْـداً رُزِئْتُـهُ ... كَريمـاً وبَطْـني لِلكِـرَامِ بَعـيجُ[٤]

وذَلِـك مَشْـبُوحُ الـذِّرَاعَيْن خَلْجَـمٌ ... خَشُـوفٌ بأعـرَاضِ الـدِّيارِ دَلُـوجُ[٥]

ضَـرُوبٌ لهامـات الرِّجَـال بِسَـيْفِهِ ... إذا حَـنَّ نَبْـعٌ بيـنَهُمْ وشَـرِيجُ

يُقَرِّبُـهُ للمُسْتَضـيفِ إذا دَعَـا ... جِـراءٌ وشَـدٌّ كـالحريقِ ضَـريجُ[٦]

والقصيدة تقع في خمسة وثلاثين بيتاً، تحدث فيها عن المحبوبة في تسعة وعشرين بيتاً، ولم يأتِ الرثاء إلا في الأبيات الستة الأخيرة، وكما قال الدكتور مُحَّد أبو موسى، فمن غير الدقيق أن تكون المقدمة أكثر أبياتاً من الغرض، والغرض الذي أنشئت القصيدة من أجله لم يكن إلا في أبيات قليلة، وأن الصحيح هو أن الشاعر يضمر غرضه في كل ما قاله مما يسمى مقدمة تسامحاً[٧].

وأبو ذؤيب جعل أبيات الغزل بياناً يوصلك إلى منزلة المرثيّ عنده، فقد بلغ بك إلى أعلى مراتب الحب، حيث وصف مكانة المحبوبة عنده، وشبهها بالدرة، وأنهما قد بلغا من الود مبلغاً، وكانت تهدي له الهدايا، وهو قد قدم لها هدية لا مثيل لها، حيث أهدى لها صورة المطر الحافلة بالكرم والمرح والحب، وجعلها جزاءً لها لما كانت تهدي له. وبعد أن بلغ بك هذه المنزلة، بين لك أنه لو فارقته المحبوبة — على ما بينهما من الود وما يكنه لها من حب خالص — فإنه غير مكترث بذلك، لأنه قد فقد من هو أعلى شأناً ومنزلة في قلبه منها، وهو ابن عمه نُبيشة، وجعل ذلك خطاباً موجهاً لها ليكون أبلغ للسامع، فقال لها: إنك إن تعرضي عني وتتبدلي خليلاً غيري، فإنني سأصبر ولا أبالي، فقد صبرت على من هو أعلى شأناً

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ١٣٧، سَميج: ليس عنده خير.

(٢) المصدر السابق، الشؤون: شُعَبُهُ التي بين العِظام، فيزعم الناس أن الدموع تخرج منها حتى تصير إلى العين.

(٣) السابق، ج١، ١٣٧، ليُخْبَرَ شامِتٌ: أي ليخبر شامت بتجلدي، فينكسر عني، القارعات: المصائب، فُرُوج: تَفَرُّج وانكشاف.

(٤) السابق، يعني نُشيبة التي يرثيه، يقول: لا تزال تصيبني مصيبة كأنها بَعْجة بالبطن.

(٥) السابق، مَشْبُوحُ: عريض الذراعين، خَلْجَمٌ: جسيم طويل، خَشُوفٌ: سريع المرِّ، الدَّلوج: الذي يمر يَدْلِج مُثْقَلاً، أعرَاضِ الدِّيارِ: نواحيها. يقول: إذا كان في الديار من يَسْتأْنِس، تغزَّل مع النساء، ومشى مِشْيَةَ الفِتْيان ثقيلاً متبختِراً يَدْلِجُ في مِشْيَته، وإذا كان في دار حرب أسرع ومشى إلى أعدائه مشياً خفيفاً.

(٦) السابق، يُقَرِّبُهُ: يُدْنيه، المسْتَضيف: الملجأ، جِراءٌ: من الجَرْي، أي عَدْوٌ لِيُغِيثَهُ.

(٧) يُنظر مبحث "صورة المطر والطلل"، ص ٥٥

منكِ. ثم دخل في رثاء ابن عمه وبين مناقبه.

وأبو ذؤيب في هذا، شأنه شأن استداراته التشبيهية أو استطراداته الوصفية التي يصف فيها ثغر المحبوبة ويفضله على الخمر الممزوج بأطيب المياه، أو العسل الممزوج بالماء، ويستطرد في وصف المشبه به، ثم في آخر الأمر يقول إن فم المحبوبة أطيب من ذلك كله[١].

ومما يجدر ذكره هنا، أن أبا ذؤيب لم يترك تجلده، فقد تجلد عندما فقد المحبوبة، وعندما فقد ابن عمه، لأنه قد اعتاد على موت الكريم والحبيب والخليل، وأنه يصبر ويتجلد حتى لا يشمت به الأعداء، ويذكرني ذلك تجلده في عَيْنِيَّته المشهورة عندما فقد أبناءه، حيث قال:

وتجَلُّـــــــدي للشـــــــامتينَ أُرِيهِـــــــمُ   أني لريـــــبِ الـــــدهرِ لا أتضعضـــــعُ[٢]

---

(١) انظر الأبيات، ص ٧٤ – ٧٧ ،من هذا المبحث

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٠

ثالثاً: صورة المطر والرثاء

عندما يُفجَعُ الشاعر بفقد عزيز فيرثيه، يكون ذلك صادراً عن عاطفة صادقة لا تزييف فيها. وقد وظف الشعراء صورة المطر في الرثاء، لأن المطر هو غايتهم في الدعاء، ولأنه هو الذي تقوم عليه حياتهم، ولما يحمله من معاني الرحمة والخير. وقد جاء المطر في قصائد الهذليين في صيغة الدعاء بأن تسقي السحائب القبر، فجعلوا المطر ترَحُّماً على موتاهم، لأن المطر رحمة لهم فأحبوا أن تشمل الرحمة موتاهم.

وقد وردت صورة المطر في الرثاء عند الهذليين عند ثلاثة شعراء، هم: قيس بن العيزارة عندما رثى أخاه، والبريق الخناعي في رثاء أخيه، وأبو صخر الهذلي في رثاء ابنه.

فقيس بن العيزارة رثى أخاه لأمه، وهو الحارث بن خويلد، الذي مات بمكة، فرثاه بقصيدة تقع في ثمانية عشر بيتا، جاءت صورة المطر في البيتين الرابع والخامس.

يقول في مطلع القصيدة:

يا حـــــارِ إِنِّي يا اِبــــنَ أُمِّ عَميـــــدُ ... كَمِـــدٌ كَـــأَنِّي في الفُـــؤادِ لَهيـــدُ[1]

ثم تأتي صورة المطر،يقول:

فَسَــقى الغَــوادي بَطــنَ مَكَّــةَ كُلَّهــا ... وَرَسَـــت بِـــهِ كُـــلَّ النَهـــارِ تَجـــودُ

تُــروي الكــرامَ بــهِ وتُــروي صــاحبي ... وأخـــي جَـــديرٌ بالكِـــرامِ ســـعيدُ

ثم بعد ذلك يذكر أن أخاه كريمٌ شجاع، ثم يعزي نفسه بالمقولة السائدة عند الهذليين "والدهر لا يبقى على حَدَثانه"، ويذكر قصة بقر مطمئن في دَعَةٍ وخصب، وخُلِقَت بِيضاً، وجُعِلَ في ألوانها البركة، ثم قُدِّرَ لها صائدٌ أغبر مَعَه كلابه، فأهلكها وقضى عليها، وقال في آخر بيت: "يوماً أراد بها المليك نفادَها"، وهذا إيمان بالقدر بأنه من عند الله، وما لهُ إلا الرضى به.

أما صورة المطر التي رسمها الشاعر، فبدأت بالدعاء، ولم يكن الدعاء للقبر فحسب؛ بل شمل الدعاء بطن مكة كلها، وأكد ذلك بقوله "كلها". واختار من السحاب الغوادي، وهي التي تمطر غدوة، واختار الغداة، وهي أول النهار، لأن المطر في أول النهار فأل خير لليوم كله، وما أجمل أن يُسْتَقْبَلَ اليومُ بالمطر، وهذا السحاب لا يبرح بطن مكة، راسياً لا يزول، ويظل يجود بخيره كل النهار.

وجعل بطن مكة يرتوي كله بسبب وجود قبر أخيه،وجعل أهل مكة يرتوون كلهم بسبب وجود الكرام فيهم، وما ذكر الكرام إلا لأنهم يتمتعون بصفة الكرم كأخيه، وأخوه جديرٌ بهم، ولذلك لم يُدفَن إلا بجوارهم في ذلك المكان المقدس.

وجاءت صورة المطر مُرَكِّزةً على ما تجود به السحب الغوادي من السقيا، ولم يرد فيها ذِكْرُ رعد ولا برق ولا سيل، وجاءت بألفاظ السقيا والجود والإرواء، وأن مطرها يروي كل من سكن بطن مكة سائر

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٥٩٧

اليوم، ومدحهم بأنهم كرام يستحقون الإكرام، والكرام لا يجاورهم إلا كريم.

وقد جعل قبر أخيه سبباً في إكرام أهل مكة كلهم، لأنه كان كريما في حياته، فأراد أن يستمر كرمه على الناس بعد موته.

إن معظم أبيات السقيا في مراثي شعراء العرب لم تتجاوز البيت أو البيتين ما عدا مرثيتين إحداهما للبريق الخناعي والثانية لأبي صخر الهذلي حيث امتدت الصورة حتى حوت تفصيلات دقيقة للمطر(١)، وهذا يُعد خصوصية لهذين الشاعرين الهذليين.

فالبُرَيق بن عِيَاض الخُنَاعِيّ رثى أخاه في ستة عشر بيتاً، وجاءت صورة المطر في أربعة أبيات، وكان مطلع القصيدة:

لقــد لاقيــتُ يــوم ذهبــت أبغــي ... بِحَــــزْمِ نُبـــائعٍ يومـــــاً أَمَــــارَا(٢)

ثم بدأت صورة المطر من البيت السادس، يقول:

ســـقى الـــرحمنُ حـــزم نُبائعـــاتٍ ... مـــن الجَـــوْزاء أنـــواءً غِـــزارا(٣)

بمرتجِـــــزٍ كـــــأن علـــــى ذُراهُ ... رِكـــابُ الشـــامِ يحملـــن البُهـــارا(٤)

يَحُـطُّ العُصـمَ عـن أكنـافِ شِـعْرٍ ... ولم يـــترك بـــذي سَـــلْعٍ حمـــارا(٥)

وَمَـــرَّ علـــى القـــرائن مـــن بُحـــارٍ ... فكـــاد الوبـــل لا يُبقِـــي بُحَـــارا(٦)

بدأت الصورة بالدعاء بالسقيا لمكان القبر (سقى الرحمن حزم نبائعات)، ولأن الغرض الرثاء وصاحب القبر محتاج إلى الرحمة، والمطر كذلك رحمة من الله؛ فقد اختار الشاعر ما يناسب كل ذلك من أسماء الله وهو الرحمن. والشاعر يدعو بمطر غزير جاء في وقت نوء الجَوْزاء، وقد اختار الجوزاء لسببين، الأول: لأن الجوزاء غزيرة النوء(٧)، والثاني: لأن الجوزاء تكون في اشتداد الحر، والقبر إلى السقيا أحوج. "وتقول العرب: "إذا طلعت الجوزاء، تَوَقَّدَت المَعْزاء، وكَنَسَت الظباء، وعَرِقَت العِلباء، وطاب الخِبَاء" وإنما يعنون بطلوع "الجوزاء" الهَقْعَة والهَنْعَة. و"المَعْزاء" الأرض الصلبة، تتوقد بِحَرِّ الشمس وقوله "كنست الظباء" يريد أنها

(١) يُنظر "المطر في الشعر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي"، سلامة السويدي، ص١٨٥

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٧٤١، أمارا: علامة.

(٣) المصدر السابق، الحزم: ما غَلُظَ من الأرض، نبائعات: بلدة، أنواء: سقوط النجم "نَوْءه"

(٤) السابق، مرتجز: يرعد، ذراه: أعلاه. البُهار: جاء في لسان العرب، (بهر)، ج٢، ص١٦٦ "البُهار عربي صحيح وهو ما يحمل على البعير بلغة أَهل الشأْم"

(٥) السابق، يحط: يُنزِل، العُصم: الوعول، أكناف: نواحٍ، شِعْر: جبل، سَلْع: جبل.

(٦) السابق، القرائن: جبال مقترنة معروفة، بُحار: بلد. قال أبو عمرو: أظنه جبلاً.

(٧) يُنظر "كتاب الأنواء في معرفة مواسم العرب "، ابن قتيبة، ص ٤١

تدخل الكُنُس من شدة الحر. واحدها كُناس. فتصاد فيه"[1].

وقال جرير[2]:

وَيَــومٍ مِــنَ الجَــوزاءِ مُســتَوقِدِ الحَصــى   تَكــادُ صَياصــي العِــينِ مِنــهُ تَصَــيَّحُ[3]

شَــديدِ اللَظــى حــامي الوَديقَــةِ ريحُــهُ   أَشَــدُّ أَذىً مِــن شَمسِــهِ حــينَ تَصــمَحُ[4]

والحر – أيضاً – هو ما يعانيه الشاعر من حرارة الفقد، فدعا بالمطر العميم على القبر وغيره، لعله يذهب عنه ما يجد.

وعبر عن الرعد بأنه مرتجز، وهو الذي يتدارك صوته كارتجاز الراجز[5]، وشبه السحاب بركاب الشام التي تحمل البضائع، وحدد جهة الشام لأنها مصدر التجارة والخير.

ثم عبر عن قوة المطر بأنه يحط الوعول عن نواحي جبل شِعر، وأن المطر لم يترك حماراً بذي سَلْع.

والوعل الأعصم هو أقوى الوعول، وأكثرها تحملاً، وَيُعَدُّ نزوله عن الجبل دليلاً على شدة المطر الذي لم يسلم منه أحد، ولم يتحمله حتى الوعل الأعصم[6].

ثم مر المطر على جبال القرائن، وكاد المطر أن يزيل جبل بُحار من شدته.

والصورة في الأبيات كان هدفها السقيا، فشملت مكان القبر (حزم نبائعات)، وشملت أماكن أخرى لها مكانة في نفس الشاعر وتحمل ذكريات أخيه، وهي: جبل شعر، وذا سلع، وجبال القرائن، وجبل بُحار. ويُلاحظ أنها اقتصرت على الجبال فقط، وذلك لأن الجبال إذا كثر عليها المطر، فإنها تسقي بسيولها ما تحتها.

ويُلاحظ – كذلك – أن المطر قوي غزير، فقد حط الوعول من أعالي الجبال، وأغرق حُمُر الوحش، وكاد أن يزيل جبل بحار من شدة وقعه وغزارته. وتعلل الدكتورة سلامة السويدي ذلك بأنه صدى نفس الشاعر الحزينة المتألمة الجازعة[7].

ويظهر جزع الشاعر وحسرته بعد صورة المطر في البيت الذي يقول:

أودع صـــــــاحبي بالغيــــــب إني   أراني لا أُحِــــسُّ لـــــه حَــــوَارا[8]

---

(١) كتاب الأنواء في معرفة مواسم العرب، ابن قتيبة، ص٤٣

(٢) ديوان جرير، شرح مُحَمَّد بن حبيب، تحقيق: د. نعمان مُحَمَّد أمين طه، دار المعارف– القاهرة، ط٣، (د.ت)، ص٨٣٦

(٣) المصدر السابق، الصياصي: جمع صيصة وهي القرن، تَصَيَّح: تشقق، العِين: بقر الوحش.

(٤) السابق، الوديقة: حين تدِق الشمس أي تدنو من الأرض وهي أشد الحر، تصمح: تدمغ وتحرق.

(٥) يُنظر " أساس البلاغة"، الزمخشري، (رجز)، ص٢٢١

(٦) يُنظر "اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي شعراء المعلقات نموذجا"، أمل محمود عبد القادر أبو عون، ص٤٠

(٧) يُنظر "المطر في الشعر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي"، سلامة السويدي، ص١٨٥

(٨) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٧٤٣، بالغيب: الموضع الذي دُفِن فيه، حَوَار: رُجُوع.

فهو يودع أخاه في الموضع الذي دفن فيه، ويحس أنه لن يرجع، وهذا ما أجزعه وآلمه.

ثم بكى في القصيدة بقية إخوته الذين تتابعوا، ثم ختم بوصف أخيه بالشجاعة، وإغاثة الملهوفين، وأنه أجرأ من الأسد في إغاثة من يستغيثون به عندما يحيط بهم الأعداء ويرون الموت من كل جانب، وذلك حينما تلقي الطفلة الحسناء درعها وخمارها من شدة الفزع.

وجاءت صورة المطر والرثاء عند أبي صخر الهذلي في قصيدته التي يرثي فيها ابنه داود، وقد بلغت القصيدة أربعة وستين بيتاً، أخذت منها صورة المطر ثلاثة وعشرين بيتاً، وهذا قد تفرد به أبو صخر عن باقي الشعراء[1]، فقد استرسل في صورة المطر لأنها دعاء بالسقيا لقبر ابنه، فجاءت عاطفة الأُبوَّة مسترسلة في الصورة تتخير له من المطر أجوده.

وقد بدأت القصيدة بالتجريد، وكأنَّ مخاطَباً يخاطبه، يقول:

تَعَزَّيْتَ عن ذكرِ الصِّبى والحبائبِ ... وأصبحتَ عِزْهًى للصِّبى كالمجانِبِ[2]

إلى أن يقول شاكياً أفعال المنية:

وكم من أخٍ أو عمٍّ صدقٍ رُزِئْتُهُ ... أو ابنِ أخٍ سمحٍ كريمِ الضرائبِ

ومن صاحب لي وابنِ عمٍّ تتابعوا ... وَمَن ذا من الأحياءِ ليس بذاهبِ

ثم يقول:

فلا نائبات الدهر يَرْجِعنَ هالكاً ... إلى أهلهِ والدهر جم النوائبِ

فقد عزَّى نفسه بتلك الحقيقة الكونية، وهي أن الهالك لا يرجع إلى أهله، ولكن الذكرى قد جددت آلامه، وحرمته منامه:

وقد هاجني طيف لداوود بعد ما ... دنت فاستقلت عاليات الكواكبِ

ولا يشفيه إلا عودة ابنه من قبره:

وعندك لو يحيَ صداك فنلتقي ... شِفاءٌ لما غادَرْتَ يومَ التَّنَاضِبِ

ثم يقول:

ولولا يقينٌ أنما الموتُ عَزْمَةٌ ... من الله حتى يُبْعَثُوا للمَحاسِبِ

لقلتُ له فيما أَلَمَّ بِرَمْسِهِ ... هَلَ انتَ غداً غادٍ معي فمُصاحِبي

فماذا ترى في غائبٍ لا يُغِبُّني ... فلستُ بناسيهِ وليس بآيبِ

تلك أبيات مليئة بالحزن والأسى، صدرت من أبٍ يتفطر قلبه حزناً على فراق ابنه.

---

(١) يُنظر "المطر في الشعر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي"، سلامة السويدي، ص١٨٥

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص ٩١٥، العِزْهى: الذي لا يحب اللهو.

ثم يدعو لقبر ابنه بالسقيا، فتأتي صورة المطر، وتبدأ من البيت السادس والثلاثين، يقول:

فَأَسْـــقَى صــــدَى داوود دانٍ غمامُـــــهُ   هَـــزِيمٌ يَسِـــحُّ المـــاءَ مـــن كـــل جانـــبِ
ســرى وغــدت في البحــرِ تضــرب قُبْلَــه   نُعــامى الصــبا هَيْجــاً لِــرَيّا الجنائــب[1]
ثـــلاثاً فأســـــرت مُزْنـــــةٌ حضـــــرميةٌ   لهـــا ثائـــبٌ طـــلٌّ النـــدى بعـــد ثائـــب
تحــــوزُ منــــــاتيحَ الغمــــــامِ وتمــــــتري   مطافيـــلَ لم يُنْـــدِب بهـــا صَـــرُّ حالـــبِ
فـــــألحقنَ محبوكـــــاً كـــــأن نَشاصَـــــه   مناكِـــبُ مـــن عَـــروانَ بِـــيضُ الأهاضِـــبِ[2]
كـــأنَّ ســـيوفَ الهنـــد تُخْفَـــضُ تارةً   وتُرفَـــعُ بـــين العســـكرِ المتقـــارب
ســـنا لَوْحِـــهِ لمـــا اســـتقلت عُرُوضُـــهُ   وأحيـــا بـــبرقٍ في تِهامـــةَ واصـــبِ
فجـــرَّ علـــى سِـــيفِ العِـــراقِ فَفَرْشِـــهِ   فـــأعلامِ ذي قُـــوسٍ بأدهـــمَ ســـاكبِ[3]
فلمـــا عـــلا ســـودَ البِصـــاقِ كِفافُـــهُ   تُهِيـــبُ الـــذُّرى منـــه بـــدُهْمٍ مَقـــارب[4]
فَجَلَّـــــلَ ذا عَـــــيْرٍ ووالى رِهامَـــــهُ   وعـــن مَخْمَـــصِ الحُجَّـــاجِ لـــيس بناكِـــبِ[5]
فلمـــا علـــت شِـــعْرينِ منـــه قـــوادِمٌ   ووازن مِـــــنْ أعلامِهـــــا بالمناكـــــبِ[6]
مُضِـــرٌّ شـــآميهِ لِيَنْبُـــعَ فـــالحِمى   ودون يمانيـــــهِ جِبـــــالُ المراكِـــــبِ
لـــه ذَمِـــراتٍ في نُمَـــيْسٍ تحفـــهُ   وقُدَّامَـــهُ تغشـــى ثنـــايا المناقِـــبِ[7]
يُمِيـــلُ قَفَـــاراً لم يـــكُ الســـيلُ قَبْلَـــهُ   أضـــرَّ بهـــا فيهـــا جِبَـــابُ الثعالـــبِ[8]
فأصـــبح مـــأمونُ المنـــاحي محـــافلاً   لأعـــراقِ طمـــاحِ القـــوانِسِ لاحِـــبِ[9]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩١٩، الجنائب: الجنوب.

(٢) المصدر السابق، المحبوك: الممتلئ من السحاب، عروان: جبل.

(٣) السابق، ج٢، ٩٢٠، جرَّ: يسير سيراً ضعيفاً وهو يمطر، السيف: مادنا من البحر، فيريد عراق البحر، الفرش: أَجَمَة العرفج، ذو قوس: وادٍ.

(٤) السابق، البِصاق: الحِرار، والبَصْقة: الحرَّة، كِفافُه: سحابه، تُهِيب: تدعو كما يُهِيب الرجل بإبله، الذُّرى: الأعالي، مقَارِب: قد أقْرَبَت، إذا دنا نِتاجُها.

(٥) السابق، ذو عَيْر: جبل، مَخْمَص: اسم طريق.

(٦) السابق، شِعْران: جبلان، وازَنَّ: حاذَيْن، أعلامها: جبالها.

(٧) السابق، ذَمِرات: أصوات، نُمَيس: جبل، الثنايا: الطرق في الجبال.

(٨) السابق، القَفار: الصخور. ويروى "جحاش الثعالب"، أولادها.

(٩) السابق، المناجي: ما ارتفع من الأرض فلم يلحقه السيل، المِحْفِل: الذي يصيبه السيل ويمر به، القوانس: الأعالي، لاحب: يلحبه، يمر عليه.

فلمـــا تَغَشَّـــى نَقْـــرَياتٍ سَـــحِيلُهُ		ودافَعَـــهُ مـــن شـــامَهُ بالرواجِـــبِ
أَلحَّ رجيفـــاً يُهْـــرِبُ الـــوحشَ حِسُّـــهُ		كلَجَّـــةِ حَـــوْمِ المنهـــل الـــمُتجاوِبِ[1]
رفعـــتُ لـــه صـــوتي وأيقنـــت أنـــه		أزامـــلُ نجـــمٍ خالُـــهُ غـــيرُ كـــاذبِ[2]
وحُلَّـــت عُـــراهُ بـــين نَقْـــرى وَمُنْشِـــدٍ		وبُعِّـــجَ كُلْـــفُ الحنـــتمِ الـــمُتراكِبِ[3]
وقلـــت عســـى أن يُلْبِـــدَ اليـــومَ ودقُـــهُ		سَـــفاةً بمُسْـــتنِّ الـــرياح الحواصـــبِ[4]
ليَـــرْوَى صـــدى داوودَ واللحـــد دونـــه		ولـــيس صـــدًى تحـــت العِـــداء بشـــارب[5]
ولكـــن يُقِـــرُّ العَـــينَ والـــنفس أن تـــرى		بِعُقْدَتِـــهِ فَضْـــلاتِ زُرْقٍ دواعِـــبِ[6]
وَتَهْـــدِي رَوَايا سَـــيْبِهِ وَسِـــجَالِهِ		لـــداوود والـــرحمنُ جَـــمُّ المواهِـــبِ

جاءت صورة المطر هنا في سبيل الدعاء للابن داود، فالسحاب دانٍ، ودنو السحاب في هذه الصورة؛ صادر عن عاطفة الأبوَّة، ويُرى في هذه الصورة العطف وحنان الأب، لأن الأب يحب أن يُدني ابنه منه، وهنا جعل أبو صخر السحاب يدنو من الأرض التي دُفِن فيها ابنه، لأن دنو السحاب فيه عطف ورحمة.

وقال عن السحاب (سرى)، والسُّرى يكون بالليل، واختار ذلك لأن الليل به وحشة، ويريد أن يستبدل الوحشة بسحاب يحمل البُشرى والخير. والسحاب تسوقه الصبا وتستدره الجنوب، لأن الجنوب تلقح السحاب وتستدِرُّه[7]. والسحاب ممتلئ بالماء، وشبهه بالإبل التي لم تُحلب، أي أن السحاب لم يُمطر وهو في طريقه إلى المكان الذي دُعِيَ له بالسقيا. ثم ألحقت الريح ذلك السحاب سحاباً آخر كأنه جوانب من جبل عروان مليء بالماء، ثم لمع البرق بينهما وكأنهما جيشان تلمع بينهما سيوف الهند.

ثم أمطر السحاب على أماكنَ عدة، هي: أعلام ذي قوس، وإعالي الحِرار السود، وجبل ذي عير، وجبلا شعرين، وجبل نُمَيس.

وجاء السيل عظيماً، فهو يُميل صخوراً لم تستطع السيول السابقة إمالتها، ودخل السيل إلى جحور الثعالب فدمرها، وأصبحت الأماكن التي يؤمن فيها السيل محافلَ له يمر بها السيل ويصيبها، فهو سيل طَمَّاح يبلغ أعالي الحِرار، وله رجيف شديد هربت بسبب حِسِّهِ الوحش.

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٢١، رجيف: في صوته،" رَجَفَ يَرْجُف"، المنهل: حيث وردت، تسمع لها أصواتاً، حوم: إبل كثيرة.

(٢) المصدر السابق، أَزامِل: أصوات نوء من النَّجْم، خالُه: سحابه.

(٣) السابق، نقرى: حرَّة، بُعِّج: شُقِّق، كُلْفٌ: سود، الحنتم: الجِرَار.

(٤) السابق، يُلْبِد: يمطر حتى يتلبد رمله.

(٥) السابق، العِداء: الصخر الذي يوضع على القبر.

(٦) السابق، ج٢، ٩٢٢، عُقْدته: مكانه، الدواعب: السيول: الزُّرق: الماء الصافي.

(٧) يُنظر "كتاب الأنواء في مواسم العرب "، ابن قتيبة، ص١٦٤

ثم سار السحاب حتى وصل مكان القبر، وهو بين موضعي نَقْرَى ومُنْشِد، فاستقر هناك وحُلَّت كل عُراه، فشبه السحاب بالجِرار العظيمة المنسكب ماؤها، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وحو حَلُّ العُرى، على سبيل الاستعارة المكنية، ثم دعا الشاعر أن يمطر ذلك السحاب بكل مائه حتى يتلبد الرمل.

ثم بين أن ذلك كله ليروى صدى داود، ولكنه استدرك أن الصدى تحت الثرى لا يشرب حقيقة، ولكنه يَسْتَرُّ عندما يرى الماء الصافي يسيل على مكان القبر، ثم ختم بقوله (والرحمن جَمُّ المَوَاهِب)، ليكون ذلك المطر رحمة من الله على صاحب القبر.

والشاعر قد يئس من الحياة بعد ابنه، فلم يعد له مأرب فيها، ولكنه تمنى مِيتَةَ عزّ، فطلب من الله الشهادة في سبيله علي يد الروم:

سـألتُ مليكـي إذ بـلاني بفقـده ... وفـاةً بأيـدي الـروم بـين الـمَقَانِبِ

ثَنَـوْني وقـد قَـدَّمْتُ ثأري بِطَعْنَـةٍ ... تجـيشُ بِقَـلّاسٍ مـن الجـوفِ ثاعِـبِ[1]

ومن العجيب أنه يطلب من ربه أن يجعله يأخذ بثأر نفسه قبل أن يموت.

وقد أسهب أبو صخر في صورة المطر، وما تعليل ذلك إلا أنه نَفَسُ شاعر حزين مفجوع، وقد وجد في الأحداث الكونية متنفساً لمعاناته وألمه، ويصبغ صورها بجو نفسه الحزين لذلك امتدت صورة السقيا بامتداد حزنه وألمه[2].

ونفس الشاعر حزينة مضطربة، لأنه كان يقف أمام حقيقة كونية لا حيلة للإنسان فيها، وهي أن الأحياء لابد أن يغادروا، ولكن فقد الابن شيء آخر، فهو من شدة تعلقه به يتخيل أنه سوف يعود إليه، ولكنه يقول لنفسه إن الله قد كتب أن الميت لا يبعث إلا في يوم الحساب، فيتفطر قلبه حزناً حينما يقول بأن ابنه لن يعود، فالابن ليس بعائد والأب لا يستطيع أن ينسى.

وقد أضفى الحزن والاضطراب بظلاله على النص فجاء المطر قوياً، فأمال الصخور العظيمة التي لم تحركها السيول، وبلغ السيل كل مأمن.

ويظهر في النص الصراع بين الحياة والموت، حينما أرهب حس السيل الوحوش، وكأن الوحوش وحشة الموت، والسيل له صوت مثل لجة الإبل المفعمة بالحياة، وكأنه صراع بين حركة الحياة ووحشة الموت، وانتهى الصراع بهروب الوحوش. وكذلك دمر السيل بيوت الثعالب، وهذا التدمير لبيوت الثعالب بالذات له دلالة، لأن الثعالب ترمز إلى الغدر والمكر والمراوغة، فربما أن ابنه قُتِل غدراً، أو أنه يقصد الموت لأنه يَخْتَتِلُ الناس فيختطفهم من بين أحبابهم.

ولمكانة داود في نفس والده، فقد كرر ذكر اسمه في القصيدة عدة مواضع، وابتدأ به صورة المطر (فأسقى

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ٩٢٣، ثَنَوْنِي: رَدُّوني بِطَعْنَة، وقد قَدَّمْتُ ثأري بِطَعْنَةٍ: أي قتلت واحداً قبل أن أُقْتَل.

(٢) يُنظر "المطر في الشعر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي"، سلامة السويدي، ص١٨٦

صدى داود)، وختم به الصورة (ليروَى صدى داود). واختار له أجود السحاب، فالسحاب ظلت الرياح تجمعه وتلقحه ثلاثة أيام، لأنه لا يريد أن يسقي مكان القبر فحسب، بل ليشمل المطر أماكن عدة، لتعم الرحمة على تلك الأماكن، التي كانت لها ذكريات وذكريات، وفي آخر الأمر حُلَّت عُرى السحاب على مكان القبر.

وتتسم صورة المطر هذه بأنها متأثرة بالطابع الإسلامي، وظهر ذلك في عدة مواضع:

١- حينما ذكر الشاعر في نهاية الصورة أن هذا المطر لا ينفع الميت حقيقة، ولكنه يَسْتَرُّ حينما يرى الماء حول القبر[١].

٢- عندما دعا الله أن يكون المطر سبباً لرحمة ابنه داود.

٣- عندما سأل الله باسمه الرحمن.

٤- إيمانه بالبعث والحساب.

٥- ختم القصيدة بسؤال الله الشهادةَ في سبيله على يد الروم.

---

(١) يُنظر "المطر في الشعر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي"، سلامة السويدي، ص١٨٦

رابعاً: صورة المطر والحرب

كما يكون المطر مادة الحياة والخير، فإنه قد يكون مادة للتدمير والهلاك. والسحابة التي تحمل البشرى، بها الصواعق المهلكة والرعود المجلجلة المخيفة، ولا يستطيع أحد أن يقف أمام تدفق السماء إذا هَلَّ ماؤها وطغى سيلها، والسيل إذا طغى أهلك ودمر وغير معالم الأرض.

والشعراء قد أخذوا من هذا الجانب ما يعبرون به عن سخطهم وغضبتهم، فجاءت صورة المطر سبيلاً لوصف ذلك.

وصورة المطر في الحرب لم تأت صورة كاملة كما هو الحال في الغزل أو الرثاء ونحوهما، بل اقتصر الأمر على بيت أو بيتين، يختار فيهما الشاعر صفة من صفات المطر ليجعلها تشبيهاً للجيش أو النبال ونحوهما.

ومن ذلك بيت للمُعَطِّل الهذلي يصف النِّبَالَ ويشبهها بالمطر:

ضَـــمَمْنَا علـــيهم جـــانبيهم بصـــائبٍ … مـــن النبـــل يغشـــى فَـــرَّهُم غَبَيَاتُهَـــا[(١)]

فجعل سقوط النبال عليهم كالمطر في كثرته.

والبيت جاء بعد أن ذكر الشاعر قوماً من الأعداء وقد تواصوا بأن يحموا دارهم، ولكن قوم الشاعر قد بيَّتوهم وأحاطوا بهم وفرَّقوا جمعهم، يقول:

ودارٍ مـــــن الأعـــــداء ذات زوائـــــدٍ … طرقنـــا فلـــم يَكْـــبُر علينـــا بَيَاتُهَـــا

تواصَـــــوا بأن لا تُقْـــرَبَنَّ فأُشـــعِلت … علـــيهم غواشِـــينا فضلـــت وَصَـــاتُهَا

ضـــممنا علـــيهم جـــانبيهم بصـــائبٍ … مـــن النبـــل يغشـــى فَـــرَّهُم غَبَيَاتُهَـــا

فأُبنـــا لنـــا رِيـــحُ الكِـــلاءِ وذِكْـــرُهُ … وآبـــــوا علـــــيهم فلُّهـــــا وَشَمَاتُهَـــــا

وكذلك يشبه أبو كبير الهذلي النبل بالمطر، فيقول[(٢)]:

وتعـــــاوروا نـــــبلاً كـــــأن سَـــــوَامَهَا … نَفَيـــانُ قَطْـــرٍ في عَشِـــيٍّ مُـــردِفِ

والبيت جاء في أبيات يفخر فيها أبو كبير بفِعله عند لقاء الأعداء، ويصف معركة التقى بها الشجعان، والنبل كالقطر، وأصاب القوم ما أصاب قوم ثمود من الهلاك، وأبو كبير من بين هؤلاء الأبطال في هذه المعركة المُفْنِيَة يطعن أعداءه بطعناتٍ واسعة بِخِفَّةٍ:

وإذا الكُمـــاةُ تعـــاوروا طعـــنَ الكُلَـــى … نـــدْرَ البَكَـــارَةِ في الجَـــزاءِ الـــمُضْعِفِ

وتعـــــاوروا نـــــبلاً كـــــأن سَـــــوَامَهَا … نَفَيـــانُ قَطْـــرٍ في عَشِـــيٍّ مُـــردِفِ

---

(١) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج٢،ص٦٣٥، ضممنا عليهم: أحطنا بجانبيهم، صائب: قاصد، فَرَّهم: فارَّهم، الغَبْيَة: الدُّفْعَة من المطر الغزيرة.

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص١٠٨٧، سَوَامُها: ما يُرمَى منها به، مُرْدِف: مظلم

وَرَغَــا بهــم سَــقْبُ السـماءِ وخُنِّقــت   مُهَــجُ النُّفــوسِ بِكــارِبٍ مُتَزَلِّــفِ[1]

وَتَبَـــوَّأَ الأبطـــال بَعْـــدَ حزاحِـــزٍ   هَكْــعَ النَّــواحِزِ في مُنــاخِ الموجِــفِ

عَجِلَـــتْ يـــداكَ لخــيرِهم بمُرِشَّـــةٍ   كــالعَطِّ وسْــطَ مَــزادةِ المسْـتَخْلِفِ

ويصف كَرَّةَ قومه على الأعداء بانصباب السحابة بالماء الغزير، وظلت تهطل ولم تصبها ريح الشمال التي إذا أصابتها انقشعت[2]:

ولقــد شــهدت الحــيَّ بعــد رُقــادهم   تُفْلَــى جمــاجمهم بكــلِّ مُقَلَّــلِ[3]

حـــتى رأيـــتُهمُ كـــأنَّ ســـحابةً   صــابتْ علــيهم وَدْقُهَــا لم يُشْــمَلِ

ويفخر معقل بن خويلد بقومه ويشبه حملتهم على الأعداء بانقضاض السيل الأتي الذي يمر مرَّاً سريعاً، ومناسبة الأبيات، ما جاء في شرح أشعار الهذليين:

أن مَعْقِل بن خُوَيْلِد – وهو سيد مُطاع في قومه– قد خرج ومعه غافل بن صخر إلى أبي يكسوم ملك اليمن، ومعهما أسرى من الأحباش قد أسرتهم هذيل حين فروا من الطير الأبابيل، ويريدان أن يفتدوا بهم أسرى العرب الذين أسرهم ملك اليمن، فقال مَعْقِل بن خويلد الأبيات حينما رجع بِسَبْيِ العرب، ومنها قوله[4]:

فيـــا رُبَّ حـــيرى جماديـــةٍ   تَنَـــزَّلَ فيهـــا نـــدًى ســـاكِبِ[5]

ملكـــتُ سُـــراها إلى صُـــبْحِها   بِشُـــعْثٍ كـــأنهمُ حاصِـــبُ

لهـــم عَـــدْوَةٌ كانقِصـــافِ الأتـــ   ـــيِّ مَـــدَّ بـــه الكَـــدِرُ اللاحِـــبُ[6]

فكم من ليلة جمادية باردة طويلة ملك سُراها بقومه، والليل يوحي بالوحشة والخوف، وطولها يزيد من ذلك، وبرودتها تمنع الناس من السُّرى فيها، ولكن الشاعر قد امتلك بقومه السرى فيها، فلا يستطيع مقاومتهم أحد، وقومه شعث كانهم إذا أغاروا ريح حاصب تقذف بالحصى، وحملتهم على الأعداء تشبه السيل الأتي السريع القوي الذي يغير معالم الأرض.

ومن الأبيات التي تصف حرباً بين فئتين، بيت لساعدة بن جؤية، يقول:

---

(١) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج٣، ص١٠٨٨، يقول: أصابهم ما أصاب قوم ثمود حين رغا بهم البَكْرُ من الهلاك.

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص١٠٧٥

(٣) السابق، تُفْلَى: تُعْلَى، بكل مُقَلَّل: بكل سيف جُعِلَت في رأسه قُلَّة.

(٤) يُنظر السابق، ج١، ص٣٨٩

(٥) السابق، حيرى: ليلة طويلة، جمادية: باردة، لأن الشتاء في جُمادى حينئذٍ.

(٦) السابق، ج١، ص٣٨٩، عَدْوَة: حملة كَجَرْيَةِ السيل وصوته، لاحِب: مُطَّرِد ذاهب يؤثِّر في وجه الأرض، انقصافه: اندفاعه، الأتي: السيل، مَدَّ بِهِ الكَدِر: يريد أنه يمر مراً سريعا مستقيما.

واســـــتدبروهم يكفئـــــون عـــــروجهم   مَـــوْرَ الجهـــام إذا زفتـــهُ الأزيـــبُ[١]

وقد ورد البيت ضمن أبيات يصف فيها ساعدة مأساة قوم كانوا في عزة ومنعة وكثرة عدد، فهجم عليهم قوم أقوى منهم وأكثر عدداً، فنهبوا أموالهم وسبوا نساءهم، ثم أخذوا يطردونهم من أرض إلى أرض وهم في ذلة[٢]، وقد جعل القوم المهزومين كالسحاب الخفيف الذي أريق ماؤه فأصبح لا ماء فيه، وجعل المنتصرين كالريح التي تسوق السحاب وتتحكم فيه.

ويشبه عبد مناف بن رِبْع الجُرَبي الجيش بالعارض من السحاب الذي فيه البَرَد، وذلك في أبيات يذكر فيها يوم أَنْفِ عاذ[٣]:

سَـدُّوا علـى القـوم فـاعتطُّوا أوائلَهـم   جـيشَ الحمـار ولاقَـوْا عارِضـاً بَـرِدَا[٤]

فصورة الجيش في كثرته وكثرة ما يقذف رِجاله من النِّبال، كصورة السحاب العارِض الذي يسد الأفق، ويتساقط منه البَرَد الكثير، والسحاب لا يخلو من الرعد المُخِيف والصواعق المُحْرِقة.

وكان يوم الرَّجِيع بين هذيل وخُزَاعة، وقد وثب على مَعْقِل ثلاثة فرسان فواثبهم فأرداهم، فقال أبياتاً في ذلك اليوم، ومن بين تلك الأبيات قوله يصف جيش خزاعة وجيش هذيل[٥]:

فجـــاؤوا عارضـــاً بَـــرِدًا وجئنـــا   كهَـــيْجِ الـــريح تقـــذِفُ بالغمـــامِ[٦]

فقد شبه صورة جيش خزاعة بالعارض من السحاب الذي غطى عامة الأفق، والسحابة هنا تحوي البأس والتدمير، والبرد هو النبل الكثير منهم، ولكنه جعل قومه أقوى من ذلك العارض، فهم كالريح القوية التي تقذف بذلك الغمام وتسوقه أمامها وتتحكم فيه.

ويصور أبو جندب الحرب، بأن السماء لا تدِرُّ قَطْراً بل تدِرُّ شيئاً آخر على الأعداء وهو العذاب، وهذا المعنى جاء في بيت ضمن أبيات من التهديد والوعيد[٧]:

فـــإلا تُقْصِـــروا بالسَّـــوْقِ عنـــا   علـى مـا كـان مـن قُـربَى وصِـهْرِ
تُلاقـــوا مثـــل مـــا لاقـــت ثقيـــفٌ   ووائلـــةُ بـــنُ دُهمـــانَ بـــنِ نَصْـــرِ
وتُقطَـــعُ بينَنـــا رَحِـــمٌ إذا مـــا   لَبِسْـــنا للكُمـــاةِ جلـــودَ نُمْـــرِ

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٢١، استدبروهم يكفؤون عروجهم: طردوهم من أرض إلى أرض، والعرج الإبل الكثيرة ، ألف، تسع مئة، ثمان مئة، مَوْرُه: مَوْجُه كما يموج السحاب، الجهام: السحاب الذي هَراق ماءه، زفَتْهُ: استخفته، الأزيب: الجَنوب

(٢) يُنظر "صورة المطر والمرأة" حيث تم تناول الأبيات.

(٣) ذُكِر في ديوان الهذليين، ج٢، ص٣٨، أن الشاعر قالها يذكر يوم أنف عاذ، أما شرح الديوان فلم يذكر ذلك.

(٤) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٦٧٤، اعتطوا: شقوا، جيش الحمار: كان معهم حمار يحمل بعض متاعهم، البَرِد: الذي فيه البرد.

(٥) المصدر السابق، ج١، ص٣٧٧

(٦) السابق، ج١، ص٣٧٩، عارض: أصله قطعة من السحاب تعترض في الأفق وتستطيل حتى تأخذ عامة الأفق.

(٧) السابق، ج١، ص٣٦٩

وجـــاءت للقتـــال بنـــو هـــلالٍ   فَـــدُرِّي يا سمـــاءُ بغـــير قطـــرِ

وعلق الشارح على البيت بقوله: "أي امْطُري بغير مطر. يهزأ بهم، يقول: لكم وعيد وقول، وليس لكم فعل، مثل السماء لها رعد وبرق بلا مطر".

والذي أراه أن البيت يحتمل معنى آخر، وهو أن السماء لن تَدُرَّ قطراً، بل سَتَدُرُّ شيئاً غيره وهو العذاب، كأن تدر ناراً وصواعق على الأعداء، والكلام ليس عن بني هلال، وإنما كان عن قوم أبي جندب، لأنه يهدد بهم الأعداء، فيقول احذروا غضبنا إذا تنمَّرْنا للقتال، فإن السماء ستدر عذاباً وليس مطراً.

خامساً: صورة المطر والمدح

نظر العربي إلى السماء، فرأى فيها العلو، ورأى فيها السحاب الذي يحمل الخير، ورأى في هطول المطر إكراماً للأرض ومن فيها، وعندما أراد أن يمدح الشاعر العربي رجلاً بالكرم، فإنه يشبه عطاياه بعطايا الغمام، أو أن يشبه يد الممدوح المعطِية بالغمامة في الإكرام.

وعند الهذليين ورد هذا المعنى عند أبي صخر الهذلي في مدحه لأبي خالد عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد، ولم أجد صورة غيرها.

والقصيدة جاءت في أربعين بيتاً، بدأها بالغزل، ثم لما مدح قال[١]:

أغــــرُّ أُسَــــيْدِيٌ تـــــراه كأنـــــه ... مـن الجـود يُعطـي مالَـهُ وهـو لاعِـبُ

فمـن قـالَ عنـد العُسْـرِ واليُسْـرِ غَيْـرُهُ ... مـن النـاسِ أنـدى راحـةً فهـو كـاذِبُ

ثم أورد صورة المطر:

إذا غِبْـتَ رجَّينـا إيابَـكَ مِثْـلَ مـا ... يُرَجَّـى سِمَـاكِيٌّ مَرَتْـهُ الجنائـب

حـدت مُزْنَـهُ مـن حَضْـرَمُوْتَ مُرِبَّـةٌ ... ضَـجوعٌ لـه منهـا مُـدِرٌّ وحالِـبُ[٢]

تقـودُ نُعامـاهُ حنـاتِمَ أُترِعـت ... مـن المـاءِ يتلـوهنَّ أسـحمُ سـاكِبُ

يشـقُّ الـدُّماثَ البيضَ مـن كـلِّ باطِـنٍ ... ومنـه سُـفُورٌ بالنـواحي لواحِـبُ[٣]

لأنـتَ أمَـنُّ اليـومَ مـن فَـيضِ سَـيْبِهِ ... علينـا ولـو قيـل الحيـا والأخاصِـبِ

سَـتُجْدِبُ أحيـاناً وكفَّـاكَ بالنـدى ... تَفيضَـانِ إثجامـاً فمـا لَـكَ جـادِبُ

فهم يترقبون عودته كما يترقب الناس نوء السِّمَاك، وهو نوء غزير مذكور، قليل ما يُخلف، ومطره يصل الخَطَائط، والخَطِيطَة أرض غير ممطورة بين أرضين ممطورتين، يقول ساجع العرب: "إذا طلع السِّماك، ذهب العِكاك، وقلَّ على الماء اللِّكاك"، والعِكاك الحرّ، يريد أنه لا يبقى منه شيء عند طلوعه، وقل على الماء اللكاك، يريد الازدحام عليه، لقلة شرب الإبل في ذلك الوقت[٤].

أي أنه سحاب جاء في وقت طلوع نجم السِّماك، وتستدره رياح الجنوب اللواقح، والناس ينتظرون هذا النوء، لأن فيه إيذان بذهاب الحرِّ، وترتوي فيه إبلهم، فلا تزدحم على الموارد.

والسحابة ضَجُوع؛ أي " بَطِيئة من كثرة مائها "[٥]، وهي كثيرة الهطول، لأن الجَنوبَ تُدرُّها وتَحْلِبها.

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٤٨

(٢) المصدر السابق، مُرِبَّةٌ: لازمة، ضَجوعٌ: مائلة.

(٣) السابق، باطن: بطون الأودية، سفور: آثار السيول، لواحب: بيّنة

(٤) يُنظر "كتاب الأنواء في مواسم العرب"، ابن قتيبة، ص٦٤ – ٦٥

(٥) لسان العرب، (ضجع)، ج٩، ص١٧

ثم شبه السحاب بالحناتِم، أي: الجِرَار الممتلئة بالماء، فحذف المشبه وصرَّح بالمشبه به. ثم تلاه سحاب أسود غزير الماء، وهذا المطر سيله يشق الأودية وله آثار فيها بَيِّنَة.

فانتظارهم عودة الممدوح مماثلة لانتظارهم نوء السِّماك الغزير الذي يذهب فيه حر النهار، وتعم سقياه، وترتوي كل أرض غير ممطورة.

ثم يقول إن عطاء الممدوح أكثر من عطاء السحاب، وهم يفضلون عطاء الممدوح، حتى لو قيل لهم إن عطاء السحاب يأتي بعده الخصب والحياء، لأن في عطاء الممدوح ما يفوقه ويغنيهم عما سواه؛ فالأرض قد تُجدِب لانقطاع القطر، ولكن كَفَّي الممدوح تفيضان بالعطاء دائما ولا تعرف الجدب.
وجاءت صورة المطر هنا لبيان حقيقتين: الأولى، هي بيان شوق الناس للممدوح، وأنه يرقبون عودته كما يرقبون المطر الغزير، في زمنٍ يُرجى هطوله. والثانية: أن الممدوح يَفْضُل ذلك المطر في العطاء.

ولأن صورة المطر جاءت في غرض الكرم؛ فقد ركز الشاعر على وقت النوء، واستدرار السحاب، ليَكْثُرَ إكرامه وعطاؤه، والجنوب –كما مر – تستدر السحاب، فجعلها جمعاً (الجنائب)، ثم عاد وذكر الجنوب، ولكن بلفظ آخر (النُّعامى)، وهي من أَسماء ريح الجنوب " لأَنها أَبلُّ الرياح وأَرْطَبُها "(١)، فقد لقَّحته حتى امتلأ بالماء وأصبح مثل الجِرار المملوءة المعدّة للكرم، ثم يزداد كرم السماء فيتلو ذلك السحابَ سحابٌ أسود غزير الماء.

ولمناسبة الغرض – أيضا – فقد خلت الصورة من ذكر الرعد المجلجل والبرق المتعاقب، وكذلك خلا السيل من التدمير.

---

(١) لسان العرب، (نعم)، ج١٤، ص٣٠٥

سادساً: صورة المطر وحيوان الوحش

يستعين الشعراء بطرق شتى للتعبير عن معانيهم، ومن هذه الطرق التعبيرية قصة حيوان الوحش ومعاناته، وما يلقاه من خير أو شر في بيئته، وما تفاصيل قصته إلا إيماءات لما يريد أن يعبر عنه الشاعر، لأن البيئة مشتركة بين الإنسان والحيوان، وأكثر الصراعات تدور حول الماء من أجل الحصول عليه.

وأكثر قصص حيوان الوحش تركز على حمار الوحش والثور الوحشي.

وتبدو قصة حمار الوحش تعبيراً عن حالة الشاعر النفسية من جهة، وموقفه من الحياة من جهة ثانية، ويتوسل الشاعر بهذه القصة للتعبير عن الوجود، والظاهر أن الشاعر الجاهلي كان يصور في هذه القصة نفسه بأكثر مما يصف الحيوان وطريقة عيشه وصراعاته(١).

ولعل أول مقاربة نقدية عن صراع الثور الوحشي مع كلاب الصيد هو المحاولة الاستقرائية التي قدمها الجاحظ في كتاب الحيوان بقوله: "من عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب هي التي تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحاً أن تكون الكلاب هي المقتولة ..."، وقد ذهب ابن رشيق في العمدة إلى أن هناك مقصدية يتوخاها الشعراء من خلال سردهم للنهايات المأساوية التي تتعرض لها الحيوانات في النص الرثائي، وهي تدعيم رؤيتهم السوداوية عبر منح حتمية الفناء بعداً شمولياً، نجد هذا بقوله: "ومن عادة العرب القدماء أن يضربوا الأمثال بالملوك الأعزة والأمم السالفة، والوعول الممتنعة في قمم الجبال والأسود الخادرة في الفيافي وبحمر الوحش المتصرفة في القفار، وذلك في أشعارهم كثير الوجود"(٢).

وللدكتورة سلامة السويدي رأي جميل في سبب إسقاط الشاعر صورة معاناته على الحيوان، ترى فيه: أنَّ الشعراء العرب حين صوروا الحيوان، وجسموا معاناته مع الطبيعة المتمثلة في ظاهرة المطر لم يقصدوا فقط بيان مدى التفاعل بين وجهي الطبيعة المختلفين، ولكن أسقطوا معاناتهم في هذه الحياة ليرمزوا إلى مشاعر كثيرة تجتاح نفوسهم. ربما لم يستطيعوا البوح بها مباشرة لما يتميز به الخلق العربي من الإباء(٣).

وقد وردت قصة حيوان الوحش عند الهذليين في مواضع عدة، وكانت صورة المطر هي الأداة الفاعلة لسير الأحداث، وقد وجدت أن المطر عندهم يأتي في صورتين:

الأولى: صورة هانئة آمنة تجعل حيوان الوحش ينعم في خير وخصب، ثم ما يلبث الحال أن يتبدل، فإما أن يأتيه القناص فيرديه، أو أن يجف الماء فيترك الحيوان المكان ليتوجه إلى ماء آخر، وما إن يقترب منه حتى يفاجئه القناص المتربص بسهامه فيرديه قتيلاً.

---

(١) يُنظر "دور الحيوان في التعبير عن التجربة الجاهلية حمار الوحش نموذجاً"، د. سليمان الطعَّان، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – المجلد(٨٤)،الجزء(٢)، ص٤٨٣، البحث بموقع المجلة على شبكة الإنترنت: http://www.arabacademy.gov.sy/

(٢) يُنظر "صورة الثور الوحشي في الشعر الجاهلي رعوية أم أسطورية"، د.حسن صالح، د.نصرت صالح يونس، مجلة التربية والعلم- المجلد(١٧)، العدد(٢)، لسنة ٢٠١٠م، قسم اللغة العربية/كلية التربية- جامعة الموصل، ص ١٢٧ – ١٢٨

(٣) يُنظر "المطر في الشعر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي"، سلامة السويدي، ص١٩٠

والثانية: عندما يكون المطر مصدر خوف لحيوان الوحش، فيحتمي تحت أَرْطاةٍ أو رمل، وهو يراقب البروق في حالة من الخوف والفزع.

وقصة حيوان الوحش يحويها الغرض العام للقصيدة، فتأتي في غرض الرثاء، أو الغزل، أو التحسر على فوات عصر الشباب.

وأبدأ بأبيات لأبي ذؤيب وردت في عينيته التي رثى بها أبناءه الخمسة الذين ماتوا في عام واحد بسبب الطاعون، وصورة المطر تحكي قصة حمار وحشي مع أُتُنِه[١]:

وَالـــدَهرُ لا يَـــبقى عَلـــى حَدَثانِـــهِ ... جَـــونُ الـــسَراةِ لَـــهُ جَدائِـــدُ أَربَـــعُ[٢]

صَـــخِبُ الشَـــوارِبِ لا يَـــزالُ كَأَنَّـــهُ ... عَـــبدٌ لِآلِ أَبـــي رَبـــيعَةَ مُـــسبَعُ

أَكَـــلَ الجَمـــيمَ وَطاوَعَتـــهُ سَمحَـــجٌ ... مِـــثلُ الـــقَناةِ وَأَزعَـــلَتهُ الأَمـــرُعُ[٣]

بِـــقَرارِ قـــيعانٍ سَـــقاها وابِـــلٌ ... واهٍ فَأَثْـــجَمَ بُـــرهَةً لا يُـــقلِعُ[٤]

فَـــلَبِثنَ حـــيناً يَـــعتَلِجنَ بِرَوضِـــهِ ... فَـــيَجِدُّ حينـــاً في العِـــلاجِ وَيَشـــمَعُ[٥]

حَـــتّى إِذا جَـــزَرَت مِيـــاهُ رُزونِـــهِ ... وَبِـــأَيِّ حـــينِ مِـــلاوَةٍ تَـــتَقَطَّعُ[٦]

ذَكَـــرَ الـــوُرودَ بِهـــا وَشـــاقى أَمـــرَهُ ... شُـــؤماً وَأَقـــبَلَ حَـــينُهُ يَـــتَتَبَّعُ

فَـــافْتَنَّهُنَّ مِـــنَ الـــسَواءِ وَمـــاؤُهُ ... بِـــثْرٌ وَعـــانَدَهُ طَـــريقٌ مَـــهيَعُ[٧]

فَـــكَأَنَّها بِـــالجِزعِ بَـــينَ نُبـــايِعٍ ... وَأولاتِ ذي العَرجـــاءِ نَهـــبٌ مُجمَـــعُ

وَكَأَنَّـــهُنَّ رَبابَـــةٌ وَكَـــأَنَّهُ ... يَسَـــرٌ يُفـــيضُ عَلـــى القِـــداحِ وَيَصـــدَعُ

وَكَـــأَنَّما هُـــوَ مِـــدوَسٌ مُتَقَلِّـــبٌ ... بالـــكَفِّ إِلّا أَنَّـــهُ هُـــوَ أَضـــلَعُ

فَـــوَرَدنَ وَالعَيّـــوقُ مَقعَـــدَ رابِىءِ الـــ ... ضُّـــرَباءِ فَـــوقَ الـــنَظمِ لا يَتَتَلَّـــعُ

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص٤

(٢) المصدر السابق، جَون السراة: يعني حماراً أسود الظهر، الجدائد: جمع جَدُود وهي الأُتُن التي خفَّف ألبانها.

(٣) السابق، الجميم: النبت حين تجمم واجتمع، السمحج: الأتان الطويلة، أزعلته: نشطته، الأمرع: الخِصب

(٤) السابق، القرارة: حين يستقر الماء، قيعان: جمع قاع وهي قطعة من الأرض صلبة مستوية، واهٍ: كأنه منشق من كثرة انصبابه وكثرة مائه، أثجم: أقام وثبت ودام وصَبَّ، برهة: زمان ودهر،

(٥) السابق، يعتلجن: يُعاضُّ بعضها بعضا ويُرامِح بعضهن بعضا من النشاط، فيجد حينا في العلاج: يجد الفحل حينا في العلاج، فمرة يأخذ معهن في ما يأخذن فيه بجد منه، ومرة "يشمع" أي يلعب.

(٦) السابق، جزرت: غارت، الرزون: المواضع الغليظة التي تمسك الماء، ملاوة: مليّاً من الدهر.

(٧) السابق، افتنهن: طردهن، بثر: مكان، عانده: عارضه، مهيع: بين واضع واسع.

فَـــــشَرَعنَ في حَجَـــــراتِ عَــــذبٍ بارِدٍ حَصِــبِ البِطــاحِ تَغيــبُ فيــهِ الأَكــرُعُ[1]
فَـــشَرِبنَ ثُــــمَّ سَمِعــــنَ حِسّـــاً دونَـــهُ شَـــرَفُ الحِجـــابِ وَرَيـــبَ قَـــرعٍ يُقـــرَعُ
وَنَــــميمَةً مِـــــن قـــــانِصٍ مُتَلَبِّـــــبٍ فـــي كَـــفِّهِ جَـــشْءٌ أَجَـــشُّ وَأَقطُــعُ
فَــــنَكِرنَهُ فَـــــنَفَرنَ وَامـــــتَرَسَت بِـــــهِ عَوْجـــــاءُ هـــــادِيَةٌ وَهـــــادٍ جُرشُـــــعُ
فَــرَمى فَـــأَنفَذَ مِـــن نَحُـــوصٍ عـــائِطٍ سَـــــهماً فَـــــخَرَّ وَريـــــشُهُ مُتَصَـــــمِّعُ
فَـــبَدا لَـــــهُ أَقـــــرابُ هـــــذا رائِغـــــاً عَــــجِلاً فَــــعَيَّثَ في الكِنانَــــةِ يُرجِــــعُ
فَــــرَمى فَــــأَلحَقَ صــــاعِدِيّاً مِطحَــــراً بِالكَشـــحِ فَاشـــتَمَّلَت عَلَيـــهِ الأَضـــلُعُ
فَأَبَـــــــدَّهُنَّ حُـــــــتوفَهُنَّ فَـــــــهارِبٌ بِذَمــــــائِهِ أَو بــــــارِكٌ مُــــــتَجَعجِعُ
يَـــعثُرنَ فـــي عَلَـــقِ النَّجِيـــعِ كَأَنَّمـــا كُـــسِيَت بُـــرودَ بَـــني يَزيـــدَ الأَذرُعُ

هذه الأبيات تحكي قصة حمار وحشي مع أتنه، وكانت صورة المطر هي المحرك الرئيس في القصة، وكل الأحداث تدور حولها.

بدأ أبو ذؤيب القصة بقوله "والدهر لا يبقى على حدثانه"، وهي لازمة عند الهذليين عندما يبدؤون قصصهم، ثم يذكر قصة حمار وحشي أسود الظهر معه أربع من الأتن، كثير النهيق مما يدل على عافيته وسعادته. ويعيش في هناء وَدَعة، لأنه في مكان خصب كثير المرعى، وإناثه طوال مطيعات له، وقد زاد الخصب من نشاطه.

والمكان الذي تدور عليه أحداث سعادة هذا الحمار وأتنه، هو مكان بأرضٍ صلبة مستوية يستقر فيها الماء، ويبقى لفترة طويلة لا يتسرب إلى باطن الأرض. أما المطر الذي نزل على هذه القطعة من الأرض، فهو وابل، وهو "المطر الشديد الضَّخْم القطْرِ"[2]، وظل يهطل بلا انقطاع زماناً، وكأنه منشق من كثرة انصبابه وكثرة مائه، فكثُر العشب وتوفر الماء.

وقد اجتمع حُسْنان لصورة المطر، الأول؛ غزارة المطر وطول مدته، والثاني؛ الأرض التي يقع عليها المطر تساعد على حفظه، أي أن سعادة الحمار والأتن ستطول في هذا المكان.

وتظهر السعادة في حركة الأتن، فهي في هذه الروضة تلهو وتلعب في نشاط وجو من المرح، وتراها تُعاضُّ بعضُها بعضاً وتترامح، ويشاركها الحمار مرة بجد ومرة بلعب.

ولكن الدهر لا يبقى على حدثانه، فرغم أن الماء كثير والأرض قيعان، إلا أن هذا الحال لم يَدُم، فبعد

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص٢٠، شرعن: يعني الأتن، قدمن رؤوسهن ليشربن، حصب البطاح: فيه حصباء، يريد أنه يجري عليها، حجرات: نواحي.

(٢) لسان العرب، (وبل)، ج١٥، ص١٤٤

حين من الدهر غارت مياه هذه الأرض الغليظة، وتذكر الحمار رحلاته المشؤومة في سبيل البحث عن الماء، فأخذ يسوق الأتن ويطردها في طريق واضح واسع. ويصورها الشاعر وهي في ذلك الطريق بالإبل المنهوبة التي جمعت من هنا وهناك فصارت شيئا واحداً، ويحيط بها الخوف والتفكير في سوء المصير.

ولكن الفحل يبدو في شدته وصلابته وكان يسوقها إلى منبع من منابع الماء. وعند وقت السحر، وصلت إلى موضع الماء، فشرعت تشرب منه. والماء الذي وصلت إليه ماء وادٍ صافٍ لأنه يجري على حصباء، وهي حصىً صغار، وتغيب فيها قوائمها، وهذا يدل على صفاء الماء وبُعده عن الكدر، لأن الماء لو كان يجري على تراب فإنه يتعكر إذا حُرِّك التراب. والحصباء ليست سطحية، بل عميقة تغيب فيها القوائم، مما يدل على عدم تعَكُّرِه.

ولكن،لم يدم هناؤها عند هذا الماء، لأن القناص مختبئ يتربص بها، فسمعت حِسّ أدواته، فحاولت الهرب، ولكن القناص رمى إحداها، وكانت ممتلئة باللحم، فأَرْداها، ثم أخرج سهماً آخر فأصاب الفحل فأرْدَاه، ثم أخذ يرميها فأردى منها ما أردى، فبعضها هربت ببقية نفس وبطء موت، والأخرى ساقطة ملتصقة بالأرض. ثم يصور حالها البائس، بأنها تعثر في قطع الدم الطرية، ويشبه طرائق الدم على أذرعها بطرائق البرود الحمر، فانتهى القطيع إلى هذه النهاية الحزينة، بعد أن كان يعيش في دعة وخير.

ويرى الدكتور سليمان الطعَّان أنَّ الماء في هذه القصة، هو العنصر المهم، وهو الدعامة الأساسية للحياة الجاهلية. فالجفاف الذي أحال خضرة المراعي ونضارتها إلى هشيم تذروه الرياح، هو الذي أجبر حمار الوحش على الهجرة وتَرْك الأمكنة اليابسة، وهو أيضاً الذي أجبر سكان البادية على التنقل بحثاً عن مواطن الكلأ والماء. وإذن، فمشهد حمار الوحش صورة رمزية لحياة القبائل العربية التي تضطرها دورة الحياة الموسمية إلى الرحيل المستمر والهجرة الدائمة[١]. وأرى أنه أوَّلَ صورة الماء وحمار الوحش في معزل عن السِّياق.

أما الدكتور عبد الناصر السعيد، فقد أَوَّل نهاية قصة القَطيع وربطها بالسِّياق، يقول: " أما نهايتها في مرتبطة بموضوع القصيدة، فإذا كان الموضوع للرثاء اختلفت النهاية عن الفراق، أو الغربة أو ما شابه ذلك. وإذا كان الموضوع في الرثاء اختلفت النهاية أيضاً باختلاف الطريقة التي مات بها المرثي، فإذا كان قد مات في الحرب جاءت النهاية وفيها مقاومة للصائد بعكس من مات مسموماً، أو مبطوناً أو مات على فراشه أو بالطاعون أو ما شابه ذلك. والقصة التي بين أيدينا مات فيها أولاد الشاعر بالطاعون أو بالسم، ومن هنا نرى موت القطيع دون مقاومة[٢].

وفي قصيدة أبي ذؤيب نفسها، وبعد أن ذكر قصة حمار الوحش وأتنه، جاء بقصة أخري، وبطل

---

(١) يُنظر "دور الحيوان في التعبير عن التجربة الجاهلية حمار الوحش نموذجاً"، د. سليمان الطعَّان، ص٤٩٣

(٢) يُنظر "الحس القصصي في شعر الهذليين"، عبد الناصر محمَّد السعيد، ص٣٥

القصة ثور وحشي، يقول(١):

وَالــــدَهرُ لا يَـــبقى عَلـــى حَدَثانِـــهِ ... شَـــبَبٌ أَفَـــزَّتهُ الـــكِلابُ مُـــرَوَّعُ(٢)
شَـــعَفَ الكِـــلابُ الضـــارِياتُ فُـــؤادَهُ ... فَـإِذا يَـرى الصُـبحَ الـمُصَدَّقَ يَفـزَعُ(٣)
وَيَـــــعوذُ بِــــالأَرطَى إِذا مــــاشَفَّهُ ... قَـــطرٌ وَراحَـــتْهُ بَـــلِيلٌ زَعـــزَعُ(٤)
يَـــرمي بِـــعَينَيهِ الـــغُيوبَ وَطَرفُـــهُ ... مُـــغضٍ يُـــصَدِّقُ طَرفُـــهُ مايَســـمَعُ
فَـــغَدا يُـــشَرِّقُ مَـــتنَهُ فَـــبَدالَهُ ... أولـــى سَـــوابِقَها قَـــريباً تـــوزَعُ
فَـــانصاعَ مِـــن فَـــزَعٍ وَسَـــدَّ فُروجَـــهُ ... غُـــبرٌ ضَـــوارٍ وافِـــيانِ وَأَجـــدَعُ
فَـــنَحا لَـــها بِـــمُذَلَّقَينِ كَـــأَنَّما ... بِـهِما مِـنَ النَضـحِ المجَـدَّحِ أَيـدَعُ
يَنـــهَشنَهُ وَيَـــذُودُهُنَّ وَيَـــحتَمي ... عَـــبلُ الـــشَّوَى بِالطُـــرَّتَينِ مُوَلَّـــعُ
حَـــتّى إِذا اِرتَـــدَّت وَأَقصَـــدَ عُصـــبَةً ... مِـــنها وَقـــامَ شَـــريدُها يَتَضَـــوَّعُ
فَـــكَأَنَّ سَـــفّودَينِ لَـــمّا يُـــقْتَرا ... عَـــجِلا لَـــهُ بِشَـــواءِ شَـــربٍ يُنـــزَعُ
فَـــدنا لَـــهُ رَبُّ الـــكِلابِ بِكَفِّـــهِ ... بـــيضٌ رِهـــابٌ ريـــشُهُنَّ مُقَـــزَّعُ
فَـــرَمى لِـــيُنقِذَ فَـــرَّها فَهَـــوى لَـــهُ ... سَـــهمٌ فَـــأَنفَذَ طُـــرَّتَيهِ المِنْـــزَعُ
فَـــكَبا كَـــما يَـــكبو فَنيـــقٌ تارِزٌ ... بِـــالخَبتِ إِلّا أَنَّـــهُ هُـــوَ أَبـــرَعُ

بدأ أبو ذؤيب قصة الثور الوحشي بما بدأ به قصة الحمار الوحشي (والدهر لا يبقى على حدثانه)،

والثور في هذه القصة، قد تمت أسنانه، أي تم شبابه. ولكنه قد ذهب عقله وفؤاده خوفاً من الكلاب الضارية، وامتلأ خوفاً منها. وذلك أنه إذا رأى الصبح ترقب أن تأتيه الكلاب، وليس له مصدر أمان إلا الليل، لأنه يستطيع أن يختبئ تحت أي شيء، فلا يُرى.

وما أشقى هذا الثور الذي يفزع قلبه بداية كل يوم، فأصبح يرى النور والإشراق مصدر خوف وفزع، وأصبح الليل مصدر أمان، ولكنه أمان مؤقت، لأنه يُتْبَعُ بصبح بائس.

ولكن الليل لم يدم مصدر أمان له، فقد نزل عليه المطر فآذاه وشق عليه، ويصاحب المطر ريح شديدة باردة، كأنها تنضح الماء من بردها، وهي من قوتها تزعزع كل شيء وتحركه، فيلوذ الثور بشجرة الأَرْطَى لعلها

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص٢٦

(٢) المصدر السابق، شبب: الثور المسن الذي تمت أسنانه.

(٣) السابق، شعف: ذهبن بقلبه، والمشعوف: الذاهب الفؤاد أي أذهبت الكلاب عقله، وملأت قلبه خوفاً.

(٤) السابق، العوذ: اللوذ، إذا ما شفه: أي آذاه وجَهَده وشق عليه وبرَّح به، راحته: أصابته ريحها وقطرها، البَليل: الشمال الباردة، كأنها تنضح الماء من بَرْدها، زعزع: شديدة تزعزع كل شيء وتحركه.

تخفف عنه ما يجد، ولكنه لا يهنأ فيظل يتلفت كثيراً من الخوف، وكلما سمع صوتاً نظر جهته، وربما توهم صوتاً لم يكن.

وقد أصبح الصبح على الثور وجسمه مبتل من القطر، فلما طلعت الشمس برز لها يتشمس، ليجف ما عليه من ندى الليل ومطره، وعندها، حصل الذي يخشاه؛ فقد رأته الكلاب فانطلقت نحوه، فهرب فَزِعاً. ولكنه لما عرف أن الأمر لا مناص منه؛ مال إليها بقرنين أملسين مسنونين، فأخذ يطعنها بقرنيه حتى تلطخا بدماء الكلاب، فرجعت الكلاب وهي تعوي من الألم والخوف.

فعاش الثور نشوة النصر، وذهب عنه كل ما يجد من خوف، ولكن هذه النشوة لم تدم، فعندما رأى القناص كلابه هاربة مهزومة، أخرج من كنانته سهما فأرسله، فأصاب الثور، ولم يستطع أن يقاوم سهم الموت، فخر وكأنه فحل من الإبل، وكانت نهاية حزينة له.

وصورة المطر في هذه القصة هي المحرك الرئيس لسيرِها، فالمطر الذي كان ينعم الثور بهطوله أصبح شقاءً وبؤساً عليه، فعندما كان الثور في مأمن من الكلاب تحت عباءة الليل؛ إذ أمطرت عليه السماء بمطر مصحوب بريح شمالية باردة شديدة البرودة، وقوية تزعزع كل شيء وتحركه، فظل يقاسي ما يُقاسي من البرودة والبلل، فتحول الليل إلى معاناة بسبب ذلك.

ولكن أثر هذه المعاناة عجل بشقاء آخر جعله يخر صريعاً، فقد دفعته صورة المطر إلى فنائه، وذلك عندما برز الثور للشمس لِيُذْهِبَ عن جسمه البلل والبرد، مما جعل الكلاب تراه فتنطلق إليه، لتتسلسل الأحداث حتى يُصرع الثور.

وهذه القصة مرتبطة بموضوع القصيدة، فموضوعها هو بكاء أبي ذؤيب أولادَه، ومن الملاحظ أن أبا ذؤيب في مطلع القصيدة لا يبكي أولاده فقط، ولكنه يبكي نفسه، فالأولاد في بيئته هم عصب الحياة، وهم الراعي والمدافع، وهم الأمان، وهو في بداية القصة يصف حاله، وشحوب جسمه، وابتذال نفسه، وقلق مضجعه. وهو مع بكاء أولاده يبكي نفسه، يبكي وحدته وقلقه، وإن قصة هذا الثور المتوجس ضُرِبت مثلاً لقصة الأب الوحيد الأعزل بعد موت الأبناء، والثور خائف حتى من الصباح " فَإِذا يَرى الصُبحَ المِصَدَّقَ يَفزَعُ"، والمطر الذي هو مادة الحياة، وبالٌ عليه، ورغم أن الثور ناضل بقرونه، لكن ذلك لا يُفيد، حتى المعركة التي أدارها لم تكن معركة مع الصائد، وإنما مع الكلاب، مع هؤلاء الشامتين من حوله "وتجلدي للشمامتين أريهمُ أني لريب الدهر لا أتضعضعُ".

ثم حسمها الصائد في النهاية، إنها كقصة الأب بعد فقد أولاده[١].

ويذكر أبو كبير الهذلي قصة حمير وحش أسقِيَت مطراً في أرض كساها المرعى[٢]:

(١) يُنظر "الحس القصصي في شعر الهذليين"، عبد الناصر مُحَمّد السعيد، ص ٤٢ – ٤٣ – ٤٤

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١٠٩٠

وَالـــدَهرُ لا يَبقـــى عَلـــى حَدَثانِـــهِ　　قُـــبٌّ يَـــرِدنَ بِـــذي شُـــجونٍ مُـــبرِمِ[١]
يَرتَـــدنَ ســـاهِرَةً كَـــأَنَّ جَميمَهـــا　　وَعَميمَهـــا أَســـدافُ لَيـــلٍ مُظلِـــمِ[٢]
فِي مَرتَـــعِ القُمـــرِ الأَوابِـــدِ أُســـقِيَت　　دِيَمَ العَمـــاءِ وَكُـــلَّ غَيـــثٍ مُـــثجِمِ[٣]
واهـــي العُـــروضِ إِذا اِســـتَطارَ بُروقُـــهُ　　ذاتَ العِشـــاءِ بِهَيـــدَبٍ مُتَهَـــزِّمِ[٤]
وَكَـــأَنَّ أَصـــواتَ الخَمُـــوشِ بِجَـــوِّهِ　　أَصـــواتُ رَكـــبٍ فِي مَـــلاً مُتَـــرَنِّمِ[٥]
عَجِـلَ الـرَّباحُ لَهُـم فَتَحمِـلُ عـيرُهُم　　مُصـــطافَةً فَضَـــلاتِ مـــا فِي القُمقُـــمِ[٦]
فَرَأَيـــنَ قُلَّةَ فـــــارِسٍ يَعدو بِهِ　　مُتَفَلِّـــقُ النَسَـــيَيْنِ نَهْـــدُ الـــمَحزِمِ[٧]
ذو غَيِّـــثٍ بَتِـــرٍ يَبُـــذُّ قَذالُـــهُ　　إِذ كـــانَ شَغشَـــغَةٌ سِـــوارَ الـــمُلجِمِ[٨]
وَكَـــأَنَّ أَوشـــالَ الجَدِيَّـــةِ وَســـطَها　　سَـــرَفُ الـــدِلاءِ مِـــنَ القَليـــبِ الخِضـــرِمِ
مُتَبَهِّـــراتٍ بِالسِـــجالِ مِلاؤُهـــا　　يَخـــرُجنَ مِـــن لَجَـــفٍ لَهـــا مُـــتَلَقِّمِ
فَـاهتَجنِ مِـن فَـزَعٍ وَطـارَ جِحاشُـها　　مِـــن بَـــينَ قارِمِهـــا وَمـــا لَم يَقـــرِمِ[٩]
وَهَـــلاً وَقَـــد شَـــرَعَ الأَسِـــنَّةُ نَحوَهـــا　　مِن بَينِ مُحْتَـــــــقٍّ بِها وَمُشَرَّم[١٠]

بدأ أبو كبير الهذلي القصة بالمقولة الهذلية الشائعة "والدهر لا يبقى على حدثانه"، فذكر قصة حمير وحش خِماص البطون تَرِدُ شِعاباً مُبْرِمة، أي خرجت بَرَمَتُهَا، "والبَرَمةُ ثَمَرةُ العِضاهِ"[١١]، وقد ذكر الشارح أن البَرَمة ثمر الطَّلح، ولا أدري لماذا خصص شجر الطلح بالذات، لأن البرمة ثمر لأشجار عدة يجمعها مسمى

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١٠٩٠، قُبٌّ: يريد حمير وحش خماص البطون، الشجون: الشِّعَاب، المبرِم: الذي قد خرجت برمته، والبرمة: ثمر الطلح.
ولا أدري لماذا اختار الشارح برمة شجر الطلح بالذات
(٢) السابق، الساهرة: الأرض، الجميم: النبت الذي نبت وارتفع قليلاً ولم يتم كل التمام، صار مثل الجُمَّة، العميم: المكتمل التام من النبت.
(٣) السابق، القُمْر: حُمُرٌ بيض البطون، الأوابد: المتوحشة، الدِّيَم: جمع ديمة وهي المطر الساكن، العَماء: السحاب الرقيق، مُثجِم: مُقِيم.
(٤) السابق، واهٍ: كأنما تشققت نواحيه بالماء، اِستَطارَ بُروقُهُ: أي انكشف، الهيدب: الذي يتدلى من السحاب كأنه هُدْبُ قطيفة، متهزم: متشقق بالماء.
(٥) السابق، الخَمُوش: البَعُوض، كأن أصواتهن تطريب ركب يغنون في صحراء.
(٦) السابق، عَجِلَ الرَّباحُ: أصابوا ربحاً فطابت أنفسهم، مصطافة: في الصيف، فضَلاتِ ما في القُمقُمِ: فضلات ما في الدن.
(٧) السابق، قُلّةَ فارِسٍ: رأس فارس، نَهْدُ المحزِم: عظيم البطن، وهو موضع الحزام للفرس.
(٨) السابق، ذو غيِّث: شديد الجري.
(٩) السابق، القارِم: الذي قد فُطِم.
(١٠) السابق، الوَهَل: الفزع، المحْتَق: الذي قد أصيب فاحتق الرَّمِيَّة، المشَرَّم: الذي شُقَّ بالعَرْض.
(١١) لسان العرب، (برم)، ج٢، ص٧٣

العِضاه كالسَّمُرُ والسَّيالُ والقَرَظُ والقَتادُ والسِّدْرُ[١]، والشجر السائد في أودية هذيل وشعابها هو السَّمُر والسَّلَم، وكل بيئة من ديار هذيل لها شجر مشهور بها؛ فأشجار السراة ليست كأشجار الأودية، وأشجار الأودية والشعاب ليست كغيرها، وما أظن إلا أن أبا كبير أراد برمة السلم، لأنه حدد المكان "الشجون"، وأطيب البَرَم فيها بَرَمَة السَّلَم، جاء في لسان العرب: "وبَرَمة السَّلَم أَطيب البَرَمِ رِيحاً، وهي صَفْراء تؤْكَل، طيّبة"[٢].

والأرض التي وردتها الحُمُر بها نبات كثير، فمنه ما ارتفع قليلاً، ومنه ما صار مكتملاً، وصار كالليل المظلم من كثرته وشدة خضرته وتشابكه.

واحتفى الشاعر بجمال الحُمُر وجمال مكانها وجمال مطره؛ حينما وصفها بأنها بيض البطون، وأنها في مرتع خصب يُسقى الدِّيَم، وهي جمع دِيمة، وهي "المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق"[٣]، فلا شيء يفزعها يفزعها ويروعها في هذا المكان.

وكذلك قال بأنها أسقيت كل غيث مقيم، ليعبر عن طول هنائها، والسحاب منشق النواحي بالماء، ومتدلٍّ كأنه هُدْب القطيفة. قال ابن قتيبة عن السحاب: "وإذا كان شبيهاً بالهُدْب وبالخمل، متدلياً، فذلك من علامات المطر"[٤].

ولوفرة الماء وديمومته بالمكان، تسمع حوله أصوات البعوض، وكأنها أصوات ركب يغنون في الصحراء بعد ربح ربحوه.

وبينما كانت الحُمُر في غمرة هذا النعيم، إذ فاجأها أمر جلل، فقد رأت رأس فارس تعدو به فرس سريعة، فاهتاجت من الفزع، وطارت جحاشها فزِعة مذعورة، ولم يُفِدْها الفزع، فقد أصابتها سهام القناص "مِن بَينِ مُحتقٍّ بِها وَمُشَرَّم"، والمُحْتَقّ: "قد نفذ السنان فيه ولم يُفْلِت"[٥]، "وتشريم الصيد: أن ينفلت جريحاً"[٦]، وقد شُقَّ بالعَرْض.

والأبيات —كما أسلفت— هي لأبي كبير الهذلي، واسمه عامر بن الحُلَيس، أدرك الجاهلية والإسلام، وهو صحابيّ ، لأنه رأى الرسول ﷺ وسمع منه[٧].

---

(١) لسان العرب، (عضض)، ج١٠، ص١٨٥

(٢) المصدر السابق، (برم)ج٢، ص٧٣

(٣) السابق، (ديم)، ج٥، ص٣٣٧

(٤) كتاب الأنواء في مواسم العرب، ابن قتيبة، ص ١٧٤

(٥) لسان العرب، (شرم)، ج٨، ص٦٩ (شرم)

(٦) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٧) يُنظر "الإصابة في تمييز الصحابة"، أبو الفضل أحمد بن علي بن مُحَمَّد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى مُحَمَّد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ، ج٧، ص٢٨٤

وهذه القصيدة يخاطب فيها ابنته زُهَيْرة، وابنه خَلاوَة[1]، يقول:

أَزُهَـيرُ هَـل عَـن شَـيبَةٍ مِـن مَعْكِـمِ | أَم لا خُلـودَ لِبـاذِلٍ مُتَكَـرِّمِ[2]
يَبكـي خَـلاوَةُ أَن يُفـارِقَ أُمَّـهُ | وَلَسَـوفَ يَلقاهـا لَـدى المُتَهَـوَّمِ[3]
أَخَـلاوَ إِنَّ الـدَهرَ مُهلِـكُ مَـن تَـرى | مِـن ذي بَنـينِ وَأُمِّهِـم وَمِـن ابـنِمِ

فهو يخاطب ابنته، ويشتكي إليها فعل الدهر، فقد أشابته أيامه، ولا يمكن العودة إلي الشباب.

ثم يلتفت إلى ابنه الباكي لفقد أمه، ويعزيه بأن الدهر لن يبقيَ أحداً من الناس، وأن الموت سنة على كل الخلائق، ثم يسوق قصة الحُمُر الوحشية التي كانت تعيش في أمان وخير، فباغتها الموت.

والعلاقة بين قصة الحمر الوحشية ومقدمة القصيدة، هي أن لكل شيء نهاية، فنهاية الشباب هي المشيب، ونهاية الحياة هي الموت، وبما أن القصيدة استُهِلَّت بحتمية الفَناء؛ فإن مصير تلك الحمُر سيكون الموت، فمنها ما تمكنت منه السهام، ومنها ما أصابتها سهامٌ فهربت وهي مصابة، وستلحق أخواتها.

وأبو كبير الهذلي لم يصور هذه القصة إلا ليدلل على حتمية الفناء، وكأني به يقول لابنه:

يا بني لا تغتر بهذه الدنيا ولا تعول عليها كثيراً، فإن زخرفها وزينتها إلى زوالٍ لا محالة، ومهما كان نعيمها فإن الإنسان لابد أن يفارق ذلك النعيم.

وأبو كبير حينما صور لنا المكان الذي كانت تنعم فيه الحُمُر، كأنه يصور لنا الحياة الدنيا بنعيمها وزخرفها، وأنها تخدع الناس إذا مالوا إليها وتنسيهم الموت، فانتقى لذلك أجمل الصور التي تجعل المكان كأنه زخرف الدنيا، فالمكان التي نزلت به الحمر عبارة عن وادٍ ذي شعاب، وديار هذيل مشهورة بالأودية التي

---

(١) يُنظر " الحس القصصي في شعر الهذليين "، عبد الناصر مُحَمَّد السعيد، ص ١٩٥

(٢) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج٣، ص١٠٩٠، مَعْكِم: مَرْجِع.

ولأبي كبير الهذلي أربع قصائد بدأت بأبيات متشابهة، وقد وردت في شرح أشعار الهذليين، وهي، قوله:

أزهـير هـل عـن شـيبة مـن مَعْـدِلِ | أم لا سـبيل إلى الشـباب الأولِ

وقوله:

أزهـير هـل عـن شـيبة مَقْصِـرِ | أم لا سـبيل إلى الشـباب المـدْبِرِ

وقوله:

أزهـير هـل عـن شـيبة مَصْـرِفِ | أم لا خلـود لبـاذل متكلـفِ

وقوله:

أزهـير هـل عـن شـيبة مَعْكِـمِ | أم لا خلـود لبـاذل مُتَكَـرِّمِ

وكذلك ذكرها ابن قتيبه، فقدم لها بقوله: "وله أربع قصائد، أولها كلها شيء واحد، ولا نعرف أحداً من الشعراء فعل ذلك". (الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ج٢، ص٦٥٩)

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١٠٩٠، خلاوة: اسم ابنه. يقول: سوف يلقاها في المنام.

تكتنفها الجبال الشاهقة، وهذا المكان يحميها من كل ريح باردة تؤذيها، والأرض بها نبات كثير، فمنه ما ارتفع قليلاً ومنه ما صار كالليل المظلم من كثرته. وأشجار السَّلَم قد ظهرت بَرَمَتُها الطيبة الريح والطعم، وطبيعة شجر السلم؛ أنَّ مِنْ أغصانها ما هو دانٍ تناله الحُمُر. فأصبحت الحُمُر تأكل من بين أرجلها (النبات)، ومن فوقها (البَرَمَة الدانية).

والحمر بيض البطون جميلة. أما المطر فهو دِيمَة ليس فيه رعد ولا برق، وهو كثيرٌ ودائم، والسحاب جميلٌ متدلٍ كأنه هُدْب القطيفة.

ولكن الدهر لا يبقى على حدثانه، فقد فاجأها الموت ولم يدم ذلك الحال.

واستوقفتني كثيراً صورة البعوض حول الماء ، حينما صورها بصورة الرَّكْب الذين يُغَنُّون بعد رِبْح رَبِحوه. والبعوض من أهون الحشرات وأحقرها، وغناؤه على ذلك المنظر الجميل من خضرة ومطر فيه تهوين من شأن المنظر كله وتحقير له. وبما أن أبا كبير شاعر أدرك الإسلام وسمع من رسول الله ﷺ، فعله تأثر بالإسلام في هذه الصورة بالذات، فهناك أحاديث تُهَوِّن من شأن الدنيا وأنها رغم ما فيها من نعيم، فإنها لا تساوي شيئاً مع نعيم الآخرة، وأنها لا تعدل عند الله جناح بعوضة. منها ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء"[(١)].

فالمشهد السابق، هو صورة للحياة الدنيا التي تخدع الناس بزخرفها، والبعوض الحقير هو الذي يغني على ذلك المشهد.

ومن صور المطر المؤذية لحيوان الوحش، ما جاء في أبيات لساعدة بن جؤية، يشبه فيها محبوبته الغَضُوب حين يلقاها بصغير الظباء[(٢)]، يقول[(٣)]:

وكأنمــــا وافــــاكَ يـــــومَ لقيتَهــــا	مــن وحــش وَجْــرةَ عاقِــدٌ مُتَرَبِّــبُ [(٤)]
خَــرِقٌ غضـيضُ الطـرف أحـورُ شـادنٌ	ذو حُــوَّةٍ أُنُــفُ المســارِبِ أَخْطــبُ[(٥)]
بِشَــــرَبَّةٍ دَمِــــثِ الكثيــــب بِــــدُورِهِ	أرطــى يعــوذ بــه إذا مــا يُرْطَــبُ[(٦)]

(١) صحيح سنن الترمذي، للإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سَوْرَة الترمذي، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف – الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م، ج٢، "باب ما جاء في هوان الدنيا على الله – عز وجل –"، ص٥٣٢

(٢) تم تناول القصيدة في مبحث "صورة المطر والمرأة "، ص٩٥

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١٠٩٩

(٤) المصدر السابق، وافاك: لقيك، العاقد: الذ قد ثنى عنقه، متربب: أي متربب في النبت.

(٥) السابق، ج٣، ص١٠٩٩، الخَرِق: الصغير منها، الذي إذا فاجأته خَرِقَ وانقبض أن يعدو، غضيض الطرف: أي فاتره، الشادن: المتحرك، ذو حُوَّة: فيه خطوط تضرب إلى السواد، أُنُف المسارب: هو مستأنف الربيع ولم يُرْعَ قبله، الأخطب: الأخضر لونه.

(٦) السابق، بِشَرَبَّةٍ: أي موضع مرتفع ليس فيه لِين، دمث الكثيب: لين الكثيب، بِدُرره: الدُّور؛ فجوات، وهي دارات تكون في الرمل، إذا إذا ما يرطب: يلجأ إليها إذا أرطبته السماء وبللته.

يَتَقِــي بـــهِ نَفَيَـــانَ كـــلِّ عشـــيةٍ   فالمـــاءُ فـــوقَ مُتُونِـــهِ يتصـــببُ[1]

يَقْـــــرو أبارِقُـــــهُ ويـــــدنو تارةً   لِمَـــدافِئٍ منهـــا بهِـــنَّ الحُلَّـــبُ[2]

فهو يشبهها حين يلقاها بالظبي الصغير في جماله وشروده، وكأنها ظبي في مكان مرتفع ففاجأه المطر، فخاف منه وارتاع، واحتمى تحت أَرْطاةٍ في كثيب ليتقي بها قطر السماء، والماء يتصبب على ظهر الأَرْطاةِ ولم يتضرر الظبي.

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٠٠، يَتَقِي: يَتَّقِي وهي لغة هذلية، النَّفَيان: كل شيء يطير ليس بمعظم الشيء، كنَفَيَان الرشاء وهو ما تطاير منه على ظهر الساقي. أي أن الماء ينصب على متون الأرطى فلا يصيب الظبي منه شيء.

(٢) المصدر السابق، يقرو: يتبع، الأبارق: جبال من حجارة وطين، أو حجارة ورمل، المدافئ: مواضع دفيئة، الحُلّب: جمع حُلَّبَة وهي بقلة جعدة غبراء في خضرة، تنبسط على وجه الأرض يسيل منها لبن إذا قُطِع منها شيء.

الفصل الثالث

الخصائص البلاغية

١- خصوصية المعجم الهذلي في وصف المطر.

٢- خصوصية التراكيب في وصف الطر.

٣- خصوصية الصورة البيانية في وصف المطر.

١- خصوصية المعجم الهذلي في وصف المطر

إن السمة العامة للمعجم الهذلي في وصف المطر، هي احتواؤه على الكثير من غريب الألفاظ، ومع أن ديوان الهذليين قد شرحه السكري، إلا أن هذا الشرح لم يشمل كل الألفاظ، وحتى بعض المشروح منها؛ فإنه يحتاج إلى كثير من النظر والتأمل، مما يجعل الباحث يطيل النظر في معاجم اللغة العربية لفهم الكلمة وجاراتها، وقد يجد أن الكلمة لها عدة معانٍ فيُشكل عليه الأمر، ولكن بعد ضمها مع معاني جاراتها والنظر في سياقها يتكشف له المعنى بعد جهد ومكابدة.

وسأعرض بعض صور المطر لشعراء مختلفين حَوَت الكثير من غريب الألفاظ، فمن ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي:

يَجُشُّ رعداً كهَدرِ الفحل تتبعهُ ... أُدْمٌ تَعَطَّفُ حَوْلَ الفحل ضَحْضَاحُ[١]

فَهُنَّ صُعْرٌ إلى هدْرِ الفَنِيقِ ولم ... يَجْفُرْ ولم يُسْلِهِ عنهنَّ إلقاحُ[٢]

فمرَّ بالطيرِ منهُ فاعِمٌ كَدِرٌ ... فيهِ الظباءُ وفيهِ العُصمُ أجناحُ[٣]

لولا تنكُّبُهُنَّ الوَعْثَ دمَّرها ... كما تَنَكَّبَ غَرْبَ البئرِ متّاحُ[٤]

وقول أبو صخر الهذلي[٥]:

فلما علا سودَ البِصاقِ كِفافُهُ ... تُهِيبُ الذُّرى منه بِدُهْمٍ مَقَارِبِ[٦]

فَجَلَّلَ ذا عَيْرٍ ووالى رِهامَهُ ... وعن مَخْمَصِ الحُجَّاجِ ليس بناكِبِ[٧]

فلما علت شِعْرَينِ منه قوادِمٌ ... ووازن من أعلامها بالمناكبِ[٨]

مُضِرٌّ شآميهِ لِيَنْبُعَ فالحِمى ... ودون يمانيهِ جِبالُ المراكِبِ

لهُ ذَمِراتٍ في نُمَيْسٍ تحفهُ ... وقُدَّامَهُ تغشى ثنايا المناقِبِ[٩]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٦٧ – ١٦٨، يَجُشُّ رعداً: يستخرج رعداً، ضَحْضاح: كثير بلغة هذيل.

(٢) المصدر السابق، فَهُنَّ صُعْرٌ: يعني الإبل، أي مِيلٌ إلى هدر هذا الفحل، لم يَجْفُرْ: لم تذهب غُلْمَتُه.

(٣) السابق، فمرَّ بالطيرِ: يعني أن السيل كثير الطير، فاعم: سيل ذو إفعام، أي ملأ كل شيء، أجناح: أي دنت من الأرض

(٤) السابق، تنكُّبُهُنَّ: أي تنكبن السهولة وتنحين عنه، الوَعْث: السهولة واللين، أي إذا مررن بمكان سهل تنكَّبْنَهُ

(٥) المصدر السابق، ج٢، ص٩٢٠

(٦) السابق، البِصاق: الحِرار، والبَصْقة: الحرَّة، كِفافُه: سحابه، تُهِيب: تدعو كما يُهِيب الرجل بإبله، الذُّرَى: الأعالي، مقَارِب: قد أقْرَبَت، إذا إذا دنا نِتاجُها.

(٧) السابق، ذو عَيْر: جبل، مَخْمَص: اسم طريق.

(٨) السابق، شِعْران: جبلان، وازَنَّ: حاذَيْن، أعلامها: جبالها.

(٩) السابق، ذَمِرات: أصوات، نُمَيس: جبل، الثنايا: الطرق في الجبال.

يُمِيـــلُ قَفَـــاراً لم يـــكُ الســـيلُ قَبْلَـــهُ	أضـــرَّ بهـــا فيهـــا جِبَـــابُ الثعالـــبِ[١]
فأصـــبح مـــأمونُ المنـــاحي مَحَـــافِلاً	لأعْـــرَاقِ طَمَّـــاحِ القـــوانِسِ لاحِـــبِ[٢]

وقول المتنخّل الهذلي[٣]:

هـــل هاجَـــكَ الليـــلَ كَلِيـــلٌ علـــى	أسمـــاء مـــن ذي صُـــبُرٍ مُخْيِـــلِ[٤]
أنشـــأ في العَيقـــةِ يَرْمِـــي لـــهُ	جُـــــوفُ ربابٍ وَرِهٍ مُثْقَـــــلِ[٥]
فـــالتَطَّ بالبُرْقَـــةِ شـــؤْبُوبُهُ	والرعـــدُ حـــتى بُرْقَـــةِ الأجْـــوَلِ[٦]
أسْـــدَفَ مُنْشَـــقٌّ عُـــراهُ فَـــذُو الأ	دْمـــاثِ مـــا كـــان كـــذِي المؤئِـــلِ[٧]

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال، وهو: ألا تعد هذه الغرابة منافية لما نص عليه النقاد من اختيار الكلام السهل العذب والابتعاد عن غريبه ووحشيه؟!

فأبو هلا العسكري وصف أقواماً بالجهل، لأنهم يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكدٍّ، ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كزَّةً غليظة، ويستحقرون الكلام السهل العذب[٨].

وابن رشيق، يصف الكلام الوحشي والمتكلف، بأنه هو ما نفر منه السمع، وبَعُدَ عن الطبع، ولا يعلمه إلا العالم المبرّز، والأعرابيّ القُحّ[٩].

وللإجابة على السؤال السابق، أقول: إن الكلمات التي نراها وحشية اليوم في صورة المطر، لم تكن وحشية عند الهذليين حينما وظفوها في شعرهم، ولم يتكلفوها، بل هي لغة القوم التي يتحدثون بها واعتادت عليها ألسنتهم، والفت سماعها آذانهم، ولا يحتاجون إلى ما نحتاج إليه اليوم من جهد لبيان معانيها. وهل يُلام الشاعر إذا أنشد شعره بلغة قومه!

وابن الأثير في الجامع الكبير قد قال: " ونعني بالوحش: قلة الاستعمال؛ وذلك عيب في الكلام فاحش؛

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٢١، القَفَار: الصخور. ويروى "جحاش الثعالب"، أولادها.

(٢) المصدر السابق، المناجي: ما ارتفع من الأرض فلم يلحقه السيل، المِحْفِل: الذي يصيبه السيل ويمر به، القوانس: الأعالي، لاحب: يلحبه، يمر عليه.

(٣) السابق، ج٣، ١٢٥٤

(٤) السابق، كَلِيلٌ: برق ضعيف، لأنه يجيء من مكان بعيد، الصبير: الغيم الأبيض، مخْيِل: أي سحاب ذو مخيلة للمطر.

(٥) السابق، العَيْقَةِ: ساحة من ساحات البر والبحر، الورِه: المتساقط.

(٦) السابق، التطَّ: سُتِر، شُؤبوبُهُ: مطره، بُرْقَةُ الأجوَل: موضع.

(٧) السابق، أسدف: أسود، منشقٌّ عراهُ: كأن نواحيه قد انشقت من كثرة مائه وانبعجت بالماء، الدَّمْث: المكان السهل، الموئل: الملجأ من المطر.

(٨) يُنظر "الصناعتين"، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمّد البجادي، محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية– صيدا– بيروت، ١٤٠٦هـ ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م، ص٦٠

(٩) يُنظر " العمدة "، ابن رشيق، ج٢، ص٢٢٩– ٢٣٠

فيجب على المؤلف اجتنابه والبعد عنه، لأن أحسن الألفاظ ما كان مألوفاً بين أرباب هذه الصناعة، دائراً في تأليفاتهم، قد صقلته الألسن وأَنِسَتْهُ الأسماع والقلوب"(١).

ثم بيَّن أن العرب غير ملومين في استعمال الوحشي من الكلام، ولا يكون عيباً في كلامهم، لأنه لغة القوم، وبه كانت مفاوضاتهم في أحاديثهم وأشعارهم، وذلك طبع لهم وخليقة، ودلل على أن العرب لا يلامون في استعمال الوحشي من الكلام، بأن النبي – ﷺ – قد نطق به كثيراً في كلامه، وذلك حينما تقدم عليه وفود العرب، فيثبت من هذا أن الوحشي ليس معيباً من حيث ذاته، وإنما يعاب من حيث الزمان وأهله، كما أننا نعيبه في هذا الزمان، ونطرحه ونكرهه، ولا نستعمله، وقد كان من قبلنا مألوفاً مستعملاً، بين البلغاء والفصحاء. وهذا مما لا نزاع فيه بحال من الأحوال.(٢)

ثم إن اللغة الهذلية ليست لغة قبيلة صغيرة بين قبائل العرب، بل هي لغة قبيلة كبيرة لها بطونها الكثيرة وفصائلها المتعددة التي شغلت موطناً واسعاً في شبه الجزيرة العربية(٣).

وفيما يلي ألفاظ المطر التي ذكرها الشعراء الهذليون:

معجم الرياح:

الأَزْيَب، ريح الشَّمال، المبشّرة، الطِّفْل اليمانية، الجَنُوب، الجَنَائب، النَّجْدِيَّة، الصَّبَا، نُعَامَى الصَّبَا، المسَفْسِفَة المعَوُج.

معجم الماء:

المَوْهَبَة، المَنْهَل، الخَرير، عَذْبُ السَّراة، عَذْبُ المذاقة، البَسْر، الخَصِر، المُتَحَيِّر، ماء الشُّنَان، الثَّجِيج، قَرار القِيعَان، نَفَيَانُ كل عَشِيَّة، التَّصَبُّب، الأوشال.

معجم السحاب:

الغادِيَة، السَّارِيَة، الكِرْفِئ، الهَيْدَب، الحابي، ثِقَال المُزْن، المُسْتَأْرِض، البارِقَة الهَطُول، الدُّهْم المَقَارِب، الغَمَام، الرَّبَاب، الرهج، الحَيّ، نَسِيل الجَهَام، المُنِيف، مَنَاتِيح الغَمَام، الجَوْن، المَطَافِيل، الرُّمْك، الخَالُ، المَحْبُوك، النَّشَاص، المُتَهَزِّم، كُلْفُ الحَنْتَم، غَاوِي السحاب، الشُّؤْبُوب، الشَّآمِي، اليَماني، المُتَهَتِّم، الحِجَازي، المُسْهِل، الهِجَان، الأَكْحَل، المُغْرِب، الدَّافِق، عَرَّاص النَّشَاص، الرَّاتِق، المُزَن البَوَارِق، الدُّلَّح، الدُّهْم، المُسْتَطِيل، المُكْفَهِرّ، المُزْنَة الحَضْرَمِية، البارِقَات اللَّوَامِع، الطَّائِق المُتَغَرِّب، الحَنَاتِم السُّود، النَّشْء، الخَرْج، الحَبَشِيَّات، الرَّاتِق، الدَّلُوج، الهَيْدَب المُسِفّ، ثِقال المزن، المَحْبُوك، الصَّيِّب، المُرِبَّة، الضَّجُوع، دِيَم العَمَاء، الهَيْدَب المُتَهَزِّم، الكِفاف، المَرابِع، الهَيْج.

---

(١) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمأثور، ضياء الدين بن الأثير الجزري، تحقيق: د. مصطفى جواد، و د. جميل سعيد، مطبعة مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٦م، ١٣٧٥هـ، ص٤١ -٤٢

(٢) ينظر المصدر السابق، ص٤٢- ٤٦

(٣) ينظر "من لغات العرب لغة هذيل"، د. عبد الجواد الطيب، المكتبة الأزهرية للتراث، ص٨

معجم المطر:

المُخْتَدِم، الحَلْج، المَعِج، المُتَحَيِّر، النُّطْفة الرَّجَبِيَّة، نِيل السماء، الشَّقِيقة، السُّلاسِلَة، الدِّيمة، الوابِل، الغَوَادي، أنهار السماء، الطَّلّ، دَرّ السماء، الغَبْيَة، العارِض البَرِد، الصَّيِّب، الوَدْق، القَطْر، الدَّفْقَة، الغَيْث، الوَدْق، نَوْء الجَوْزاء، الإِلْباد، السِّمَاكِيّ، الواهي، المُثْجِم.

معجم الرعد:

المُرْتَجِز، الأجَشّ، المُرْزِم، الهَزِيم، الزَّأْر.

معجم السيل:

المُسْتَبْدِر، العَجِيج، الأَكْدَر، الطَّمَّاح، المُضِرّ، عَجُلُ التَّرَاهُق، السَّاجِي، طَمَّاح القَوَانِس، اللاحِب، الزُّرْق الدَّوَاعِب، الأتِيّ، الأدهم السَّاكِب.

معجم البرق:

التَّوْمَاض، اللمْع، البرق المليح، شِقَّة البرق، السَّنا، الوَمِيض، المُوصِب، الرَّيْط، البرق السَّادِي، اسْتِطَارَة البرق.

وبعد أن ذكرت معجم الهذليين في وصف المطر، أود أن أنوه إلى أن تلك الألفاظ كانت مشتركة بينهم وبين شعراء القبائل الأخرى، إلا أن هناك ألفاظاً نص العلماء على أنها هذلية، وهناك – أيضاً – بعض الظواهر الصوتية التي اختص بها الشعراء الهذليون، ولن يقتصر درسي لهذه الألفاظ وتلك الظواهر الصوتية على ذكرها فقط، بل سأرجع إلى معانيها وما قال فيها اللغويون، ودراسة سياقاتها وأثرها في السياق ما أمكن.

وسأبدأ بكلمة الأزْيَب، فقد قال عنها الدكتور عبد الجواد الطيب في كتابه "من لغات العرب لغة هذيل": " وإذا كانت أم مرزم عندهم "ريح الشمال" فإن الأزيب هي الجنوب، وإلى جانب ما أوردته بشأنها معاجم اللغة، نثقفها كذلك في الشعر الهذلي، ويقال أنهم يسمونها "النُّعَامى" أيضاً"[(١)].

وأمهات الرياح أربع: الشَّمال والجنوب والصَّبَا والدبُور[(٢)]، والجَنُوب تلقح السحاب وتستدِرُّه، والشمال عقيم لأنها تقشع الغيم، وهذيل كلها تجعل في المطر للجنوب، وتجعل الشمأل تقشع السحاب، والجنوب عند أهل الحجاز وما يليه هي التي تأتي بالغيث – بإذن الله[(٣)].

وبعد أن نظرت في شواهد المطر عند الهذليين، وجدت أنهم لم يقتصروا على تسمية الجنوب بالأزيب، بل

---

(١) من لغات العرب لغة هذيل، د. عبد الجواد الطيب، ص٣٩٧

(٢) يُنظر "الريح"، لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه، قدَّم له وضبطه وعلق عليه د. حسين مُحَّد مُحَّد شرف، مؤسسة الحلبي للطباعة للطباعة والنشر – المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م، ص٥٦ – ٥٩، وقال كذلك ابن قتيبة في كتابه "الأنواء في مواسم العرب"، ص١٥٨

(٣) ينظر "الأنواء في مواسم العرب"، ابن قتيبة، ص١٦٥ – ١٦٧

وجدت أنهم ذكروا الجنوب بلفظها، وسموها كذلك النُّعامى واليَمَانِيَّة، قال أبو ذؤيب:

مَرَتْــــهُ النُّعــــامى فلـــم يعـــترِف   خِــلافَ النعــامى مــن الشــأم رِيحــا[(١)]

قال الشارح: "النُّعامى، الجَنوب"، وقال بذلك ابن قتيبة[(٢)]، والزُّبيدي[(٣)]، وقال: "لأَنَّهَا أَبَلُّ الرِّيَاحِ وأَرْطَبُها وأَرْطَبُها ، كما في الصِّحاح ، وبه جَزَم المبَرِّدُ في الكَامِلِ"[(٤)].

وقد ذُكِرت الجنوب صراحة عند ساعدة بن جؤية، في قوله:

ســـادٍ تجـــرَّم في البضـــيعِ ثمانيـــاً   يلــوي بِعَيقــاتِ البحــارِ وَيُجْنَــبُ[(٥)]

وقال الشارح: " يُجْنَبُ، أي تصيبه الجَنُوب "[(٦)].

أما الأَزْيَب، فلم أجد لها إلا شاهداً واحداً، فقد ذكرها ساعدة بن جؤية في نفس القصيدة السابقة التي ذكر فيها الجنوب، فقال:

واســـتدبروهم يَكْفَئُـــونَ عُـــرُوجَهُمْ   مَـــوْرَ الجهـــامِ إذا زَفَتْـــهُ الأزيَـــبُ[(٧)]

والسؤال هنا، هل الأزيب هي الجنوب أم أن بينهما اختلاف، ولماذا ذكر الشاعر في المرة الأولى الجنوب وهنا الأزيب، وما أثر ذلك في السياق؟

سأبدأ أولاً بما قاله العلماء عن الأزيب، جاء في لسان العرب " الأزيب: الجنوب، هذلية، أو هي النكباء التي تجري بين الصبا والجنوب"[(٨)]، وجاء في تاج العروس عن الأزيب "(الجَنُوبُ) هُذَلِيَّة ، بِهِ بِهِ جَزَم المُبَرِّدُ في كامِله وابْنُ فَارِسٍ والطَّرَابُلسيّ ، (أَو النَّكْبَاءُ) الَّتي تَجْرِي بَيْنَها وبَيْن الصَّبَا، وعليه اقْتَصَر الجَوْهَرِيّ ، وذَكَرهما مَعاً ابْنُ سِيدَه في المحكم"[(٩)].

قال الزمخشري: "ورجل وجمل أنْكَب: يمشي في شِقّ. ونَكَبت الريح: مالت عن مهابّ الرياح. وريح نَكْباء، ورياح نُكْب"[(١٠)]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٩٩، مرته: استدرته، لم يعترف: لم يعرف.

(٢) الأنواء في مواسم العرب، ابن قتيبة، ص١٦٥

(٣) يُنظر "تاج العروس من جواهر القاموس"، محمّد مرتضى الحسيني الزبيدي ،ج٣٣، تحقيق: إبراهيم الترزي، مطبعة حكومة الكويت، ط١، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، (نعم)، ص٥١١

(٤) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٥) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٠٣، سادٍ: "أسأد ليلته"، لم ينمها، تجرَّم: استوفى ثمانياً، البضيع: جزائر البحر، يلوي بها: كأنه يذهب يذهب بها إلى البحر تشرب ماءه كله، عيقة: ساحة: فناء من الأرض، يُجنَب: تصيبه الجنوب.

(٦) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٧) السابق، ج٣، ص١١٢١

(٨) لسان العرب، (زيب)، ج٧، ص٨٥

(٩) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، ج٣، تحقيق: عبد الكريم العِزباوي، مطبعة حكومة الكويت، ط٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٧٨م، (١٩٧٨م، (زيب)، ص٣٠

(١٠) أساس البلاغة، الزمخشري، (نكب)، ص٦٥٣

وقال ابن منظور: "والنَّكْبَاءُ كلُّ ريحٍ؛ وقيل كلُّ ريح من الرياح الأَربع انْحَرَفَتْ ووقَعَتْ بين ريحين"[1]، ريحين"[1]، وقال بذلك ابن قتيبة[2]، وابن خالويه في كتاب الريح[3]، والرَّبَعيّ في نظام الغريب[4] ثم قال الغريب[4] ثم قال ابن منظور: "وحكى ثعلبٌ عن ابن الأَعرابي: أَنَّ النُّكْبَ من الرياح أَربعٌ: فنَكْبَاءُ الصَّبا والجَنُوبِ مِهْيَافٌ مِلْوَاحٌ مِيباسٌ للبَقْلِ، وهي التي تجيءُ بين الريحين، قال الجوهري: تسمى الأَزْيَبَ"[5].

ومما مضى أستطيع أن أقول: إن هناك فرق بين الجنوب والأزيب، فإذا جاءت الريح من جهة الجنوب سموها الجنوب، أما إذا انحرفت وجاءت بين الجنوب والصَّبا – وهي التي تهب من الشرق – سُمِّيت الأزيب، فكل أزيب جنوب وليست كل جنوب أزيب. والأزيب نكباء الجنوب لأنها أشبه الرياح بها، ولذلك قال عنها ابن منظور: "والنَّكْباءُ التي تنسب إِلى الجَنوب، هي التي بينها وبين الصَّبا، وهي أَشْبَهُ الرِّياح بها في رقتها، وفي لينها في الشتاءِ"[6].

والجنوب هي التي يذكرها الهذليون تأتي في موضع تلقيح السحاب واستدراره، وهي التي يسمونها اليمانية أو النُّعامَى، ومن ذلك البيتان السابقان لأبي ذؤيب وساعدة بن جؤية، وقول أبي صخر:

طِفْـــــلٌ يمانيـــــةٌ لهـــــا رَهَـــــجٌ ... تَمْـــــري قَـــــوَادِمَ دُلَّحٍ دُهْـــــمِ[7]

أما الأزيب فقد جاءت في موضع آخر، وهو استِخْفافُ السحاب الذي لا ماء فيه، يقول ساعدة بن جؤية:

واسْـــتَدْبَرُوهُمْ يَكْفَئُـــونَ عُـــرُوجَهُمْ ... مَـــوْرَ الجَهَـــامِ إذا زَفَتْـــهُ الأزيَـــبُ[8]

وسياق البيت؛ أن الشاعر يصف قوماً أولي عِزٍّ ومنعه، فهجم عليهم أعداؤهم في جمع أكبر من جمعهم وقوة أعظم من قوتهم، فنكلوا بهم واستباحوا حرمتهم، وظلوا يطردونهم من أرض إلى أرض وهم في ذلة وصغار[9]، وشبه حالهم في هذا البيت؛ بالسحاب الجهام الذي قد هُريق ماؤه واسْتَخَفَّتْهُ ريح الأَزْيَب،

---

(١) لسان العرب، (نكب)، ج١٤، ص٣٤٨

(٢) يُنظر " الأنواء في مواسم العرب "، ابن قتيبة، ص١٥٨

(٣) يُنظر " الريح "، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه، ص٦٧

(٤) يُنظر "كتاب نظام الغريب "، عيسى بن إبراهيم بن مُحَّد الربعي، استخرجه وصححه د. بولس برونله، مطبعة هندية بالموسكي بمصر، ط١، (د.ت)، ص١٩٦

(٥) لسان العرب، (نكب)، ج١٤، ص٣٤٨

(٦) المصدر السابق، (نكب)، ج١٤، ٣٤٩

(٧) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٧٢

(٨) المصدر السابق، ج٣، ص١١٢١، استدبروهم:طردوهم، "يكفؤون عروجهم" من أرض إلى أرض، الكفء: القلب، العَرْج: الإبل الكثيرة، الكثيرة، مَوْرُه: مَوْجُه كما يموج السحاب، الجهام: من السحاب الذي قد هَراق ماءه، زفته: استخفته.

(٩) ينظر تَناوُل سياق البيت في مبحث "صورة المطر والمرأة"، ص٩٧

الأَزْيَب، واختار الأزيب لأنها شديدة، وهذه الصفة ليست في الجنوب لأنها ناعمة. جاء في لسان العرب " كلُّ ريحٍ شديدة ذاتُ أَزْيَب فإنما زَيَبُها شدَّتُها "[١]، وذكر ذلك الزبيدي في تاج العروس[٢]، العروس[٢]، وهي تسوق السحاب ولا تفرقه كالشَّمال، وشدة الأزيب وطردها الجهام مناسبة لأن يشبه يشبه بها الأعداء الأشداء الذين ظلوا يطردون أولئك القوم من مكان إلى مكان ، وهذه صورة تشبيهية مركبة، فهو يشبه صورة الأعداء الأشداء الذين يطردون القوم المهزومين الذين أصبحوا لا سلاح لهم، بصورة الأزيب الشديدة التي تسوق السحاب الذي قد هُرِيقَ ماؤه.

وفي شرح أشعار الهذليين بيّن الشارح معاني ألفاظ البيت السابق، ولما وصل إلى الأزيب قال: " الأزيب: الجنوب، وهي النُّعامى، أيضاً، قال أبو العباس: النعامى، ريح تهب بين الجنوب والشمال"[٣]، والشمال"[٣]، وهو هنا يصف الأزيب، وأرى أن المراد: ريح تهب بين الجنوب والصَّبا، ولذلك جاء في في الحاشية ما نصه: " بهامش المصورة ما يأتي: والله ما أفلح هذا الشيخ الذي قرئ عليه هذا ولم يعرف أن ليس بين الجنوب والشمال مهب ريح أبداً إنما تهب الجَنَائب من الجنوب "[٤].

وفي بحث ميدانيّ حديث بعنوان: " ألفاظ المطر والسحاب وما يتصل بها قديماً وحديثاً (دراسة لغوية) " وشمل البحث بعض قبائل هذيل حول مكة، فقد ذكر الباحث أن هذيل ما زالت تسمي الجنوب بلفظها، وتسميها – أيضاً – اليمانية، وذكر أن من ألفاظ الجنوب عندهم الأزيب، وأنها نكباء الجنوب، وَبَيَّنَ ذلك من خلال رسم توضيحي يُبَيِّنُ مَهَابَّ الرياح الأربع الأساسية ونَكْبَاء كل ريح[٥]. ريح[٥].

ومن ألفاظ السحاب التي اختصت بها هذيل لفظة (خَلُوج)، وقد بين اللغويون أنها هذلية[٦]، وأنها تعني عندهم، السحاب المتفرّق، كأنه خُولِجَ من معظم السحاب[٧]، وذكر هذا المعنى – أيضاً – الدكتور عبد الجواد الطيب في كتابه "من لغات العرب لغة هذيل"[٨]. وقد وجدت أن لها معانٍ أخرى أخرى ذكرتها المعاجم، ولم ينص اللغويون على أن تلك المعاني الأخرى هذلية. وقد وردت هذه اللفظة

---

(١) لسان العرب، (زيب)، ج٧، ص٨٥

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، (زيب)ج٣، ص٣٠

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٢١، وهذا الكلام موجود بنصه – أيضاً – في ديوان الهذليين، ج١، ص١٩١

(٤) المصدر السابق، نفس الصفحة، الحاشية رقم (٦).

(٥) ينظر " ألفاظ المطر والسحاب وما يتصل بها قديماً وحديثاً (دراسة لغوية) "، رسالة ماجستير، عبد الملك عيضة رداد الثبيتي، جامعة أم أم القرى، كلية اللغة العربية – فرع اللغة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ص١٠٣ - ١٠٧

(٦) ينظر "تاج العروس من جواهر القاموس"، الزبيدي، ج٥، تحقيق: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م، (١٩٦٩م، (خلج)، ص٥٣١، و"لسان العرب"، (خلج)، ج٥، ص١٢٣

(٧) ينظر "تاج العروس من جواهر القاموس"، الزبيدي، (خلج)، ج٥، ص٥٣١

(٨) من لغات العرب لغة هذيل، د. عبد الجواد الطيب، ص٣٩٨

عند أبي ذؤيب، ولكنها لا تحتمل المعنى السابق، وجاء في الشرح خلاف ذلك، يقول أبو ذؤيب:

أمنـــكِ الـــبرقُ أَوْمَـــضَ ثم هَاجَـــا فَبِـــتُّ إخَالُـــهُ دُهمـــاً خِلاجَـــا[١]

فقال الشارح: "و"خِلاج"، من الإبل، التي اختلجت أولادها عنها، واحدها "خَلُوج"، تَخَلَّج عنها إما بموت أو بذبح"، ثم قال: "وصف السحاب ورعده، لأن البرق لا يكون إلا مع سحاب، كأنه إبل دهم قد اختلج عنها أولادها، فهي تَحَانٌّ، فشبه صوت الرعد بحنين هذه الإبل"[٢].

وقد استشهد الزبيدي في تاج العروس بهذا البيت، وقال قبله: " ناقَةٌ خَلُوجٌ: غَزِيرَةُ اللَّبنِ، مأْخوذٌ من سَحابةٍ خَلُوجٍ، كما يأْتي، وفي التهذيب: وناقَةٌ خَلُوجٌ: كثيرةُ اللَّبَنِ تَحِنُّ إِلى وَلدِهَا "، وقال معلقاً على بيت أبي ذؤيب: " دُهْماً: إِبِلاً سُوداً، شَبَّه صَوتَ الرَّعْد بأَصواتِ هذه الخِلاجِ ، لأَنَّهَا تَحَانُّ لِفَقْدِ أَولادِهَا"[٣]، وكذلك ورد في لسان العرب هذا البيت والتعليق نفسه.

وجاء في لسان العرب – أيضاً – : "وسحابة خَلُوجٌ: كثيرة الماءِ شّديدة البرق.وناقة خَلُوجٌ: غزيرة اللبن، من هذا، والجمع خُلُجٌ. التهذيب: وناقة خَلُوجٌ كثير اللبن،تحنُّ إلى ولدها"[٤].

فاللغويون قد بينوا أن (خَلُوج) الهذلية هي التي تعني السحاب المتفرق ولم يوردوا شواهد عليها، ولم أجد لها أثراً إلا في موضعين، الأول؛ بيت أبي ذؤيب السابق، والمعنى –كما تقدم – ليس المعنى الذي خصصوه، والثاني في بيت آخر لأبي ذؤيب، يقول:

لـه هَيْـدَبٌ يَعْلُـو الشِّـراجَ وهَيْـدَبٌ مُسِـــفٌّ بأَذْنَابِ الـــتِّلاعِ خَلُـــوجُ[٥]

ومعناها كما قال الشارح، تَخْلِجُ الماء فتجذبه وتأخذه، وأرى كذلك أن المعنى لا يحتمل السحاب المتفرق؛ لأن الشاعر يصف سحاباً قد عمَّ أعاليَ الشعاب وأذناب التِّلاع، ولا سبيل إلى وصفه بالتفرق.

وقد يكون المعنى الهذلي لكلمة (خَلُوج)، الذي ذكره اللغويون شائعاً في كلامهم، ولكن ليس بالضرورة أن يرد في أشعارهم.

ومن ألفاظ المطر عندهم (الخَرْج)، وقد أشار ابن سيدة إلى أنها هذلية[٦]، وقد وجدت أنها وردت في

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٧٧، دهم: إبل سُود.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص١٧٧

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، (خلج)، ج٥، ص٥٣١

(٤) لسان العرب، (خلج)، ج٥ ،ص١٢٣

(٥) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٣١، له هيدب: ما أسبل من السحاب كأنه هدب الثوب. الشِّراج: شُعَبٌ تكون في الحِرار. المِسِفُّ: المِسِفُّ: الداني. التَّلْعة: مَسِيل من ارض مرتفعة إلى الوادي، وقد ذكر الشارح روايتين أخرى للكلمة التي ختم بها الشاعر البيت، وهي (حَلوج): يجيء ويذهب ويقشر كل شيء، و (دَلُوج) يمر مثقلاً.

(٦) المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيدة، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث

في أشعارهم في موضعين، الأول؛ في قول أبي ذؤيب، وقد استشهد به ابن سيدة:

وَهَـــى خَرْجُــه واسْـــتُجِيلَ الجَهَـــا ... مُ عنــــه وغُــــرِّمَ مـــاءً صَـــرِيحا[١]

" خَرْجُه"، ما خرج من الماء[٢].

والموضع الثاني، في قول أبي ذؤيب:

إذا هَـمَّ بالإقْـلاعِ هَبَّـتْ لـه الصَّـبا ... فأعْقَـبَ نَـشْءٌ بعـدها وخُـرُوجُ[٣]

قال الشارح: "له خُرُوج حسن"، أي غَيْمٌ بعد غَيْم. وجاء في لسان العرب: "والخَرْجُ والخُرُوجُ: أَوَّلُ ما يَنْشَأُ من السحاب. يقال: خَرَجَ لَهُ خُرُوجٌ حَسَنٌ؛ وقيل: خُرُوجُ السَّحَاب اتِّساعُهُ وانْبِساطُه "[٤]، ثم استشهد بالبيت السابق.

ومن الألفاظ الهذلية (الخَمُوش)، وتعني، البَعُوض[٥]، ولها ورود في صورة المطر عند أبي كبير الهذلي، حينما شبه صوت البعوض حول الماء بصوت الركب الذين يغنون بعد ربح ربحوه، يقول:

وَكَــأَنَّ أَصــواتَ الخَمُــوشِ بِجَــوِّهِ ... أَصــواتُ رَكْــبٍ في مَــلاً مُتَــرَنِّمِ[٦]

و"الضَّحْضَاح" بلغة هذيل هو الماء الكثير[٧]، وهو عند غيرهم الماء القليل[٨]، قال أبو ذؤيب:

يَجُـشُّ رعـدا كهَـدْرِ الفحـل تتبعـه ... أُدْمٌ تَعَطَّـفُ حـول الفحـل ضَحْضَـاحُ[٩]

جاء في الشرح، و"ضحضاح" هاهنا، كثير، وأصله القلة، ولغة هذيل: "ضحضاح"، أي كثير[١٠].

التراث العربي- بيروت- ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ط١، ج٢، ص٤٣٦، باب(العرق)

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٩٩

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) السابق، ج١، ص١٢٩

(٤) لسان العرب، (خرج)، ج٥، ص٤٠

(٥) يُنظر " تاج العروس من جواهر القاموس "، الزبيدي، ج١٧، تحقيق: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، (خمش)، ص١٩٤، و " لسان العرب "، (خمش)، ج٥،ص١٥٧، وقد ذُكِر فيهما معناها وهُذَليتها.

(٦) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١٠٩٢.

(٧) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، ج٦، تحقيق: د. حسين نصّار، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٦٩هـ - ١٩٦٩م، (ضحح)، ص٥٦٦، لسان العرب، (ضحح)، ج٩، ص١٩

(٨) المصدران السابقان، نفس الصفحتين.

(٩) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٦٧

(١٠) المصدر السابق، نفس الصفحة.

ومن الظواهر الصوتية التي وردت في صورة المطر التخفيف، ومن ذلك أنهم ينطقون كلمة (الهُدُوّ) بدلاً من الهدوء في بعض وجوه استعمالها التي لا تبعد عن المعنى الأصلي للهدوء في عمومه[١]، ومن ذلك قول ساعدة بن جؤية:

ومنـــكِ هُـــدُوَّ الليـــلِ بـــرقٌ فَهَـــاجَنِي   يصـــدّع رُمكـــاً مســـتطيراً عَقِيرُهـــا[٢]

" هُدُوَّ الليلِ "، بعد ساعة من الليل[٣]، وهذا التَّخَفُّفُ من الهمزة قد ناسب في اللفظ سكونَ تلك الساعة من الليل وهدوئها، لأن الهمزة حرف مجهور شديد[٤]، جلد على اللسان وفي النطق به كلفة[٥]، والشاعر هنا يصف ساعة من الليل هادئة يحيط بها السكون، وقد سكنت نفسه وارتاحت مما تجده من هوىً لاعِج، فجاء بالكلمة وقد حذف همزتها مُنَاسَبَةً لسكون الليل وسكون نفسه، ولكن هذا الهدوء لم يَدُم، فقد جاء البرق بصخبه، فهاجت نفسه بعد سكونها، لأن البرق جاء من قِبَلِ المحبوبة النائية.

ومن التخفيف قولهم (يَتَقِي) بدلاً من (يَتَّقِي)، كقول ساعدة بن جؤية:

وكأنمـــــا وافـــــاكَ يـــــومَ لقيتَهـــــا   مـــن وحـــش وَجْـــرةَ عاقِـــدٌ مُتَرَبِّـــبُ[٦]

خَـرِقٌ غضـيضُ الطـرف أحـورُ شـادنٌ   ذو حُـوَّةٍ أُنُـفُ المسـارِبِ أَخْطَـبُ[٧]

بِشَـــرَبَّةٍ دَمِـــثِ الكثيـــب بِـــدُورِهِ   أرطـى يعـوذ بـه إذا مـا يُرْطَـبُ[٨]

يَتَقِـــي بـــهِ نَفَيَـــانَ كـــلِّ عشـــيةٍ   فالمـــاءُ فـــوقَ مُتُونِـــهِ يتصـــببُ[٩]

---

(١) يُنظر "من لغات العرب لغة هذيل"، عبد الجواد الطيب، ص٨٨

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٧٦، يصدع رمكاً: تفرج عن سحاب رمك، العقير: الذي عقر من الخيل، فهو يتحامل، مرة يرتفع، يرتفع، ومرة يسقط.

(٣) المصدر السابق، نفس الصفحة

(٤) يُنظر "التمهيد في علم التجويد"، شمس الدين أبو الخير مُحَّد بن الجزري، تحقيق: غانم قدورة حمد، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م، ص١١٥

(٥) يُنظر "إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع"، الإمام عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبي شامة الدمشقي الشاطبي، تحقيق: إبراهيم عطوه عوض، دار الكتب العلمية، (د.ت)، ص١٢٧

(٦) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١٠٩٩، وافاك: لقيك، العاقد: الذ قد ثنى عنقه، متربب: أي متربب في النبت.

(٧) المصدر السابق، الخَرِق: الصغير منها، الذي إذا فاجأته خَرِقَ وانقبض أن يعدو، غضيض الطرف: أي فاتره، الشادن: المتحرك، ذو حُوَّة: حُوَّة: فيه خطوط تضرب إلى السواد، أُنُف المسارب: هو مستأنف الربيع ولم يُرْعَ قبله، الأخطب: الأخضر لونه.

(٨) السابق، بِشَرَبَّةٍ: أي موضع مرتفع ليس فيه لِين، دمث الكثيب: لين الكثيب، بِدُرره: الدُّور؛ فجوات، وهي دارات تكون في الرمل، إذا إذا ما يرطب: يلجأ إليها إذا أرطبته السماء وبللته.

(٩) السابق، يَتَقِي: يَتَّقِي وهي لغة هذلية، النَّفَيان: كل شيء يطير ليس بمعظم الشيء، كنَفَيَان الرشاء وهو ما تطاير منه على ظهر الساقي. الساقي. أي أن الماء ينصب على متون الأرطى فلا يصيب الظبي منه شيء.

يَقْـــــرو أبارِقُــــــهُ ويـــــــدنو تارةً　　　لِمَـــدافِئٍ منهـــا بهِــنَّ الحُلَّـــبُ[1]

وذلك ليس ضرورة شعرية، لأن الشارح قد ذكر أنها لغة عند هذيل.

والشاعر يشبه المحبوبة بصغير الظباء في جماله وشُروده، ويذكر قصته مع المطر، فهو كثير الحركة، وبمكان ليّن الكثيب، وفي رمله فجوات بها شجر الأرْطَى[2]، وهو يعوذ به إذا آذاه المطر، ثم قال: (يَتَقِي بهِ)،)، أي أنّ الظبي يتَّقي بشجر الأرطى المطر، وهو لم يتَّقي بأَرْطَاةٍ واحدة إنما أرطى، وهذا يدل على كثرة حركته وأنه لا يستقر تحت أرطاة واحدة، وجاءت لفظة (يَتَقِي) مُصَوِّرة حال الظبي، لأنها أخف في مبناها من (يَتَّقي)، فَتَوالِي حركتي الفتح في الياء والقاف في (يَتَقِي)، يدلان على حركة الظبي السريعة، والقاف المكسورة تصوِّر لحظة دخوله السريع تحت الأرْطاة، والياء الساكنة تصوِّر سكونه واستقراره تحت الأرْطاة خوفاً من المطر، ثم يخرج فيكرر ذلك متخذاً أرطاة أخرى. بالإضافة إلى ذلك، فإن اختيار كلمة (يَتَقِي) فيه مراعاة للجانب الصوتي الإيقاعي، فلو اختار الشاعر (يَتَّقي) لاخْتَلَّ وزن البيت.

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٠١، يقرو: يتبع، الأبارق: جبال من حجارة وطين، أو حجارة ورمل، المدافئ: مواضع دفيئة، الحُلَّب: الحُلَّب: جمع حُلَّبَة وهي بقلة جعدة غبراء في خضرة، تنبسط على وجه الأرض يسيل منها لبن إذا قُطِع منها شيء.

(٢) لسان العرب، (أرط)، ج١، ص٨٩، " الأَرْطَى شجر ينبُت بالرَّمْل قال أَبو حنيفة هو شبيه بالغَضَا ينبُت عِصِيّاً من أَصل واحد يَطولُ يَطولُ قدر قامة ... واحدته أَرْطاةٌ "

٢- خصوصية التراكيب في وصف المطر

سأدرس في هذا المبحث التراكيب التي اختصت بها صورة المطر عند الهذليين فأبْرَزَت الصورة.

وصورة المطر في غالبها صورة خبرية تصف مشهد المطر، لذلك طغى فيها الخبر على الإنشاء.

وقد خَلَت الصورة من بعض التراكيب، كالقصر بالنفي والاستثناء، والقصر بـ (إنما)، والنهي، والتمني.

والتراكيب التي سأدرسها في هذا المبحث هي:

الخبر: أضرب الخبر، خروج الخبر عن مقتضى الظاهر.

- **الحذف والذكر.**
- **التعريف والتنكير.**
- **التقديم والتأخير.**
- **الالتفات.**
- **مخالفة مقتضى الظاهر في صيغ الأفعال.**

الإنشاء:

- **النداء.**
- **الاستفهام.**
- **وقوع الخبر موقع الإنشاء.**

الخبر: أضرب الخبر، خروج الخبر عن مقتضى الظاهر.

"يراد بالبحث في هذا الموضوع، دراسة الخبر من حيث التوكيد وخلافه"(١)، فإذا كان المخاطَب خالي خالي الذهن من الحكم بأحد طرفي الخبر على الآخر والتردد فيه؛ استغني عن مؤكدات الحكم، وإذا كان المخاطب متردداً في إسناد أحد الطرفين إلى الآخر، حَسُنَ في هذه الحالة تقوية الخبر بمؤكِّد، وإذا كان المخاطب منكِراً فإنه لابد من التوكيد، ويختلف هذا التوكيد بمقدار تصاعد حالة الإنكار(٢).

والشائع في صورة المطر عند الهذليين، أنها صورة حركية لا يرد فيها التوكيد إلا قليلاً، وتكون الصور مليئة بالأفعال، لأن الشاعر يصف مشهداً متحركاً، فهو يصف هبوب الرياح وتلقيحها للسحاب، ويصف سير السحاب وتقابُلَه، ويصف لمعان برقه، وشدة رعده، ويصف هطوله، ويصف السيل وما يفعله من تدمير لمعالم الأرض واقتلاع الأشجار، ويعتمد في ذلك على الجمل الفعلية.

وإذا كان الشاعر يصف مشهداً متحركاً فإن ذلك يستدعي شيوع الجمل الفعلية(٣).

وشواهد المطر عند الهذليين لم تحفل كثيراً بمؤكدات الخبر، ولا أرى أنها تكوِّن ظاهرة بلاغية في شعرهم، لأن الصورة تصف مشهداً متحركاً لا يقتضي المقام توكيده. ولكن قد يلجأ الشاعر إلى توكيد الخبر، وقد وجدت ذلك في موضعين، عند أبي ذؤيب الهذلي حينما دعا لمحبوبته بالسقيا، ثم في آخر الصورة أكد حبه لها وبهجته بوصلها، وعند ساعدة بن جؤية، حينما وصف ثغر محبوبته، فوصف عسلاً ممزوجاً بماء مطر في لِهْبٍ وخمر معتّقة، ثم فضَّل فاها على ذلك المزيج فأكد ذلك التفضيل، والذي يجمع هذين التوكيدين، أنهما جاءا في سياق صورة المطر والمرأة.

وهذان التوكيدان " لا يُنظر فيهما إلى حال المخاطب، لأن هناك ضروب من التوكيد لا يَنظر فيها المتكلم إلى حال المخاطب، وإنما ينظر فيها المتكلم إلى حال نفسه ومدى انفعاله بهذه الحقائق، وحرصه على إذاعتها وتقريرها في النفوس كما أحسها مقررة أكيدة في نفسه "(٤).

وهذا يعد من خروج الخبر عن مقتضى الظاهر، لأن الشاعر قد أكد الخبر والسامع غير منكر للخبر، يقول الدكتور مُحَّد أبو موسى: " وقد يجري الكلام على خلاف الظاهر من حال المخاطب، أي أن المتكلم لا يعتد بهذا الواقع في صياغته، وإنما يجري على أمور اعتبارية تنزيلية يلحظها هو ويعتبرها مقامات يصوغ عبارته على مقتضاها، وذلك موطن دقيق، لا يهتدي إلى مواقعه الشريفة إلا ذكي النفس دقيق الحس واسع الخيال"(٥).

---

(١) خصائص التراكيب، د. مُحَّد أبو موسى، مكتبة وهبة – القاهرة، ط٥، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م، ص٨٠

(٢) يُنظر الإيضاح، الخطيب القزويني، ص٢٣، وخصائص التراكيب، مُحَّد أبو موسى، ص٨٠ – ٨١

(٣) يُنظر "اللغة والبلاغة"، عدنان بن ذريل، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٨٣م، ص١٠٤

(٤) خصائص التراكيب، د. مُحَّد أبو موسى، ص٩١

(٥) المصدر السابق، د. مُحَّد أبو موسى، ص٨٤

يقول أبو ذؤيب الهذلي[١]:

سَـقَى أُمَّ عَمْـروٍ كـل آخِـرِ ليلـةٍ ... حَنـاتِمُ سُـودٌ مـاؤهُنَّ ثَجِـيجُ[٢]

إذا هَـمَّ بالإقْـلاعِ هَبَّـتْ لـه الصَّـبا ... فأعْقَـبَ نَـشْءٌ بعـدها وخُـرُوجُ[٣]

وبعد أن أنهى صورة المطر قال:

فـذلك سُـقْيا أُمِّ عمـروٍ وإنـني ... بمـا بَـذَلَتْ مـنْ سَـيْبها لَبَهـيجُ[٤]

فأبو ذؤيب يؤكد أنه مبتهج وفرح بعطايا أم عمرو له، ولذلك دعا لها بذلك المطر الذي تأنق في صورته، وأكد الخبر بمؤكدين، هما (إنَّ) واللام الداخلة على خبر إنَّ، وإن المشددة من شأنها الإثبات لما بعدها، وإذا زيد في خبرها اللام، كان ذلك أكثر توكيداً[٥].

وأبو ذؤيب في هذا التوكيد لا ينظر إلى حال المخاطب، مع أن المخاطب غير منكر لبهجته بعطاياها، وإنما صاغ هذا التوكيد مراعياً حال نفسه، ولم يشكل صياغة عبارته بدوافع خارجية يراها عند المخاطب، بل ليؤكد ما يجده في نفسه من ابتهاج لما بذلت أم عمرو، فصاغ الخبر كما أحسه مؤكَّداً مُقَرَّراً.

ويؤكد أبو ذؤيب أن نفسه ما زالت مبتهجة من بذل أم عمرو حتى بعد رحيلها وتقادم عهدها، ولذلك أراد أن يكافئها بعد أن نأت؛ بأن يدعو لها بذلك المطر الجميل، ويظل ثقال المزن دائم الهطول على أرضها لا يبرح، فيكون هذا الهطول الدائم جزاءً لبذلها الذي ظل أبو ذؤيب مبتهجاً به بعد رحيلها.

ويقول ساعدة بن جؤية يصف ثغر المحبوبة[٦]:

وَمُنَصَّـبٌ كـالأُقحُوانِ مُنَطَّـقٌ ... بالظَّلْـمِ مصْـلوتُ العَـوارِضِ أشْـنَبُ[٧]

كَسُـلافةِ العِنَـبِ العَصـيرِ مِزاجُـهُ ... عُـودٌ وكـافورٌ ومسـكٌ أصـهَبُ[٨]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص ١٢٨، تم ذكر الأبيات كاملة مع تناولها، مبحث " صورة المطر والمرأة".

(٢) المصدر السابق، كل آخر ليلة: مثل قوله: "لا أكلمك آخر الليالي"، ومعناه: لا أكلمك ما بقي من الزمان ليلةٌ، أبدا. الحناتم: الجِرَار الخضر. ثجيج: صبوب.

(٣) السابق، يُقْلِع: يتَقَشَّع. هبت له الصبا: فجمعته.

(٤) السابق، سَيبها: عَطِيّتها. بهيج: مبتهج فَرِح.

(٥) يُنظر "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، ضياء الدين ابن الأثير، قدمه وعلق عليه د. أحمد الحوفي و د.بدوي طبانة، نهضة مصر مصر للطباعة والنشر – القاهرة، (د.ت)، ج٢، ١٩١

(٦) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٠٧

(٧) المصدر السابق، منصب: ثغر، يعني الأسنان، مُنَطّق: مستدير به، الظَّلم: ماء الأسنان، الشَّنَب: بَرْد وعذوبة ريق الفم.

(٨) السابق، السلافة: أول ما يخرج من الدَّنِّ.

خَصِـــــرٌ كـــــأنَّ رُضـــــابَهُ إذ ذُقْتُــــهُ بَعْــدَ الهُــدُوِّ وقـــد تعـــالى الكوكـــبُ[1]

أَرْيُ الجــــــوارِسِ في ذُؤابــــةِ مُشْــــرِفٍ فيـــهِ النُّســـور كمـــا تحـــبَّى المؤْكِـــبُ[2]

ثم يصف بياض العسل والأماكن التي جنته النحل منها، ويصف النحل، ويصف معاناة المشتار من أجل اجتنائه العسل، ونزوله من الصخرة العالية، ثم يصف ما يقوم به المشتار من مزج العسل بماء الإِلْهَاب، واللِّهب مهواة في الجبل، وهو شِقٌّ في الجبل[3]، وماؤه من أصفى المياه وأعذبها، لأن الوصول إليه صعب. ثم ثم يقول إن هذا العسل والماء قد مُزِجا بصهباء معتَّقة، وبعد ذلك يقول:

فكـــأنَّ فاهـــا حِـــينَ صُـــفِّيَ طعمُـــهُ واللهِ أو أشـــــــهى إليَّ وأطيــــــــبُ

فهو يُقْسِم ليؤكد الخبر، والخبر هو: كأن طعم فيها طعم ذلك المزيج أو أشهى وأطيب، وأقسم على ذلك مؤكداً هذا الخبر، والقسم من مؤكِّدات الخبر[4]، وهذا التوكيد كسابقه لا يُنظر فيه إلى حال المخاطب، لأن الشاعر يؤكد ما يجده في نفسه من ريق محبوبته، ويحرص على إذاعة ذلك والتوكيد عليه كما أحسه مقرراً أكيداً في نفسه.

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٠٧، رضابه: ما تقطع في الفم من الريق.

(٢) المصدر السابق، أَرْيُها: عملها، الجوارس: النحل، والجَرْس، أكل النحل الشجر ليُعَسِّل به.

(٣) السابق، ص١١١٣

(٤) يُنظر "علم المعاني"، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية – بيروت، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، ص٥٧

الحذف والذكر

"يرجع حُسْن العبارة في كثير من التراكيب إلى ما يعتمد إليه المتكلم من حذف لا يغمض به المعنى، ولا يلتوي وراءه المقصد، وإنما هو تصرف تُصَفَّى به العبارة، ويشتد به أسرها، ويقوى حبكها، ويتكاثر إيحاؤها، ويمتلئ مبناها، وتصير أشبه بالكلام الجيد .... وفي طبع اللغة أن تسقط من الألفاظ ما يدل عليه غيره، أو ما يرشد إليه سياق الكلام أو دلالة الحال، وأصل بلاغتها في هذه الوجازة التي تعتمد على ذكاء القارئ والسامع، وتعول على إثارة حسه، وبعث خياله وتنشيط نفسه، حتى يفهم بالقرينة ويدرك باللمحة ويفطن إلى معاني الألفاظ التي طواها التعبير"(١)، وقد قال عبد القاهر الجرجاني عن الحذف:

" هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به تركَ الذكر، أفصحَ من الذكر، والصمتَ عن الإفادة، أزيدَ للإفادة، وتجدُك أنطقَ ما تكون إذا لم تنطق، وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبِن "(٢).

ومن مواضع الحذف التي أرشدنا عبد القاهر الجرجاني إلى تذوقها، وأن لها موقعاً في النفس؛ موضع حذف المبتدأ (المسند إليه)، وقال عنه بأنه قلادة الجيد وقاعدة التجويد(٣)، وقد وجدت أن صور المطر عند الهذليين تحفل بذلك، ومنه قول أمية بن أبي عائذ يصف السحاب(٤):

مُنِيـــــفٌ مســــــانيفُ الـــــرَّبابِ أمامـــــهُ ... لـــــواقِحُ يحبوهــــا أجَـــــشٌّ مُجَلْجِـــــلُ

والشاهد قوله: " مُنيف "، والتقدير: هو منيف. والبيت قد ورد في صورة من صور المطر الذي غير الطلل، فقد وقف أمية بن أبي عائذ على أطلال سُلَيْمى التي عفت وتغيرت، وقد عفتها الرياح القوية التي تقذف بالحصا، وعفاها السحاب الذي جرف ماؤه معالم الطلل حتى دمره، يقول عن آثار سليمى:

عفتهـــا صـــبًا ترمـــي السَّـــراديح بالحصـــا ... ومُســـــتنةٌ بالمـــورِ نكبـــاء شمـــأل

وكــــل حـــــبي ذي رديـــــف لعرضـــــه ... ســـــنامٌ وهـــــادٍ متلئـــــبٌ وكلكـــــلُ

شــــــآمٍ يمـــــانٍ منجـــــدٍ متهـــــتمٍ ... حجازيـــــةٍ أعجـــــازه وهـــــو مُســـــهِلُ

هِجـــانٍ إذا مـــا لاح في الـــبرق مُغـــرِبٍ ... وجَـــوْنٍ إذا مـــا غمـــه المـــاء أكحـــلُ

عليـــه نســـيل مـــن جهـــام كأنـــه ... نعـــامٌ بأجـــوازٍ مـــن الرمـــل مُجْفِـــلُ

وأعقـــبَ تَلْماعــــاً بــــزأرٍ كأنــــهُ ... تهـــــدُّمُ طَـــــوْدٍ صـــــخره يتكلـــــل

---

(١) خصائص التراكيب، مُحَمَّد أبو موسى، ص١٥٣

(٢) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود مُحَمَّد شاكر، مطبعة المدني – القاهرة، دار المدني – جدة، ط٣، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م، ص١٤٦

(٣) المصدر السابق، ص١٥١

(٤) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص ٥٣٣

كـــأن ومـــيض الـــبرق تحـــت كِفافـــه   تكشُّـــــفُ رمَّـــــاحٍ شَـــــوَاهُ محجَّـــــلُ
مُنِيــــفٌ مســـــانيفُ الــــرَّبابِ أمامـــــهُ   لـــــواقِحُ يحبوهـــــا أجَــــشُّ مُجَلْجِـــــلُ

فأسهب الشاعر في وصف السحاب، ونفسه تتقطع حسرات على دمار ذلك الطلل، لأن الطلل هو الرابط الحسي بينه وبين ذكرياته، وهو يشكو لنا ما فعله ذلك السحاب، وهو سحاب عظيم مُطبِق، ودانٍ من الأرض، وقد أحاط بالمكان من جميع الجهات.

وفي أول وصفه للسحاب قال عنه: " حَبِيّ "، والحبيّ هو السحاب الداني[1]، ثم ذكر جهاته التي غطاها، ثم وصف برقه ورعده وجَهَامَه، ثم استأنف ذكر السحاب مرة ثانية استئنافاً بمعنى جديد " مُنِيف "، وهذا الاستئناف مبني على حذف المسند إليه، لأن التقدير: هو منيف، والمنيف هو العالي المشرِف[2]، والحذف جاء في مقطع جديد من مقاطع المعنى، فإنه ذكر قبل ذلك أن السحاب دانٍ من الأرض، ثم استأنف ذكر علو السحاب وإشرافه، وهذا يعني أن أسفل السحاب دانٍ من الأرض وأعلاه منيف مشرف، ليدل ذلك على أنه سحاب عظيم تراكم حتى أصبح مرتفعاً مشرفاً.

والشاعر منفعل بهذا المعنى، لأن السحاب المنيف فيه صفة العلو، وقد ذكرت سابقاً أن السحاب الطللي عند الهذليين إذا وُصِف بالعلو فإن ذلك دلالة على التدمير[3]. وقوة انفعال الشاعر بهذه الصفة للسحاب، جعلته يحذف المسند إليه، ويذكر المسند مباشرة، ومع أن البحر الطويل الذي اختاره الشاعر من البحور ذات الأوزان الطويلة التي تُختار غالباً عند الألم والشكوى ليصب فيها من أشجانه ما ينفس عنه حزنه وجزعه[4]، إلا أن نفس الشاعر قد عَجَّلَتْهُ بأن يبدأ بالخبر " منيف "، لأن نفسه ممتلئة ألماً من ذلك السحاب المنيف المشرف، الذي كان لإشرافه وتعاليه أثراً مدمراً على الطلل الذي هاجت من أجله نفسه.

وكذلك في البيت صورة لتجدد الهطول، وزيادة التدمير، لأن ذلك السحاب كالإبل اللواقح، ويسوقها الرعد المخيف المجلجل، ويتآزر مع صورة الألم من هذا السحاب، اختيار الشاعر للكلمات التي بها حرف المد الألف، الذي يعبر عن آلامه (مَسَانِيف ، الرَّبَاب، أَمامَه، لَوَاقِح).

---

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، (حبو)، ج٢، ص ١٣٢، قال عن الحَبِيّ: "وكل دانٍ حابٍ. وبه سُمِّي حَبِيُّ السَّحاب، لدنُوِّه من الأفق".

(٢) يُنظر "لسان العرب"، (نوف)، ج١٤، ص٣٨٦

(٣) ينظر مبحث " صورة المطر والطلل ".

(٤) يُنظر "موسيقى الشعر"، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٥٢م، ص١٧٥

ومن ذلك قول أبي صخر يصف رياح الجنوب التي تلقح السحاب[١]:

طِفْـــلٌ يمانيـــةٌ لهـــا رهَـــجٌ   تَمْـــري قـــوادم دُلَّحٍ دهـــمِ[٢]

وريح طِفل: أي لَيِّنة، واليَمَانية: يعني ريح الجنوب التي تستدر السحاب، والسحاب دُلَّح غزير الماء، وهو أدهم اللون، وهذا اللون فيه دلالة على المطر[٣].

والشاهد، قوله: " طِفْلٌ "، وأراد: هي طفل، ولكنه حذف المسند إليه.

وإذا نظرت إلى السياق الذي ورد فيه البيت، تجد أنه يقع في مطلع قصيدة لأبي صخر، ومناسبتها، أنه مَرَّ بأطلال المحبوبة فوجدها مقفرة تلعب بها الريح، ولم تنعم بالمطر سِوى الرِّهْم، وهو المطر الضعيف الصغير القطر[٤]، يقول:

لِمَـــنِ الـــديار تلـــوح كالوشـــم   بالجـــابتين فروضـــة الحـــزمِ
فَبِرَمْلَـــتَيْ قَـــرْدَى فـــذي عُشَـــرٍ   فـــالبِيضِ فـــالبَرَدانِ فـــالرَّقْمِ
وبِضَـــارِحٍ طلـــلٌ أجـــدَّ لنـــا   شـــوقاً إلى فيْحـــانَ فـــالنَّظْمِ
وَلَهَـــا بـــذي نَبْـــوانَ منزلـــةٌ   قَفْـــرٌ سِـــوَى الأرْوَاحِ والـــرِّهْمِ
فبِرامـــةَ العُليـــا غَشِـــيتَ لهـــا   رسمـــاً ســـقاكَ الغيـــثُ مـــن رســـمِ
بكـــرَت عليـــك لهـــا مبشـــرةٌ   رَيّاً تُخَضِّـــــرُ بالي الهِـــــدْمِ
طِفْـــلٌ يمانيـــةٌ لهـــا رهَـــجٌ   تَمْـــري قـــوادم دُلَّحٍ دُهْـــمِ

وواضح أن القطع هنا عند منقطع مهم، فقد دعا للطلل بالريح المبشرة. وكان دعاؤه بصيغة الماضي (بكرَت عليك ... مُبَشِّرَةٌ)، لأن رغبته في سقيا الطلل أكثر إلحاحاً وتعلقا بالنفس، وكأنها لقوة إحاطتها بالقلب أوهمت أنها وقعت وأن الله قد نال الطلل برحمته[٥].

وقد صرح أن الريح مبشرة من غير أن يذكر صفتها وجهتها، لأن كل ريح لها جهة وصفة تُعرف بها، ثم استأنف حديثاً آخر أو جزءاً جديداً من المعنى، فذكر أن الريح لينة، ثم قال يمانية، وهي ريح الجنوب

---

(١) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج٢، ص٩٧٢

(٢) جاء في أساس البلاغة (طفل)، ص٣٩٢، " ومن المجاز ... وريحٌ طِفْلٌ: ليّنة ". لسان العرب، (مرا) ، ج١٤، ص٦٣، " والمرْيُ: مسح ضرع الناقة لِتَدِرَّ، مَرَى الناقة مَرْياً: مسحَ ضَرْعَها للدِّرَّة "، وجاء فيه، (دلح)، ج٥، ص٢٨٦، "الدَّلْحُ: مَشْيُ الرجل بِحِمْلِه وقد أثقله... وكذلك البعير"، وقال الزمخشري في أساس البلاغة، (دلح)، ص١٩٢: " ومن المجاز سحابة دلوح ... والسحابة تدلح من كثرة مائها ".

(٣) يُنظر تناول الأبيات في مبحث "صورة المطر والطلل"، ص٦٤

(٤) أساس البلاغة، الزمخشري، (رهم)، ص٢٦٢، الرِّهْمة "مَطْرة لَيِّنَة صغيرة القَطْر".

(٥) يُنظر "دلالات التراكيب"، محمّد أبو موسى، ص٢٦٦، في معرض حديثه، أن الإنشاء قد يرد في لفظ الخبر.

المطرة، وبنى هذا الاستئناف على الحذف لقوة الدلالة عليه، ولأنه مناسب لقوة الانفعال بهذا الجزء المهم من المعنى، والريح التي تبشر بالغيث لا تكون عند العرب إلا جنوبية، وهي لينة ناعمة، ومن أسمائها النُّعامى، لأنها أبل الرياح وأرطبها[١]، وبدأ البيت بذكر نعومتها، لأن في ذلك رأفة ورحمة بالطلل الذي أحزنه إقفاره وتبدل حاله، ثم ذكر أن هذه الريح اليمانية تستخرج السحاب وتستدره[٢].

وقال ساعدة بن جؤية الهذلي عن البرق[٣]:

سادٍ تجرَّم في البضيعِ ثمانياً ... يلوي بِعَيقاتِ البحارِ وَيُجْنَبُ[٤]

و سادٍ: "أسأد ليلته"، أي لم ينمها[٥]، والبيت جاء ضمن أبيات تصف برقاً عظيماً نتج عنه مطر عظيم وسيل مدمر اقتلع كبار الأشجار، يقول:

أفعنكِ لا برقٌ كأن وميضهُ ... غابٌ تشَيَّمَهُ ضِرامٌ مُثقَبُ

سادٍ تجرَّم في البضيعِ ثمانياً ... يلوي بِعَيقاتِ البحارِ وَيُجْنَبُ

لما رأى عَمْقاً ورجَّع عَرْضُهُ ... رعداً كما هدر الفنيقُ الـمُصْعَبُ

لما رأى نعمان حل بِكِرْفِئٍ ... عَكَرٍ كما لبج النُّزولَ الأركبُ

فالسدر مُختَلَجٌ وأنزِل طافياً ... ما بين عينَ إلى نباةَ الأثأبُ

والأثل من سعيا وحَلْيةَ مُنْزَلٌ ... والدومُ جاء به الشجونُ فَعُلْيَبُ

والبرق له شأن عند الشعراء، ويعظم شأنه إذا كان صادراً عن المحبوبة، وقد وصف الشاعر في البيت الأول البرق بأنه برق عظيم يشبه الغاب المحترق، وفي البيت الذي يليه استأنف كلاماً جديداً، وذلك أن البرق العظيم لم يكن في لحظة واحدة، وإنما ظل يبرق الليل كله، فقال عنه " سادٍ "، وبنى الكلام على

---

(١) لسان العرب، (نعم)،ج١٤، ص٣٠٥

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٩٩، قال الشارح في شرح أبيات لأبي ذؤيب: " مرته النعامى: استدرته ومسحته ".

(٣) المصدر السابق، ج٣، ص١١٠٣

(٤) السابق، تجرَّم: استوفى ثمانياً، البضيع: جزائر البحر، يلوي بها: كأنه يذهب بها إلى البحر تشرب ماءه كله، عيقة: ساحة: فناء من الأرض، يُجنَب: تصيبه الجنوب.

(٥) السابق، نفس الصفحة، وجاء في لسان العرب، (سأد)، ج٧، ص٩٥، " السأْد: المشي؛ قال رؤبة:

من نضْوِ أَورامٍ تَمَشَّتْ سأْدا

والإِسْآد: سير الليل كله لا تعريس فيه، والتأْويب: سير النهار لا تعريج فيه، وقيل؛ الإِسْآد أَن تسير الإِبل بالليل مع النهار؛ وقول ساعدة بن جؤية الهذلي يصف سحاباً:

سادٍ تَجَرَّمَ في البَضِيعِ ثمانياً ... يَلْوي بِعَيْقاتِ البحارِ ويَجْنَبُ

قيل: هو من الإِسْآد الذي هو سير الليل كله؛ قال ابن سيده: وهذا لا يجوز إلا أَن يكون على قلب موضع العين إلى موضع اللام كأَنه سائد أَي ذو إِسآد، كما قالوا تامر ولابن أَي ذو تمر وذو لبن، ثم قلب فقال سادئ فبالغ، ثم أَبدل الهمزة إِبدالاً صحيحاً فقال سادي، ثم أَعل كما أُعل قاض ورام ".

حذف المسند إليه، والتقدير: هو سادٍ، وهذا المعنى له أهمية كبيرة، لأن استمرار لمعان البرق ليلة كاملة انعكس على صورة المطر، فجاء المطر غزيرا يقتلع سيله كبار الأشجار ويحملها معه مسافات طويلة، وشخَّص البرق فجعله إنساناً لم ينم الليل كله.

ويقول المُتَنَخِّل الهذلي(١):

هـــل هاجــك الليـــلَ كَلِيـــلٌ علـــى ... أسمـــاءَ مـــن ذي صُـــبُرٍ مُخْيِـــلِ(٢)
أنشـــأَ في العَيْقَـــةِ يرمـــي لـــه ... جُـــــوفُ ربابٍ وَرِهٍ مُثْقَـــــلِ(٣)
فـــــالتطَّ بالبُرقـــــةِ شُـــــؤبوبُهُ ... والرعـــد حـــتى بُرْقَـــةِ الأجـــوَلِ(٤)
أسْـــدَفُ منشـــقٌّ عـــراهُ فـــذو الأ ... دْمـــاثِ مـــا كـــان كـــذِي الموئِـــلِ(٥)
حـــارَ وعَقَّـــتْ مُزْنَـــهُ الـــريحُ وانـــ ... قـــارَ بـــهِ العَـــرْضُ ولم يُشـــمَلِ(٦)
مُسْـــــتَبْدِراً يَزْعَـــــبُ قُدَّامَـــــهُ ... يرمـــي بِعُـــمِّ السَّـــمُرِ الأطـــولِ(٧)
ظـــــاهَرَ نجـــــداً فَتَرامـــــى بـــــهِ ... مِنْـــهُ تَـــوَالِي ليلـــةٍ مُطْفِـــلِ(٨)
للقُمْـــرِ مـــن كـــلِّ فـــلاً نالـــهُ ... غَمْغَمَـــةٌ يَقْـــزَعْنَ كالحَنْظَـــلِ(٩)

وموضع الشاهد : أسدف منشق عراه، والمراد: هو أسدف، والأسدف، الأسود، ولكنه حذف المسند إليه لقوة الدلالة عليه، وهو كما ترى حذف وقع في استئناف جزء جديد من أجزاء المعنى، فالشاعر في بداية الأبيات قد هاجه برقٌ من جهة أسماء، وهذا البرق بعيد مثل بُعْدِ أسماء عنه، لذلك وصفه بالضعف لأنه يجيء من مكان بعيد، ثم أنشأ سحابه وسار حتى ستر موضع بُرْقَة وبُرْقَة الأَجْوَل، وفي موضع الشاهد استأنف معنى جديداً وهو لون السحاب، فذكر أنه أسود، وهذا اللون له دلالة عند العرب، قال ابن قتيبة: " وإذا كان السحاب أسود، فذلك من علامات الغيث "(١٠)، وهذا السحاب قد انبعج بالماء، وكأن

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ١٢٥٤

(٢) المصدر السابق، كَلِيلٌ: برق ضعيف، لأنه يجيء من مكان بعيد، الصبير: الغيم الأبيض، مخْيِل: أي سحاب ذو مخيلة للمطر.

(٣) السابق، العَيْقَةِ: ساحة من ساحات البر والبحر، الورِه: المتساقط.

(٤) السابق، التطَّ: سُتِر، شُؤبوبُهُ: مطره، بُرْقَةُ الأجوَلِ: موضع.

(٥) السابق، أسدف: أسود، منشقٌّ عراهُ: كأن نواحيه قد انشقت من كثرة مائه وانبعجت بالماء، الدَّمْث: المكان السهل، الموئل: الملجأ من المطر.

(٦) السابق، حارَ: تحير وتردد، عَقَّتْ: شقت الريح سحابه، انقار: يقول انقطعت منه قطعة من عرضه، لم يشمل: لم تصبه ريح الشمال.

(٧) السابق، يَزْعَبُ: يمضي بتدافع.

(٨) السابق، ظاهَرَ نجداً: عالَى نجداً.

(٩) السابق، القُمْر: الحمير، غمغمة: صوت، يقزعن: يمررن في السيل مراً سريعاً.

(١٠) كتاب الأنواء في مواسم العرب، ابن قتيبة، ص١٧٠

نواحيه قد انشقت من كثرة مائه، والسيل قد علا كل شيء، ولم يسلم منه موضع،

فمن كان بدَمْثٍ من الأرض، ومن كان بنجوة، فهما سواء، لا يحرزهما من هذا الطر شيء[١]، وقد علق ابن قتيبة على هذا البيت قائلاً: " فقد استوى في سيله من كان عالياً ومن كان منحطّاً "[٢]، وذو الأدماث وذو الموئل مكانان متباينان، وهذا الطباق الذي جمع شيئين متباينين يتآزر مع الحذف في أول البيت، فالمعنى الذي استأنف به الشاعر هو اللون الأسود الذي يدل على غُزْرِ ماء السحاب، وكانت نتيجة ذلك أن ماء ذلك السحاب قد غطى مكانين متباينين، وهذا لا يحصل إلا من سيل عظيم لا مهرب عنه.

وقد ذكر الشاعر في البيت الذي يلي هذا البيت، أن السيل يرمي بشجر السمر الطوال، وهو من أثبت الأشجار التي تنبت بالأدماث:

مُسْتَبْدِراً يَزْعَبُ قُدَّامَهُ   يرمي بِعُمِّ السَّمُرِ الأطولِ

ثم ذكر الحُمُر، وهي مما يكون في الموئل، لتتقي به السيل، ولكن السيل قد بلغها، فحملها معه كما يحمل الحنظلة اليابسة:

للقُمْرِ من كلِّ فلاً نالهُ   غَمْغَمَةٌ يَقْزَعْنَ كالحَنْظَلِ

وهذا من اللف والنشر الذي تعريفه: "هو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين، ثقة بأن السامع يرده إليه"[٣]، فالشاعر قد ذكر أن السيل يمضي متدافعاً، وأنه قد غطى ذا الأدماث وذا الموئل، فذكر متعدداً وهو ذو الأدماث وذو الموئل على جهة التفصيل وهذا من اللف، ثم ذكر بعد ذلك النشر، وهو (يرمي بِعُمِّ السَّمُرِ الأطولِ)، وشجر السمر من شجر الأدماث، وهو من أثْبَتِها، ثم ذكر أن السيل بلغ الحُمُر فحملها معه، مع أنها تكون في الفلوات البعيدة عن مجرى السيول، وموقعها بمثابة المنجاة عن السيل، في موئل وحرز منه، وقد جاء النشر –كما ترى – من غير تعيين، ثقة بأن السامع يدرك ما لكلٍ ويرده إليه، وجاء النشر على ترتيب اللف.

وبلاغة اللف والنشر في أن ذكر اللف يهيئ النفوس ويعدها لتلقي ما يُذكر بعد النشر العائد إلى اللف، فإذا ما ذكر النشر بعدئذٍ وقع في النفوس موقعه، وتمت الفائدة أحسن تمام، وتحقق الغرض أبلغ تحقيق، لأن النشر جاء والنفوس إليه متطلعة ومترقبة[٤]، ويلاحظ أن الشاعر استخدم الأفعال الماضية في تصوير البرق والسحاب، ولما صور لنا السيل؛ استخدم أفعال المضارعة، ليصور لنا ما فعله ذلك السحاب الأسدف (الذي استأنف به)، وكأنه مشهد نراه أمام أعيننا "يزعب قدامه"، "يرمي بعم السمر الأطول"،

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١٢٥٦

(٢) كتاب الأنواء في مواسم العرب، ابن قتيبة، ص١٧٥

(٣) الإيضاح، الخطيب القزويني، ص٣٦٦

(٤) يُنظر "علم البديع"، بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار – القاهرة، ط٢، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م، ص١٧٧

" يقزعن كالحنظل ".

ويقول أمية بن أبي عائذ الهذلي:

ليلـــى ومـــا ليلـــى ولم أرَ مثلهـــا بـــين الســـما والأرض ذاتَ عِقَـــاصِ

بيضـــاء صـــافيةُ المـــدامع هُولَـــةٌ للنـــــاظرين كَـــــدُرَّةِ الغـــــواصِ[1]

كالشـــمسِ جِلبـــابُ الغمـــائمِ دونَهـــا فَتُـــرَى حواجبُهـــا خِـــلالَ خَصـــاصِ

وموضع الشاهد: بيضاء، وأراد: هي بيضاء، فحذف المسند إليه، وكأنه يريد تسريع الكلام ليتوجه إلى غرضه، وهو تشبيه ليلى بالشمس التي دونها الغمام كالجلباب، ويبدو جزء منها خلال الخصاص.

وعبد القاهر في هذا الحذف يرشدنا إلى تذوق سر الحذف، وذلك بأن ترد المحذوف (المسند إليه)، وعندها ستدرك أن الحذف هو قلادة الجيد، وقاعدة التجويد، ثم إنك ترى أن نِصْبَة الكلام وهيئته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ، وتباعده عن وهمك[2]. فعبد القاهر يقرر أنه لا مفر لك إذا أردت إدراك هذا السر أن تتحاشى هذا المحذوف، ليس في الذكر فحسب، بل في الحظور النفسي، لأن هيئة العبارة وجمال الأسلوب يروم منك ذلك، وعمليه التذوق لا تتم إلا به[3].

أما الذِّكْر، فبما أن للحذف أغراضه التي لا يغني عنها الذكر، فإن للذكر أغراضه التي لا يغني عنها الحذف، وأن البلاغة مراعاة المقامات والأحوال، وعند التحقيق نجد أن الذكر لا ينافي الإيجاز، لأن وراء ذكر المسند إليه في هذه الحالة دافعاً نفسياً ومغزى يحرص المتكلم عليه، فالذكر يحقق قيمة معنوية في الأسلوب وفوات هذه القيمة عيب في الكلام وإخلال بالمطابقة، والمهم في موضوع ذكر المسند إليه، هو الرغبة في التقرير والإيضاح، فإن هناك بعض المعاني تكون أشد علقة بالنفس فيحرص المتكلم على إبرازها وإشاعتها في جو كلامه[4].

ومن الذكر قول أبي ذؤيب:

مرتـــــه النُّعـــــامى فلـــــم يعـــــترِف خِـلافَ النعـامى مـن الشـأم رِيحـا[5]

مرته: استدرَّته ومسحته، والنعامى: الجَنوب، لم يعترف خلاف النعامى: لم يعرف ريحاً غير الجنوب، أي لم يرَ شمالاً تكشفه[6].

فذكر ريح الجنوب (النعامى) في الشطر الأول، ثم كرر ذكرها في الشطر الثاني، وكان يمكنه

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٤٨٩، هُولة: أي تَهول الناظرين من حُسْنِها.

(٢) ينظر "دلائل الإعجاز"، عبد القاهر الجرجاني، ص١٥١

(٣) يُنظر "خصائص التراكيب"، مُحَمَّد أبو موسى، ص١٧٤

(٤) يُنظر المصدر السابق، ص١٨٠ – ١٨١

(٥) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٩٩

(٦) المصدر السابق، نفس الصفحة.

الاستغناء عنها بالضمير، ولكنه يؤثر النص عليها ليؤكد أن ذلك السحاب سحاب ممطر، ولم تهب عليه ريح عقيم. وأصل الصورة أنها دعاء بالسقيا لدار أم سفيان، بدأت بالبرق الذي أضاء سحاباً كالإبل الدهم المخاض، ثم أمطر المطر ثلاث ليالٍ متتالية، ثم جاءت الريح فقطَّعت السحاب وطردته، ثم بعد ذلك تجمَّع صِغاره، وعندها هبت عليه ريح النعامى فلقحته لتمطر السماء مرة أخرى مطراً غزيرا ابتلت منه الطير. والشاعر صرح بالنعامى مرتين لاهتمامه بها، ليؤكد على أن السحاب ممطر لا محالة بسبب تلقيح النعامى له، وليبعد أي احتمال لهبوب ريح الشمال التي تقشع الغيم، فهو حريص على تحقق هطول المطر، لأن هذا المطر سقيا لدار أم سفيان. واختار اسم النَّعَامى ولم يختر الجنوب؛ لمناسبة هذا الاسم لغرض الغزل الذي أراده، فالنعامى من أسماء ريح الجنوب وسميت بذلك لأنها من أبل الرياح وأرطبها[١]، وهذا الاسم مناسب مناسب جداً لغرضه الذي أراده.

"ومن باب الذكر أن يذكر الشاعر اسم صاحبته ثم يكرره، وكان يمكنه الاستغناء بضمير، ولكنه يؤثر النص عليه لأن في ذلك ما يثير أشواقه، ويلذ قلبه"[٢]. وأبو ذؤيب في إحدى صور المطر كرر كنية صاحبته صاحبته أكثر من مرة، فقال في أول الصورة:

سَــقَى أُمَّ عَمْــروٍ كــل آخِــرِ ليلــةٍ حَنَــاتِمُ سُــودٌ مــاؤهُنَّ ثَجِــيجُ[٣]

وفي آخر الصورة قال:

فــذلك سُــقْيا أُمِّ عمــروٍ وإنــني بمــا بَــذَلتْ مــنْ سَــيْبها لَبَهــيجُ

فذكر الكنية مرة أخرى، مع أنه يمكن أن يستغني عنها بالضمير، ولكن الشاعر يحرص على ذكر (أم عمرو) لأنه يحبه ويحب أن ينطق به، ويتلذذ بجريانه على لسانه، ويجد في ذكره ما يروي قلبه بعد أن رحلت عنه.

ولشدة اهتمامه بها وعنايته قدم المفعول به (أم عمرو) على الفاعل في البيت الأول، كعادة العرب عندما يقدمون من هم بشأنه أعنى[٤]، وجعلها بعد فعل السقيا مباشرة، لكي لا يفصل بينها وبين السُّقْيَا بشيء.

وفي أبيات حزينة يرثي فيها أبو صخر الهذلي ابنه داود، يقول[٥]:

---

(١) لسان العرب، (نعم)، ج١٤، ص٣٠٥

(٢) خصائص التراكيب، محمد أبو موسى، ص١٨٢

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٢٨، كل آخر ليلة: مثل قوله: "لا أكلمك آخر الليالي"، ومعناه: لا أكلمك ما بقي من الزمان ليلةٌ، ليلةٌ، أبدا. الحناتم: الجِرَار الخضر. ثجيج: صبوب.

(٤) ينظر "دلائل الإعجاز" ، عبد القاهر الجرجاني، (القول في التقديم والتأخير)، ص١٠٧، وذكر عبارة سيبويه في التقديم، وبيَّن أنه لا يكفي أن يقال أن التقديم للعناية دون توضيح.

(٥) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ٩١٥

وقـد هـاجني طيـف لـداوود بعـد مـا دنـت فاسـتقلت عاليـات الكواكـبِ

ثم يستسقي لقبر ابنه:

فَأَسْـــقَى صـــدَى داوود دانٍ غمامُـــهُ هَـــزِيمٌ يَسِـــحُّ المـــاءَ مـــن كـــل جانـــبِ

إلى أن قال:

ليَـــرْوَى صـــدى داوودَ واللحـــد دونـــه ولـيس صـدًى تحـت العِـداء بشـارب[١]

ثم قال:

وَتَهْــــدِي رَوَايا سَـــيْبِهِ وَسِـــجَالهِ لـــداوود والـــرحمنُ جَـــمُّ المواهِـــبِ

وأبو صخر في الأبيات الحزينة السابقة يذكر اسم ابنه داود أكثر من مرة، وكان بإمكانه أن يذكره في أول الأمر ويستغني عن التصريح بذكر الضمير، إلا أن تعلق نفسه بابنه وحزنه على فراقه، جعل ترديد اسمه شيئاً محبباً إليه، وأنه لن ينسى هذا الاسم، بل سيظل متشبثاً به.

وهذا الحزن جعله يتشبث – أيضاً – بذكر صدى ابنه (قبره)، فذكره في البيت الثاني، وذكره في البيت الثالث مرتين.

وعاطفة الرثاء تتخذ التكرار وسيلة من وسائل الهدهدة النفسية، وإفراغ التوتر الشديد، لأنه يهيئ الشعر للشدو الحزين والدندنة الشاجية، فتكرر كلمة القبر لتشيع بتكرارها جو الأسى والحنين البائس، ويجد الشاعر في تكرارها راحة تخلد إليها نفسه، لأنه دار مقام المفقود[٢].

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ٩٢٢، العِداء: الصخر الذي يوضع على القبر.

(٢) ينظر "خصائص التراكيب"، محمد أبو موسى، ص١٨٤

التعريف والتنكير:

يرد المسند إليه معرفة ويرد نكرة، وكذلك المسند، ولكل مقام يقتضيه وداعٍ يستدعيه.

وتعريف المسند إليه يكون بنفس اللفظ دون الحاجة إلى قرينة، وذلك في التعريف بالعلمية، وقد يكون بقرينة المتكلم أو الخطاب أو الغيبة، وذلك في التعريف بالضمائر، وقد يكون بقرينة حسية كتعريفه باسم الإشارة أو بنسبة معهودة كتعريفه بالاسم الموصول، أو بحرف وهو المعرف بأل، أو بإضافة معنوية وذلك عند التعريف بالإضافة(١).

ومن التعريف في صور المطر عند الهذليين، التعريف باسم الإشارة، قال الخطيب في أغراض التعريف بالإشارة: " وإما للتنبيه إذا ذكر قبل المسند إليه مذكور وعقب بأوصاف على أن ما يرد بعد اسم الإشارة فالمذكور جدير باكتسابه من أجل تلك الأوصاف "(٢)، وقال الدكتور مُحَّد أبو موسى: " ومن أشهر الأغراض التي يذكرها البلاغيون لتعريف المسند إليه باسم الإشارة هو أن تذكر أوصافاً عديدة للشيء ثم تذكره باسم الإشارة جاعلاً ما يترتب على تلك الأوصاف مسنداً إلى هذا الاسم، واسم الإشارة هذا يفيد أن ما يرد بعده فالمشار إليه جديرٌ به "(٣)، ومن ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي(٤):

سَــقَى أُمَّ عَمْــروٍ كــل آخِــرِ ليلــةٍ حَنــاتِمُ سُــودٌ مــاؤهُنَّ ثَجِــيجُ

وبعد أن أنهى صورة المطر، قال:

فــذلك سُــقْيا أُمِّ عمــروٍ وإنــني بمــا بَــذَلتْ مــنْ سَــيْبها لَبَهــيجُ

فتحدث الشاعر عن المطر في عشرة أبيات، فوصف السحاب، ووصف النشء الجديد منه، والبرق، والرياح، والمطر، وارتواء الأرض، والسيل، ثم قال: فذلك سُقْيا أُمِّ عمروٍ، أي أن هذا المطر الذي عمَّ خيره، وكَثُرت بركته جدير بأن يكون سقيا لأم عمرو، وأشار إلى المطر بالبعيد لسموه وعلو شأنه في الرحمة وعموم الخير، لأنه قدمه هدية لأم عمرو.

وفي أبيات لأمية بن أبي عائذ يذكر أطلال سليمى التي عفت، ويذكر أن الذي عفاها هو الرياح القوية التي ترمي السراديح بالحصى والأمطار القوية المدمرة، فيقول(٥):

وكــل حــبي ذي رديــف لعرضــه ســنامٌ وهــادٍ متلئــبٌ وكلكــلُ(٦)

(١) يُنظر "علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني"، بسيوني عبد الفتاح فيود، مكتبة وهبة – القاهرة، (د.ت)، ج١، ج١، ص١١٠

(٢) الإيضاح، الخطيب القزويني، ص٤٦

(٣) خصائص التراكيب، مُحَّد أبو موسى، ص٢٠٦

(٤) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص ١٢٨، تم ذكر الأبيات كاملة مع تناولها، مبحث " صورة المطر والمرأة"، ص

(٥) المصدر السابق، ج٢، ص ٥٣٥

(٦) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج٢، ص ٥٣٣، المصدر السابق، مُتْلَئِبٌ: مستقيم. وجاء في معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، (حبو

وبعد أن أنهى صورة المطر قال:

فـــذاك عفاهـــا والفَنَـــاء مـــع البِلـــى تعاقَـــــب أحـــــوالٌ بهــــا تتحـــــول

فوصف ذلك المطر المدمر في اثني عشر بيتاً، فوصف تغطية سحابه لكل الجهات، وشدة رعده الذي يشبه تهدم الجبل العظيم، وشدة هطوله وسحله للطلل، وسيله العظيم الأكدر الطماح، ثم قال: (فذاك عفاها ...)، أي أن المطر الذي هذه صفته جدير بأن يعفوَ الطلل ويغير معالمه.

ومن تعريف المسند إليه باللام، قول قيس بن العَيْزارة[١]:

ســـقى الله ذات الغمـــر وبـــلاً وديمـــةً وجـــادت عليـــه البارِقـــات اللوامـــعُ

والبارقات: سحائب فيها برق، وهذه اللام للإشارة إلى معهود، فليست كل سحابة فيها برق تكون ممطرة، وهم يعرفون السحاب الماطر، وأي البروق خُلَّب وأيها ذات صيب[٢]، فمثلاً؛ إذا كانت السحابة تبرق كأنها حِوَلاء ناقة، وهو ما يخرج مع الولد[٣]، فذلك من علامات المطر، وقال المعقّر البارقي بعد ما كُفَّ، لابنته، وقد سمع صوت رعد: " أي شيء ترين؟ ". قالت: " أرى سحماء عقّاقة، كأنها حِوَلاء ناقة، ذات هيدب دانٍ، وسير وانٍ. فقال: " يا بنية، ميلي وائِلي بي إلى جنب قَفْلة "؛ فإنها لا تنبت إلا بمنجاة من السيل[٤]. وإذا لمعت السحابة سبعين بَرْقَة، انتقلوا ولم يبعثوا رائداً، لثقتهم بالمطر، وإذا كان البرق عندهم وليفاً وثقوا بالمطر، والوليف الذي يلمع لمعتين لمعتين[٥]، والشاعر يعني السحب ذات البرق الممطر، وهي معهودة عندهم، وعرفوها من خلال تجاربهم، وجعل اللام سبيلاً إلى تعريفها وتمييزها عن غيرها من السحب ذات البروق الخُلَّب.

أما التنكير، فيأتي للإفراد أو النوعية أو للتعظيم والتهويل أو التحقير أو للتكثير أو التقليل[٦]، وهو يحمل إيحاءات غنية بمعاني الإطلاق وعدم التحديد، مما يسمح للمتلقي بالانطلاق إلى آفاق واسعة تخلق لديه إحساساً عميقاً بالكلية[٧] ، وتجد المجال رحباً أمام تصور معنى النكرة لأنها مجردة من التحديد[٨].

حبو)، ج٢، ص ١٣٢، قال عن الحَبِيّ: "وكل دانٍ حابٍ. وبه سُمِّي حَبِيُّ السَّحاب، لدنُوِّه من الأفق".

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٥٩٢

(٢) يُنظر "الفراسة عند العرب وكتاب الفراسة لفخر الدين الرازي"، ص ١٠٦

(٣) المراد: والحِوَلاء (بكسر الحاء وضمها): ما يخرج من رحم الناقة مع الولد، ورد ذلك في: مجالس ثعلب، أبو العباس يحيى بن أحمد ثعلب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٠م، ج١، ص٢٨٧

(٤) يُنظر "كتاب الأنواء في مواسم العرب"، ابن قتيبة، ص١٧٢ – ١٧٣

(٥) يُنظر المصدر السابق، ص١٧٧

(٦) يُنظر الإيضاح، الخطيب القزويني، ص٥٠ – ٥٢

(٧) يُنظر "الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي"، د. ابتسام أحمد حمدان، دار القلم العربي – حلب، ط١، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م، ص٢٣١

(٨) يُنظر "دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث"، د. أحمد درويش، دار غريب – القاهرة، ١٩٩٨م، ص١٥٦

وقد شاعت ظاهرة التنكير في صور المطر عند الهذليين، لأن التنكير يعبر عن الغاية التي ينشدها الشاعر من تصوير ظواهر المطر العظيمة التي يقف أمامها الشاعر مشدوهاً، فيكون التنكير وسيلة لأن تتصور عِظَم ذلك المطر والبرق أو السيل من خلال هذا الأسلوب البلاغي، ومن ذلك قول خالد بن زهير لأبي ذؤيب بعد أن هجاه الأخير:

فأقصِرْ ولم تأخذْكَ مني سحابةٌ يُنَفِّرُ شَاءَ المُقْلِعِينَ خَرِيرُها[١]

أقصر، يعني: كُفَّ، ولم تأخذك مني سحابة: منطق وهجاء كأنه مطر ينفر شاء الناس، المقلعين: الذين أقلعت سماؤهم فليس لها مطر، أي كف ولم يقع بك مني هجاء وقول قبيح. ضربه مثلاً في شدة وقع المطر[٢]، فنكر " سحابة "، وأراد سحابة عظيمة كثيرة الماء، وواضح من السياق أن مطرها شديد مُضِرٌّ.

ويقول أبو كبير الهذلي واصفاً كَرَّةَ قومه على الأعداء[٣]:

ولقد شهدت الحيَّ بعد رُقادهم تُفلى جماجمهم بكل مُقَلَّلِ

حتى رأيتهمُ كأن سحابةً صابت عليهم وَدْقُهَا لم يُشْمَلِ

فما فعلوه بالأعداء مثل فِعل السحابة المدمرة ، ونكر " سحابة " وأراد سحابة عظيمة ذات برق ورعد وسيل مدمر لا يبقي شيئاً أمامه، وهذه السحابة لم تهب عليها ريح الشمال فتفرقها، بل ظلت تمطر حتى أفرغت كل مائها.

ويقول أمية بن أبي عائذ[٤]:

وأعقبَ تَلْماعاً بزأرٍ كأنهُ تهدُّمُ طَوْدٍ صخره يتكلل

والصورة لمطر عظيم دمر الأطلال، وأفاد التنكير في قوله (تَلْماعاً)، التكثير والتعظيم ، أي برق كثير اللمعان وعظيم، ونكر (زَأْر) وأفاد التعظيم، أي رعد قوي عظيم الصوت كأنه زَأْر أسد عظيم، وصورة السحاب والبرق كأنها تهدم طَوْد، أي جبل، ونكر كذلك طَوْد، وأفاد التنكير – أيضاً – التعظيم، والطَّوْدُ الجبل العظيم[٥]، فكأن صوت الرعد مع البرق تهدم جبل عظيم، وهذا سأبينه – إن شاء الله – في دراسة التشبيه المركب.

ويقول أيضاً في نفس الصورة:

تخيلَ في الأطلال يمحو رسومَها وآياتِها والتربُ يَسْحو ويسحَلُ

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ٢١٥، الخَرِير: صوت الماء.

(٢) يُنظر المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) السابق، ج٣، ص١٠٧٥

(٤) السابق، ج٢، ص٥٣٣

(٥) لسان العرب، (طود)، ج٩، ص١٥٦

لـــــه نفيـــــانٌ يَخْفِـــــش الأُكْـــــمَ وَقْعُـــــهُ   تـــــرى التُّـــــرْبَ منـــــه مـــــائلا يَتَثَلَّـــــلُ

"ونَفَيانُ السحابِ، ما نَفته السحابة من مائها فأَسالته"[١]، ونكر نفيان، وأراد التعظيم، أي للسحاب نفيان عظيم يقشر التربة ويسحلها سحلاً، ويغير معالمها.

ويصف أبو صخر مطرا فيقول:

لـــــه ذَمِـــــراتٍ في نُمَـــــيْسٍ تحفـــــهُ   وقُدَّامَـــــهُ تغشـــــى ثنـــــايا المناقِـــــبِ[٢]

يُمِيـــــلُ قَفَـــــاراً لم يـــــكُ السـيـــــلُ قَبْلَـــــهُ   أضـــــرَّ بهـــــا فيهـــــا جِبَـــــابُ الثعالـــــبِ[٣]

والذمرات، الأصوات، ونكر للتهويل، وأراد أصواتاً هائلة، وهذا المطر يُميل القِفار، أي الصخور، ونكر للتعظيم، أي يميل صخوراً عظيمة لم تُمِلْها السيول السابقة، ثم يقول:

ألحَّ رجيفـــــاً يُهْـــــرِبُ الـــــوحشَ حِسُّـــــهُ   كلَجَّـــــةِ حَـــــوْمِ المنهـــــل المتجـــــاوِبِ[٤]

فنكر (رجيفاً) للتعظيم، أي أن لصوته رجيف عظيم جعل الوحش تهرب خوفاً منه.

وللتنكير جانب آخر، وهو جانب صوتي، يتجلى في تنوين التنكير الذي يترك ترجيعاً صوتياً عالياً يصاحبه رنين ممتد يرفع وتيرة الإيقاع، ولاسيما حين يأتي في نهاية الشطر الأول من البيت، ليتردد صداه في وقفة ما بين الشطرين، مما يساعد المتلقي في تمثل اللحظة الوجدانية والتفاعل معها[٥]، كقول خالد بن زهير[٦]:

فأقصِـــــرْ ولم تأخـــــذْكَ مـــــني ســـــحابةٌ   يُنَقِّـــــرُ شَـــــاءَ المِقْلِعِـــــينَ خَريرُهـــــا

وقول أبي كبير[٧]:

حـــــتى رأيـــــتهمُ كـــــأن ســـــحابةً   صـــــابت علـــــيهم وَدْقُهَـــــا لم يُشْـــــمَلِ

فتأمل معي ما أحدثه التنوين من إيقاع في البيتين، خاصة وأنك تقف عند الكلمتين المنونتين لأنها في نهاية الشطر، فتتردد وتيرة الرنين، فتجعلك تتمثل المعنى الذي أراده الشاعر من التنكير، لأن امتداد الترنم يوحي بعِظَم تلك السحابتين.

وكذلك تجد أن التنكير يصدر نغماً مميزاً، خاصة إذا كان في البيت أكثر من نكرة، كقول أمية بن أبي

---

(١) لسان العرب، (نفي)، ج١٤، ص٣٣٠

(٢) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج٢، ٩٢٠، ذَمِرات: أصوات، نُمَيس: جبل، الثنايا: الطرق في الجبال.

(٣) المصدر السابق، القَفار: الصخور. ويروى "جحاش الثعالب"، أولادها.

(٤) السابق، ج٢، ص٩٢١، رجيف: في صوته،" رَجَفَ يَرْجُف"، المنهل: حيث وردت، تسمع لها أصواتاً، حوم: إبل كثيرة. وجاء في أساس أساس البلاغة، الزمخشري، ص٥٦٠: " ويقال ألحّ السّحابُ، إذا دامَ مطرُه "

(٥) يُنظر "الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي"، د. ابتسام أحمد حمدان، ص٢٣١

(٦) شرح أشعار الهذليين، ج١، ٢١٥.

(٧) المصدر السابق، ج٣، ص١٠٧٥

عائذ[1]:

وأعقـــبَ تَلْماعـــاً بـــزأرٍ كأنـــهُ   تهـــدُّمُ طَـــوْدٍ صـــخره يتكَلَّـــلُ

فَتَرى في البيت ثلاث نكرات، وقد جاء التنوين بالفتح ثم بالكسر مرتين، مما يعطي الصورة ترنيما جميلاً، وإيقاعاً جمالياً عالياً، وإيقاع التنوين لم يأتِ على وتيرة واحدة، بل جاء مختلفاً بحسب المعنى، ومتبايناً تباين الصورة، فما يخص ضوء البرق جاء بتنوين بالفتح، وما يخص صوت الرعد جاء بتنوين الكسر، وإيقاع التنوين المتباين المتمثل في بيت واحد يناسب اجتماع ضوء البرق وصوت الرعد في لحظة واحدة أثناء المطر.

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٥٣٣

التقديم والتأخير:

يتألف الكلام من كلمات أو أجزاء، وليس من الممكن النطق بأجزاء أي كلام دفعة واحدة. من أجل ذلك كان لا بد عند النطق بالكلام من تقديم بعضه وتأخير بعضه الآخر. وعلى هذا فتقديم جزء من الكلام أو تأخيره لا يرد اعتباطاً في نظم الكلام وتأليفه، وإنما يكون عملاً مقصوداً يقتضيه غرض بلاغي، وما يدعو بلاغياً إلى تقديم جزء من الكلام هو ذاته ما يدعوه إلى تأخير الجزء الآخر(١). و"حين نذكر التقديم، فينبغي بداهة أن يغنينا ذلك عن ذكر التأخير، لأننا حين نقدم الخبر فإننا في نفس الوقت نؤخر المبتدأ، وحين نقدم المفعول فإننا نكون قد أخرنا الفاعل أو الفعل"(٢)، قال عنه سيبويه: " كأنّهم إنّما يقدّمون الذي بيانه أهمُّ لهم وهُمْ ببيانه أَعْنَى وإن كانا جميعاً يُهِمّانِهم ويَعْنِيانهم "(٣).

وقال عنه عبد القاهر: " هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية. لا يزال يَفْتَرُّ لك عن بديعةٍ، ويُفْضي بك إلى لطيفة. ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قُدِّم فيه شيء، وحُوِّلَ اللفظ عن مكان إلى مكان"(٤).

والتقديم الذي عُنِي به عبد القاهر هو التقديم الذي على نية التأخير، وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل(٥). وقد ذكر عبد القاهر أن السابقين لم يتوسعوا في بحث التقديم، وأنه لم يجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام، ثم أورد قول سيبويه السابق، وكلام عبد القاهر يؤذن بأنه كان بصدد أغراض أخرى تجري مجرى القواعد الكلية المستنبطة من تتبع كلام العرب، ثم بين أن النقاد رغم اقتصارهم على العناية والاهتمام لم يذكروا مصدر العناية ولا سبب الاهتمام، وتركوا الكلام مجملاً مبهماً(٦)، وعبد القاهر في ذلك بصدد معالجة إشكال نقدي، وهو أنه قد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال: بأن ذلك المقدَّم قُدِّم للعناية، ولأن ذكره أهم، من غير ذكر مصدر العناية، وكانت نتيجة ذلك أن صغر أمر التقديم في نفوسهم، وبعضهم يرى أن تتبعه

---

(١) ينظر "علم المعاني"، عبد العزيز عتيق، ص١٣٦

(٢) دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، د. أحمد درويش، ص١٦٩

(٣) كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح: عبد السلام مُحَّد هارون، دار الجيل – بيروت ط١، ١٤١١هـ. ١٩٩١م، ج١، ص٣٤

(٤) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص١٠٦

(٥) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٦) شرح دلائل الإعجاز، د. مُحَّد إبراهيم شادي، دار اليقين، ط١، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م، ص١٧٨

والنظر فيه ضرب من التكلف[١].

بعد أن جمعت شواهد التقديم في صور المطر عند الهذليين، وجدت أن أغلبها تقع في مطالع صور المطر، وقد تنوعت صور التقديم، وهي كالتالي:

١– تقديم المسند:

من مواضع تقديم المسند قول ساعدة بن جؤية في مطلع صورة المطر[٢]:

ومنـــك هـــدوَّ الليـــل بـــرقٌ فهـــاجني   يصـــدِّع رُمكـــاً مســـتطيراً عقيرعـــا

فقد قدم المسند (الجار والمجرور) على المسند إليه " برقٌ "، ليدل على الاختصاص، أي أن البرق مقصور على ناحية المرأة، واختصاص جهة المحبوبة بالبرق دون غيرها يحمل أسراراً، ويحتمل أن يكون مصدر ذلك البرق مقصور على المحبوبة، لأنه يرى أن البرق ناتج عنها[٣]، وأنها مصدر خير وخصب، وخصب، فأينما حلّت حلّ الخير معها.

ومن تقديم المسند قول المُتَنَخل يصف مشهدا لسيل عظيم نال كل سَهلٍ ومنجاة، وقد ذكر أنه حمل حميرَ الوحش معه، يقول[٤]:

للقُمْـــرِ مـــن كـــلِّ فـــلاً نالـــهُ   غَمْغَمَـــةٌ يَقْـــزَعْنَ كالحَنْظَـــلِ

فقد قدم المسند (الجار والمجرور) على المسند إليه " غَمْغَمَةٌ "، والقُمر الحمير، والغمغمة صوت الغريق[٥]، وهذا التقديم للعناية والاهتمام، ولا أرى أن هذا التقديم يحتمل التخصيص، لأن هذا المطر المطر لم يُغْرِق حمير الوحش فحسب، بل أغرق ما في الأماكن السهلة والمنجاة على حد سواء[٦]، ومنشأ الاهتمام بالقُمُر، أنها في الفَلَوات بعيدة عن مجرى السيل، ولكن السيل نالها وحملها مع ما حمل، وهذا سر الاهتمام. فليس التقديم للاختصاص، إذ لو قصد الاختصاص فمعنى ذلك أن السيل لم يغرق الحيوانات الأخرى التي في الأماكن السهلة.

٢– تقديم المتعلق على الفعل:

ومنه تقدم الجار والمجرور على الفعل، كقول صخر الغي في مطلع قصيدة له:

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص١٠٨

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٧٦

(٣) ينظر تناول البيت في مبحث " صورة المطر والمرأة ".

(٤) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١٢٥٧

(٥) ينظر لسان العرب، ج١١، ص٩٠، قال: تغمغم الغريق تحت الماء أي صوَّت، وأصل الغمغمة الكلام غير البيِّن، ومنه أصوات الثيران عند الذعر وأصوات الأبطال في الوغى عند القتال.

(٦) يُنظر تناوُل هذا البيت في هذا المبحث، ص١٥٠

لشـــــماء بعـــــد شـــــتات النـــــوى   وقـــد بِـــتُّ أَخْيَلْـــتُ برقـــاً وَلِيفـــا[١]

فقد قدم الجار والمجرور " لشماء " على الفعل " أخيلت "، للدلالة على الاختصاص، أي أن البرق الذي رآه لم يكن إلا لشماء، وهي جديرة به، لأنه برق خصب وخير، وإذا كان البرق عندهم وليفاً وثقوا بالمطر، والوليف الذي يلمع لمعتين لمعتين[٢].

ويرى ابن الأثير أن مِثلَ هذا التقديم يُستعمل على وجهين؛ أحدهما الاختصاص، والآخر مراعاة حُسْن النظم السجعي، ويرى أن الأخير أبلغ وأوكد من الاختصاص[٣].

ويعلق الدكتور مُحَّد أبو موسى على كلام ابن الأثير السابق، وكذلك على العلوي الذي يرى رأي ابن الأثير، قائلاً: " وكأنهم يرون أننا لو ذهبنا إلى القول بأن نكتة التقديم هنا هي الاختصاص لذهبت النكتة التي يحرصون عليها، وهي الحسن السجعي ... وكثير من البيانيين لا يوافقون على تفسير الخصائص البلاغية في القرآن تفسيراً يرجع إلى اللفظ الذي منه الحسن السجعي، لذلك يرفضون كلام الشيخين العلوي وابن الأثير"[٤]، والذي يراه الدكتور مُحَّد أبو موسى، أنه لا تزاحم في النكات والأسرار، وأن التقديم يفيد الفائدتين: فائدة معنوية وهي الاختصاص، وفائدة لفظية وهي الحفاظ على التنغيم والتوازن الصوتي[٥].

ومنه قول مُلَيْح في إحدى صور المطر:

تـــرى مُرَعـــاً يخـــرجن مـــن تحـــت ودقـــه   مـــن المـــاء جُـــوناً ريشـــها يتصـــبب[٦]

وهو يصف سحابا متدلٍ أروى المناطق المرتفعة وملأ الأودية، والمُرَع طير صغار لا يظهر إلا في المطر، ويقع في المطر من السماء[٧].

وقد قَدَّم (الجار والمجرور) على الفعل " يتصبب "، لبالغ العناية والاهتمام، وأرى أن التقديم لم يُفِدِ التخصيص والحصر، لأنه لو قيل: إن ريش الطير يتصبب من الماء دون غيره،لم يكن للمعنى مزية. والشاعر أراد أن يرينا عجيبة من العجائب التي تكون وقت المطر، لأن كلمة (تَرَى) " لا يؤتى بها في أول الكلام إلا إذا كان فيه عجيبة تُرَى "[٨]، والمعروف أن الطير تتأذى من ماء المطر، قال أبو

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص٢٩٤، أَخْيَلْتُ: رأيت المخيلة.

(٢) يُنظر كتاب الأنواء في مواسم العرب، ابن قتيبة، ص١٧٧

(٣) يُنظر "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، ضياء الدين ابن الأثير، ج٢، ص١٧٣

(٤) خصائص التراكيب، د. مُحَّد أبو موسى، ٣١٤

(٥) ينظر المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٦) شرح أشعار الهذليين، ج٣. ص١٠٥١، مُرَعٌ: طير، واحدتها مُرَعَة

(٧) يُنظر لسان العرب، (مرع)، ج١٤، ص٥٩

(٨) الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، د. مُحَّد أبو موسى، ص١٥٨

ذؤيب[1]:

فحـــــطَّ مـــــن الحُـــــزَنِ المغْفِـــــرا تِ والطـــير تلثَـــقُ حـــتى تصـــيحا

تلثق، أي تبتل[2]، قال الشارح: يؤذيها الندى حتى تصيح.

ولكن طيور المرَع التي ذكرها مُلَيح، هي من عجائب قدرة الله، فهي تخرج من تحت الودق، وريشها يتصبب ماء ولا يؤذيها ذلك، فقدم (الجار والمجرور) للعناية والاهتمام، لأن الماء الذي يتصبب من ريش الطائر ولا يتأذى منه شيء عجيب، ولذلك قدمه، وصورة الطير هذه فيها كناية عن كثرة المطر.

٣- تقديم المتعلقات بعضها على بعض:

أ- تقديم المفعول به على الفاعل:

عندما يبدأ الشاعر الهذلي صورة المطر بالدعاء بأن يسقي المطر الحبيب، فإنه يقدم المفعول به على الفاعل، كقول أبي ذؤيب الهذلي في مطلع صورة من صور المطر[3]:

سَــقَى أُمَّ عَمْــروٍ كــل آخِــرِ ليلــةٍ حَنَـــاتِمُ سُـــودٌ مـــاؤهُنَّ ثَجِـــيجُ

فقد قدم المفعول " أم عمرو " للعناية والاهتمام، لأن فلك المعنى يدور حولها، والسقيا من أجلها، وهو بشأنها أعنى، وصورة المطر كلها من أجلها، وقد كان أبو ذؤيب موفقاً في اختيار لفظة القافية، إذ جعلها تدل على ما أراد التعبير عنه من صوت وحركة، فكلمة ثجيج تصور كثرة سيلان الأمطار، وصوت اللفظة يتناسب مع الأصوات المنبعثة من تساقط الأمطار الغزيرة[4].

ويقول أبو صخر الهذلي في مطلع صورة من صور المطر[5]:

فَأَسْـــقَى صـــدَى داوود دانٍ غمامُـــهُ هَـــزِيمٌ يَسِـــحُّ المـــاءَ مـــن كـــل جانـــبِ

وهو يدعو لقبر ابنه بالسقيا، فقدم المفعول (صدى) لعنايته واهتمامه به، لأن ذلك الصدى يضم رفات ابنه المفقود.

وأما إذا بدأت صورة المطر بطلب السقيا، وكان الفاعل لفظ الجلالة (الله) أو (الرحمن)؛ فإن الشاعر لا يقدم عليه شيئاً، كقول قيس بن العَيْزارة[6]:

ســقى الله ذات الغمــر وبــلا وديمــة وجـــادت عليـــه البارقـــات اللوامـــع

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٩٩

(٢) لسان العرب، ج١٣، ص١٦٩

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص ١٢٨

(٤) ينظر " أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره "، نورة الشملان، ص١٠٨

(٥) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩١٩

(٦) المصدر السابق، ج٢، ص٥٩٢

وقول البريق الخناعي[1]:

سقى الرحمنُ حزم نُبائعاتٍ … من الجوزاء أنواءً غِزارا

وذلك لأن المقام مقام دعاء، وطلب خير من خيرات الله، فمن دواعي تعظيم الله وطلب الدعاء والإنابة ألا يُقدَّم على اسم الله شيء.

ب- تقديم الجار والمجرور على المفعول:

كقول البريق الخناعي في مطلع صورة من صور المطر:

سقى الرحمنُ حزم نُبائعاتٍ … من الجوزاء أنواءً غِزارا

والشاعر في هذه الصورة يدعو لحزم نبائعات الذي يضم قبر أخيه بالسقيا، فقدم الجار والمجرور "من الجوزاء " على المفعول به الثاني " أنواء "، والتقديم هنا لمزيد الاهتمام، لأن مطلع الجوزاء يكون في اشتداد الحر[2]، والقبر للسقيا في ذلك الوقت أحوج[3]، والمطر إذا نزل في وقت الجوزاء فأنه يكون غزيراً – بإذن الله – ، لأن الجوزاء غزيرة النوء[4]، ولا أرى أن التقديم هنا يفيد الحصر أو التخصيص، لأنه لو أراد التخصيص لكانت السقيا في وقت الجوزاء لا غير، وباقي السنة يظل القبر مجدباً، وهذا لم يرده الشاعر، وإنما أراد الاهتمام بذلك الوقت للسببين المذكورين.

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٧٤٢

(٢) يُنظر "كتاب الأنواء في معرفة مواسم العرب"، ابن قتيبة، ص ٤٣

(٣) تناولت هذا البيت في مبحث " صورة المطر والرثاء ".

(٤) كتاب الأنواء في معرفة مواسم العرب، ابن قتيبة، ص ٤١

الالتفات:

وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشمالهِ فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، ويسمى أيضاً (شجاعة العربية)، وإنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره ويتورد ما لا يتورّده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات[1].

وقد اشتهر في تحديد الالتفات مذهبان: مذهب الجمهور، ومذهب السكاكي، فعند الجمهور؛ هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها، والطرق الثلاثة هي : التكلم والخطاب والغَيْبة. وواضح من قولهم: بعد التعبير عنه بطريق آخر منها، أنه لا يكون في أول الكلام سواء وافق مقتضى الظاهر أو خالفه، فقول القائل، وهو يعني نفسه : " ويحك ما فعلتَ " ليس التفاتاً عند الجمهور، وهذا يعد التفاتاً عند السكاكي، وهذا هو ما خالف فيه الجمهور، ولهذا قالوا: كل التفات عند الجمهور التفات عند السكاكي، من غير عكس[2].

ولم أجد في صور المطر عند الهذليين من صور الالتفات إلا ما كان التفاتاً عند السكاكي وغير التفات عند الجمهور، ومن ذلك في قول أبي صخر الهذلي عندما مر على أطلال المحبوبة فوجدها مقفرة[3]:

لِمَـــنِ الـــدِّيارُ تَلُـــوحُ كالوَشْـــمِ بالجـــــابتين فروضـــــةِ الحَـــــزْمِ

إلى أن قال:

فبِرامـــــةَ العُليـــــا غَشِـــيتَ لهـــا رسمـــاً ســـقاكَ الغيـــثُ مـــن رســـمِ
بكـــــرَت عليـــــكَ لهـــــا مبشـــــرةٌ رَيّاً تُخضِّـــــــــــرُ بالي الهِـــــــــــدْمِ

ومقتضى الظاهر أن يقول: فبِرامةَ العُليا غَشِيتُ لها رسماً ... و بكرَت عليَّ لها مبشرةٌ، ولكنه عدك عن التكلم إلى الخطاب، وقد انتزع الشاعر من نفسه نفساً أخرى تخاطبه، وهذا شأن الشعراء في المعاني التي لها شأن، فهو الذي يسمع، هو المتكلم والمخاطب معاً، هو الذي يرسل أشجانه وآلامه[4].

وأطلال نُعم قفر، والشاعر ساءه ذلك، فنقل الحديث إلى الخطاب، وكأن هناك مخاطِباً لأبي صخر، وقد جعل من الطلل وأبي صخر شيئاً واحداً لشدة تعلقه بالطلل، فلم يقل: " بكرت عليه لها مبشرة "فيجعل المطر للطلل، وإنما قال: " بكرت عليك لها مبشرة " لأن الشاعر والطلل قد أصبحا شيئاً

---

(١) يُنظر "المثل السائر"، ابن الأثير، ج٢، ص١٣٥

(٢) ينظر "الإيضاح"، الخطيب القزويني، ص٧٤ – ٧٥، وخصائص التراكيب، مُحَّد أبو موسى، ص٢٥٠ – ٢٥١

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٧٢، وقد تناولت الأبيات في مبحث " صورة المطر والطلل ".

(٤) ينظر "قراءة في الأدب القديم"، د. مُحَّد أبو موسى، ص١١٤

واحداً، وجاء المخاطِب يحمل البشرى بسقيا الطلل. والتبكير يكون من ريح تحمل البشرى، وبكورها على الشاعر هو بكور على الطلل، لذلك قال: " مبشرة ريّاً تخضر بالي الهدم ".

وقوله " بكرت عليك " دعاء بصيغة الماضي، وكأن هبوب ريح المطر قد تحقق، واختار وقت البكور، لكي يستقبل الطلل يومه بالخير والبركة، فيكون فأل خير في أول اليوم.

مخالفة مقتضى الظاهر في صيغ الأفعال:

وقد " ألحق بعض الدارسين التعبير عن الماضي بالمضارع والتعبير عن المضارع بالماضي والأمر، وما شابه هذا التصرف بباب الالتفات "(١)، ومن أولئك ابن الأثير(٢)، والعلوي، حيث قال عن معنى الالتفات: " هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول، وهذا أحسن من قولنا: هو العدول من غيبة إلى خطاب، ومن خطاب إلى غيبة، لأن الأول يعم سائر الالتفاتات كلها، والحد الثاني إنما هو مقصور على الغيبة والخطاب لا غير، ولا شك أن الالتفات قد يكون من الماضي إلى المضارع، وقد يكون على عكس ذلك، فلهذا كان الحد الأول هو أقوى دون غيره "(٣).

والمشهور في حد الالتفات مذهبان، وهذا الذي يقوله ابن الأثير والعلوي خلاف المشهور، ولكننا نتجاوز الحوار في هذا الخلاف منصرفين إلى تحليل الصور والبحث عن أسرارها، معتقدين بأن عد هذه المخالفة في صيغ الأفعال من الالتفات أو قصر الالتفات على ما هو مشهور مسألة اصطلاحية لا يترتب عليها كبير أثر، وإنما الأثر كله في تفقد روابط الكلام وأحواله وما فيه من رقائق المعاني ولطائف الإشارات(٤).

ومن ذلك أبيات أمية بن أبي عائذ عندما مر بأطلال المحبوبة فوجدها قد عفت وتبدل حالها، فتكدرت نفسه وغشيها من الهم ما غشيها، وكانت الريح الشديدة سبباً في تغيير الطلل، وكان المطر هو العامل الأكبر في التدمير، وقد أسهب في وصف صورة المطر المدمرة، وكان يعبر بالأفعال الماضية في وصف السحاب والبرق والرعد، ولما وصل إلى وصف المطر الذي دمر الطلل، قال(٥):

تخيـــلَ في الأطـــلال يمحـــو رســـومَها ... وآياتِهـــا والـــتربُ يســـحو ويســـحَلُ

لـــه نفيـــانٌ يَخْفِـــش الأكـــم وقعـــهُ ... تـــرى الـــترب منـــه مـــائلا يتثلـــل

ومقتضى الظاهر أن يقول: محا المطر رسومها، وسَحا التربُ وسَحَل، ولكنه عدل عن التعبير عن

---

(١) خصائص التراكيب، مُحَمَّد أبو موسى، ص٢٦٢

(٢) ينظر المثل السائر، ابن الأثير، ج٢، ص١٤٤ – ١٤٥، " القسم الثاني: في الرجوع عن الفعل المستقبل إلى الأمر "، " القسم الثالث: في الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل، وعن المستقبل بالماضي ".

(٣) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، مطبعة المقتطف بمصر، ١٣٣٣هـ ، ج٢، ص١٣٢

(٤) ينظر "خصائص التراكيب"، مُحَمَّد أبو موسى، ص٢٦٢

(٥) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص ٥٣٤، تناولت الأبيات في مبحث "صورة المطر والطلل".

الماضي، لأن المعنى المعبر عنه الذي هو تغيير المطر للطلل وتهديمه معنى مهم، وقد أفادت هذه المخالفة أن الحديث قد بلغ مقطعاً مهماً من المعنى مما يستوجب على السامع أن يلتفت إليه.

" والفعل المضارع يدل على الحال، أي على وقوع الحدث الآن، وهذه دلالته الأصلية، ومن هنا كانت صيغته أقدر الصيغ على تصوير الأحداث، لأنها تحضر مشهد حدوثها وكأن العين تراها وهي تقع "(١)، والشاعر هنا يحرص على أن يرينا الحدث الذي كَدَّرَ نفْسَهُ وأوجع قلبه، وهو مشهد الأطلال وهي تتهدم وتتغير معالمها بسبب المطر، وعندما أراد أن يصور لنا تثلل التراب صَدَّرَ المشهد بـ " ترى "، وكأنه يضع بين عينيك ما يجب أن تنظر فيه ويصوره شاخصاً حياً، وهذا تأكيد لحضور الصورة الذي استدعاه الفعل المضارع(٢).

ومر مُلَيْح الهذلي بدار ليلى، فوجد أطلالها قد تغيرت وتبدلت، وكان سبب تغيرها رياحاً قوية تسحق كل شيء " الأُلَّه السواحق "، والسبب الآخر مطر متدفق قوي يرمي بصغار الحصى، يقول(٣):

ودفقـــةٍ مــــن مُـــرزِمِ الشـــقائقِ ترمـــي بجَـــوْلان حصًـــى دُقـــادِقِ

ثم قال عن السيل:

أكـــدرَ يَغْطـــي عَجُـــلَ التراهُـــقِ مُغْلَولِـــبِ الأعـــرافِ بالمضـــائقِ

فعندما صور قوة المطر وقوة السيل عبر بالفعل المضارع: " ترمي بجَوْلان حصًى دُقادِقِ "، و " أكدر يغطي ... "، وذلك لأن الفعل المضارع يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة ، حتى كأن السامع يشاهدها(٤)، وقوة المطر والسيل هما أبرز صورتين في المطر الذي دمر الطلل، ويود الشاعر أن يظهرهما لنا لنشاركه همه وحزنه على دمار الطلل.

ويريد أبو ذؤيب أن يصف ثغر المحبوبة، فيصور لنا خمراً من أجود الخمر عندهم مزجت بماء من أطيب المياه وأبردها، وهو ماء من مياه السراة العذبة، بعيد عما يشوبه، وبارد بسبب هبوب الرياح الباردة عليه(٥):

بِمَـــزجٍ مـــن العـــذب عـــذبِ الســـراةِ تُزَعْزِعُـــهُ الـــريحُ بعـــدَ المطـــرْ

فكرر العذوبة ليؤكد عليها، ولما وصل إلى مشهد تبريد الماء بسبب الريح الباردة التي تهب بعد المطر؛ عبر عن ذلك بالفعل المضارع " تزعزعه " ، ومقتضى الظاهر أن يقول: زعزعته، ولكنه عدل عن ذلك ليريك مشهد الريح الباردة أمام عينيك، وهي تحرك الماء وتبرّده، والتضعيف في الفعل يدل على تكرر

(١) خصائص التراكيب، مُحَمَّد أبو موسى، ص٢٦٤
(٢) يُنظر "قراءة في الأدب القديم"، مُحَمَّد أبو موسى، ص١١٩
(٣) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص ١٠٥٣
(٤) يُنظر "المثل السائر"، ابن الأثير، ج٢، ص١٤٥
(٥) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص ١١٥

الحدث مرة بعد مرة، قال ابن جني: " وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير "[1]، ثم قال: " بعد المطر "، وهذا له دلالتان؛ الأولى مرتبطة بعذوبة الماء، أي أنه حديث عهد بالنزول، والثانية، أن الريح باردة، لأن رياح السراة أبرد ما تكون بعد نزول المطر، مما يجل الماء أكثر برودة.

ويفخر المعَطَّلُ الهذلي بعدد قومه وعدتهم، ويذكر هجمتهم على الأعداء بنِبال كالمطر، فيقول[2]:

ودارٍ مـــــن الأعـــــداء ذات زوائـــــدٍ　　طَرَقْنَــا فلــم يَكْــبُر علينــا بَيَاتُهَــا[3]

تواصَـــوا بأن لا تُقْـــرَبَنَّ فأُشْـــعِلتْ　　علــيهم غَوَاشِــينا فَضَــلَّتْ وَصَــاتُهَا[4]

ضَــمَمْنا علــيهم جــانبيهم بصــائبٍ　　مــن النبــل يغشــى فَــرَّهُم غَبَيَاتُهَــا[5]

والواو التي بدأ بها هي واو رُبَّ، والمراد بها هنا التكثير، ويذكر إحدى غزواتهم على دار من الأعداء كثيرة العدد، وأهلها قد تواصوا على حمايتها، ولكن تلك الوصية لم تمنع قوم المعطل عنهم، فقد هجموا عليهم ليلاً، ولم يكبر ذلك الهجوم في نفوسهم، وقد عبر الشاعر عن أحداث تلك الغزوة بالأفعال الماضية (طَرَقْنا – لم يَكْبُر – أُشْعِلَتْ – فَضَلَّتْ – ضَمَمْنا)، ولما أن بلغ لحظة وقوع النبال عليهم عبر عن ذلك بالفعل المضارع " يغشى "، ومقتضى الظاهر أن يقول (غَشِيَ)، ولكنه عدل عن ذلك ليضعك أمام المشهد الذي حرص على أن يريك إياه ماثلاً أمامك، وهو أن النبال كثيرة قد غشيتهم مثل المطر ذي الدفقة الغزيرة الذي لا مفر منه، وهذا المشهد المهمّ هو مشهد هزيمة الأعداء، لذلك حرص الشاعر على إبرازه.

---

(١) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب – بيروت، ط٢، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م، " باب في إمساك الألفاظ أشباه المعاني "، ص٤٠٧

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٢،ص٦٣٥

(٣) المصدر السابق، ذات زوائد: حي له فضول كثيرة، طرقنا عليهم: أي ليلاً، فلم يَكْبُر علينا بَيَاتُهَا: لم يعظم في صدورنا

(٤) السابق، غواشينا: ما غشيهم منا من الرجال.

(٥) السابق، صائب: قاصد، فرُّهم: جمع فارِّهم، الغَبْيَة: الدفقة من المطر الغزيرة.

الإنشاء

النداء:

ورد النداء في صور المطر عند الهذليين عند مناداة البرق، كقول أبي قِلابة الهذلي:

يا بــــرق يَخْفِــــي للقَتُــــولِ كأنــــه ... غــــابٌ تشــــيمه حريــــق يُــــبَّسُ[1]

" يَخْفِي "، يظهر[2]، والقَتُول صاحبته، والمزية في هذا النداء هي أن الشاعر قد نادى غير العاقل، ووراء ذلك سر ومذاق، وأداة النداء كأنها صيحة أو صرخة أطلقها الشاعر تمثل قمة الإحساس، والمنزع النفسي لهذا النداء هو الإحساس بالاندماج في البرق والاقتراب منه وبث الروح الإنسانية فيه، ليكون قادراً على المشاركة والإحساس بما يحسه الشاعر من مشاعر، والشاعر قد أحيا البرق وخاطبه وخلق الإحساس الإنساني فيه ليسمع عواطفه وأنبل اختلاجاته[3].

وبعد النظر في سياق البيت، فإن أبا قِلابة قد مر بأطلال القَتُول فجاشت مشاعره، وانّكأَت جراحه، ولما رأى البرق من جهتها جعل البرق صادراً منها، وبما أنه يرى البرق جزءاً منها فإنه قد شخصه وناداه ليبث إليه شكوى الفراق وآلام الفقد.

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٧١٥، يَخْفِي: يظهر، تشيمه: دخله.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة، " اخْتَفَيْتُهُ من جُحرِهِ ": أخرجته.

(٣) يُنظر دلالات التراكيب، مُحَمَّد أبو موسى، ص ٢٦١ – ٢٦٥

الاستفهام:

من ألفاظ الاستفهام: الهمزة، و"هل "، و"ما"، .....

فالهمزة لطلب التصديق، كقولك: "أقام زيد؟"، و "أزيد قائم"، أو التصور، كقولك: "أدبس في الإناء أم عسل؟"، فهي وحدها يُسأل بها عن كل شيء في الجملة، والمسؤول عنه بها هو ما يليها، و"هل" وحدها هي التي يُسأل بها عن التصديق (النسبة)، كقولك: "هل قام زيد"، ولهذا امتنع: "هل زيد قام أم عمرو؟". أما بقية أدوات الاستفهام فكل واحدة منها يُسأل بها عن تصور شيء معين[١]، " ثم هذه الألفاظ كثيراً ما تستعمل في معانٍ غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام "[٢]، والذي يهم الدرس البلاغي هو خروج الاستفهام عن معناه الأصل وهو "طلب الفهم"، لأن معاني الاستفهام الأصلية مشتركة بين الناس، ولكن للاستفهام معانٍ تعبيرية أخرى هي محط أنظار البلاغيين، يقول الدكتور مُحَمَّد أبو موسى: "والأدخل في باب دراسة مزايا الأسلوب والكشف عن جوانبه ذات الظلال والإيماض هو بحث ألوان الحس، وما يخطر في القلب مما يثيره الاستفهام حين لا يراد به طلب الفهم "[٣].

وقد ورد الاستفهام في صور المطر عند الهذليين، وكان وروده في مستهل بعض صور المطر، واستخدموا لذلك (الهمزة) في ثلاثة مواضع، و(هل) في موضع واحد. يقول أبو ذؤيب الهذلي[٤]:

أمنـــكِ بـــرقٌ أبيـــتُ الليـــلَ أرقبـــهُ ... كأنـــه في عِـــراضِ الشـــأْمِ مصـــباحُ

جاء في الشرح؛ "أمنك برق" أي من نحو منزلك[٥]، والمسؤول عنه هو ما يلي الهمزة، والهمزة هنا دخلت على (مِن) الجارة.

وقد تطرق الدكتور سعيد بن طيب المطرفي لهذا البيت في بحثه "الإنشاء ومواقعه في شعر هذيل"، فقال بأن فحواه هو التعجب والتدله، لأن البرق الذي ظل الشاعر يرقبه ويتعب نفسه في تحديد جهته إنما جاء من جهة المحبوبة، فأثاره ذلك وجعله متعجباً متحيراً أن يكون من جهتها[٦]،

وللدكتور مُحَمَّد بربري رأي حول معنى هذا البيت وأمثاله، قد يغير معنى الاستفهام، وقد عرضته في مبحث صورة المطر والمرأة، يقول: "والشراح يقولون إن هذا يعني أن الشاعر يرى البرق من جهة

---

(١) يُنظر "الإيضاح"، الخطيب القزويني، ص١٣٦، ودلالات التراكيب، مُحَمَّد أبو موسى، ص٢٠٨

(٢) المصدر السابق، ص١٤١

(٣) دلالات التراكيب، مُحَمَّد أبو موسى، ص٢١٨ – ٢١٩

(٤) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٦٧

(٥) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٦) يُنظر "الإنشاء ومواقعه في شعر هذيل"، سعيد بن طيب بن سحيم المطرفي، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، العام الجامعي ١٤٢٤ – ١٤٢٥هـ، ص١٥٨

المحبوبة أو من أرضها، ولكننا لا نستطيع أن نهمل ما تتضمنه هذه الخصوصية الأسلوبية من إيحاء بأن البرق يتولد عن المرأة، أو أن المرأة تتضمن البرق على نحو من الأنحاء"[١].

وقد توقفت كثيراً عند معنى هذا البيت، لأن الاستفهام الواحد قد يكون له معانٍ كثيرة، ودليل ذلك قول عبد القاهر الجرجاني في دلالة همزة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ الأنبياء: ٦٢ :"واعلم أن "الهمزة" فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان، وإنكار له لِمَ كان، وتوبيخ لفاعله عليه"[٢]. واستوقفني كلام للدكتور مُحَمَّد أبو موسى عن الاستفهام، يقول فيه: بأن المعاني في كثير من صورها سوانح خفية أشبه بالأسرار الغامضة، تجري في النفس جرياناً خفياً تحسها ولا تستطيع وصفها، وأشار إلى أن بعض مواقع الاستفهام لا تفصح إفصاحاً واضحاً عن المراد به إلا بمراجعة سياق أطول[٣]، ولذلك سأعود إلى السياق الذي ورد فيه البيت ليتبين لي معنى الاستفهام، فالقصيدة مطلعها[٤]:

أصبحَ من أمِّ عمروٍ بطنُ مَرَّ فأكْـ ـنافُ الرَّجيعِ فذو سِدْرٍ فأملاحُ

وحشاً سِوَى أنَّ فُرَّاد السباعِ بها كأنها من تبغِّي الناس أطلاحُ

ثم صوَّر ركاب المحبوبة عند الرحيل، ومراقبته لها، إلى أن قال:

ثم انتهى بصري عنهم وقد بلغوا بطن المخِيمِ فقالوا الجَوَّ أو راحوا

فالمحبوبة قد رحلت وأصبحت منازلها مألفاً للسباع الضارية، وهذا الرحيل وتفرق الأحباب أمر حتمي فرضته طبيعة الحياة البدوية التي يحكمها التنقل طلباً لمواقع الغيث، وأبو ذؤيب ساءه ذلك الرحيل، فظل يرقب هودجها حتى غابت عنه.

وبعد أن رحلت رأى البرق من جهتها، وكأني به في حالته تلك وقد أصبح قلبه مَتْبولاً يجيش بالعاطفة نحوها، وعاطفة المحب تجعله يتخيل خيالات بعيدة، فيستمسك بكل شيء له علاقة بالمحبوبة، لذلك نرى الشعراء يخاطبون الأطلال فترد عليهم، وميزة الشعر في خروجه عن المألوف من كلام الناس ليعبر عن كوامن النفس، فيربط الشاعر بين المحبوبة وبين كل شيء يحمل بعضاً من صفاتها، وبما أن أبا ذؤيب رأى البرق من جهة المحبوبة، فكأني به يحسب أن ذلك البرقَ المضيءَ هي مصدره، ولذلك عرض المعنى بطريقة الاستفهام، الذي أرى أنه يفيد التقرير أي التحقيق والتثبيت، ووجه الخطاب لها لأنها قريبة من قلبه.

---

(١) الأسلوبية والتقاليد الشعرية، مُحَمَّد بربري، ص١٤٢

(٢) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص١١٤

(٣) يُنظر "دلالات التراكيب"، د. مُحَمَّد أبو موسى، ص٢٢٠، ص٢٢٢

(٤) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٦٦

ويرى الدكتور سعيد بن طيب المطرفي أن صورة البرق في البيت؛ هي صورة برقٍ ضعيفٍ بعيدٍ ذاهبٍ الجو لا يكاد يُرى، لأن الشاعر ذكر رحيل الأحبة وكيف أصبحت ديارهم بلاقعاً إلا من فُرَّاد السباع، ولهذا شبه البرق بالمصباح، وقال إنه بات يرقبه، ولو كان قريباً ما بذل في ترقبه كل هذا الجهد، ولهذا ربما نستطيع حمل هذا الاستفهام على الاستبعاد، والتعجب أن يكون هذا البرق من جهتها[١].

ولكنني أرى التنكير في قوله: " أمنكِ برقٌ ... " للتعظيم، وكذلك تنكير " مصباح "، فهو برقٌ عظيم في السماء يضيء كالمصباح العظيم، والدليل على ذلك؛ أن البيت الذي يلي هذا البيت يصف رعداً عظيماً يشبه صوت الفحل العظيم من الإبل، ولو كان البرق بعيداً ذاهباً في السماء ما سمع الشاعر صوت رعده، وَلَما وصفه بالشِّدَّة، يقول[٢]:

يَجُــشٌّ رعــداً كَهَــدْرِ الفَحْــلِ تَتْبَعُــهُ   أُدْمٌ تَعَطَّــفُ حــولَ الفحــلِ ضَحْضــاحُ

"ورعدٌ أَجَشّ: شديد الصوت"[٣]، ونكّر "رعداً "، للتعظيم، والرعد الشديد العظيم يصاحبه برق عظيم كذلك، ومراقبة الشاعر للبرق لا تعني ضَعْفَ البرق، فهو يرقبه ليقينه بمطره، وظل يرقبه حتى أمطر، وكان سيلُهُ عظيماً ذا إفعام؛ أي ملأ كل شيء[٤]، وصدور البرق من المحبوبة وعِظَمِه وصِدْقِه يعتبره الشاعر عطاءً منها بعد رحيلها.

ويقول أبو ذؤيب في أول مقطوعة تتحدث عن المطر[٥]:

أمنــك الــبرق أومــض ثم هاجــا   فَبِــتُّ إخالُــهُ دُهمــاً خِلاجــا

وما يلي الهمزة هو شبه الجملة، فالاستفهام عما يلي الهمزة، وهذا الاستفهام كسابقه، لأن الشاعر يرى أن البرق صادر عن المحبوبة، ومعنى هذا الاستفهام كمعنى سابقه، ولا شك أن المعنى في البيتين مدح للمرأة، ورِفْعَةٌ من شأنها، وأنه يراها مصدراً للجمال والخير.

والخِلاج من الإبل، التي اختلجت أولادها عنها إما بموت أو ذبح[٦]، ويقول الدكتور سعيد بن طيب المطرفي عن التشبيه في هذا البيت: "وإذا كنا نرى التشبيه في اللون، وهو أن السحاب كان مسودّاً كالإبل الدهم،فإن التخلُّج أمره مشكِل؛ لكننا إذا رجعنا لحال الشاعر، واضطرابه وذهاب روحه خلف الذاهبين نرى أن التخلج إنما يرجع إلى تلك النفس التي تفرقت، ولم يستطع الشاعر تهديتها،

---

(١) يُنظر الإنشاء ومواقعه في شعر هذيل، سعيد بن طيب بن سحيم المطرفي، ص١٥٨ – ١٥٩

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٦٧

(٣) لسان العرب، (جشش)،ج٣، ص١٥٠

(٤) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٦٨

(٥) المصدر السابق، ج١، ص١٧٧

(٦) السابق، نفس الصفحة

فالسحاب أسود مدلهم تزعه وتفرقه الرياح، وكذا نفسه المضطربة"[١].

والذي أراه أن تشبيه السحاب بالإبل الخلاج يكون في شيئين، أولهما؛ أن الناقة إذا تخلج ولدها عنها فإنها تكثر الحنين، فشبه السحابة في رعدها بالإبل الخلاج التي تُكثِر الحنين، وهذا المعنى قد ذكره الشارح، أما الثاني؛ فإن الناقة حينما تفقد ولدها فإن اللبن يكون كامناً في جسمها، وهو كثير لأنها لم تُرضَع، "وناقة خَلُوجٌ كثيرة اللبن، تحن إلى ولدها"[٢]، وإذا أراد صاحبها أن يحلبها فإنه يُقَرِّبُ منها البَوَّ لكي تدرّ حليباً، فيمتلئ ضرعها فيحلبها، وكذلك السحابة الدهماء فإنها غزيرة المطر، وهو كامن فيها، وإذا شاء الله أنزل ذلك المطر.

ولم يكن مراد أبي ذؤيب بالخِلاج أن السحابَ نفسَهُ متفرق بسبب الرياح، لأنه لو تفرق لذهب مطره، وقد نص على أن السحاب بقي ثلاثة أيام لم ينفرج " ثلاثاً ما أُبِينَ له انفِراجا "، وظل يهطل حتى كأن الأرض أُلْبِسَت طيلساناً.

ومن الاستفهام بالهمزة قول ساعدة بن جؤية الهذلي[٣]:

أفَعَنْـــكِ لا بـــرقٌ كـــأن وميضـــه　　　غـــاب تشـــيمه ضِـــرامٌ مُثقـــب

وفي رواية أخرى " أَفَمِنْكِ"، و"لا"، زائدة[٤]، وسياق الأبيات في هجر محبوبته الغضوب وتمنعها، وكانت تتقيه بقوم يبغضونه لتهلكه، فنأت عنه وبَعُدَت[٥]، فرأى برقاً عظيماً من ناحيتها، ولم يكن البرق يبشر بالخير كالمصباح أو الإبل الخلاج، بل كأنه حريق عظيم التهم غاباً، فظن أنها مصدر ذلك البرق، لأنه يحمل صفاتها، فجاء الاستفهام بمعنى التقرير.

وهذا البرق أسفر عن مطر عظيم مدمر اقتلع كبار الأشجار وحملها معه.

أما الاستفهام بـ (هل)، فلم يأتِ إلا في موضع واحد، وذلك في مطلع صورة من صور المطر عند المتنخِّل، يقول[٦]:

هـــل هاجـــك الليـــلَ كَلِيـــلٌ علـــى　　　أسمـــــاء مـــــن ذي صُـــــبُرٍ مُخْيِـــــلِ

كليل: برق ضعيف، لأنه يجيء من مكان بعيد[٧]، وسياق الأبيات، أن المتنخل قد مر بالأطلال، فبدأ قصيدة بالاستفهام بـ (هل)، فقال:

---

(١) الإنشاء ومواقعه في شعر هذيل، سعيد بن طيب بن سحيم المطرفي، ص١٥٨

(٢) لسان العرب، (خلج)،ج٥، ص١٢٣

(٣) السابق، ج٣، ص ١١٠٣

(٤) ينظر شرح أشعار الهذليين،ج٣، ص١١٠٣

(٥) تناولت سياق الأبيات في مبحث "صورة المطر والمرأة".

(٦) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ١٢٥٤

(٧) المصدر السابق، نفس الصفحة

هــــل تَعْــــرِفُ المنــــزلَ بالأهْيَــــلِ كالوشـــــم في المعصـــــمِ لم يُخْمَــــلِ

وحشـــــاً تُعَفِّيــــهِ ســــوافي الصَّـــبا والصَّـــــيفُ إلا دِمَـــــنَ المنـــــزِلِ

فانهـــــلَّ بالـــــدمع شــــؤوني كــــأنَّ الـــــدمعَ يسْـــتَبْدِرُ مــــن مُنْخُــــلِ

فهو حزين على تلك الأطلال التي أصبحت موحِشةً تعفيها الصبا، فتذكر الرحيل، ووصف المحبوبة وهي على راحلتها، ولما رحلت وابتعدت؛ رأى برقاً ضعيفاً على أرضها التي استقرت فيها، وضعف البرق دلالة على بُعْدِ المسافة بين الشاعر وأرض أسماء، فهاجه سنا البرق لأنه ذكَّره محبوبته، وهاجه ضَعْفُ البرقِ لأنه آذن بالبُعْد الذي قضى على كل أمل في اللقاء، وقد خاطب الشاعر بهذا الاستفهام نفسه، وهو من التجريد، والمسؤول عنه هو ما بعد (هل)، أي: الهَيَجان، ومعنى الاستفهام التحقيق، وهو يعد التفاتاً على رأي السكاكي، والذي دعا الشاعر إليه هو أهمية المعنى في هذا البيت، ويُلاحظ تشابه الأسلوب في الالتفات أو التجريد في هذا البيت وفي مطلع القصيدة، لأهمية المعنيين في هذين الموضعين؛ لأن الطلل والبرق هما أهم ما يربط الشاعر بمحبوبته.

وقوع الخبر موقع الإنشاء:

من مواضع وقوع الخبر موقع الإنشاء؛ الدعاء بصيغة الماضي، ويحتمل وجهين، هما: التفاؤل، وإظهار الحرص على الوقوع[(١)]، وأشار الدكتور محمَّد أبو موسى إلى أن ورود الإنشاء في لفظ الخبر له موقع مستجاد، وأن القول بمجيئه في لفظ الخبر لا يعني أن المسألة مسألة لفظ وأن الإنشاء بقي كما لو كان في لفظ الإنشاء، بل الأمر أدق من هذا، لأن الذي يحدث تغيير في الحس بالمعنى والشعور به، ويفرّق بين قولنا: " ارحم اللهم زيداً "، وقولنا: " رحم الله زيداً "، فالأول دعاء لزيد بالرحمة، والثاني دعاء له بالرحمة أيضاً، ولكن الرغبة أكثر إلحاحاً وأشد تعلقاً بالنفس، وكأنها لقوة إحاطتها بالقلب أوهمت أنها وقعت وأن الله قد ناله برحمته، وأنت تخبر عن هذه الحالة، وقد قال البلاغيون في هذا: " إن النفس إذا عظمت رغبتها في شيء تخيلت غير الواقع واقعاً، وبنت الكلام على هذا التخيل، وأجرته على نسجه"[(٢)].

وفي صور المطر عند الهذليين ورد الإنشاء في لفظ الخبر (الدعاء بصيغة الماضي) في مواضع عديدة، وأكثره كان بالفعل الماضي " سقى "، فورد الدعاء بالسقيا بصيغة الماضي في الدعاء للمحبوبة عند أبي ذؤيب الهذلي، يقول[(٣)]:

سَقَى أُمَّ عَمْرٍو كلَّ آخِرِ ليلةٍ حَناتِمُ سُودٌ ماؤهُنَّ ثَجِيجُ

أو الدعاء للديار، مثل قول قيس بن العيزارة، حيث يدعو لذات الغمر التي بها أهله[(٤)]:

سقى الله ذات الغمر وبلا وديمة وجادت عليه البارقات اللوامع

أو الدعاء لموضع القبر، كما عند البُرَيق بن عياض الخناعي حينما دعا لحزم نبائعات الذي به قبر أخيه:

سقى الرحمنُ حزم نُبائعاتٍ من الجوزاء أنواءً غِزارا[(٥)]

أو الدعاء للقبر، كقول أبي صخر الهذلي يدعو لقبر ابنه بالسقيا[(٦)]

فَأَسْقَى صدَى داوود دانٍ غمامُهُ هَزِيمٌ يَسِحُّ الماءَ من كل جانبِ

---

(١) ينظر "الإيضاح"، الخطيب القزويني، ص١٥٠، و"بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة"، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب الآداب – القاهرة، ١٤١٧ – ١٩٩٧م، ج٢، ص٥٢

(٢) ينظر دلالات التراكيب، د. محمَّد أبو موسى، ص٢٦٥ – ٢٦٦

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص ١٢٨

(٤) المصدر السابق، ج٢، ص٥٩٢

(٥) السابق، ج٢، ص٧٤٢

(٦) السابق، ج٢، ص٩١٩

وقول قيس بن العيزارة يدعو لقبر أخيه[1]:

فَسَــقى الغَــوادي بَطــنَ مَكَّــةَ كُلَّهــا وَرَسَـــت بِـــهِ كُـــلَّ النَهـــارِ تَجُـــودُ

أو الدعاء للطلل بالسقيا، كقول أبي صخر الهذلي[2]:

فبِرامــــةَ العُليــــا غَشِــــيتَ لهـــا رسمـــاً ســـقاكَ الغيـــثُ مـــن رســـمِ

وقد يرد الدعاء بالسقيا بلفظ الرِّيّ، كقول المتنخل في نهاية صورة المطر، حيث دعا بأن يكون المطر الذي ذكره رِيّاً للمحبوبة[3]:

أرْوَى بِجِـــنِّ العهـــد ســـلمى ولا يُنْصِـــبْكَ عهـــد المِلِـــقِ الحُـــوَّلِ

قال: دعا لها بالسقيا، أي سقاها الله هذا المطر أول عهده[4].

والشعراء الهذليون حينما يكون دعاؤهم بصيغة الماضي، مع أن ما يرجونه لم يحدث بعد، فإن ذلك لشدة رغبتهم في سقيا من يحبون أن تكون السقيا له، ولذلك لا يقتصر الأمر على لفظ السقيا فحسب، بل لشدة إلحاحهم وتعلق المطر بأنفسهم؛ فإنهم يصفون تفاصيل تلك السقيا وكأنها قد وقعت، فيصفون السحاب والبرق والمطر والسيل، ويستخدمون في وصف تفاصيل المطر أفعالاً ماضية.

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٥٩٨

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٩٧٢

(٣) السابق، ج٣، ص١٢٥٨

(٤) السابق، نفس الصفحة.

خصوصية الصورة البيانية في وصف المطر

"يعد علم البيان ببحوثه المختلفة – التشبيه والمجاز والكناية – أكثر فنون البلاغة العربية اهتماماً بضروب التصوير الأدبي وإبداع الصور الفنية المختلفة"[١]، ويُعَرَّف علم البيان بأنه: "علم يُعْرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه"[٢]، وقد حفلت صور المطر عند الهذليين بكثير من صور علم البيان، فجاء التشبيه في جوانب عدة من صورة المطر، وكذلك الاستعارة، أما الكناية فلم تظهر لي إلا في موضعين؛ في بعض الصور التي تصوِّر شدة المطر، وكثرة السيل، وهي أقل فنون علم البيان وروداً، لذلك سأدرسها في ثنايا دراسة التشبيه والاستعارة.

أولاً: التشبيه:

وهو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى بإحدى أدوات التشبيه لا على وجه الاستعارة التحقيقية ولا المكنية ولا التجريد[٣]، "وقد عني الباحثون بدراسة التشبيه عناية واضحة تتمثل في الدراسات الضخمة التي يراها المطلع على كتب الأدب والشعر واللغة والتفسير، وهذا الاهتمام راجع إلى شيوع هذه الخاصية وجريانها في كثير من فنون الكلام..."[٤]، ومن التشبيه ما تطرب له النفوس، وهو لها أعجب، لأنك ترى به الشيئين مِثْلين متباينين، ومؤتلفين مختلفين، وهو يعمل عمل السحر في تأليف المتبايَنين، ويريك المعاني الممثَّلة بالأوهام شبهاً في الأشخاص الماثلة، ويُنطق لك الأخرس، ويُريك الحياة في الجماد، ويُريك التئام الأضداد[٥].

وقد استعان الشعراء الهذليون بالتشبيه لتصوير مشاهد المطر التي يرونها، وعبَّروا به عما تختلج به نفوسهم تجاه تلك الظواهر الطبيعية التي أثارت كوامن ضمائرهم، وسأتناول التشبيه من حيث الإفراد، والتركيب، والتمثيل، والتشبيه الضمني.

١– التشبيه المفرد:

إن تشبيهات صور المطر عند الهذليين تأتي ضمن صورة كبرى للمطر تشتمل على ضروب مختلفة من الصور البيانية، واجتزاء التشبيهات المفردة قد يضر بالمعنى ويفسده، لذا سأدرسها داخل سياقاتها من غير عزلها عنها.

والتشبيه المفرد: "هو ما طرفاه مفردان"[٦]، أو "ما يكون فيه الوصف المشترك محققاً في شيء

---

(١) الصورة البيانية في شعر الهذليين دراسة وتحليل ومقارنة، محمد الحسن علي الأمين، ص١٩

(٢) الإيضاح، الخطيب القزويني، ص٢١٥

(٣) ينظر المصدر السابق، ص٢١٧

(٤) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة – القاهرة، ط٦، ٢٠٠٦م، ص٤٠

(٥) يُنظر "أسرار البلاغة"، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني – جدة، ط١، ١٤١٢هـ – ١٩٩١م، ص١٣٠، ص١٣٢

(٦) الإيضاح، الخطيب القزويني، ص٢٤٧

واحد"[1]، ومن التشبيهات المفردة ما ورد في وصف صورة البرق، الذي تعددت التشبيهات في وصفه وتنوعت عند الهذليين، وكل تشبيه له سياقه ويحمل معانٍ شعورية خاصة بالشاعر، ومن ذلك قول أبي ذؤيب[2]:

أمنـــكِ بـــرقٌ أبيـــتُ الليـــلَ أرقُبُـــهُ   كأنَّـــهُ في عِـــراضِ الشـــأْمِ مِصْـــباحُ

وقوله عن البرق[3]:

يُضِـــيءُ سَـــنَاهُ رَاتِـــقٌ مُتَكَشِّـــفٌ   أغَـــرُّ كَمِصـــبْاحِ اليَهُـــودِ دَلُـــوجُ

ويُروى: " راتقاً متكشفاً "[4]، أي أن البرق يضيء السحاب الراتق.

فالمشبه في البيتين هو البرق وهو شيء واحد، والمشبه به كذلك شيء واحد، ففي البيت الأول شبه البرق بالمصباح، وفي البيت الثاني شبهه بالمصباح – أيضاً – ولكنه زاد على ذلك فشبهه بمصباح اليهود، وهذا الاختلاف في المشبه به يبينه الرجوع إلى سياق البيتين، فالبيت الأول سُبِق بأبيات تتحدث عن رحيل أم عمرو عن ديارها، فأصبحت الديار موحشة ومألفاً لأخبث السباع، ويتذكر الشاعر ساعة رحيلها، ويتذكر مراقبته راحلتَها حتى غابت عنه، وبعد أن غابت برق البرق من جهتها، فجاء البيت " أمنك البرق ... " بطريقة الاستفهام التقريري[5]، وبما أن الشاعر يرى أن البرق من أم عمرو فهو يتخيل أنها قد أرسلته له لتعوض عنه الغياب، ويرى في البرق أملاً بأنها ما زالت متمسكة بحبال الود، وكذلك يرى في البرق أملَ اللقاء بها، لذلك شبهه بالمصباح المنير، لأن المصباح يبدد الظلام بنوره، وهو هنا يبدد ظلام البين ويبعث الأمل، ونكره للتعظيم، وجاء من جهة الشام لأن الشام مصدر من مصادر الخير عندهم، ومنه تأتي البضائع.

أما التشبيه في البيت الثاني، فلم يقتصر الشاعر على تشبيه البرق بالمصباح، بل أضاف إليه أنه من مصابيح اليهود، وسياق التشبيه ورد في صورة للمطر جاءت دعاءً لأم عمرو بالسقيا بعد رحيلها، يقول أبو ذؤيب في مستهل صورة المطر[6]:

سَـــقَى أُمَّ عَمْـــروٍ كـــل آخِـــرِ ليلـــةٍ   حَنَـــاتِمُ سُـــودٌ مـــاؤهُنَّ ثَجِـــيجُ

ثم قال:

---

(١) التصوير البياني، مُحَمَّد أبو موسى، ص٤١

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٦٧

(٣) المصدر السابق، ج١، ص١٢٩، الراتق: المنضَمُّ من السحاب. دَلوج: يَدْلِج بالماء، والدالج، الذي يدلج بالدلو من البئر إلى الحوض.

(٤) السابق، نفس الصفحة.

(٥) تم تناول البيت في "الاستفهام"، ص١٧٠ – ١٧١

(٦) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٢٨، كل آخر ليلة: مثل قوله: "لا أكلمك آخر الليالي"، ومعناه: لا أكلمك ما بقي من الزمان ليلةٌ، أبدا. الحناتم: الجِرَار الخضر. ثجيج: صبوب. يُنظر كذلك "الأنواء في مواسم العرب"، ابن قتيبة، ص ١٧٥

يُضِيءُ سَنَاهُ رَاتِقٌ مُتَكَشِّفٌ   أغَرُّ كَمِصْبَاحِ اليَهُودِ دَلُوجُ

وكان العرب في الجاهلية يرون اليهود عُبَّاداً، وهناك مناسبة بين جعل صورة البرق تشبه مصباح اليهود وبين الدعاء الذي استهل به الشاعر صورة المطر " سَقَى أُمَّ عَمْرٍو .... حَناتِمُ سُود ... "، ونفس أبي ذؤيب هنا تشبه نفوس العُبَّاد، فالمصباح يضيء للراهب وهو يظل يتعبد ويسأل ربه، وأبو ذؤيب ظل يراقب البرق ويأرق له " أرقت له ذات العشاء ... "، وهو يدعو ربه أن يكون البرق سقيا لأم عمرو، وهذا — في نظري — هو السر الذي دعا الشاعر إلى أن يجعل المصباح من مصابيح اليهود.

وفي مقطوعة للمطر، قال أبو ذؤيب(١):

أمنكِ البرق أومض ثم هاجا   فبتُّ إخالُهُ دهماً خِلاجا(٢)

تكَلَّلَ في الغِمادِ فأرضِ ليلى   ثلاثاً ما أُبِينُ له انفراجا(٣)

فما أصحى انقلاعُ الماءِ حتى   كأنَّ على نواحي الأرضِ ساجا(٤)

والذي يعنيني هنا التشبيه المفرد في البيت الأخير، فلم ينقطع انصباب الماء حتى كأن الأرض أُلبست من الخضرة طيلساناً، فشبه النبات بالساج، وهو الطيلسان الأخضر(٥)، وهو ضرب من الأكسية(٦)، الأكسية(٦)، فكأن الأرض اكتست، والكِساء جمال للابسه، وهذا التشبيه الذي يحمل صورة الجمال للأرض ختم به أبو ذؤيب صورة المطر، وسبب اختياره لهذا التشبيه الذي أضفى على الأرض جمالا، هو أن البرق صادر عن المرأة.

ويقول أبو صخر عن السيل:

ألحَّ رجيفاً يُهْرِبُ الوحشَ حِسُّهُ   كلَجَّةِ حَوْمِ المنهل المتجاوِبِ(٧)

فشبه صوت السيل بلجة الإبل الكثيرة عند المورد، وصورة التشبيه صورة مفعمة بالحياة، لأن الإبل من خير أموالهم، وبها تَنْعَمُ حياتهم، والسيل حياة للبلاد، ورجيفه المبشر بالحياة والخير قد أرهب الوحش — التي تعد رمزاً للموت — فهربت، وصورة المطر التي منها هذا البيت كانت دعاء بالسقيا لقبر داود، وهو ابن الشاعر، وقد أسهب في الصورة وبلغت أبيات المطر ثلاثة وعشرين بيتاً، وكانت نفس الشاعر حزينة مضطربة، وتأثرت الصورة بذلك، وكان بها صراع بين الحياة والموت، ومن ذلك التشبيه السابق الذي

---

(١) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج١، ص١٧٧، تناولت الأبيات في " صورة المطر والمرأة "، و" الاستفهام ".

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة، أومض: برق برقاً خفيفاً.

(٣) السابق، تكلل: تبسم

(٤) السابق، أصحى: كَفَّ، الساج: الطيلسان

(٥) لسان العرب، (سوج)، ج٧، ص٢٩٣

(٦) السابق، (طلس)، ج٩، ص١٣٢

(٧) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٢١، رجيف: في صوته،" رَجَفَ يَرْجُف"، المنهل: حيث وردت، تسمع لها أصواتاً، حوم: إبل كثيرة.

انتصرت فيه الحياة على الموت.

ويقول ساعدة بن جؤية:

لمـــا رأى عَمْقـــاً ورجَّـــع عَرْضُـــهُ رعـداً كمـا هـدر الفنيـقُ الـمُصْعَبُ[1]

فشبه صوت الرعد بصوت الفنيق، و " هو الفحل المكرم من الإبل الذي لا يُرْكب ولا يُهَان لكرامته عليهم "[2]، " والمصْعَب الذي لم يمسسه حبل ولم يُركب "[3]، فهو يحمل صفات القيادة للإبل، ولذلك ولذلك اعتني به وكُرِّم، فهدره يفوق ما سواه، والفحل لا يهدر إلا في حالة الهيجان، وبذلك يكون في أوج قوته، وصفات القيادة وشدة الصوت التي يحملها الفحل يراها ساعدة متمثلة في الرعد، والفحل إذا توافرت فيه الصفات التي ذكرها ساعدة فإنه يكون كثير الضِّراب، وبذلك يكثر نَتَاجُه، وكذلك هذا المطر الذي يقوده رعد عظيم كهَدْر الفحل انتهى بمطر كثير وسيل عظيم انتزع أشجار السِّدر العظيمة، وحمل معه كبار الأشجار كالأَثْأَب والأَثْل والدَّوْم وسار بها في أودية طويلة وهي طافية.

ويقول أبو صخر الهذلي عن السحاب:

فـــألحقنَ محبوكـــاً كـــأن نَشاصَـــه مناكِـبُ مـن عَـرْوانَ بِـيضُ الأهاضِـبِ[4]

فالسحاب قد ألحقته الريح، ويشبه السحاب الممتلئ بالماء؛ بجوانبَ من جبل عَرْوان، ووجه الشبه في العِظَمِ وفي اللون، والجبل مصدر خير، ففيه وَقَائِعُ الماء وغُدْرانه، وفيه المرعى، وفيه النحل، وكل هذه الصفات كانت حاضرة في ذهن أبي صخر عندما شبه السحاب بالجبل.

ويقول أبو ذؤيب الهذلي:

كـــأنَّ ثِقَـــالَ الـــمُزنِ بـــين تُضَـــارِعٍ وشَـــابَةَ بَـــرْكٌ مـــن جُـــذَامَ لَبِـــيجُ[5]

سياق هذا التشبيه، ورد ضمن الدعاء لأم عمرٍو بالسقيا، وبعد أن أمطر المطر وسال السيل وارتوت الأرض، لم يذهب السحاب، بل ظل مستقِراً بين موضع شَابَةَ وجبل تُضارِعٍ، وهي أرض المحبوبة، وما زال السحاب يحتفظ بكثير من الماء، وشبه استقرار السحاب على أرض المحبوبة بإبل قبيلة جُذَام، " وخَصَّهم

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٠٤، رأى عمقاً: صار بِعَمْق، وهو موضع، رجَّع: ردده، الفنيق: الفحل.

(٢) لسان العرب، (فنق)، ج١١، ص٢٣٠

(٣) المصدر السابق، (صعب)، ج٨، ص٢٣٧

(٤) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩١٩، المحبوك: الممتلئ من السحاب، نشاصُه: سحابُه، ألحقته الريح، مناكب: جوانب، عروان: جبل، جبل، الأهاضب: السحاب فيه ماء ومطر.

(٥) المصدر السابق، ج١، ص١٣٣، شابة: موضع، تُضارِع: جبل، البَرْك: إبل الحي كلهم، اللبيج: المضروب بالأرض، يقال: " لَبَجَ به الأرض "، إذا ضرب به، أي ضرب هذا السحاب بنفسه لا يبرح. شبه ثقال المزن بالإبل. وجاء في لسان العرب (لبج) ج١٣، ص١٥٩، " ولُبِجَ بالبعيرِ والرَّجُلِ، فهو لَبِيجٌ: رمى على الأَرض بنفسه من مَرَضٍ أَو إِعْياءٍ، قال أَبو ذؤَيب:

كأَنَّ ثِقالَ المزْنِ بين تُضارِعٍ وشَابَةَ بَرْكٌ من جُذَامَ لَبِيجُ

وبَرْكٌ لَبيجٌ: وهو إِبل الحيّ كُلِّهم إِذا أَقامَتْ حَوْلَ البُيوت بارِكةً كالمضْروب بالأَرض ".

لأنهم أكثر الناس إبلاً "[1]، وقد ضربت بنفسها على الأرض فلا تبرح، لأنها قد وصلت غايتها، وكأن غاية السحاب هي أرض المحبوبة، ولما وصلها استقر بها.

(١) لسان العرب، (جذم) ج٣، ص١٠٨

التشبيه المركب:

في التشبيه المفرد كان الطرفان مفردين، والتشبيه منتزع من أمر واحد. وفي التشبيه المركب ينتزع التشبيه من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض، ثم يستخرج من مجموعها الشبه فيكون سبيله سبيل الشيئين يمزج أحدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لهما في حال الأفراد(١)، وتعريفه : هو " ما كان وجه الشبه الشبه فيه منتزعاً من أمرين أو أمور متعددة بعد بناء بعضها على بعض "(٢).

ومن الصور التي ورد فيها التشبيه المركب قول أمية بن أبي عائذ(٣):

وكـــــلُّ حَـــــبِيٍّ ذي رَدِيـــــفٍ لِعَرْضِـــــهِ ... ســـــنامٌ وهـــــادٍ مُتْلَئِـــــبٌ وَكَلْكَـــــلُ(٤)

شـــــآمٍ يمـــــانٍ مُنْجِـــــدٍ مُتَهَـــــتِّمٍ ... حجازيـــــةٍ أعجـــــازُهُ وَهْـــــوَ مُســـــهِلُ

هِجـــــانٍ إذا مـــــا لاحَ في الـــــبرق مُغـــــرِبٍ ... وجَـــــوْنٍ إذا مـــــا غَمَّـــــهُ المـــــاءُ أَكْحَـــــلُ(٥)

عليـــــهِ نَسِـــــيلٌ مـــــن جَهـــــامٍ كأنـــــهُ ... نَعـــــامٌ بأجْـــــوازٍ مـــــن الرَّمْـــــل مُجْفِـــــلُ(٦)

وأعقـــــبَ تَلْماعـــــاً بـــــزأرٍ كأنـــــهُ ... تهـــــدُّمُ طَـــــوْدٍ صـــــخره يَتَكَلَّـــــلُ(٧)

كـــــأنَّ وَمِـــــيضَ البَـــــرْقِ تحـــــتَ كِفافِـــــهِ ... تكشُّـــــفُ رمَّـــــاحٍ شَـــــوَاهُ محجَّـــــلُ(٨)

هذه صورة لمطر دمر الأطلال وغير معالمها، وقد تداخلت فيها الصور البيانية وتآزرت لتظهر لنا المشهد بكماله، فالسحاب دانٍ من الأرض، وتراكم حتى أصبح له كسنام الجمل وصدره، وعبر عن ذلك بسبيل الاستعارة التصريحية، والسحاب مطبق قد غطى كل الجهات.

والشاعر تتبع السحاب فأشار إلى تبدل ألوانه تبعاً لوميض البرق من عدمه، فإذا ومض تحته رأيته أبيض اللون شديد البياض، وإذا آذن بالماء تحول اللون إلى السواد، وهنا صورة مبتكرة في قوله (غمه الماء)

---

(١) يُنظر "أسرار البلاغة"، عبد القاهر الجرجاني، ص١٠١، في حديثه عن الشبه العقلي المنتزع من عدة أمور، ومثال ذلك قوله تعالى في سورة الجمعة: " مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ".

(٢) علم البيان في الدراسات البلاغية، د. علي البدري، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م، ص٥١

(٣) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج٢، ص ٥٣٣، تناولت هذه الصورة في مبحث " صورة المطر والطلل "

(٤) المصدر السابق، مُتْلَئِبٌ: مستقيم. وجاء في معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، (حبو)، ج٢، ص ١٣٢، قال عن الحَبِيّ: "وكل دانٍ حابٍ. وبه سُمِّي حَبِيُّ السَّحاب، لدنُوِّهِ من الأفق".

(٥) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٥٣٣، هِجان: أبيض، مُغْرِب: شديد البياض، جَوْن: أسود

(٦) أساس البلاغة، (جفل)، ص٩٥، " جَفَلَ القوم ..... أسرعوا في الهزيمة والهرب ...، وَجَفَّل القناص الوحش عن مراعيها"

(٧) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٥٣٣، أراد بالزَّأْر صوت الرعد، أخذه من زئير الأسد، يتكلل: يتهدم

(٨) لسان العرب (كفف)ج١٣، ص٩٠ "كِفَاف السحاب: أسافِلُه "، (رمح) ج٦، ص٢٢١ " رمح الفرس والبغل والحمار وكل ذي حافر يَرْمَحُ رَمْحَاً: ضرب برجله "، (شوا) ج٨، ص١٦٨ " شَوَى الفرس: قوائمه "، (حجل) ج٤، ص٤٦ " التحجيل: بياض في قوائم الفرس "

وهي استعارة مكنية تشير إلى كثرة الماء في هذا السحاب وكأنه مغتم به(١).

وفي أثناء وميض البرق وتحكُّم الرياح في السحاب بحيث لُقِّحَ وجُمِع متراكماً فوق الأطلال؛ نَسَلَت الرياح قِطَعاً من السحاب جَهَاماً لا ماء فيها(٢)، فعبر عن تلك القطع بقوله (نَسِيل) على سبيل الاستعارة التصريحية، لأن النسيل هو ما سقط من ريش الطائر(٣)، وجاء بالتشبيه المركب، حيث جعل الهيئة الهيئة الحاصلة من انسلال الجهام من السحاب وطرد الريح له وخفته وابتعاده وتشتته كالهيئة الحاصلة من هروب النعام من الصياد وسرعته وتشتته في الصحراء بعد اجتماعه، وقد قرن مع الحركة الشكل، فشكل النعام وهو هارب والريش يغطيه أقرب ما يكون إلى شكل الجهام وقد طردته الريح، وكذلك يجمع بينهما أن الجهام سحاب لا ماء فيه مع أنه يحمل شكل السحاب، وهو كريش النعام الذي لا يمكنه من الطيران مع أنه ريش كريش الطيور الطائرة.

وبعد أن ذهب الجهام ولم يبقَ إلا السحاب المحمل بالماء وقد غطى المكان وكان متراكما عظيما، صور لنا الشاعر لمعان البرق وشدة الرعد في صورة مركبة مَهُولة، يقول:

وأعقـــــبَ تَلْماعــــــاً بـــــزأرٍ كأنـــــهُ   تهـــــدُّمُ طَـــــوْدٍ صـــــخره يَتَكَلَّـــــلُ

وقبل أن أبيّن صورة التشبيه المركب، فإن هناك صورة بيانية داخل التشبيه المركب، فقد عبر عن شدة صوت الرعد بالاستعارة التصريحية، حيث جعل للرعد زئيراً كزئير الأسد (وأعقب تلماعاً بزأر) إشارة إلى قوة الرعد وتخويفه من يسمعه، أما التشبيه المركب، فقد شبه صورة لمعان البرق مع شدة صوت الرعد في ذلك السحاب الأسود العظيم، بصورة تهدم جبل عظيم وما يصدر عن تهدم حجارته من أصوات مفزعة وتردد صداها، بسبب اصطدامها ببعضها، وما يصدر بسبب تهدم الجبل من غبار كثيف، وجبال الحجاز لا تخلو من أحجار المرْو التي يقدح الشرر منها عند اصطدامها ببعضها، فتتمثل صورة مركبة مكونة من غبار كثيف تسمع داخله أصوتاً عظيمة لتهدم حجارة الجبل، وترى خلال هذا الغبار وميض شرر صادر من اصطدام حجارة المرو ببعضها، وقد أضاف التعبير عن الماضي بالفعل المضارع (يتكلل) بمعنى: يتهدم، بعداً آخر للصورة، وذلك ليريك صورة تهدم صخور ذلك الطود العظيم ماثلة أمام عينيك مع أن الحدث في الماضي، لأن تهدم الصخور هو الحدث المحرك لأجزاء الصورة المركبة.

ثم جاء بتشبيه مركب آخر للسحاب والبرق، يقول:

كـــأنَّ وَمِـــيضَ البَـــرْقِ تحـــتَ كِفافِـــهِ   تكشُّـــــفُ رمَّـــــاحٍ شَـــــوَاهُ محجَّـــــلُ

فشبه صورة وميض البرق تحت السحاب الأسود الممتلئ بالماء، بصورة فَرَس أسود مُحَجَّل القوائم وهو يرمح

(١) ينظر "الإنشاء ومواقعه في شعر هذيل"، سعيد بن طيب بن سحيم المطرفي، ص٢٤ – ٢٥

(٢) لسان العرب (جهم) ج٣، ص٢٢٩، "والجَهَام، بالفتح: السحاب الذي لا ماء فيه وقيل الذي قد هَراقَ ماءَه مع الريح "، والمعنى هنا هنا الأول لأن السحاب لم يُمطِر بعد.

(٣) ينظر المصدر السابق، (نسل)، ج١٤، ص٢٤٨

بقوائمه في حركة سريعة دائمة ذهاباً وإياباً في جهات مختلفة، وعبر عن كثرة حركته بصيغة المبالغة (رَمَّاح)، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اجتماع لونين هما الأسود والأبيض، واللون الأسود هو اللون السائد، وفي أسفله لون أبيض، واللون الأبيض يتحرك حركة سريعة مستمرة ذهاباً وإياباً في عدة جهات، وهذه الحركة السريعة تنشئ خطوطاً طولية متشابكة.

ويعلق الدكتور سعيد بن طيب المطرفي معلقاً على الأبيات الأربعة الأخيرة بإجمال: " إن هذه الصورة للسحاب والبرق يومض تحته جمعت بين الشكل واللون والصوت، ومثل هذه الصورة كانت معجبة لعلماء البلاغة: فمثلاً نجد ذلك واضحاً عند الإمام عبد القاهر حيث تحدث عن التفصيل في التشبيه إضافة إلى الاستقصاء "[١].

وهذا النوع من الصور الحسية المركبة المتحركة في التشبيهات السابقة يعد من بديع صور التشبيه عند البلاغيين[٢]، يقول الخطيب القزويني: " ومن بديع هذا النوع – أعني المركب الحسي – ما يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركة، ويكون على وجهين:

أحدهما: أن يقرن بالحركة غيرها من أوصاف الجسم كالشكل واللون، كما في قوله:

والشمسُ كالمِرآةِ في كَفِّ الأشَل

من الهيئة الحاصلة من الاستدارة، مع الإشراق، والحركة السريعة المتصلة، وما يحصل من الإشراق بسبب تلك الحركة، من التموج والاضطراب، حتى يُرى الشعاع كأنه يَهُمُّ بأن ينبسط حتى يفيضَ من جوانب الدائرة، ثم يبدو له فيرجع من الانبساط الذي بدا له إلى الانقباض، كأنه يجتمع من الجوانب إلى الوسط؛ فإن الشمس إذا أَحَدَّ الإنسان النظر إليها ليتبين جِرْمَها وجدها مؤديةً لهذه الهيئة، وكذا المرآة إذا كانت في يد الأشل...

والوجه الثاني: أن تجرَّد هيئة الحركة عن كل وصفٍ غيرِها للجسم، فهناك أيضا لا بد من اختلاط حركات كثيرة للجسم إلى جهات مختلفة له، كأن يتحرك بعضه إلى اليمين، وبعضه إلى الشمال، وبعضه إلى العلو وبعضه إلى السُّفل... وحركة المصحف في قول ابن المعتز:

وكـــأن الـــبرقَ مُصْـــحَفُ قـــارٍ   فانطباقـــــاً مَـــــرَّةً وانفِتاحـــــا

فيها تركيب، لأنه يتحرك في الحالتين إلى جهتين في كل حالة إلى جهة، وكلما كان التفاوت في الجهات التي تتحرك أبعاض الجسم إليها أشد كان التركيب في هيئة المتحرك أكثر "[٣].

والصور المتحركة المركبة كثيرة الورود في تشبيهات صور المطر عند الهذليين، " ووصف الحركة كما يقول

---

(١) الإنشاء ومواقعه في شعر هذيل، سعيد بن طيب بن سحيم المطرفي، ص٢٤

(٢) يُنظر " الصورة البيانية في شعر الهذليين"، مُحَّد الحسن الأمين، ص٣٧

(٣) الإيضاح، الخطيب القزويني، ص٢٣٢ – ص٢٣٤. يُنظر: عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي: ضمن شروح التلخيص، دار الكتب العلمية – بيروت، ج٣، ص٣٦٥

البلاغيون من بديع التشبيهات وجليلها، لأن التقاطها وهي جادة في حركتها، واضطرابها، دليل على المقدرة والوعي وقوة الملاحظة، ثم تصويرها وهي تتحرك أعني المحافظة على هذه الحركة الحية الباعثة للنفس، والتي تنفي عنها ملل الجمود ملكة أخرى، وقد أشار عبد القاهر إلى ذلك بقوله: " واعلم أن مما يزداد بي التشبيه دقة وسحراً أن يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركات " "[1].

ومن ذلك قول أبي صخر الهذلي يصف السحاب والبرق:

فــــألحقنَ محبوكـــــاً كـــــأن نَشاصَـــــه ... مناكِــبُ مــن عَـروانَ بِـيضُ الأهاضِــبِ[2]

كـــأنَّ ســــيوفَ الهنـــد تُخْفَـــضُ تارةً ... وتُرفَـــعُ بـــين العســـكرِ المتقـــارب

وسياق الأبيات يتحدث عن سحاب تلقحه الرياح ثم تسوقه فيجد أمامه سحاباً آخر فيلتقيان، ثم يأتي التشبيه المركب في البيت الثاني، فيشبه أبو صخر صورة التقاء السحاب بالسحاب الآخر وتشابكهما ولمعان البرق خلالهما؛ بصورة عسكرين التقيا في ساحة المعركة وسيوفهم ترتفع وتنخفض في حركة سريعة، وهذا التشبيه قريب في تركيبه من تشبيه بشار بن برد لصورة الحرب، حيث يقول[3]:

كــأنَّ مُثَـــارَ النقــعِ فــوقَ رؤوسِـــنا ... وأســـيافَنا ليـــلٌ تهـــاوَى كواكبُـــهْ

وهذا البيت من الشواهد التي كانت محل اهتمام البلاغيين، وهو من الشواهد المعلمة في باب التشبيهات الجيدة التي يكون فيها عنصر التفصيل والتحليل، وتُبْنَى على أساس من النظر المستقصي، وتُلاحِظُ اللون والحركة والشكل[4].

وقد عقد عبد القاهر الجرجاني مقارنة بين بيت بشار آنف الذكر وبين بيتين، أحدهما لأبي الطيب المتنبي، يقول فيه:

يَـــزُورُ الأعـــادي في سَمَـــاءِ عَجَاجَـــةٍ ... أسِـــــنّتُهُ في جانِبَيْهـــــا الكَواكِـــــبُ

والآخر لعمرو بن كلثوم، يقول فيه:

تَبْــنِي سَــنَابِكُهَا مِــنْ فَــوْقِ أرْؤُسِــهِمْ ... سَـــقْفًا كَواكِبُـــهُ الْبِـــيضُ الْمبَـــاتِيرُ

وقال بأن التفصيل في الأبيات الثلاثة شيء واحد، لأن كل واحد منهم يشبِّه لمعان السيوف في الغبار بالكواكب في الليل، إلا أنك تجد لبيت بشار من الفضل، ومن كرم الموقع ولطف التأثير في النفس، ما لا يقل مقداره، ولا يمكن إنكاره، لأنه راعى ما لم يراعه غيره، وذلك بأن جعل الكواكب تتهاوى، وعبر عن هيئة السيوف قد سُلَّت من الأغماد وهي تعلو وترسب، وتجيء وتذهب، ولم يقتصر على أن يريك لمعانها

---

(١) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، د. مُحَّد أبو موسى، مكتبة وهبة – القاهرة، ط٦، ٢٠٠٦هـ، ص٦٦، ٦٧

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩١٩، المحبوك: الممتلئ من السحاب، عروان: جبل.

(٣) ديوان بشار بن برد، جمع وتحقيق: مُحَّد الطاهر بن عاشور، صادر عن وزارة الثقافة – الجزائر، ٢٠٠٧م، ج١، ص٣٣٥

(٤) يُنظر "التصوير البياني"، د. مُحَّد أبو موسى، ص١٥٢، ص١٦١

كما فعل الآخَران ...[1]

وأحاول أن أحلل بيت أبي صخر محتذياً حذوَ عبد القاهر في تحليله لبيت بشار؛ لِمَا وجدت بين البيتين من التشابه، فأقول: إن أبا صخر عندما صور هيئة التقاء السحاب بالسحاب ولمعان البرق عند التقائهما بهيئة معركة التقى فيها جيشان والتحما، قد نظم دقائق الصورة في نفسه، فنظر إلى البرق في استطالته وتشعبه وتشابكه، وما يصدر مع ذلك من رعد في منظر مهيب، وما في اجتماع تلك العناصر، ثم قارنها بمعركة التقى فيها جيشان، ثم لما وصف جزئية السيوف في هيئة المعركة نبه عليها بأحسن تنبيه، فقال: (تُخْفَضُ ... وتُرفَعُ)، لأن في حال احتدام الحرب واختلاف الأيدي في الضرب بالسيوف يصدر اضطرابٌ شديدٌ، وحركات سريعة لها جهات مختلفة، وأحوال تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة والارتفاع والانخفاض، وأن السيوف باختلاف هذه الأمور تتلاقى وتتداخل، ويقع بعضها على بعض، وتصدر عنها أصوات قوية بسبب الضرب، وهي في هذه الحالة أشبه ما تكون إلى صورة البرق والرعد، وعبر عن ذلك بالفعلين المضارعين ليريك الصورة بتمامها ماثلة أمام عينيك، ويجمع – أيضاً – بين الصورتين، أن صورة السحاب برعده وبرقه صورة مهيبة كصورة الحرب.

ويقول أبو ذؤيب[2]:

أمنـــكِ بـــرقٌ أبيـــتُ الليـــلَ أرقُبُـــهُ ... كأنَّـــهُ في عِـــراضِ الشـــأْمِ مِصْـــباحُ

يَجُـــشُّ رعـــداً كهَـــدرِ الفحـــل تتبعـــهُ ... أُدْمٌ تَعَطَّـفُ حَـوْلَ الفحـل ضَحْضَـاحُ[3]

فَهُـــنَّ صُـــعْرٌ إلى هـــدْرِ الفَنِيـــقِ ولم ... يَجْفُـــرْ ولم يُسْـــلِهِ عـــنهنَّ إلقـــاحُ[4]

فمـــرَّ بالطـــيرِ منـــهُ فـــاعِمٌ كَـــدِرٌ ... فيـــهِ الظبـــاءُ وفيـــهِ العُصـــمُ أجنـــاحُ[5]

---

(١) ينظر أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص١٧٤ – ١٧٥

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٦٧

(٣) المصدر السابق، يَجُشُّ رعداً: يستخرج رعداً، ضَحْضاح: كثير بلغة هذيل، جاء في لسان العرب (ضحح) ج٩، ص١٩ " وقيل: هو الماء اليسير؛ وقيل: هو ما لا غَرَقَ فيه ولا له غَمْرٌ؛ وقيل: هو الماءُ إلى الكعبين إلى أَنصاف السُّوقِ "، ثم استشهد ببيت أبي ذؤيب هذا، فقال: "ضَحْضاحٌ في لغة هذيل كثير لا يعرفها غيرهم"، وجاء في تاج العروس (ضحح) ج٦، ص٥٦٦ "وإبِلٌ ضَحْضَاحٌ : كثيرةٌ . وقال الأَصمعيّ : هي المُنْتشرَة على وَجهِ الأَرْض"، وتَعَطَّف: تميل، جاء في لسان العرب (عطف) ج١٠، ص ١٩٢، عَطَفْتُ: مِلْتُ.

(٤) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٦٨، فَهُنَّ صُعْرٌ: يعني الإبل، أي مِيلٌ إلى هدر هذا الفحل، لمَ يجْفُرْ: لم تذهب غُلْمَتُه.

(٥) المصدر السابق، فمرَّ بالطير: يعني أن السيل كثير الطير، فاعم: سيل ذو إفعام، أي ملأ كل شيء، أجناح: أي دنت من الأرض، وجاء وجاء في ديوان الهذليين ج١، ص٤٨ "ورد هذا البيت في اللسان مادة " حنح " وفسر الأجناح بالموائل. يشير إلى غزارة هذا السيل وكثرة الطير الحائمة عليه. فيقول: إنه قد مر بالطير منه ما ملأ الأودية والوهاد، وأن الظباء والوعول قد لزمت الأرض ولصقت بها خشية منه".

لــــولا تنكُّـــبُهُنَّ الوَعْــــثَ دمَّرَهـــــا　　　كمـــا تنَكَّـــبَ غَـــرْبَ البئـــرِ متّـــاحُ[1]

هذه صورة كاملة للمطر تحمل في طياتها عدداً من الصور البلاغية، التي تشكّل بتآزرها الصورة الكلية، وقد تناولتُ البيتَ الأولَ في موضعين، هما الاستفهام[2]، والتشبيه المفرد[3]، ولا يمكنني أن أتجاوز هذا البيت هنا، لأنه اللبنة الأساسية لبناء صورة المطر الكلية، فأبو ذؤيب يعتبر أن البرق صادر عن المحبوبة التي رحلت، فبدأ بالاستفهام الذي يفيد التقرير أي التحقيق والتثبيت، وشبه البرق بالمصباح المنير الذي يبعث الأمل في النفس، وجعل البرق هو العنصر الفاعل في الصورة، فالبرق هو الذي يستخرج الرعد (يَجُشُّ رعداً)، وهذه استعارة مكنية، فقد بث الشاعرُ الروحَ في البرق، وجعله كالإنسان المتصرف في الأمور، فحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الاستخراج والتصرف، ثم لما وصف الرعد جاء بالتشبيه المركب، حيث شبه صورة الرعد مع السحاب بصورة فحل عظيم يَهْدِرُ وتتبعه إبلٌ كثيرة وتنقاد له، وهذه الإبل تتمايل نحوه، وعبر عن ذلك بقوله (تَعَطَّفُ)، فشدد الطاء ليعبر عن شدة ميلها نحوه برغبة وطواعية، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وعبر بالفعل المضارع للتعبير عن استمرار التمايل وتجدُّدِه، وهذه الإبل كثيرة منتشرة في الأرض كالماء الكثير الممتد، وهذه استعارة تصريحية، حيث جعل الإبل في انتشارها كالماء الممتد، وصرح بالمشبه به (ضَحْضَاح)، ثم فصَّل في المشبه به، فالإبل مائلة إلى هدر الفحل، لأن الفحل يكثر هدره في موسم الأمطار، فيكون في أوج هَيَجانِهِ وعنفوانه، وبَيَّنَ أن الفحل ما زال في أتم قوّته، بقوله: (لم يَجْفُرْ)، لأنه لو ذهبت غُلْمته لفتر عن قيادة الإبل وتلقيحها، وأنه – أيضاً – لم يلهه الإلقاح عن قيادتها، وهذه الصفات التي اجتمعت في هذا الفحل لا توجد في كل الفحول.

وأبو ذؤيب لم يعطنا صورة المشبه صراحة، وإنما عُرِفَتْ من خلال مقارنتها بصورة المشبه به، فشبه الرعد بصورة فحل عظيم يَهْدِرُ ويقود إبلاً وهي منقادة له ومائلة إليه، وعندما وصف صورة المشبه به، لم يقتصر على هدر الفحل وأن الإبل تميل نحوه وتنقاد له، بل فصل في البيت الذي يليه، ووصف صورة الإبل مع فحلها، وذكر ميلها إلى هَدْرِهِ، وفصل في وصفه بأنه لم تذهب غلمته، وجمع بين الإلقاح والقيادة في وقت واحد، ولم يلهه شيء عن الآخر، "ومن مسالك الشعراء أنهم يشبهون الشيء بالشيء ثم يأخذون في ذكر أوصاف وأحوال تحدد المشبه به تحديداً دقيقاً، وكل حال وتصوير يذكر في هذه الصورة إنما يصف المشبه،

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٦٨، تنكُّبُهُنَّ: أي تنكبن السهولة وتنحين عنه، الوَعْث: السهولة واللين، أي إذا مررن بمكان سهل تنكَّبْنَهُ، كما تنَكَّبَ غَرْبَ البئرِ متّاحُ: وهو أن ينقطع الغَرْب، وهو الدلو الضخمة، فيخاف أن يمر به رِشاؤها فينفلت في البئر. وجاء في ديوان الهذليين ج١، ص٤٩ "المتّاح: مستخرج الدلو من البئر. يشير إلى شدة السيل حتى أن الظباء والوعول قد تجنبن سهل الأرض لكثرة الماء به، ثم شبه تباعدهن عن السهل بتباعد المستقي حين تنقطع دلوه فتهوي إلى البئر ويخشى أن يمر به حبل الدلو يسقطه فيها".

(٢) ينظر ص١٧٠

(٣) يُنظر ص١٧٩

وينعكس عليه، ويكشف حالاً من أحواله"[1]، لذلك فصورة الفحل مع الإبل التي صورها أبو ذؤيب توحي توحي بالخير والإنتاج والخصب، وهذا ما يرجوه من تلك السحب التي يجلجل فيها صوت الرعد، والفحل لا يهدر إلا في موسم الأمطار، ويكون في حالة هَيَجان وقوة، وتدارك صوت هدر الفحل وتتابعه قريب من صوت الرعد، والفحل يجمع الإبل ويجعلها في مكان واحد ولو شردت إحداها ردها، وكذلك السحاب فهو مؤتلف ومتقارب وكأن الرعد هو الذي يؤلف ذلك السحاب فلا يشرد منه شيء.

ولأن هذا التشبيه المركب يدل على الخصب والإنتاج، فقد ترك أبو ذؤيب وصف تفاصيل سقوط المطر، فانتقل مباشرة إلى نتيجته، وهو السيل ذو الإفعام، الذي جاء بعد جدب، لذلك لما سال السيل اتجهت نحوه الكائنات في حال من الاحتياج والفرح بقدومه، فالطيور تحوم حوله وتقترب منه، والظباء والوعول تقف حوله، فتتبين لنا صورة مفعمة بالحياة والخير.

وقد ختم أبو ذؤيب بصورة مركبة للظباء والوعول مع السيل، وهي من التشبيه البعيد الغريب " وهو ما لا ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به إلا بعد فكر، لخفاء وجهه في بادئ الرأي "[2]، وقد قال عنه عبد القاهر: القاهر: " والمعنى الجامع في سبب الغرابة أن يكون الشبهُ المقصودُ من الشيء مما لا يتسرّع إليه الخاطر، ولا يقع في الوهم عند بديهة النظر إلى نظيره الذي يُشبَّه به، بل بعد تثبُّتٍ وتذكُّرٍ وفَلْيٍ للنفس عن الصور التي تعرفها، وتحريكٍ الوهم في استعراض ذلك واستحضار ما غاب منه "[3].

وقد شبه أبو ذؤيب صورة الظباءِ والعُصْمِ وهي تقترب من السيل بحذر ، ثم تتراجع إلا الخلف تجنباً للأماكن السهلة وابتعاداً عنها، لأنها قد تنهار بها فتقع في السيل؛ بصورة المتَّاح الذي بيده حبل الدلو، وعند سحبه الحبلَ يتراجع عن فم البئر إلى الوراء، لأن الدلو كبير ومملوء بالماء، فهو يتراجع إلى الوراء خشية أن يغلبه الدلو فيقع الدلو في البئر، والدلو إذا انفلت منه يسحب وراءه الحبل، فلو كان المتّاح قريباً من فم البئر لسقط مع الدلو لا محالة، لأن الحبل ملوي على يده، ولكنه يتراجع إلى الوراء فلو انفلت الدلو وسقط في البئر فإنه بإمكانه أن يتخلص من الحبل وينجو.

وأما ما يقوله الشُّراح بأنَّ قوله: "كما تنَكَّبَ غَرْبَ البئرِ متّاحُ: وهو أن ينقطع الغَرْب، وهو الدلو الضخمة، فيخاف أن يمر به رِشاؤها فينفلت في البئر "[4]، وأنه " شبه تباعدهن عن السهل بتباعد المستقي حين تنقطع دلوه فتهوي إلى البئر ويخشى أن يمر به حبل الدلو يسقطه فيها "[5]، فإنني لا أراه، لأن الحبل لو انقطع فإن المتاح سيسقط إلى الخلف، لا إلى البئر، وإنما ما أراه صواباً هو ما بينته.

---

(١) التصوير البياني، د. محمد أبو موسى، ص٨٦

(٢) بغية الإيضاح، عبد المتعال الصعيدي، ج٢، ص٥٦

(٣) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص١٥٧

(٤) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٦٨

(٥) ديوان الهذليين، ج١، ص٤٩

ووجه الشبه في التشبيه المركب، هو الهيئة الحاصلة من شيء يريد الماء، وهو في أَمَسِّ الحاجة إليه، ولكنه يخشى أن يقع في الماء، فيقترب بحذرٍ ثم يتراجع إلى الخلف، لأن بينه وبين الماء شيء قد يكون سبباً في الوقوع في الماء، لذلك يتراجع للخلف، وهيئة الرجوع تكون ببطءٍ وحذر مع تركيز النظر إلى الأمام.

ويقول أبي ذؤيب(1):

رأيـــتُ وأهلـــي بـــوادي الرَّجِيـــــعِ في أرض قَبْلَـةَ برقـا مُلِيحـا(2)

يضـــيءُ رباباً كَـــدُهْمِ المِخَـــاضِ جُلِّلْـنَ فـوق الـوَلايا الوَلِيحَـا(3)

كـــأنَّ مَصـــاعيبَ زُبَّ الـــرؤوسِ في دارِ صِـــرْمٍ تَلاقَـــى مُرِيحـا(4)

سياق هذا التشبيه، هو أن أبا ذؤيب سرى إليه طيف أم سفيان، ثم رأى البرق يلمع من نواحي أرض قَبْلة، وكأن أرض قَبْلةَ هي أرض المحبوبة التي رحلت إليها، وقد أضاء البرق فكشف عن سحاب أسود متراكم، فشبه صورة تراكم السحائب السود المحملة بالماء، بصورة الإبل الدهم الحوامل عظيمة البطون وقد جُمِّلت على ظهورها الأكسية ثم الأحمال، فالخير في بطونها وعلى ظهورها.

وكذلك يحمل التشبيه صورة جمالية تُلْمَحُ في المشبه به، لأن " والوَلِيحُ والوَلائح: الغَرائر والجِلالُ والأَعْدال يُحْمَل فيها الطِّيبُ والبَزُّ ونحوه "(5)، والطيب والبز(6) مما تتزين به النساء، وعندما تنظر في سياق سياق صورة المطر تجد أنها وردت دعاء بالسقيا للمحبوبة التي رحلت، فبعد أن وصف أبو ذؤيب المطر قال: " سَقَيْتُ به دارَها إذ نأَتْ ... ".

وفي البيت الأخير تشبيه مركب لصورة التقاء السحاب الجديد بالسحاب الموجود قبله، فيشبه أبو ذؤيب صورة السحاب الجديد وهو يسير ويرعد فَيُلاقي السحاب الذي قبله فيرعد مثله، بصورة إبل مصاعيب، أي لم يُتَّخذ منها ذَلُولاً، وبذلك تكون في أوج عنفوانها، فهي تسير ثم تجد قبلها في المكان إبِلاً

---

(1) شرح أشعار الهذليين، ج1، ص197

(2) المصدر السابق، مُلِيحا: كما يُليحُ الرجل بثوبه، أي لامعاً.

(3) السابق، الرَّباب: السحاب الذي تراه دون السحاب، المخاض: الحوامل من الإبل، الدهم: السود، الولايا: الأكسية التي تكون على ظهر ظهر البعير، والواحدة وَلْيَة، وهي البَرْدَعة، الوَلِيحَة: العَدِيلَة، العِدْل الذي يوضع على ظهر البعير، قال الأخفش: شبه غِلَظ السحاب وتراكمه بالإبل الحوامل، لِعِظَمِ بطونها، ثم زاد أن قال: جُلِّلْنَ فوق الولايا أعدالاً، فهو أعظم لها

(4) السابق، ج1، ص198، المصاعيب: الإبل الصِّعاب التي لا يُحمل عليها، زُبُّ الرؤوس: كثيرة شعر الرؤوس، لأنها تُسْتَفْحَل فلا تُرْكب، تُرْكب، وإذا رُكِبَتْ أَمْحَصَ شعرها، دار صِرْم: أي في جماعة من الناس، المريح: الذي يُريح بإبله إلى أهله.
أي كأن هذه المصاعيب لقيت إبلاً قد أُريحت إلى مباءتها، أي تَلاقى الصِّرْم من ها هنا وها هنا تَهْدِرُ إبلُهم.
ويقول أبو نصر: فكأن هذا الغيم صوت رعده صوت إبل فُحُولةٍ في دار جماعة من الناس، لقيت إبلاً مُريحة فهدرت هذه وهذه.

(5) لسان العرب، ابن منظور، (ولح)، ج15، ص296، واستشهد ببيت أبي ذؤيب:
يضيءُ رباباً كَدُهْمِ المِخَا ضِ جُلِّلْنَ فوق الوَلايا الوَلِيحَا

(6) المصدر السابق، (بزز)، ج2، ص78، البَزُّ: الثياب.

مُرِيحَة، فتهدر القادمة وتهدر المُرِيحة، وهي صورة جمعت بين الشكل والصوت والحركة.

ويصف أبو قِلابَةَ البرق فيقول:

يا بـــرق يَخْفِــي للقَتُــولِ كأنــه   غـــابٌ تشـــيمه حريـــق يُـــبَّسُ[(١)]

شبه الشاعر صورة السحب المتراكمة المختلفة الأشكال والأوان، مع البرق والرعد والظلمة، بصورة (غابٌ يُبَّس)، أي شجر كثيف يابس دخله حريق، والحريق حينما يشتعل في الغاب اليُبَّس فإنه يُصدِرُ صوتاً، والصوت يكون في اشتداده عند هُبوب الريح، وربما شابه صوتَ الرعد، وفي خفوته وضعفه ربما شابه صوتَ انهمارِ الغيث، وصورة المشبه لم تُذكر بتفاصيلها، ولكن مقارنتها بصورة المشبه به هي التي جلتها[(٢)].

جلتها[(٢)].

وهناك صورة أخرى للبرق عند ساعدة بن جؤية قريبة من هذه الصورة، يقول:

أفَعَنْـــكِ لا بـــرقٌ كـــأن وَمِيضَـــهُ   غـــابٌ تَشَـــيَّمَهُ ضِـــرامٌ مُثْقَـــبُ[(٣)]

المشبه هنا هو صورة وميض البرق في الليل، وهو لمعه الخفي[(٤)]، ثم انتشاره شيئاً فشيئاً حتى يصبحَ برقاً برقاً عظيماً، وتصاحبه أصوات الرعد، ثم نزول المطر، وهذه الصورة غير مذكورة بتفاصيلها، ولكنها تُقْتَنَصُ من خلال صورة المشبه به، فالمشبه به هو صورة غابة كثيفة الأشجار دخلت فيها نارٌ ضعيفة، فاشتعلت بصغار حطبها في بادئ الأمر، ثم بدأت النار تكبر وتنتشر حتى أصبحت ناراً عظيمة مُحْتَدِمة، واحتِدامُها يُصْدِر أصواتاً، وهي حينئذٍ شبيهة بالبرق والرعد، ثم تبدأ النار بالخُفُوتِ، وصوتها حينئذٍ شبيه بصوت انهمار الغيث.

ويمكنني أن أقول إن صورة التشبيه عند أبي قِلابة وساعدة بينهما تشابه واضح، وصورة احتراق الغاب من الصور المُدَمِّرةِ المُفْزِعَة، وإذا قُورِنَت الصورتان مع تشبيه أبي ذؤيب الذي يقول:

أمنـــكِ بـــرقٌ أبيـــتُ الليـــلَ أرقُبُـــهُ   كأنَّـــهُ في عِـــراضِ الشـــأْمِ مِصْـــباحُ[(٥)]

وُجِدَ اختلاف واضح، لا من ناحية التركيب والإفراد، وإنما من حيث إن أبا ذؤيب قد جعل البرق كالمصباح المنير الذي يبعث الأمل، وأبو قِلابة وساعدة قد جعلا البرق كالنار المُدَمِّرة. وعند الرجوع للسياق يستبين

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٧١٥، يَخْفِي: يظهر، تشيمه: دخله. تناولت هذا البيت في "النداء".

(٢) يُنظر "الصورة البيانية في شعر الهذليين دراسة وتحليل ومقارنة"، محمد الحسن علي الأمين، ص٤١

(٣) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج٣، ص١١٠٣، وفي رواية أخرى " أَفَمِنْكِ"، و"لا"، زائدة، الغاب: الشجر، تشَيَّمهُ: دخل فيه، الضِّرام: النار في الحطب الدقيق الذي تضطرم فيه. ويقال " شَيِّمْ نارك "، أي أدخل معها شيئاً دقيقاً تأخذ فيه ثم تأخذ في الغَليظ، مُثْقَب: أُثْقِبَ حتى تَثَقَّبَ هُوَ، و" الثُّقُوب "، ما شَيَّعْتَ به النار حتى تَثَقَّبَ، و " ثُقُوبُ النار " إيقادها، و " تَثَقَّبْتُ النارَ، وأثقَبْتُها أُثْقِبُها إثقاباً ". تم تناوُلُ هذا البيت في "الاستفهام"، ص١٧٣

(٤) يُنظر "أساس البلاغة"، (ومض)، ص٩٦٠

(٥) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٦٧

سبب الاختلاف. فسياق بيت أبي ذؤيب يُبَيِّنُ أنه في وئام مع صاحبته، ولكنها أُجْبِرت على الرحيل عنه، ولما رأى البرق من ناحيتها ظن أنه صادر عنها، فرأى فيه أملاً يبدد وحشة الفراق[١].

وأما سياق بيت أبي قِلابة، فقد قال فيه:

أَمِــــنَ القَتـــولِ مِنـــازِلٌ وَمُعَـــرَّسُ ... كَالوَشـمِ فِي ضـاحي الـذِراعِ يُكَـرَّسُ[٢]

خَـــودٌ ثَقـــالٌ فِي القِيـــامِ كَرَملَـــةٍ ... دَمَـثٍ يُضـيءُ لَهـا الظَـلامُ الحِنـدِسُ[٣]

رَدعُ الخَلـــوقِ بِجِلـــدِها فَكَأَنَّـــهُ ... رَيـطٌ عِتـاقٌ فِي الصِّـوانِ مُضَـرَّسُ[٤]

يا حَـبَّ مـا حُـبُّ القَتـولِ وَحُبُّهـا ... فَلَـسٌ فَـلا يُنصِـبكَ حُـبٌّ مُفلِـسٌ[٥]

يا بَـــرقُ يَخْفِـــي لِلقَتـــولِ كَأَنَّـــهُ ... غـــابٌ تَشَـــيَّمُهُ حَريـــقٌ يُـــبَّسُ

فهي قد رحلت عنه وبقيت آثارها، وفي البيت الذي يسبق شاهد التشبيه يذكر أن حبها فَلَسٌ، لا فائدة منه، فلم تُبْقِ له مالاً، ولم ينل من حُبِّها شيئاً، لذلك هو لم يرجُ منها خيراً، ولم يَعُدْ يبالي بحبها، ولذلك لما رأى البرق من جهتها ظن أنه صادرٌ عنها، فلم يرجُ منه خيراً، ورآه كالنار المحرقة المدمرة، وقد كرر اسمها (القَتُول) في القصيدة أكثر من مرة، واسمها فيه مبالغة في القتل، ولهذا الاسم علاقة بطباعها نحوه، مما دعاه إلى تجنبها.

وأما سياق بيت ساعدة بن جؤية، فهو قوله:

هجـرت غَضُـوبُ وَحُـبَّ مـن يتجنـبُ ... وَعَـدت عَـوادٍ دون وَلْيِـكَ تَشْـعَبُ[٦]

وَمِـــنَ العَـــوادي أنْ تَقِيـــكَ بِبِغْضَـــةٍ ... وتقَـــاذُفٍ منهـــا وأنَّـــكَ تَرْغَـــبُ[٧]

إلى أن يقول:

ولقـــد نَهَيْتُـــكَ أن تَكَلَّـــفَ نائيـــاً ... مـن دونـهِ فَـوْتٌ عليـك ومطلـبُ[٨]

أفَعَنْـــكِ لا بـــرقٌ كـــأن وَمِيضَـــهُ ... غـــابٌ تَشَـــيَّمَهُ ضِـــرامٌ مُثْقَـــبُ

---

(١) تم تناوُل سياق هذا البيت في "الاستفهام".

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٧١٤، مُعَرَّس: حيثُ ينامون بالليل، ضاحٍ: ظاهر، يُكَرَّسُ: يُخَطُّ.

(٣) المصدر السابق، خَود: حَيِيَّة، دَمَث: سهلة، حِندِس: شديدة الظلمة

(٤) السابق، ج٢، ص٧١٥، الرَّدْع: الأثر، وفي رواية أخرى " رَدعُ العبير بِجِلدِها "، الرَّيْط: مَلاحِف لم تُلْفَق، عِتاق: كِرام، الصِّوان: التَّخْت، التَّخْت، مُضَرَّس: ضرب من الثياب يقال لها: المِضَرَّسة، فيها أعلام وخطوط.

(٥) السابق، فَلَسٌ: لا نَيْلَ منه، أي ليس في يديك منه شيء، من " أفْلَسَ إفْلاساً " أي لم يَبْقَ له مال، لا يُنصِبك: لا تُبالِ به.

(٦) السابق، ج٣، ص١٠٩٧، حُبَّ من يتجنبُ: أي حُبَّ بها مُتَجَنِّبةً إليّ، عَدت عَوادٍ: صرفَتْ صَوارِف، وَلْيِكَ: قربك، تَشْعَبُ: تُفرِّق. تُفرِّق.

(٧) السابق، بِبِغْضَةٍ: أي بقوم يُبغِضونك، تقَاذُفٍ: تَبَاعُد.

(٨) السابق، ج٣، ص١١٠٣، نَهَيْتُكَ: يعني فؤاده.

فحاله مع محبوبته (غَضُوب) ليس ببعيد عن حال أبي قِلابة مع (القَتول)، فهي نائية عنه وتتقيه بقوم يبغضونه، وهو في البيت الذي يسبق شاهد التشبيه يذكر أنه نهى نفسه عن أن تكلّف حب من ينأى عنه، كما نهى أبو قِلابة نفسه عن حب القتول المُفْلِس.

ولما رأى ساعدة البرق من جهة غَضوب، تخيَّل أن البرق صادر عنها، فاستفهم منها على سبيل الاستفهام التقريري، وبما أنه صادر عنها؛ فقد رأى فيه غضبها، ورآه مُهْلِكاً لا خير فيه، وذلك لأنه لم يعْهَد منها خيراً.

ولأن السياق العام للتشبيهين المركبين عند أبي قِلابة وساعدة بينهما تشابه؛ فقد جاء التشبيهان متشابهين، فكل منهما يرى في البرق دماراً وهلاكاً.

ويقول البُرَيق الخُناعي:

سَقى الرحمنُ حزم نُبائعاتٍ ... من الجوزاء أنواءً غِزارا

بمرتجِزٍ كأن على ذُراهُ ... رِكابُ الشامِ يحملن البُهارا[١]

في البيت الثاني صورة للرعد وصورة للسحاب، فالرعد مُرتَجِزٌ، وهذه استعارة تصريحية، حيث صرَّح بالمشبه به، لأن ارتجاز الرعد هو " تدارك صوته كارتجاز الراجز"[٢]، أما صورة السحاب ففيها تشبيه مركب، مركب، فقد شبه صورة السحاب المتراكم المحمل بالماء وهو يسير، بصورة الإبل التي تحمل على ظهورها البضائع وهي قادمة من الشام، والأبيات جاءت في سياق رثاء البريق لأخيه، حيث كان يدعو لقبر أخيه بالسقيا، واختار أن يكون وقت السقيا في الصيف، لأن القبر إلى السقيا أحوج عند اشتداد الحر[٣]، فيكون فيكون مجيء السحب المحملة بالماء في وقت تكون الحاجة إلى الماء أشد، يكون كمجيء الركاب القادمة من الشام تحمل على ظهورها البضائع التي يكون الناس في أشد الحاجة إليها.

ويقول أبو كبير الهذلي:

وَكَأَنَّ أَصواتَ الخَمُوشِ بِجَوِّهِ ... أَصواتُ رَكبٍ في مَلاً مُتَرَنِّمِ[٤]

عَجِلَ الرَّباحُ لَهُم فَتَحمِلُ عيرُهُم ... مُصطافَةً فَضَلاتِ ما في القُمقُمِ[٥]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٧٤٢، وجاء في لسان العرب، (بهر)، ج٢، ص١٦٦ "البُهار عربي صحيح وهو ما يحمل على البعير البعير بلغة أَهل الشأْم".

(٢) أساس البلاغة، (رجز)، ص٢٢١

(٣) تم تناوُل البيت في "التقديم والتأخير"، ص١٦٤، و"وقوع الخبر موقع الإنشاء"، ص١٧٥

(٤) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١٠٩٢، الخَمُوش: البَعُوض، كأن أصواتهن تطريب ركب يغنون في صحراء.

(٥) المصدر السابق، ج٣، ص١٠٩٢، عَجِلَ الرَّباحُ: أصابوا ربحاً فطابت أنفسهم، مصطافة: في الصيف، فضَلاتِ ما في القُمقُمِ: فضلات فضلات ما في الدن.

هذا التشبيه ورد ضمن تصوير وادٍ كانت به حُمُرٌ وحشية تنعم في أمان وماء ومرعى[1]، وأبو كبير يصف مطراً أصاب ذلك الوادي، فكثرت فيه المياه، ويصف البعوض على الماء بعد المطر، فيشبه صورة البعوض وهو يصوت في جَوِّ الماء، بصورة ركب يترنَّمون بالحداء بعد ربحٍ ربحوه فطابت أنفسهم، وكذلك فإن إبِلَهُم تحمل ما زاد عن حاجتهم من الماء فازدادوا سروراً، وقد فصَّل أبو كبير في صورة المشبه به، وهذا التفصيل يكشف لنا حال المشبه ويصوره بدقة، وكلما تأملتَ في صورة المشبه به، كلما انجلى لك جانب من أحوال المشبه، وهذا التشبيه جاء من عدة جوانب متآزرة، وهي: جانب الصوت والحركة؛ فترنم الركب يكون بالحداء،والحداء لا يكون إلا مع سير الإبل لتَجِدَّ في السير، وإذا أناخوا رواحلهم سكتوا، وعند النظر في حال المشبه، فإن البعوض لا يصوِّتُ إلا وهو طائر في الجوِّ، وإذا وقع سكت، وقد نبَّه أبو كبير إلى ذلك، عندما قال: " بِجَوِّهِ "، ليبين أن تصويت البعوض لا يكون إلا مع طيرانه.

الحالة النفسية والصوت: إن الركب قد طابت أنفسهم بسبب الربح الذي ربحوه، وكذلك لأن معهم ما يكفيهم من الماء في سفرهم، خاصة وأنهم في فصل الصيف الذي تقلّ فيه المياه، فهم في أتم السعادة، ولهذه الحالة النفسية السعيدة أثر على ترنمهم وحدائهم، فعندما يكون الحُدَاةُ فرحين فإنهم يأتون بأجمل الأصوات، فتعلوا أصواتهم في الحداء وتتداخل وتتمازج، وهذه الهيئة تنعكس على المشبه به، فالبعوض قد ارتوى من الماء، والوادي مليء بما يكفيه من الماء لمدة أطول، لذلك فهو يترنم فرحاً وتتداخل أصواته.

الحالة النفسية والحركة: إن حالة الركب النفسية التي يكتنفها الفرح من كل جانب تجعلهم يسيرون في نشاط ومرح، وكذلك البعوض فإنه في حالة فرح تجعله يظل متطايراً يحوم في جَوِّ الماء.

ويقول صخر الغي يصف جبلاً بعد المطر:

فـــذاك السِّـــطاعُ خِـــلافَ النِّجـــا ءِ تحســـــبُهُ ذا طِـــــلاءٍ نَتِيفـــــا[2]

حين سكنت السماء انكشف جبل السِّطاع، فشبه الشاعر صورة جبل السِّطاع بعد أن نزل عليه المطر، بصورة جمل أجرب قد طُلِيَ بالقَطِران، فظل القَطِران على جلده حتى حَتَّ شعره كله، فبدا مصقولاً.

والجمل إذا أصابه داء الجَرَب يطلونه كُلَّهُ بالقَطِران، والقطران حارٌّ على جسمه يتألم منه كثيراً، فيظل حتى يقضي على المرض، ثم ينحتُّ القطران شيئاً فشيئاً وَيَحُتُّ معه شعر البعير حتى يصبح بلا شعر، ثم يَنْبتُ له شعر جديد وقد شُفِيَ من داء الجرب.

وتفاصيل صورة المشبه به تكشف لنا تفاصيل صورة المشبه، فالجبل قد كان مُقْفِراً لم ينزل عليه مطر،

---

(١) تناولت سياق الأبيات في "صورة المطر وحيوان الوحش".

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٢٩٧، السِّطاع: جبل، أي مما غسله المطر وصَقَله، وتحسبه بعيراً " نَتِيفاً "، من الجرب، وهو مطلي من الهِناء، و " النِّجاء "، السحاب، ابن حبيب قال: السطاع جبل صغير شبهه بجمل هُنِئَ بالقَطِران، ونُتِفَ حتى يُبالَغُ فيه الهِناء. خِلاف: بعد المطر، وقوله: " ذا طِلاء "، أي تحسب السِّطاع، حين سكنت عنه السماء وانكشف مكانه، بعيراً قد طُلِيَ ونُتِف. أبو عمرو: تحسبه، من شِدَّةِ وقْعِ المطر، بعيراً قد طُلِيَ ونُتِفَ.

وحشائشه قد ماتت ويبست، وعلى صخوره غبار وأتربة، وحاله هذا كحال البعير الأجرب، وعندما نزل المطر على الجبل كان وقعه شديداً عليه، وهو هنا كحال الجمل حين يُطْلَى بالقَطِران. ويظل المطر يهطل حتى يزيل الحشائش الميتة، ويزيل الأتربة والغبار عن صخوره، ويجرف بعض حجارته، وهو كحال الجمل حين يحتُّ القطران شعره.

وبعد انقطاع المطر بدا الجبل مصقولاً لتَدُبَّ فيه الحياة من جديد وتنبت فيه حشائش جديدة خضراء، وحاله كحال الجمل حين ينمو له شعر جديد ويعود له بهاؤه.

ويقول أبو ذؤيب يصف مطراً:

لــه هَيْــدَبٌ يَعْلُــو الشِّــراجَ وهَيْــدَبٌ ... مُسِــــفٌّ بأَذْنَابِ الـــتِّلاعِ خَلُـــوجُ(١)

ضَـــــفادِعُهُ غَرْقَـــــى رِواءٌ كأنّهـــــا ... قِيـــانُ شُـــروبٍ رَجْعُهُـــنّ نَشِـــيجُ(٢)

وقوله: (ضَفادِعُهُ غَرْقَى) فيه كناية عن كثرة الماء، وأما التشبيه، فهو يشبه صورة الماء الكثير المستقر في الغُدْران والضفادع حوله تصوِّت وتعلو أصواتها وتُرَدِّدُ نقيقها فينقطع الصوت ثم يعود، بصورة مجلس للندامى به إماء مغنيات يُطربنهم، فتعلو أصواتهنَّ بالغناء ويُرَدِّدْنَ الصوت، فيسكتْنَ ويُعِدْنَ الصوت حسب مقاطع الغناء. وهذه الصورة وردت ضمن صورة للمطر جاءت دعاء لأم عمرٍو بالسقيا، ولذلك جاء بهذه الصورة التي تحمل الفرح والغناء.

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٣١، له هيدب: ما أسبل من السحاب كأنه هدب الثوب. الشِّراج: شُعَبٌ تكون في الحِرار. المسِفُّ: المسِفُّ: الداني. التَّلْعة: مَسِيل من ارض مرتفعة إلى الوادي

(٢) المصدر السابق، نشيج: متقطع. غرقى: لا تغرق، وإنما يريد كثرة الماء، قيان: إماء، شُرُوب: ندامى، نشيج: شبه أصوات ضفادعه بأصوات القيان المغنيات إذا رجَّعْنَ في أصواتهن، رَجْعُهُنّ: ردُّهُنَّ الصوتَ، الشُّروب: فتيانٌ يشربون، النَّشِيج: البكاء، يقلعنه قلعاً من أجوافهنَّ. وجاء في تاج العروس للزبيدي، ج٦، ص ٢٣٩، (نشج) : " نَشَجَ (المطْرِبُ) يَنْشِجَ نَشيجاً : إذا (فَصَلَ بين الصَّوْتينِ ومَدَّ . و) نَشَجَ (الضِّفْدَعُ) يَنْشِج ، إذا (رَدّدَ نَقِيقَه) ، قال أَبو ذُؤْيب يَصف ماءَ مَطَرٍ :

ضَفادَعُه غَرْقَى رِواءٌ كأَنّها ... قِيَانُ شُرُوبٍ رَجْعُهنَّ نَشيجُ ".

التشبيه الضمني:

من ضروب التشبيه، التشبيه الضمني، و"هو التشبيه الذي يُفهم من المعنى ويتضمنه سياق الكلام"[١]، الكلام"[١]، "ولم يُصرّح فيه بأركان التشبيه على الطريقة المعلومة"[٢]، فلا يكون التعبير فيه نصاً في التشبيه، التشبيه، وإنما بنيت العبارة عليه، وطوته وراء صياغتها، فأنت تراه هناك مضمراً مكتوماً، كقول أبي تمّام:

لا تُنكري عَطَلَ الكَريمِ مِن الغِنَى　　　فالسّيلُ حَرْبٌ للمكانِ العالي

وما شابه ذلك مما ترى العبارة فيه تطوي التشبيه في داخلها من غير أن تدعه يشكل صياغتها، ومن التشبيه الضمني ما تتلاحق فيه الأوصاف حتى تكون مكتملة وقد أخذ شكلاً محدداً في الصياغة الشعرية، كقول الخنساء:

فما عَجولٌ لَدَى بَوٍّ تُطيفُ بِه　　　لَها حَنينانِ إِعلانٌ وَإِسرارُ
أودَى به الدهرُ يوماً فهي مُرْزِمَةٌ　　　قد ساعدتها على التَّحنان أظآر
ترتَعُ ما غَفَلَتْ حَتّى إذا ادَّكَرَت　　　فَإِنَّما هِيَ إِقبالٌ وَإِدبارُ
يَوماً بِأَوجَدَ مِنّي يَومَ فارَقَني　　　صَخرٌ وَلِلدَهرِ إِحلاءٌ وَإِمرارُ

بدأت بقولها: " فما عَجولٌ " وذكرت قصة العجول التي تراها، ثم بعد ما فرغت من حكايتها الأليمة قالت: " بِأَوجَدَ مِنّي يَومَ فارَقَني "، وهذا تشبيه ضمني لأنه يتضمن تشبيه حالها بهذه الناقة الوالة على ولدها[٣]. وهذا الأخير الذي يقوم على النفي و(أفعل) التفضيل[٤]، هو الذي ورد في صورة المطر عند

---

(١) علم البيان، بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار – القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ص١١

(٢) علوم البلاغة، أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ٢٣٤

(٣) يُنظر "التصوير البياني"، محمّد أبو موسى، ص٩٠ - ٩٢

(٤) ورد هذا النوع من التشبيه عند العلوي في كتابه " الطِّراز " تحت عنوان: (التفريع)، ج٣، ص١٣٢ – ١٣٥، فقال: " الصنف السابع السابع عشر في التفريع ... وأما مفهومه في مصطلح علماء البلاغة فهو عبارة عن إتيانك بقاعدة تكون أصلاً ومقدمة لما تريده من المدح أو الذم ثم تأتي بعد ذلك بتفصيل المديح وتُعَيِّنُه بعد إجمالِك له أولاً، فالكلام الأول يؤتى به على جهة المقدمة، وبالآخر على جهة الإكمال والتتميم والتفريع لما أصَّلته من قبل، ثم يكون على وجهين، الوجه الأول منهما أن يُصّدَّرَ الكلام الأول بحرف النفي وهو (ما) وتجعله أصلا لما تريد ذكره من بعده، ثم تأتي بعد ذلك بأفعل التفضيل وهذا كقول الأعش:

ما رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الحَزْنِ مُعشبة　　　خَضراءُ جادَ عَلَيها مُسْبِلٌ هَطِلُ
يضاحكُ الشمسَ منها كوكبٌ شرقٌ　　　مُؤزَّرٌ بِعَمِيمِ النّبْتِ مُكْتَهِلُ
يَوْماً بِأطْيَبَ مِنْهَا نَشْرَ رَائِحَة　　　ولا بأحسنَ منها إذْ دنا الأصلُ

فمجيئه (بما) في أول الكلام (وبأفعل) في آخره هو كمال التفريع "، وبعد أن استوفى شواهده قال: " فانظر إلى ما حوته هذه الأبيات من التشبيه الحسن والتفريع اللائق ".

عند الهذليين، ومن ذلك قول أبي صخر الهذلي:

فمـــا رَوْضَـــةٌ بِالحَـــزْمِ ظـــاهِرَةُ الثَّـــرَى ... ولَتْهـــا نِجـــاءُ الـــدَّلْوِ بَعْـــدَ الأَبارِدِ[(١)]

يَمُـــجُّ خُزاماهـــا النَّـــدَى وَعَرَارُهـــا ... بِعَلْيـــاء لم يُـــؤثِرْ بِهـــا جَـــرْسُ وارِدِ[(٢)]

بِأطْيَـــبَ نَشْـــواً مـــن سُـــلَيْمى وَغِـــرَّةٍ ... إذا مـــا ســـقَى كـــأسُ الكَـــرَى كُـــلَّ راقِـــدِ

والتشبيه هنا ضمنيّ؛ لأنه لم يصرّح فيه بأركان التشبيه، وأسلوب التشبيه أوكد وأقوى لأنه يقوم على النفي والتفضيل. فالحرف (ما) نفى أفضلية عبير هذه الروضة ذات المكان المرتفع والأرض النديّة الممطورة، وقد فاح العبير من خزاماها وعرارِها، فنفى أفضلية عبير الروضة على رائحة المحبوبة في آخر الليل حينما ينام الناس فتتغير الأفواه، وفعل التفضيل (أطيب) أثبت هذه الصفات للمحبوبة، وأعطى

احتمال أفضلية رائحة المحبوبة على الروضة، لأن الروضة ليست أطيب منها، وأعطى احتمالاً آخر وهو: طالما أن عبير الروضة ليس أطيب من ريح المحبوبة فهو شبيه لها.

والتشبيه مركب من حيث الصورة، لأن المشبه به صورة مركبة من رائحة الأرض الممطورة مع رائحة الخزامى والعَرَار، وهذا التركيب ينعكس على المشبه، فريح المحبوبة مركب يَفْضُلُ تلك الرائحة أو يشابهها،

والتشبيه مركب حوى جوانب عدة، وهي ارتفاع مكان الروضة، ونداوة أرضها، وبرودتها، ومطرها، وفوح عبيرها، وهي في حِرْزٍ لم يمشِ بها أحد، وهذه الصفات فيها إيماءات إلى مكانة المرأة وصفاتها، من حيث ارتفاع شأنها ومكانتها، وأنها مصونة لم يصل إليها أحد، وأنها من بيت رخاء ونِعمة، وزاد عليها؛ أن الطيب يفوح منها فِطْرةً وليس تَصَنُّعاً.

ويصف أبو ذؤيب الهذلي فم المحبوبة، وتكون صورة المطر عنصراً مهماً من عناصر الصورة، فيقول[(٣)]:
فيقول[(٣)]:

ومـــا ضَـــرَبٌ بيضـــاءَ يأوي مليكُهـــا ... إلى طُنُـــفٍ أعْيـــا بِـــراقٍ وَنازِلِ[(٤)]

تُهَـــالُ العُقـــابُ أنْ تَمُـــرَّ بِرَيْـــدِهِ ... وتَرْمِـــي دُرُوءٌ دُونَـــهُ بالأجـــادِلِ[(٥)]

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٣٢، بعد الأبارد: بعد ما ذهب البرد، وَلَتْهَا: أمْطَرَتْها من " الوَلْي "، " الوَسْمِيّ " ثم " الوَلْي ". نِجَاء: سحاب. لسان العرب، (حزم) ج٤، ص١٠٨ " الحَزْم: الغليظ من الأرض، وقيل: المرتفع "، وجاء – أيضاً – (ثرا) ج٣، ص١٧ "الثرى: التراب النديّ ".

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٣٢، عَرار: شجر، لم يُؤْثِرْ: لم يمشِ بها أحد.

(٣) المصدر السابق، ج١، ص١٤٢

(٤) السابق، استضرب العسل: اشتد بياضه، الطُّنُف: حَيْدٌ من الجبل يَنْدُر، ورأس من رؤوسه، أعْيا: غَلَبَ مِنْ أن يُرْقَى عليه أو يُنْزَل.

(٥) السابق، الرَّيْد: ما نَتَأَ من الجبل، فنَدَرَ حَرْفٌ منه ناتئٌ. والدُّروء: الشاخِصُ من الجبل. الأجادِل: الصقور، يقول: إذا طارت الصقور إلى إلى هذه الدُّروء، قَصَّرت عنها فلم تبلغْها، وعجزت أن تنالها فتسقط، فجعل سقوطها رمياً من الجبل لها.

تَنَمَّى بِهَا اليَعْسوبُ حتى أَقَرَّهَا ... إلى مَأْلَفٍ رَحْبِ المَبَاءَةِ عَاسِلِ[1]

فلو كان حبلٌ من ثمانينَ قامةً ... وتِسعينَ باعاً نالَها بالأنامِلِ

تَدَلَّى عليها بالحِبالِ مُوَثَّقاً ... شَدِيدُ الوَصاةِ نابِلٍ وَابْنُ نابِلِ[2]

إذا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا ... وَخَالَفَهَا في بيتِ نُوبٍ عَوامِلِ

فَحَطَّ عَلَيْهَا والضُّلوعُ كأنها ... من الخوفِ أمثالُ السهامِ النواصِلِ

فَشَرَّجَهَا مِنْ نُطْفَةٍ رَجَبِيَّةٍ ... سُلاسِلَةٍ مِنْ ماءِ لِصْبٍ سُلاسِلِ[3]

بماءِ شُنانٍ زَعْزَعَتْ مَتْنَهُ الصَّبَا ... وجادَتْ عَلَيْهِ دِيمَةٌ بَعْدَ وَابِلِ[4]

بِأَطْيَبَ مِنْ فِيهَا إذا جِئْتُ طارِقاً ... وَأَشْهَى إذا نامَتْ كِلابُ الأسَافِلِ

فبدأ التشبيه بقوله: " وما ضَرَبٌ بيضاءَ يأوي مليكُها إلى طُنُفٍ ... "، أي: عسل أبيض، فذكر مكان النحل الذي اختاره اليعسوب، وهو في أعلى جبل شاهق صعب غلب كل راقٍ أو نازل منه، وحتى العقاب فإنه يخشاه ويسقط دونه، ولكن رغم هذا فإن المشتار يتدلى إليه بالحبال مهما كانت المسافة فينال العسل بالأنامل. وهذا العسل ممزوج بماء بارد نزل في شهر رجب، وكان رجب حينئذٍ في الشتاء، وهذا الماء عذب كان في شَقٍّ من الجبل، وقد هبت عليه الصبا فبَرَّدته، وتتابع عليه المطر الكثير ليزداد نقاءً.

وهذا المزيج المكون من العسل الفريد النادر والماء العذب البارد ليس بأطيبَ من فم المحبوبة حين ينام الناس وتتغير الأفواه، والتشبيه في هذه الصورة مركب، لأن الصورة مركبة من جوانب عدة تمثل قصة اشتيار العسل وَمَزْجُهُ بماء عذب بارد، وهو ضمني لأنه لم يُصَرَّح فيه بأركان التشبيه، وهو قائم على النفي والتفضيل، لأن الحرف (ما) نفى أفضلية ذلك العسل الفريد النادر الذي لا يصل إليه كل أحد، الممزوج بماء عذب بارد، نفى أفضليته على فم المحبوبة آخر الليل، وفعل التفضيل (أطيب) أثبت هذه الصفات لفم المحبوبة، وأعطى احتمالاً آخر هو أفضلية طعم فم المحبوبة على هذا المزيج.

وكل ما ورد من تفاصيل في صورة المشبه به فإنها إيماءات خفية يعني بها الشاعر نفسه والمحبوبة، فهي الشَّهْدَة التي لا ينالها كل أحد، وكل من أرادها يهلك دونها، وهو ذلك المشتار الحاذق الذي تَجَشَّم

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٤٣، تَنَمَّى: أي تَرَفَّع بها هذا اليعسوب حتى وضعها في مألف واسع، أَقَرَّها: أنزلها وأسكنها، المباءة: المباءة: المنزل، عاسِل: كثير العسل.

(٢) المصدر السابق: شَدِيدُ الوَصاةِ: شديد الحِفاظ لما أُوصِيَ به.

(٣) السابق، شرجها: مزجها وخلطها، نطفة رجبية: ماء أصابهم في رجب، وكان رجب يكون في الشتاء، سلاسلة: سهلة سريعة الدخول في في الحلق، اللصب: الشق في الجبل، سلاسل: عذب بارد

(٤) السابق، شُنان: الماء البارد الذي يسيل في الجبل، زعزعت متنه: حركت أعلاه، الديمة: المطر الدائم، الوابل: المطر الشديد الوقع، العظيم العظيم القدر

الصعاب فتدلَّى وخاطر بنفسه حتى نالها، والماء إشارة إلى نقاء المحبوبة وجميل طبعها، وأنها حياةٌ له[١].

وفي صورة أخرى يقول أبو ذؤيب[٢]:

وما إنْ فضلةٌ من أَذْرِعاتٍ ... كَعَينِ الدِّيك أحْصَنَها الصُّرُوح[٣]

مُصفَّقةٌ مُصَفَّاةٌ عُقارٌ ... شآميةٌ إذا جُلِيَتْ مَرُوحُ[٤]

إذا فُضَّتْ خَواتِمُها وفُكَّتْ ... يُقَالُ لَهَا دَمُ الوَدَجِ الذَّبِيحُ

ولا مُتَحَيِّرٌ باتَتْ عَلَيْهِ ... بِبَلْقَعَةٍ يَمَانِيَةٌ نَفُوحُ[٥]

خِلافَ مَصَابِ بارِقَةٍ هَطُولٍ ... مُخَالِطُ مائهِا خَصَرٌ وَرِيحُ[٦]

بأطيبَ مِنْ مُقَبَّلِها إذا ما ... دَنَا العَيُّوقُ واكْتَتَمَ النُّبُوحُ[٧]

هذه الأبيات بها تشبيهان ضمنيان، الأول: بدأ بقوله: (وما إنْ فضلةٌ ...)، ويعني خمراً، وذكر صفاتها، فشبهها بعين الديك في لونها، وهي محصَّنة في القصور، وقد صُفِّيَت، وهي تجلب المرح لصاحبها، وشبهها حين تُفَضُّ خواتمها بدمِ الوَدَجِ الذَّبيح. ثم قال: (بأطيبَ مِنْ مُقَبَّلِها ...) أي أن تلك الخمر ليست بأطيب من مُقَبَّلِ المحبوبة حين ينام الناس وتتغير الأفواه.

وهو تشبيه ضمني لأن أركان التشبيه لم يُصَرَّح بها، وهو قائم على النفي والتفضيل، فالحرف (ما) نفى أفضلية تلك الخمر – في جميع جوانبها من الصفاء والتحصين والمرح – على فم المحبوبة وقت السحر، وفعل التفضيل (أطيب) أثبت تلك الصفات لفم المحبوبة، وأعطى احتمالين؛ هما: أفضلية طعم فم المحبوبة على تلك الخمر، أو تساويهما.

والثاني: بدأ بقوله: (ولا مُتَحَيِّرٌ ...)، ويقصد ماء قد تحيّر من كثرته، وظلت الريح تحركه لتُبَرِّدَه، وقد جاء هذا الماء من سحابة هَطُولٍ وخالطها بَرْدٌ وريح. ثم قال: (بأطيبَ مِنْ مُقَبَّلِها ...)، أي أن ذلك هذا الماء العذب البارد؛ ليس بأطيب من مُقَبَّلِ المحبوبة حين ينام الناس وتتغير الأفواه.

وهو تشبيه ضمني، وهو قائم على النفي والتفضيل، فالحرف (لا) نفى أفضلية ذلك الماء – في جميع

---

(١) تم تناوُل الأبيات في مبحث "صورة المطر والمرأة"، ص٧٥ – ٧٦

(٢) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج١، ص١٧١– ١٧٢

(٣) المصدر السابق، نفس الصفحة، فضلة: يعني الخمر، الصروح: القصور.

(٤) السابق، مصفقة: تحول من إناء إلى آخر، عُقار: لازمت العقل والدن، مروح: لها سورة في الرأس، ويمرح من يشربها.

(٥) السابق، متحير: ماء قد تحير من كثرته، فليست له جهة يمضي فيها.

(٦) السابق، خِلافَ مَصَاب: أي بعد مَصاب بارِقة، البارِقة: السحابة فيها برق، هَطول: تهطِل، مُخَالِطُ مائها: أي خالط ماءها بَرْدٌ وريح. لسان العرب، (خصر)، ج٥، ص٨٠، الخَصَرُ: البَرْد، الخَصِر: البارد من كل شيء.

(٧) السابق، أراد: وما فضلة بأطيب من فيها وَمُقَبَّلِها، النُّبُوح: أصوات الناس وَجَلَبَة الحي وأصوات الكلاب، إذا ما دَنَا العَيُّوق: وهذا في وقت قد عَرَفه، لأن الأفواه تتغير إذا ذهب من الليل هَدِيٌّ، فيقول: هي في هذا الوقت طيبة الفم.

جوانبه من الكثرة والبرودة والصفاء – على فم المحبوبة وقت السحر، وفعل التفضيل (أطيب) أثبت تلك الصفات لفم المحبوبة، وأعطى احتمالين؛ هما: أفضلية فم المحبوبة على ذلك الماء، أو تساويهما.

وهذان التشبيهان يحملان إيحاءات تدل على المحبوبة، وهي أنها من بيت عز ومجد، ومُحَصَّنة لا يصل إليها كل أحد، وذات مَرَحٍ لا يَمَلُّ جليسها، وتحمل صفات الطهر وحُسْن الطبع وصفاء السريرة.

وفي ختام مبحث التشبيه أقول: إن أكثر ضروب التشبيه وروداً في صورة المطر عند الهذليين هو التشبيه المركب، وذلك لأن مشهد المطر يحمل تركيباً تتداخل فيه أشكال السحاب ولمعان البروق ودَوِيُّ الرعود، وقد جاءت صور التشبيه المركب – في أغلبها – من التشبيهات الحسية المركبة، التي تجمع بين الشكل واللون والصوت، وهذا النوع من بديع الصور عند البلاغيين، وكذلك وردت فيها بعض التشبيهات البعيدة الغريبة. وأما أقل أنواع التشبيه وروداً فهو التشبيه الضمني، ولم يرد إلا على صورة النفي والتفضيل، واقتصر وروده في سياق النسيب.

أما أكثر أدوات التشبيه استعمالاً، فهي: (كأنَّ)، وقد وردت في خمسة وعشرين موضعاً، وأكثر ورودها كان في التشبيهات المركبة، يليها (الكاف)، ووردت في خمسة عشر موضعاً، ولعل السبب في كثرة استخدام (كأنَّ) يعود إلى أن صور المطر من الصور التي تدعو إلى التأمل والتأني، والشاعر يظل يساهر البرق فيتأمله ويتأمل التقاء سحابه، ويتأمل تداخل بروقه ومطره وسيله، وكأنَّ " أداة أكثر حروفاً وعمقاً ودلالة بجرسها وتضعيف نونها على التأني والتأمل "[١]، وجرسها البطيء قدرة على أداء التجربة الشعرية التي تصور الظواهر الكونية[٢]، والمطر من أهم الظواهر الكونية التي شغلت العربي في الجزيرة العربية.

---

(١) التشبيه عند امرئ القيس، د. مُحَمَّد إبراهيم شادي، دار اليقين – مصر – المنصورة، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، ط١، ص١٦٤

(٢) ينظر المصدر السابق، نفس الصفحة.

ثانياً: الاستعارة

واضح من صور التشبيه السابقة أن كلا الطرفين قائم بنفسه ومستقل عن الآخر، وإنما حدثت رابطة جمعت بينهما، فالأشياء يستقل بعضها عن بعض ولكن الشاعر أقام بينها روابط، وطرفا التشبيه ثابتان في معانيهما الحقيقية، وكل الذي حدث هو إبراز الروابط التي ربطت بين طرفي التشبيه، والشاعر لم يتدخل في الأشياء ولم يغير أحوالها وطباعها، وإنما وقف بعيداً عنها يتأملها ويكشف ما بينها من علائق ويزيل ما بينها من تباعد. ولكن في الاستعارة تتغير الأشياء عن حقائقها، فالشاعر يدمج شيئاً في شيء، فتتحول الأشياء، وتبرز في غير صورها الحقيقية، وتتحول معانيها المألوفة إلى معانٍ جديدة، وهذا هو مناط الفرق بين التشبيه والاستعارة. والاستعارة امتداد لعلاقة المشابهة، وإيذاناً بأنها بلغت من القوة والوضوح مبلغاً صار به الشيئان شيئاً واحداً، فدخل المشبه في جنس المشبه به وصار فرداً من أفراده. وبين أيدينا سُلَّماً تتعاقب درجاته ويرتقي فيه الخيال درجة، ويبدأ من بداية الحس بالمشابهة بين شيئين مختلفين، فقولك عن رجل: هو كالأسد في الشجاعة، يفيد ضرباً من الشعور في جراءته، وأنه بلغ فيها مبلغاً يصح أن يُلحق بالأسد ويشبه به، فإذا قلت: هو كالأسد، وحذفت وجه الشبه أفاد ذلك ضرباً من القوة في الشعور بجراءته ولا تجد ذلك في الأول، ثم تقول: هو الأسد، فتفيد حساً أقوى من سابقه، وإذا قلت: كلمت أسداً تكون قد أدمجت الأول في الثاني. والتشبيه من أساليب الحقيقة، والاستعارة من أساليب المجاز، لأن الكلمة جرت على غير ما هي له[(١)]، وقال عنها عبد القاهر: " فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا والأعجم فصيحا والأجسام الخرس مبينة والمعاني الخفية بادية جلية "[(٢)]، وتعريف الاستعارة: " هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي "[(٣)].

وفي هذا المبحث سوف أدرس الاستعارة باعتبار طرفيها، أي من ناحية كونها تصريحية أو مكنية.

---

(١) يُنظر "التصوير البياني"، د. مُحَمَّد أبو موسى، ص١٨٥ – ١٨٩

(٢) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص٤٣

(٣) علم البيان، بسيوني فيود، ص١٣٩

الاستعارة التصريحية:

قال السكاكي في تعريفها: " هو أن يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه هو المشبه به "[(١)]، " وهي ما يُصرَّح فيها بلفظ المشبه به المستعار، كقولنا: رأيت أسداً يخطب الناس "[(٢)]. وقد وردت هذه الاستعارة في صور المطر عند الهذليين، فجاءت في وصف الرياح، والرعد، والسحاب، والمطر.

يقول أبو صخر، يصف الريح الممطرة التي تهب على الأطلال[(٣)]:

بكــــرَت عليـــــك لهـــــا مبشـــــرةٌ   رَيّاً تُخضِّـــــــــــــرُ بالي الهِــــــــــــدْمِ

فشبه رياح الجنوب التي تسبق المطر بالبشير، بجامع الإخبار عن الخير في كلٍّ، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية.

ومن الاستعارات التي وردت في وصف الرعد قول أمية بن أبي عائذ[(٤)]:

وأعقــــــبَ تَلْماعــــــاً بـــــــزأرٍ كأنــــــهُ   تهـــــدُّمُ طَـــــوْدٍ صـــــخره يَتَكَلَّـــــلُ[(٥)]

في البيت صورة مركبة للمعان البرق وصوت الرعد، وموضع الاستعارة في قوله (بزأرٍ)، حيث شبه صوت الرعد بزئير الأسد، بجامع قوة الصوت وإدخال الرهبة في قلب السامع في كلٍّ، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية.

ويستعيرون للرعد صوت الرجل الغليظ الذي فيه بَحَّة، يقول صخر الغي الهذلي:

لِشَـــمَّاءَ بَعْـــدَ شَـــتاتِ النَّـــوَى   وقـــد بِـــتُّ أَخْيَلْـــتُ بَرْقـــاً وَلِيفَـــا

أجـــشَّ رِبَحْـــلاً لـــه هَيْـــدبٌ   يُكَشِّـــفُ للخَـــالِ رَيْطـــاً كَشِـــيفا[(٦)]

والصورة مركبة تحوي البرق والرعد والسحاب، والاستعارة جزء من هذه الصورة، حيث شبه صوت الرعد بصوت الرجل ذي الصوت الغليظ الشديد الذي به بَحَّة، بجامع شدة الصوت والهيبة، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية.

---

(١) مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي، تحقيق: د. أكرم عثمان يوسف، منشورات جامعة بغداد، مطبعة دار الرسالة – الرسالة – بغداد، ط١، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م، ص٦٠٤

(٢) علم البيان، بسيوني فيود، ص١٥١

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٧٢

(٤) المصدر السابق، ج٢، ص٥٣٣، أراد بالزَّأْر صوت الرعد، أخذه من زئير الأسد، يتكلل: يتهدم. تناولت هذا البيت في مطلب "التشبيه "التشبيه المركب".

(٥) السابق، ج٢، ص٥٣٣، أراد بالزَّأْر صوت الرعد، أخذه من زئير الأسد، يتكلل: يتهدم

(٦) السابق، ج١، ص٢٩٤، أجشّ: في رعده جُشَّة أي بَحَّة، والرِّبَحْل: الثقيل، الخال: المخِيلة، الرَّيْط: البرق إذا انكشف، كشيفا: مكشوفا. مكشوفا. وجاء في لسان العرب، (جشش) ج٣، ص١٥١، " وفي الحديث أنه سَمِعَ تَكْبيرة رجُلٍ أَجَشِّ الصوتِ أَي في صَوته جُشّة وهي شِدّة وغِلَظ ".

ويشبهون الرعد بارتجاز الراجز، يقول البريق الخناعي(١):

سـقى الـرحمنُ حـزم نُبائعـاتٍ   مـن الجـوزاء أنـواءً غِـزارا
بمرتجِـزٍ كـأن علـى ذُراهُ   رِكـابُ الشـامِ يحملـن البُهـارا

فشبه صوت الرعد بالمُرْتَجِز، بجامع تدارك الصوت وتواليه وتقاربه في كلٍّ(٢)، ثم استعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية.

وأكثر الاستعارات التصريحية وردت في ذِكْر السحاب، فاستعاروا الجِرَار للسحاب، يقول أبو ذؤيب:

سَـقَى أُمَّ عَمْـروٍ كـل آخِـرِ ليلـةٍ   حَنـاتِمُ سُـودٌ مـاؤهُنَّ ثَجِـيجُ(٣)

ويقول أبو صخر:

تقـودُ نُعامـاهُ حنـاتِمَ أُترِعـت   مـن المـاءِ يتلـوهنَّ أسـحمُ سـاكِبُ(٤)

ويقول:

وحُلَّـت عُـراهُ بـين نَقْـرى وَمُنْشِـدٍ   وبُعِّـجَ كُلْـفُ الحنـتمِ الـمُتراكِبِ(٥)

فشُبِّهَ السحاب بالجِرار العِظام المليئة بالماء، بجامع الكثرة والإكرام في كُلٍّ، ثم اسْتُعِيرَ اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية.

وعند أبي ذؤيب ورد البيت في سياق صورة المطر والمرأة، وركز على اللون الأخضر، فقال: (حَناتِمِ سُود)، بمعنى خُضر(٦)، لأن اللون الأخضر هو لون النبات الذي ينتج عنه الخصب والخير، وكان أبو ذؤيب شغوفاً شغوفاً بهذا اللون، وكان حريصاً على إبرازه في صورة المطر الذي جعله سقيا لأم عمرو، لذلك قال بعد ذلك:

شَـرِبْنَ بمـاءِ البَحْـر ثُمَّ تَرَفَّعَـتْ   مـتى لُجُـجٍ خُضْـرٍ لَهُـنَّ نَئِـيجُ(٧)

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٧٤٢

(٢) لسان العرب، (رجز)، ج٦، ص١٠٥، "إنما سمي الرَّجَز رَجَزاً لأَنه تتوالى فيه في أَوَّله حركة وسكون ثم حركة وسكون إلى أَن تنتهي أَجزاؤه يشبه بالرَّجَز في رِجْل الناقة ورِعْدَتها وهو أَن تتحرك وتسكن ثم تتحرك وتسكن وقيل : سمي بذلك لاضطراب أَجزائه وتقاربها "، وجاء في أساس البلاغة للزمخشري، (رجز)، ص٢٢١ " ومن المجاز: ارتجز الرعد إذا تدارك صوته كارتجاز الراجز "،

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٢٨، كل آخر ليلة: مثل قوله: "لا أكلمك آخر الليالي"، ومعناه: لا أكلمك ما بقي من الزمان ليلةٌ، ليلةٌ، أبدا. الحناتم: الجِرَار الخضر، والأخضر عند العرب، الأسود. ثجيج: صبوب. يُنظر كذلك "الأنواء في مواسم العرب"، ابن قتيبة، ص ١٧٥

(٤) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٤٨، جاء في لسان العرب، (ترع)، ج٢، ص٢٢١، " ومُتْرَعٌ أَي مَمْلوء "

(٥) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٢٢، نقرى: حرَّة، بُعِّج: شُقِّق، كُلْفٌ: سود، الحنتم: الجِرَار.

(٦) لسان العرب، (خضر)، ج٥، ص٨٧، " وقوله تعالى: مُدْهامَّتَان؛ قالوا: خَضْراوَانِ لأَنهما تضربان إلى السواد من شدّة الرِّيِّ، وسميت وسميت قُرَى العراق سَواداً لكثرة شجرها ونخيلها وزرعها "

(٧) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٢٩، هذه إحدى الروايات التي ذكرها الشارح، متى لُجَجٍ: يعني: من لجج، أخرجت الماء من البحر، و "

وأما بيت أبي صخر الأول، فلم يذكر فيه لون الحناتم وإنما ذكر امتلاءها بالماء، وذلك لأنه ذكر النُّعامَى وهي ريح الجنوب التي تلقح السحاب وتستدره، وهي التي تقود ذلك السحاب، وبذلك تكون قد لقحته حتى غَزُرَ ماؤه، فاستعار للسحاب صورة الحناتم، وكان من الأنسب أن يذكر امتلاء السحاب بالماء ليبين أن الجنوب استدرته حتى امتلأ.

وأما بيته الثاني، فاستعار للسحاب الجِرَارَ، وذكر لونها (كُلْف)، أي سود، والسواد عندهم خُضْرَة، وذكر أنها متراكبة، بعضها فوق بعض، وصورة المطر التي ورد فيها هذا البيت جاءت في معرض رثاء أبي صخر ابنه داود، وكان يدعو لقبر ابنه بالمطر الوفير، وعند استعارته الجِرارَ للسحاب ذكر لونها، لأن اللون الأخضر لون الحياة والخصب والخير، وذكر تراكبَ الجِرار وكثرتها وأنها قد أُفرِغ منها كل مائها؛ ليبين كثرة الماء المنسكب من تلك السحائب على القبر، وعاطفة الأبوَّةِ جعلته يكثر الجِرار لتكون السقيا أعظم ما تكون.

ويستعيرون للسحاب المُسْبِل الممطر لفظ (هَيْدَب)، وهو طرف الثوب المتدلي[١]، وقد ذكر مُحَّد الحسن علي الأمين أن هذه الاستعارة لم ترد إلا في سياق الدعاء لأرض المحبوبة بالسقيا[٢]، ولكنني وجدت أنها ترد في سياقات عدة، وهي:

في سياق صورة المطر والمرأة، عند الدعاء للمحبوبة بالسقيا، كقول أبي ذؤيب:

لــه هَيْــدَبٌ يَعْلُــو الشِّــراجَ وهَيْــدَبٌ   مُسِــــفٌّ بأَذْنَابِ الـــتِّلاعِ خَلُـــوجُ[٣]

وفي سياق صورة المطر والمرأة، عندما جعل مُلَيْح الهذلي صورة المطر مطلعاً لحديثه عن محبوبته، فقال:

بــذي هيــدبٍ أمــا إذا مــا عــلا الــربى   فـــيروي وأمـــا كـــل وادٍ فيرعـــب[٤]

وفي سياق صورة المطر والمرأة، عندما رأى صخر الغي الهذلي أن محبوبته شمّاء هي مصدر البرق، يقول:

لِشَـــمَّاءَ بعـــد شـــتات النـــوى   وقـــد بِـــتُّ أَخْيَلْـــتُ برقـــاً وَلِيفَـــا

أَجَـــشَّ رِبَحْـــلاً لـــه هَيْـــدَبٌ   يُكَشِّـــفُ للخـــالِ رَيْطـــاً كَشِـــيفا[٥]

و " متى "، في لغة هذيل، وسط الشيء، تقول: " أخرجته من متى كُمِّي "

تروَّت: شربت فرويت. حبشيات: سحابات سود. لهن نئيج: لها مَرٌّ سريع وصوت.

(١) لسان العرب، (هدب)، ج١٥، ص٣٣، " والهَيْدَبُ: السحاب الذي يَتَدَلَّى ويدنو مِثلَ هُدْب القَطِيفةِ. وقيل: هَيْدَبُ السحابِ ذَيْلُه؛ وقيل: هو أَن تَراه يَتَسَلْسَلُ في وَجْهه للوَدْقِ، يَنْصَبُّ كأَنه خُيُوطٌ مُتَّصِلة؛ الجوهري: هَيْدَبُ السَّحابِ ما تَهَدَّبَ منه إِذا أَرادَ الوَدْقَ كأَنه خُيُوطٌ "

(٢) يُنظر "الصورة البيانية في شعر الهذليين دراسة وتحليل ومقارنة"، مُحَّد الحسن علي الأمين، ص٢٠٠

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٣١، له هيدب: ما أسبل من السحاب كأنه هدب الثوب، مثل خَمْلِ القَطيفَة. الشِّراج: شُعَبٌ تكون في الحِرار. المسِفُّ: الداني.

(٤) المصدر السابق، ج٣، ص١٠٥٠، هيدب: سحاب متدلٍ، يرْعَبُ: يملأ، تناولت الحديث عن القصيدة كاملة في مبحث " صورة المطر والمرأة ".

(٥) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص٢٩٤

وفي سياق صورة المطر وحيوان الوحش، عندما وصف أبو كبير الهذلي وادياً كانت به حُمُرُ الوحش وكان المطر دائم الهطول عليه، يقول:

واهــي العُــروضِ إذا اِســتَطارَ بُروقُــهُ ذاتَ العِشـــاءِ بِهَيَـــدَبٍ مُتَهَـــزِّمِ[1]

وفي سياق صورة المطر الذي دمر الطلل، يقول أمية بن أبي عائذ الهذلي:

وَزَمْــــزَمَ في ذِي هَيْــــدَبٍ لِسَـــحِيلِهِ سِـــجالٌ كمـــا انْسَـــحَّ المِـــزادُ المجَـــزَّلُ[2]

وفي الشواهد السابقة شُبِّهَ السحاب المتدلي الممطر بِطَرَفِ الثوب المتدلي الذي تبدو خيوطه متجهة إلى الأسفل، بجامع الاستطالة والاتجاه إلى الأسفل في كُلٍّ، ثم اسْتُعِيرَ اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية.

ويستعيرون للسحاب الممطر كلمة (مَطَافِيل)، وهي الإبل حديثة النَّتاج كثيرة اللبن، يقول مُلَيْح الهذلي:

فراقبتــــه حــــتى تيــــامن واحتــــوت مطافيــــلَ منــــه حُــــرَّياتٌ فــــأغرُبُ[3]

ويقول أبو صخر:

تحـــــوزُ منـــــاتيحَ الغمـــــامِ وتمـــــتري مطافيـلَ لم يُنْـدِب بهـا صَـرُّ حالـبِ[4]

وبيت مُلَيْح ورد في سياق صورة المطر والمرأة، حيث بدأ حديثه عن المرأة بصورة المطر، يقول[5]:

تنبــه لــبرق آخــر الليــل موصــبِ رفيــعِ الســنا يبــدو لنــا ثم ينضُــبُ[6]

تــــراه كتخفــــاق الجنــــاح ودونــــه مــن النــير أو جنــبي ضــرية منكــب[7]

ســـرى دائبـــا في الرمـــل يـــترك خلفـــه مواهــب لم يعتِــك علــيهن طحلــب[8]

بــذي هيــدبٍ أمــا إذا مــا عــلا الــربى فــيروي وأمــا كــل وادٍ فيرعــب[9]

---

(١) المصدر السابق، ج٣، ص١٠٩١، واهٍ: كأنما تشققت نواحيه بالماء، اِستَطارَ بُروقُهُ: أي انكشف، الهيدب: الذي يتدلى من السحاب كأنه هُدْبُ قطيفة، متهزم: متشقق بالماء.

(٢) السابق، ج٢، ص ٥٣٥

(٣) السابق، ج٣، ص١٠٥١، احْتوَت: أخذت ماءها، مطافيل: سحاب كبار معه صغار، ومطافيل غزيرة فيها ماء كالمطافيل من الإبل، حُرَّيات: بلد.

(٤) السابق، ج٢، ص٩١٩، تمتري: تمسح، يُنْدِب: يؤثِّر

(٥) السابق، ج٣، ص١٠٥٠

(٦) السابق، موصب: دايم، ينضب: يخفى.

(٧) السابق، ج٣، ص١٠٥٠، النير: جبل، ضرية: أرض، منكب: جانب منه

(٨) السابق، مواهب: غدران، يعتك: يلصق

(٩) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج٣، ص١٠٥٠، هيدب: سحاب متدلٍ، يرْعَبُ: يملأ

تـرى مُرَعـاً يخـرجن مـن تحـت ودقـه　　　مـن المـاء جـوناً ريشـها يتصـبب[1]

فراقبتـه حـتى تيـامن واحتـوت　　　مطافيـل منـه حـرياتٌ فـأغرُبُ[2]

فالمحبوبة بعيدة عنه، وتستحيل زيارتها لأن قومها وقومه بينهم حرب، فرأى البرق يبدو ثم يختفي، وحركته كخفقان الجناح، وهذا المطر أمل في وصال المحبوبة؛ لذلك انتقل الشاعر إلى نتيجة البرق مباشرة وهي السيل، فالسيل قد ترك وراءه غُدْراناً ، ونكَّرها (مواهب) للتكثير، ولم تلتصق بها الطحالب، وهذه كناية عن صفاء الماء، ثم عاد إلى وصف السحاب الذي نزل منه المطر، فاستعار له هُدْبَ الثوب على سبيل الاستعارة التصريحية –كما مر – ثم ذكر طيور (المُرَع) وقد ابتلت وأصبح ريشها يتصبب ماء، وهذه كناية عن شدة المطر وغزارته، ثم ختم صورة المطر بالبيت الذي وردت فيه الاستعارة التصريحية:

فراقبتـه حـتى تيـامن واحتـوت　　　مطافيـل منـه حـرياتٌ فـأغرُبُ

فقد راقب السحاب حتى اتجه نحو اليمن، ولعلها دار المحبوبة، وأخذت الأرض ماء السحاب، وشبه السحاب بالإبل المطافيل، بجامع الامتلاء والعطف في كلٍّ، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، فجعل السحابة أماً للأرض تعطف عليها وتدر لها حليبها.

وأما بيت أبي صخر فكان ضمن صورة المطر التي جاءت دعاء لقبر ابنه داود، يقول:

سـرى وغـدت في البحـرِ تضـرب قُبْلَـه　　　نُعـامى الصـبا هَيْجـاً لِـرَيّا الجنائـب[3]

ثـلاثاً فأسـرت مُزْنـةٌ حضـرميةٌ　　　لهـا ثائـبٌ طـلُّ النـدى بعـد ثائـب

تحـوزُ منـاتيحَ الغمـامِ وتمـتري　　　مطافيـلَ لم يُنْـدِب بهـا صَـرُّ حالـبِ[4]

فرياح الجنوب ظلت تلقح السحاب ثلاث ليالٍ، فسرت إثر ذلك مزنة من جهة حضرموت متجه نحو مكان القبر، وفي البيت الأخير صورتان مجازيتان تتآزران وتكونان صورة كلية لاستدرار السحاب بواسطة الرياح ليمتلئ بالماء، فشبه الرياح بالرجل الذي يمسح على ضرع الناقة لِتَدُرَّ حليباً، فحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله (تمتري) على سبيل الاستعارة المكنية، وشبه السحاب بالإبل المطافيل حديثة النتاج بجامع الامتلاء والعطف في كلٍّ، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، وهذه المطافيل لم تُحْلب من قبلُ، مما يوحي بأنها ستدرُّ حليباً كثيراً.

واستعار أبو ذؤيب (الطِّفْل)، لصغار السحاب، يقول:

---

(١) المصدر السابق، مُرَعٌ: طير، واحدتها مُرَعَة

(٢) السابق، احْتوَت: أخذت ماءها، مطافيل: سحاب كبار معه صغار، ومطافيل غزيرة فيها ماء كالمطافيل من الإبل، حُرَّيات: بلد.

(٣) السابق، ج٢، ص٩١٩، الجنائب: الجنوب.

(٤) السابق، "تحوز" الريح. "تمتري" تَمْسَح. " يُنْدِب" يؤثِّر.

وَهَـــى خَرْجُـــه واسْـــتُجِيلَ الجَهَـــا ... مُ عنـــه وغُـــرِّمَ مـــاءً صَـــرِيحَا[(١)]

ثـــلاثا فلمـــا اسْـــتُجِيلَ الـــرَّبا ... بُ واسـتَجْمَعَ الطِّفْـلُ فيـهِ رُشُـوحَا[(٢)]

مرتـــه النُّعـــامى فلـــم يعـــترِف ... خِـلافَ النعـامى مـن الشـأم رِيحـا[(٣)]

فحـــطَّ مـــن الحُـــزَنِ المغْفِـــرا ... تِ والطـير تلثَـقُ حـتى تصـيحا[(٤)]

صورة المطر هذه، جاءت بعد أن رأى أبو ذؤيب طيف أم سفيان، وذكر أبو ذؤيب قبل هذه الأبيات أن التقاء السحب ببعضها كالتقاء الإبل ببعضها، ولما اجتمع السحاب، أخذت الريح تطرد السحاب الذي لا ماء فيه، ليبقى السحاب الممتلئ بالماء، فانْصَبَّ منه الماء، فقال: (وغُرِّمَ ماءً صَرِيحا)، فشبه السحاب بالرجل ذي المال، فحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله: (غُرِّمَ)، على سبيل الاستعارة المكنية. فمكث المطر ثلاث ليالٍ، ثم كشفت الريح السحاب وقطَّعتْه.

وصور لنا أبو ذؤيب صورة صغار السحاب، فشبهه بـ (الطِّفْل)، ويعني به هنا صغار الإبل، بجامع عدم اكتمال النمو في كلٍّ، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، وهذا الطِّفل قد ترشح ولحق أمه، ورُشُوح الطِّفل ولحاقه أمه ترشيح لهذه الاستعارة.

ولما أصبح صغار السحاب كباراً اسْتَدَرَّتْهُ النُّعامى، فشبه الشاعر رياح الجنوب وهي تستدر السحاب بالرجل الذي يمسح على ضرع الناقة ليستدِرَّ حليبها، فحذف المشبه ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله (مَرَتْهُ) على سبيل الاستعارة المكنية، ولم يعرف ذلك السحاب ريحاً أخرى تفرقه، حتى أصبح محملاً بالماء. ثم نزل المطر من ذلك السحاب، فقال أبو ذؤيب: (فحطَّ من الحُزَن) فشبه السحاب بالجبال الغِلاظ، بجامع العِظَم، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، وقوله: (والطير

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٩٨، خَرْجَهُ: ما خرج من الماء، يريد أنه تَخَرَّقَ بالماء، اسْتُجِيلَ الجَهَام: أي جاءته الريح فكشفته وقطعته، وقطعته، وجهامه: ما خف من السحاب وهَرَاقَ ماءَه.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص١٩٩، ثلاثاً: مكث المطر ثلاث ليال، استَجْمَعَ الطِّفْلُ: فإذا مشى واتَّبَع أمه فقد رشح، يقول: استجمع السحاب حتى لحق صغاره بكباره، والطفل: صغار السحاب، أي فَقَوِيَ، ويقال: تَرَشَّحَ الصبي، إذا قَوِيَ على المشي.

وجاء في تاج العروس، (رشح)، ج٦، ص٣٩٤، "وأَرْشَحَت النَّاقةُ والمرْأَةُ ، وهي مُرْشِحٌ : إذا خَالَطها وَلدُها ، ومَشَى معَها ، وسَعَى خَلْفَها ، ولم يُعْيِها . وقيل إذا قَوِيَ وَلَدُ الناقةِ ، (فهو راشحٌ ، وأُمُّه مُرْشِحٌ) ، وقد رَشَحَ رُشُوحاً . قال أَبو ذُؤيب ، واستعاره لصِغار السَّحَاب :

ثلاثاً ، فلمَّا اسْتُجيلَ الجها ... مُ ، واسْتَجْمَع الطِّفلُ فيه رُشوحَا "

وجاء – أيضاً – في تاج العروس، ج٢٨، تحقيق: د. محمود محمَّد الطناحي، مطبعة حكومة الكويت، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م، ص٢٥٣، (جول)، " ويقال : استُجِيلَ الرَّبابُ : أي جاءتْه الرِّيحُ فاستَجالَتْهُ أي كَشفَتْه وقَطَعتْه فطردته".

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٩٩، مَرَتْه: اسْتَدَرَّتْهُ ومَسَحَتْهُ، لم يعترف: لم يعرف.

(٤) المصدر السابق، ج١، ص٢٠٠، حَطَّ: أنزل، المغفرات: الأَرْوى، الحُزَن: الجِبال الغِلاظ، والطير تلثَقُ حتى تصيح: مما بها. جاء في لسان لسان العرب (لثق) ج١٣، ص١٦٩ "اللَّثَقُ بالتحريك البَلَل يقال لَثِقٌ الطائرُ إذا ابتلّ ريشه".

تلثَقُ حتى تصيحا)، كناية عن شدة المطر وكثرته.

ويستعيرون للسحاب الداني من الأرض لفظ (حَبِيّ)[1]، يقول أمية بن أبي عائذ:

وكـــلُّ حَـــبِيٍّ ذي رديـــف لعَرْضِـــهِ   ســـنامٌ وهـــادٍ مُتْلَئِـــبٌّ وَكَلْكَـــلُ[2]

والبيت ورد ضمن صورة المطر الذي دمر الطلل وغير معالمه، وفي هذا البيت يصور الشاعر السحاب العظيم الذي غطى سماء الطلل، وقد تآزرت صور الاستعارة التصريحية في هذا البيت لتكوِّن صورة السحاب، وهذا البيت أكثر بيت عند الهذليين وردت فيه الاستعارات التصريحية، وقبل هذا البيت ذكر الشاعر أن الطلل دمره عاملان، الأول؛ الريح القوية التي ترمي الطلل بالحصى، والثاني؛ (كل حَبِيٍّ ...)، فشبه السحاب الداني من الأرض بالحيوان الذي يزحف على الأرض، بجامع القُرْب من الأرض في كلٍّ، ثم استعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، وهذا السحاب خلفه سحاب، فشبه السحاب الثاني بالرديف الذي يركب خلف صاحبه[3]، بجامع التتابع في كلٍّ، ثم استعار اللفظ الدال على على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، وهذا الرديف قد امتد أعلاه في السماء، فشبه امتداده في السماء بامتداد سنام البعير، بجامع الارتفاع والعظمة والخير في كلٍّ، لأن ارتفاع سنام البعير وَعِظَمِه يدل على أنه يعيش في رغد من العيش، ثم استعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية. ثم شبه مقدمة السحاب بصدر البعير، بجامع العَظَمة والثِّقَل في كلٍّ، ثم استعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية.

ويستعيرون للسحاب الحَيْدَ من الجبل، يقول ساعدة بن جؤية:

ثم انتهـــى بَصَـــري وأصـــبح جالســـاً   منـــهُ لِنَجْـــدٍ طـــائقٌ مُتَغَـــرِّبُ[4]

كان هذا البيت في ختام صورة المطر والمرأة، فبعد أن راقب الشاعر البرق، ثم أمطر المطر وسالت الأودية، ابتعد السحاب حتى انقطع بصر الشاعر دونه، وبقي جزء منه يعلو نجد تهامة، وهو مازال مهيأً لأن ينزل

(١) أساس البلاغة، الزمخشري، (حبو)، ص١١١، " حبا الصبي يحبو إذا زحف، والبعير المعقول يحبو إذا زحف. ولو عرفوا فضله لأتوه ولو ولو حبواً ... ومن المجاز: سهم حاب، وهو الذي يزلج على الأرض ثم يصيب الهدف، وسهام مقرطسات وحواب. وحبوت للخمسين: دنوت منها، كما تقول العرب ناطحت الخمسين وناهزتها. وسقاكم الحبيّ وهو السحاب المسف قال امرؤ القيس:
كلمع اليدين في حبي مكلل ".

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ٥٣٣، مُتْلَئِبٌّ: مستقيم.

(٣) لسان العرب، (ردف)، ج٦، ص١٣٦، " ورَدِفَ الرجلَ وأَرْدَفَه: رَكِبَ خَلْفَه، وارْتَدَفَه خَلْفَه على الدابة. ورَدِيفُكَ الذي يُرادِفُك "

(٤) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ١١٠٥، يقول: ثم انقطع بصري دون هذا الغَيْم، أصبح جالساً: أي علا نجداً من تهامة، الطائق: الحَيْد ينذُر ينذُر من الجبل، متغرب: إما بعيد من الغربة، وإما أخذ من قِبَل المغرب. وجاء في لسان العرب (جلس) ج٣، ص١٧٨، " وجَلَسَ السحابُ: أَتى نَجْداً أَيضاً؛ قال ساعِدَةُ بنُ جُؤَيَّة:
ثم انتهى بَصَري وأَصْبَحَ جالِساً   منه لنَجْدٍ طائِفٌ مُتَغَرِّبُ
وعداه باللام لأَنه في معنى عامداً له ".

منه المطر مرة أخرى، ويشبه الشاعر هذا الجزء من السحاب بالحَيْدَ[١] من الجبل، بجامع العلو والعِظَمِ والبروز عن الأصل بشكل عَرْضيٍّ في كلٍّ، ثم استعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية.

واستعار خالد بن زهير السحابة لغضبه، يقول:

فأقصِـــرْ ولم تأخـــذْكَ مـــني ســـحابةٌ يُنَفِّـــرُ شَـــاءَ الـــمُقْلِعِينَ خَريرُهـــا[٢]

وهذا البيت ورد ضمن قصيدة يهدد فيها أبا ذؤيب، وذلك بعد أن هجاه أبو ذؤيب، فهو يحذره، ويقول له كُفَّ عني هجاءك، وإن لم تفعل فسوف تجد مني هجاءً ومنطقاً وغضباً مثل السحابة، فشبه هجاءه وغضبه بالسحابة، بجامع الإيذاء والضرر في كُلٍّ، ثم استعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، ونكَّر (سحابة) للتعظيم، أي أنها سحابة عظيمة، ذات برق وصواعق ومطر شديد، ثم قال: (يُنَفِّرُ شَاءَ المقْلِعِينَ خَريرُها)، أي أن هذه السحابة العظيمة سيصل سيلها إلى أماكن بعيدة وسماؤها مُقْلِعة لا سحاب فيها، لا يتوقع أهل تلك الأماكن السيل، فيفاجئ خرير السيل شاءهم فتنفر منه، وهذا يعني أن مطر السحابة كثير وستصل سيوله إلى أماكن بعيدة، وهو يقصد بذلك أن هجاءه وغضبه عظيمان وستبلغ أخبارهما أماكن بعيدة.

---

(١) لسان العرب (حيد) ج٩، ص ١٥٠، " حَيْدُ الجبل: شاخصٌ يخرج منه فيتقدم كأنه جَناح "

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج١، ٢١٥، أقصر، يعني: كُفَّ، ولم تأخذك مني سحابة: منطق وهجاء كأنه مطر ينفر شاء الناس، المقلعين: الذين أقلعت سماؤهم فليس لها مطر، الخرير: صوت الماء.

الاستعارة المكنية:

هي التي لا يُصرَّح فيها بلفظ المشبه به، بل يُطوَى ويُرْمَزُ له بلازم من لوازمه. ويُسند هذا اللازم إلى المشبه، وسميت استعارة مكنية، لأن المشبه به يحذف ويُكنّى عنه بلازم من لوازمه، ، وإثبات لازم المشبه للمشبه به هو ما يسمى بالاستعارة التخييلية، وهي قرينة المكنية(١). وقد ذكر سعد الدين التفتازاني أن هناك آراء ثلاثة في تحديد هذه الاستعارة، فقال: " قد اتفقت الآراء على أن في مثل قولنا أظفار المنية نشبت بفلان استعارة بالكناية، واستعارة تخييلية، لكن اضطربت في تشخيص المعنيين اللذين يطلق عليهما هذان اللفظان، ومحل ذلك يرجع إلى ثلاثة أقوال "(٢):

القول الأول:

وهو رأي الخطيب القزويني، يقول: " قد يُضمر التشبيه في النفس؛ فلا يصرح بشيء من أركانه سوى لفظ المشبه، ويُدل عليه بأن يُثْبَتَ للمشبه أمر مختص بالمشبه به، من غير أن يكون هناك أمر ثابت حساً أو عقلاً أُجْرِيَ عليه اسم ذلك الأمر؛ فيسمى التشبيه استعارة بالكناية، أو مكنيا عنها، وإثبات ذلك الأمر للمشبه استعارةً تخييلية "(٣). ويعلق الدكتور مُحَّد أبو موسى على رأي الخطيب بقوله:

والخطيب يذكر في هذا النص استعارتين: استعارة هي تشبيه مضمر في النفس، واستعارة أخرى هي إثبات لازم المشبه به إلى المشبه، فقول سلم الخاسر:

فأنـــتَ كالـــدهرِ مبثـــوثاً حبائلُـــهُ   والـــدهرُ لا ملجـــأٌ منـــه ولا هَـــرَبُ

تجد في قوله: " حبائله " استعارتين، الأولى: هي تلك العملية النفسية التي سبقت إضافة الحبائل إلى الدهر، وهي تشبيه الدهر بصائد له حبائل، وهذه العملية النفسية المضمرة هي الاستعارة المكنية، والثانية: هي الإضافة التي خيلت أن الدهر صائد له حبائل، وهي الاستعارة التخييلية، وهي ضرورة المكنية وقرينتها الدالة عليها. ومن هنا كانت هاتان الاستعارتان من الأمور المعنوية عند الخطيب، وليست من المجاز الذي هو استعمال الكلمة في غير ما وضعت له، وهاتان الاستعارتان ليستا في الألفاظ، وإنما في أمور واعتبارات نفسية هي تشبيه مضمر، أو إثبات الشيء إلى غير ما هو له(٤).

القول الثاني:

وهو رأي الجمهور، وفحواه أنها المستعار المحذوف المرموز إليه بشيءٍ من لوازمه، فقول أبي صخر الهذلي:

عَجِبْـتُ لِسَـعْيِ الـدَّهْرِ بيـني وبينَهـا   فلمـا انقضـى مـا بيننـا سَـكَنَ الـدَّهْرُ

---

(١) يُنظر "علم البيان"، بسيوني فيود، ص١٥٣

(٢) كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح، سعد الدين مسعود التفتازاني الهِرَوِي وبهامشه حاشية المير سيد شريف، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٣٣٠هـ، ص٣٨١، وينظر " التصوير البياني "، د. مُحَّد أبو موسى، ص٢٥٧ – ٢٧٧، فقد ناقش هذه الآراء باستفاضة.

(٣) الإيضاح، الخطيب القزويني، ص٣١٧

(٤) ينظر "التصوير البياني"، د. مُحَّد أبو موسى، ص٢٥٧– ٢٥٨

شبه الدهر بإنسان تكون منه الوشاية، ثم استعار الواشي للدهر استعارة سكت عنها، ورمز إليها بقوله: " سَعْي الدهر " أي بإضافة السعي الذي يكون من الواشي إلى الدهر، وقوله: " سَكَنَ الدهر " ترشيح لهذه الاستعارة، فالمسألة لا تنتهي عند التشبيه المضمر كما يقول الخطيب، وإنما يقرر الجمهور مرحلة أعلى في الادعاء والدمج، وهي تناسي التشبيه ودخول المشبه في جنس المشبه به، ويصيران شيئاً واحداً[١]، وإثبات وإثبات لازم المشبه به للمشبه استعارة تخييلية، وهي قرينة المكنية[٢].

القول الثالث:

وهو رأي أبي يعقوب السكاكي، وخلاصته أن الاستعارة المكنية هي: لفظ المشبه المستعار للمشبه به، وهذا عكس ما هو مشهور في طريقة الاستعارة، لأننا نستعير المشبه به للمشبه، وأما رأيه في الاستعارة التخييلية فملخصه أن اللفظ فيها مستعمل في صورة وهمية اخترعها الخيال لتشاكل اللازم في المشبه به،

وهذه هي المذاهب الثلاثة في المكنية والتخييلية، وأكثر البلاغيين على رأي الجمهور[٣].

وقد وردت الاستعارة المكنية في صور المطر عند الهذليين، ولكنها أقل من الاستعارة التصريحية، ووردت في تصوير البرق، والرياح، والسحاب، فعن البرق يقول أبو ذؤيب الهذلي:

رأيـــتُ وأهلـــي بـــوادي الرَّجِيـــ ـــعِ في أرض قَبْلَـةَ برقـا مُلِيحـا[٤]

ورد هذا البيت ضمن سياق صورة المطر والمرأة، فأم سفيان بعيدة عن أبي ذؤيب، فجاءه طيف منها، وبعد ذلك رأى البرق من جهتها (أرض قَبْلَة)، فشبه البرق بالبشير، فحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الإشارة بالثوب أو السيف، وأرى أن الإشارة بالسيف أقرب، لأن حركة السيف السريعة يمنة ويسرة وارتفاعاً وانخفاضاً تحاكي صورة البرق. والبشير عندما يأتي من بعيد ليبشر الناس بخير قادم يظل يُليحُ بثوبه أو سيفه ليراه الناس، لذلك شبه صخر الغي البرق بالبشير، فقال:

أرقـــتُ لـــهُ مثـــلَ لَمْـــعِ البشـــيرِ يُقَلِّـــبُ بالكـــفِّ فَرْضـــاً خفيفـــا[٥]

وأبو ذؤيب يرى البرق بشيراً يبشره باجتماع الشمل والخير الكثير.

ولما ظن أبو ذؤيب أن البرق صادر عن المحبوبة جعله هو العنصر الفاعل في صورة المطر، فهو الذي يستخرج الرعد، يقول:

أمنـــكِ بـــرقٌ أبيـــتُ الليـــلَ أرقُبُـــهُ كأنَّـــهُ في عِـــراضِ الشـــأْمِ مِصْـــباحُ

---

(١) ينظر "التصوير البياني"، د. محمد أبو موسى، ص٢٦٣ - ٢٦٦

(٢) يُنظر علوم البلاغة، أحمد مصطفى المراغي،ص٢٧١، وينظر علم البيان، بسيوني فيود، ص١٥٣

(٣) ينظر "التصوير البياني"، د. محمد أبو موسى، ص٢٧١ - ٢٧٦

(٤) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٩٧،كما يُليحُ الرجل بثوبه، وألاحَ فلان بثوبه وألاحَ بسيفه: إذا أشار به ، واللائح: الذي يظهر.

(٥) المصدر السابق، ج١، ص٢٩٥، أرقت له: سهرت له. الفرض: قال الأصمعي عن بعض أعراب هذيل: ثوب.

يَجُـشُّ رعـداً كهَـدرِ الفحـل تتبعـهُ   أُدْمٌ تَعَطَّفُ حَولَ الفحـل ضَحْضَاحُ[1]

فبث روح الحياة في البرق، فشبهه بإنسان متصرف في الأمور، فحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الاستخراج والتصرف، على سبيل الاستعارة المكنية[2].

وأكثر الاستعارات المكنية وروداً هي التي تصور استدرار الرياح للسحاب، كقول أبي صخر في سياق الدعاء لقبر ابنه داود بالسقيا:

تحـوزُ منـاتيحَ الغمـامِ وتَمْـتَري   مطافيـلَ لم يُنْـدِب بهـا صَـرُّ حالـبِ[3]

وقول أبي ذؤيب في سياق صورة المطر والمحبوبة:

مرتـه النُّعـامى فلـم يعـترِف   خِـلافَ النعـامى مـن الشـأم رِيحـا[4]

وقول أبي صخر يمدح أبا خالد عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد:

إذا غبـت رجَّينـا إيابـك مثـل مـا   يُرَجَّـى سِمَـاكِيٌّ مَرَتْـهُ الجنائـب[5]

وقوله في سياق الدعاء لأطلال المحبوبة بالمطر:

طِفْـلٌ يمانيـةٌ لهـا رَهَـجٌ   تَمْـري قَـوَادِمَ دُلَّحٍ دُهْـمِ[6]

ويجمع بين الشواهد السابقة، أن الرياح التي تلقح السحاب هي رياح الجنوب، ولكنها وردت بألفاظ مختلفة، فهي (النُّعامى، والجَنوب، واليمانية)، وهي تَمْرِي السحاب، " والمَرْيُ: مسح ضرع الناقة لِتَدِرَّ، مَرَى الناقة مَرْياً: مسحَ ضَرْعَها للدِّرَّة "[7]، فشُبِّهَت الرياح بصاحب الإبل الذي يمسح على ضرع ناقته ليستدِرَّ حليبها، فَحُذِفَ المشبه به ورُمِزَ له بشيء من لوازمه وهو (المَرْيُ) على سبيل الاستعارة المكنية.

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٦٧، يَجُشُّ رعداً: يستخرج رعداً، ضَحْضاح: كثير بلغة هذيل، جاء في لسان العرب (ضحح) ج٩، ج٩، ص١٩ " وقيل: هو الماء اليسير؛ وقيل: هو ما لا غَرَقَ فيه ولا له غَمْرٌ؛ وقيل: هو الماءُ إلى الكعبين إلى أَنصاف السُّوقِ "، ثم استشهد ببيت أبي ذؤيب هذا، فقال: " ضَحْضاحٌ في لغة هذيل كثير لا يعرفها غيرهم "، وجاء في تاج العروس (ضحح) ج٦، ص٥٦٦ " وإبِلٌ ضَحْضَاحٌ : كثيرةٌ . وقال الأَصمعيّ : هي المُنْتشرَة على وَجهِ الأَرْض "، وتَعَطَّف: تميل، جاء في لسان العرب (عطف) ج١٠، ص ١٩٢، عَطَفْتُ: مِلْتُ.

(٢) تناولت هذه الاستعارة المكنية وسياقها في " التشبيه المركب ".

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩١٩، " تحوز " الريح. " تمتري " تَمْسَح. " يُنْدِب " يؤثِّر. تناولت الاستعارة المكنية في هذا البيت مع سياقها في مطلب "الاستعارة التصريحية".

(٤) المصدر السابق، ج١، ص١٩٩، مَرَتْه: اسْتَدَرَّتْهُ ومَسَحَتْهُ، لم يعترف: لم يعرف. تناولت الاستعارة المكنية في هذا البيت مع سياقها في مطلب "الاستعارة التصريحية".

(٥) السابق، ج٢، ص٩٤٨، تناولت هذا البيت في " صورة المطر والمدح "، سِمَاكِيّ: يعني به نوء السِّماك، وهو نوء غزير مذكور.

(٦) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٧٢، لسان العرب، (طفل) ج٩، ص١٢٦، " الطِّفْل: البَنان الرَّخْص "، وجاء في أساس البلاغة (طفل)، ص٣٩٢، " ومن المجاز ... وريحٌ طِفْلٌ: ليّنة " وجاء في لسان العرب (دلح) ج٥، ص٢٨٦، " الدَّلْحُ: مَشْيُ الرجل بِحِمْلِه وقد أَثقله... وكذلك البعير".

(٧) لسان العرب، (مرا)، ج١٤، ص٦٣

وقد ورد فعل (المَرْي) في صيغة المضارع عند أبي صخر في سياق الدعاء للأطلال، فشبهها بالبَنان الرَّخْص الناعم، والتقدير (هي طِفْلٌ)، وذلك لكي لا تؤثر في أطلال المحبوبة وتغير معالمها، وعبر عنها بالمضارع (تَمْري)، لأن المضارع يدل على تجدد الحدوث، لكي يمتلئ السحاب بالماء ليسقي الطلل ويرويه، وشبه السحب بالإبل المُثْقلة بالأحمال، ثم استعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، وقوله: (دُهْم) ترشيح للاستعارة، وإشاعة لها، مما يُوهِمُ أن الحديث كأنه يجري على أسلوب الحقيقة(١)، أي يوهم أن السحابَ إبلٌ حقيقية دُهْمٌ قد أثقلتها أحمالها.

وقد ورد فعل (المَرْي) عند أبي صخر في سياق الدعاء لقبر ابنه بالسقيا، بالمضارع (تَمْتَري)، ولكنه بصيغة أكثر في مبناها، لأن عاطفته نحو قبر ابنه تدعوه لأن تكون الريح أكثر امتراءً للسحاب، ويتجدد حدوثها لينعم مكان القبر بالمطر الكثير.

أما الاستعارات المكنية التي تصف السحاب، فهي قليلة بالمقارنة مع الاستعارات التصريحية، يقول قيس بن عَيْزارة يدعو لديار قومه بالسقيا:

سـقى الله ذاتَ الغَمْـرِ وَبْـلاً وَدِيمَـةً ... وجـادَتْ عليـهِ البارِقـاتُ اللوامِـعُ(٢)

فبدأ بالدعاء بصيغة الماضي (سقى)، وكذلك قوله (جادَتْ)، وهذا فيه إلحاح في الدعاء، وتَعَلُّقُ السقيا بقلب الشاعر، حتى كأنه يصف أحداثاً ماضية، وبدأ بالوَبْل، لأن الديار في حاجة شديدة إلى المطر، لذلك أراد لها مطراً شديداً، ولكن بلا تدمير أو هدم، ولم يرد في صورة المطر هذه أي أثر للتدمير أو الهدم، بل ظل النبت يكسو تلك الديار، ثم أَخَّرَ الدِّيمةَ، لكي تنعم الأرض بالمطر الهادئ الدائم، وقوله: (البارِقاتُ اللوامِعُ) كناية عن موصوف وهو السحاب، واختار البرق من بين صفات السحاب المتعددة، لأن البرق فيه أمل وبِشارة بالخير، وشبه السحاب بالرجل الكريم، فحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الجود، على سبيل الاستعارة المكنية.

ومن الاستعارات المكنية التي تصف السحاب، قول أبي ذؤيب الهذلي:

ضَـفادِعُهُ غَرْقَـى رِواءٌ كأنّهـا ... قِيـانُ شُـروبٍ رَجْعُهُـنّ نَشِـيجُ(٣)

---

(١) يُنظر " التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان "، د. محمد أبو موسى، ص٣١٤، ص٣١٦

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٥٩٢، بارِقات: سحائب فيها برق، لوامع: تلمع بالبرق. لسان العرب، ج١٥، ص١٤٤ " الوَبْلُ والوابِلُ والوابِلُ المطر الشديد الضَّخْم القطْرِ "، المصدر السابق، ج٥، ص٣٣٧ " الديمةُ المطر الذي ليس فيه رَعْد ولا برق ... الدِّيمةُ المطر الدائم في سكون ".

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٣٢، نشيج: متقطع. غرقى: لا تغرق، وإنما يريد كثرة الماء، قيان: إماء، شُرُوب: ندامى، نشيج: شبه شبه أصوات ضفادعه بأصوات القيان المغنيات إذا رجَّعْنَ في أصواتهن، رَجْعُهُنّ: ردُّهُنَّ الصوتَ، الشُّروب: فتيانٌ يشربون، النَّشِيج: البكاء، يقلعنه قلعاً من أجوافهنَّ.

لِكُــلِّ مَسِــيلٍ مـــن تِهامَـــةَ بَعْـــدَمَا تَقَطَّـــعَ أَقْـــرَانُ السَّـــحَابِ عَجِـــيجُ[1]

صورة المطر التي منها البيتين، كانت دعاء لأم عمرو بالسقيا، وكان المطر قد عمَّ أعالي الشِّعاب وأسفل الأودية، وقد جاء البيتان السابقان في ختام صورة المطر، وقد تناولت البيت الأول في مبحث التشبيه، وهو يصور كثرة الماء في تلك الأودية، أما البيت الثاني فيصور قوة المطر واتساعه، حيث سالت منه كل أودية تهامة، ويصور – أيضاً – قوة السيل وطول الأودية، حيث ظل للسيل عجيجاً وهو يجري مع تلك الأودية الطويلة، بعد أن تفرق السحاب وتقطَّعت أقرانه، أما صورة تفرُّق السحاب فهي مستقاة من الإبل التي تُقرَن في بعضها بالحبال، وقد شبه تفرق السحاب بالإبل التي تقطعت الحبال التي قُرِنت بها، فسار كل بعير في اتجاه، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وقو قوله (أقران)، على سبيل الاستعارة المكنية.
ويقول أبو صخر الهذلي:

فجــــرَّ علــــى سِــــيفِ العِــــراقِ فَفَرْشِــــهِ فــأعلامِ ذي قُــوسٍ بأدهــمَ ســاكبِ[2]

فلمـــا عـــلا ســـودَ البِصـــاقِ كِفافُـــهُ تُهِيــبُ الــذُّرى منــه بــدُهْمٍ مَقــارِبِ[3]

وصورة المطر التي منها هذين البيتين جعلها أبو صخر الهذلي دعاء لقبر ابنه بالسقيا، وقد شمل المطر أماكن واسعة حول القبر، وفي هذين البيتين يتحدث عن سير السحاب حتى بلغ ذُرَى الحِرار، فالسحاب يسير سيراً بطيئاً، " وإذا كان السحاب بطيّاً في سيره، فذلك دليل على كثرة مائه "[4]، فمرَّ على الأماكن المنخفضة القريبة من البحر، وكان يمطر مطراً خفيفاً، ثم سار وهو يمطر حتى بلغ أعالي الحِرار، وهي جبال بركانية شمال مكة تنحدر منها أودية عميقة تسقي أماكن عدة، ويصور الشاعرُ استقبالَ رؤوسِ تلك الجبال السحابَ الممتلئ بالماء، فيصور قمة الجبل رجلاً صاحب إبل، وهو يدعوها بصوته قائلاً: هَوْب هَوْب[5]، هَوْب[5]، فتُقْبِلُ عليه، والإبل دُهمٌ لَوَاقِح قد دَنَا نَتَاجُها، فتقترب منه لتضع ما في بطونها، فيمتلئ قلبه

---

(١) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص١٣٢، أقران السحاب: ما تآلف منه بعضه إلى بعض، القَرَن: الحبل يُقْرَنُ فيه البعيران، فربما تقطَّع الحبل الحبل فيشرد البعيران، شبه السحاب بإبل مقرونة فانقطعت أقرانها فتبددت. عَجِيج: صوت الماء، وذلك لصوت السيل في الأودية وهي تعج بالماء.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٩٢٠، جرَّ: يسير سيراً ضعيفاً وهو يمطر، السيف: مادنا من البحر، فيريد عراق البحر، الفرش: أَجَمَة العرفج، العرفج، ذو قوس: وادٍ.

(٣) السابق، البِصاق: الحِرار، والبَصْقة: الحرَّة، كِفافُه: سحابه، تُهِيب: تدعو كما يُهِيب الرجل بإبله، الذُّرَى: الأعالي، مقَارِب: قد أَقْرَبَت، إذا إذا دنا نِتاجُها.

(٤) كتاب الأنواء في مواسم العرب، ابن قتيبة، ص١٧٤

(٥) يُنظر "شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات"، أبو بكر مُحَمَّد بن القاسم الأنباري، تحقيق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار المعارف بمصر، بمصر، ط٢، ١٩٦٩م، ص١٥٧، وذلك في شرحه قول طرفة بن العبد:

تَرِيـــعُ إلى صـــوت المهيـــب وتتقـــي بـــذي خُصَـــلٍ رَوعـــاتِ أَكْلَـــفَ مُلْبِـــدِ

" فيقول: تعَطف إلى صوت المهيب وهو الذي يصيح بها: هَوْب هَوْب ... المهيب: صاحبها وراعيها "

سروراً بهذه الحياة الجديدة والخير الوفير.

فشبه القمة بصاحب إبل يدعو إبله، فحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله (تُهِيب)، وشبه السحاب بإبل دُهْم، بجامع اللون في كلٍّ، ثم استعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، وقوله (مَقارِب) ترشيح للاستعارة، وإشاعة لها، مما يُوهِمُ أن الحديث كأنه يجري على أسلوب الحقيقة[1]، أي يوهم أن السحابَ إبلٌ حقيقية قاربت على النَّتاج.

(١) يُنظر "التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان"، د. مُحَّد أبو موسى، ص٣١٤، ص٣١٦

الخاتمة

وفي الختام، فهذه أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، وأجملها في النقاط التالية:

ففي الفصل الأول الذي عنوانه: "**البيئة الهذلية ، ومصادر الصورة**":

١-كشفت الدراسة أن البيئة الهذلية لها تأثير واضح في صورة المطر، وذلك من حيث صفاء الماء وبرودته، لأن الماء ينزل على جبال الحجاز الشاهقة ذات الصخور الملساء التي لا يستقر عليها التراب والغبار، ويمر الماء بالثَّبَرات التي تُصَفِّيه، ويكون في أعلى صخور شاهقة لا يقربها راقٍ، ثم تهب عليه رياح الحجاز الباردة فتزيد من برودته، والماء بهذه الصورة يوصَفُ به ثغر المحبوبة، وذلك بعد مزجه بالعسل أو الخمر.

٢- أن البيئة الهذلية قد أثرت في صورة المطر من ناحية قوة السيل وتدميره، فالجبال العالية التي تتميز بها بيئتهم تنحدر منها أودية سحيقة، وكل وادٍ تُمِدُّهُ بالماء شِعابٌ كثيرة، وهذه الطبيعة تجعل جانب السيل في صورة المطر مُدَمِّراً يقتلع الأشجار الكبيرة المُعَمِّرة، ثم يحملها معه مسافات طويلة، كما ساعدت جبال الحجاز في رسم حدود صورة المطر، حيث يُحَدَّدُ مدى المطر من جبل كذا إلى جبل كذا.

٣- بيَّنت الدراسة أن الهذليين قد اسْتَقَوا مصادر صورة المطر من مصادر عدة، هي: الإنسان، والحيوان، ومصادر لها صلة وثيقة بالإنسان؛ كالبيئة والأدوات وآلات الحضارة. وأن أكثر هذه المصادر حضوراً في صورة المطر، هي صورة الحيوان، فللحيوان دور بارز في إذكاء صورة المطر بصور متعددة، وأكثر صور الحيوان مستمدة من الإبل.

أما الفصل الثاني الذي عنوانه: "**سياقات المطر عند الهذليين ومواقع صور المطر في قصائدهم**":

١- أوضحت الدراسة أن صورة المطر الذي يهطل على الطلل تتأثر بغرض القصيدة، فإذا كان الغرض الفخر؛ فإن الصورة تتميز برياح قوية مدمرة تهب على الطلل، والسحاب يكون أعلاه مرتفع، وأسفله دانٍ من الأطلال، ويُغَطِّي كل الجهات، ويكون الرعد عظيماً مُدَوِّياً، والبرق كثير اللمعان، ويكون المطر مُفْزِعاً والسيل قوي مُدَمِّر، وهناك تناسُب بين صورة المطر وقوم الشاعر الذين يفتخر بهم، وبين الطلل المدَمَّر والأعداء المنهزمين. أما إذا كان غرض القصيدة الغزل فإن صورة المطر تُسْبَقُ بريح مُبَشِّرة، ولا تحمل الصورة تخويفاً بالبرق أو الرعد، وتأتي الصورة مُخَضِّرةً للطلل وقاضية على قُوَى الشرّ.

٢-كشفت الدراسة أن أكثر صور المطر وروداً عند الهذليين، هي صورة المطر والمرأة، وأنها تجاوزت المحسوس إلى معاني الحب السامي الذي يجعل المرأة مصدر الحياة؛ فهي غمامة عالية يَهِلُّ منها مصدر الحياة، وثغرها أطيب من الخمر والماء، وأطيب من العسل الممزوج بالماء الصافي البارد الزُّلال، وأن الشاعر يعتني بالماء الذي يجعله طرفاً في تشبيه المرأة، وصفات الماء من الصفاء وصعوبة الوصول إليه

وبرودته تومئ إيماءات خفية إلى مكانة المرأة ونقائها وطُهْرها وجميل طبعها. وأن الشاعر حينما يرى البرق من جهة المحبوبة الراحلة فإنه يرى أن البرق صادراً عنها، فتأتي صورة المطر مُسْعِفةً لحاله، وبذلك تكون الصورة خالية من الرعد والبرق المُفْزِعَيْن، وتحمل الصورة جوانب النفع والجمال. وأن صورة المطر تتأثر بحال الشاعر مع محبوبته؛ فإذا كان غاضباً منها أو هي غاضبة منه، فإن صورة المطر تتأثر بذلك، فيأتي البرق والرعد قويين، والسيل يقتلع كبار الأشجار.

٣- أن صورة المطر والرثاء تأتي لسقيا القبر، وتتسم الصورة بالشمولية، حيث يكون المطر على القبر ويعمّ ما حوله من ديار، وقد تتسم الصورة بشدة المطر، لأن نفس الشاعر تريد أن تستكثر من الخير لإرواء صدى المحبوب.

٤- أن صورة المطر والحرب تأتي مفردة، فيعبر الشاعر بإحدى جوانب صورة المطر ليوظفها في مراده، كأن يشبه النبل بالوابل، أو الكَرَّة بالسحابة أو بالسيل، أو يشبه طردهم الأعداء بالريح حين تَسْتَخِفّ السَّحاب. وفي سياق صورة المطر والمدح، تأتي صورة المطر لوصف كرم الممدوح، فيفضَّل على المطر، وتأتي صورة المطر مُرَكِّزةً على وقت النوء وتصوير استدرار السحاب، وتخلو الصورة من ذكر البرق والرعد.

٥- أما في صورة المطر وحيوان الوحش، فقد أوضحت الدراسة أن الصورة تأتي على وجهين، الأول: صورة هانئة، ويأتي المطر شديداً يستمر زماناً، والأرض صلبة مستوية تحفظ الماء، فتخضرّ الأرض، ويظهر في الصورة جانب المرح من جانب حيوان الوحش، ثم بعد مدة ينقطع الماء ليبدأ الحيوان رحلة البحث عنه، ولكنه يجد حتفه بسبب الصياد، وتأتي صورة المطر وحيوان الوحش لتصوير الحياة الدنيا وزخرفها الفاني، فالأرض شِعاب يكثر فيها ثمر الأشجار والمرعى، والحيوان جميل المنظر، والمطر دِيمة ليس فيه رعد ولا برق، والمكان آمن لا فزَع فيه، والسحاب مُتَدَلٍّ، ثم يأتي الصياد فيقضي عليه. أما الوجه الثاني لصورة المطر مع حيوان الوحش؛ فيكون المطر مصدر خوف، ويكون مؤذياً للحيوان، فيحتمي تحت أرطاةٍ، وليس في الصورة تفصيل غير هذا.

وفي الفصل الثالث: "**الخصائص البلاغية**"، فهذه أبرز النتائج:

١- أوضحت الدراسة أن صورة المطر عند الهذليين تتسم بغريب الألفاظ، ولكن هذه الغرابة لا تُعَدّ عيباً، لأنها لغة القوم التي اعتادوها وأَلِفَتْها ألسنتهم، واختصت صورة المطر بألفاظ وظواهر صوتية خاصة بالهذليين، وقد وُظِّفَتْ في الصورة بما يخدم المعنى والسياق.

٢- بيَّنت الدراسة أن صورة المطر عند الهذليين صورة حركية مليئة بالأفعال، ولذلك لم تَحْفَل الصورة بمؤَكِّدات الخبر إلا في موضعين، وكلاهما جاء في سياق صورة المطر والمرأة، ولا ينظر الشاعر في هذا التوكيد إلى حال المخاطَب، وإنما صاغ التوكيد مراعياً حال نفسه، فصاغ الخبر كما أحسه مؤكَّداً مقرراً. وصور المطر تحفل بحذف المبتدأ (المسند إليه)، والحذف يأتي في مقطع جديد من مقاطع

المعنى، أما الذكر؛ فهم يكررون ذكر رياح الجنوب التي تستدرّ السحاب للتأكيد على أنه ممطر، ويكررون اسم من يريدون له السقيا، كالصاحبة والميت والقبر، وذلك لتعلق نفوسهم به. وقد ورد التعريف باسم الإشارة، حيث يصور الشاعر المطر بكل جوانبه، وفي نهاية الصورة يشير إلى المطر بالبعيد، بقوله: (فذلك أو فذاك)، أي أن ذلك المطر العظيم جدير بأن يسقي ديار المحبوبة أو أن يغيّر معالم الطلل. وكذلك التعريف بالألف واللام، للسحاب الممطر (البارِقات)، وذلك للإشارة إلى معهود، لأنهم يعرفون السحابة الممطرة بِعَدِّ برقها. أما التنكير فهو شائع في صور المطر، لأنه يعبر عن الغاية التي ينشدها الشاعر من تصوير ظاهرة المطر، كالتعظيم والتهويل، كما للتنكير جانب صوتي يتجلّى في التنوين الذي يصاحبه رنين ممتدّ يرفع وتيرة الإيقاع عندما يتكرر في البيت أكثر من مرة، وقد يتباين بحسب تباين الصورة. وقد تنوعت وجوه التقديم في صورة المطر، وأغلب التقديم يقع في مطالع صور المطر، فيقدّمون المسند، والمتعلق على الفعل، والمتعلقات بعضها على بعض؛ كتقديم المفعول به على الفاعل، والجار والمجرور على المفعول، وكل ذلك لغايات يقتضيها المعنى. أما الالتفات فلم يرد منه إلا ما كان التفاتاً عند السكاكي وغير التفات عند الجمهور، وقد ورد في صورة المطر والطلل. أما مخالفة مقتضى الظاهر في صيغ الأفعال الذي ألحقه بعض الدارسين بالالتفات؛ فقد كان له حضور في صورة المطر، وذلك عندما يريد الشاعر أن يريك حدثاً من أحداث الصورة شاخصاً أمام عينيك، كتهديم المطر والسيل للأطلال، أو الريح الذي تحرك الماء وتبرّده، أو يريك لحظة وقوع النبال الكثيرة على الأعداء ويشبهها بالمطر.

والنداء لم يرد إلا عند مناداة البرق، والشاعر يشخص البرق فيبث له شكواه لأنه صادر عن المحبوبة التي رحلت. والاستفهام لم يرد إلا في مطالع صور المطر، واقتصر على صورة المطر والمرأة، ويكون معناه التقرير. أما وقوع الخبر موقع الإنشاء (الدعاء بصيغة الماضي)، فقد ورد في مواضع عديدة، وأكثره بالفعل الماضي (سَقَى)، ويكون في سياق الدعاء للمحبوبة، والديار، والقبر، والطلل، وحينما يكون دعاؤهم بصيغة الماضي، مع أن ما يرجونه لم يحدث بعد، فإن ذلك لشدة رغبتهم في سقيا من يحبون، ولم يقتصر الأمر على لفظ السقيا، بل يصفون تفاصيل السقيا وكأنها قد وقعت.

٣- كشفت الدراسة أن أكثر ضروب التشبيه وروداً في صورة المطر هو التشبيه المركب، لأن صورة المطر تحمل مشهداً مركباً تتداخل فيه أشكال السحاب ولمعان البروق وَدَوِيَ الرُّعود، وأغلب التشبيهات حسِيّة مركبة، يكون فيها عنصر التفصيل والتحليل، وتجمع بين الشكل واللون والحركة والصوت، وهذه من بديع الصور عند البلاغيين، وكذلك وردت بعض التشبيهات البعيدة الغريبة. ثم يليه التشبيه المفرد، أما الضِّمْني، فهو أقل التشبيهات وروداً، واقتصر على وروده في سياق صورة المطر والمرأة، وورد على صورة النفي والتفضيل. أما أكثر أدوات التشبيه وروداً فهي: (كأنَّ)، وذلك لأنها تدعو إلى التأمل والتأني، وهذا ما تقتضيه التجربة الشعرية التي تصور ظاهرة المطر. وقد وردت

الاستعارة التصريحية في مواضع عدة من صورة المطر، وأكثر ورودها كان في تصوير السحاب، وورودها في صورة المطر بشكل عامّ أكثر من ورود الاستعارة المكنية، التي جاءت في تصوير البرق، والرياح، والسحاب، وأكثر ورودها كان في تصوير استدرار الرياح للسحاب.

هذا، وأصلي وأسلم على سيدنا مُحَّد وعلى آله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

(١) إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع، الإمام عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبي شامة الدمشقي الشاطبي، تحقيق: إبراهيم عطوه عوض، دار الكتب العلمية، (د.ت).

(٢) أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره، نورة الشملان، رسالة ماجستير، جامعة الرياض، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.

(٣) أثر البيئة الطبيعية في الشعر عند النقاد العرب القدماء، د. محمود درابسة، مجلة جامعة أم القرى للبحوث العلمية المحكمة، السنة الثامنة، العدد العاشر، العام ١٤١٥ – ١٩٩٥ م.

(٤) أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الفكر – بيروت، ط١، ١٤٢٦- ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

(٥) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود مُحَمَّد شاكر، دار المدني – جدة، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

(٦) الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، د. ابتسام أحمد حمدان، دار القلم العربي – حلب، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

(٧) الأسلوبية والتقاليد الشعرية، د.مُحَمَّد أحمد بربري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية – ٦ شارع يوسف فهمي – الهرم، ط١، ١٩٩٥م.

(٨) الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن مُحَمَّد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى مُحَمَّد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ.

(٩) الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، د. مُحَمَّد مُحَمَّد أو موسى، مكتبة وهبة – القاهرة، ط٢، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

(١٠) ألفاظ المطر والسحاب وما يتصل بها قديماً وحديثاً (دراسة لغوية)، رسالة ماجستير، عبد الملك عيضة رداد الثبيتي، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية – فرع اللغة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(١١) الأمكنة والجبال والمياه، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري جار الله، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، دار عمار – عمان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

(١٢) الإنشاء ومواقعه في شعر هذيل، سعيد بن طيب بن سحيم المطرفي، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، العام الجامعي ١٤٢٤ – ١٤٢٥هـ.

(١٣) الإيضاح، الخطيب القزويني: جلال الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن سعد الدين أبي مُحَمَّد عبد الرحمن القزويني، المكتبة الفيصلية – مكة المكرمة، (د.ت).

(١٤) بحث بعنوان: "من المتشابه اللفظي في شعر امرئ القيس (دلالاته وسياقاته)"، أ.د. دخيل الله مُحَمَّد

الصحفي، جامعة أم القرى، (د.ت).
(١٥) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب – القاهرة، ١٤١٧ – ١٩٩٧م.
(١٦) تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد مرتضى الحسيني الزبيدي، مطبعة حكومة الكويت، تحقيق: عددٌ من المحققين، ج٣، تحقيق: عبد الكريم العِزباوي، ط٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٧٨م، ج٥، تحقيق: مصطفى حجازي، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م، ج٦، تحقيق: د. حسين نصّار، ١٣٦٩هـ - ١٩٦٩م، ج١٧، تحقيق: مصطفى حجازي، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، ج٢٨، تحقيق: د. محمود محمَّد الطناحي، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ج٣٣، تحقيق: إبراهيم الترزي، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
(١٧) تاريخ ابن خلدون، دار الفكر – بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
(١٨) التشبيه عند امرئ القيس، د. محمَّد إبراهيم شادي، دار اليقين – مصر – المنصورة، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
(١٩) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، د. محمَّد أبو موسى، مكتبة وهبة – القاهرة، ط٦، ٢٠٠٦م.
(٢٠) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمَّد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
(٢١) التمهيد في علم التجويد، شمس الدين أبو الخير محمَّد بن الجزري، تحقيق: غانم قدورة حمد، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
(٢٢) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمأثور، ضياء الدين بن الأثير الجزري، تحقيق: د. مصطفى جواد، و د. جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٦م، ١٣٧٥هـ.
(٢٣) الحس القصصي في شعر الهذليين، د. عبد الناصر محمَّد السعيد، دار الإيمان للطباعة، ط٢، ٢٠٠٤م.
(٢٤) خصائص التراكيب، د. محمَّد أبو موسى، مكتبة وهبة - القاهرة، ط٥، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
(٢٥) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمَّد علي النجار، عالم الكتب – بيروت، ط٢، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
(٢٦) دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، د. أحمد درويش، دار غريب – القاهرة، ١٩٩٨م.
(٢٧) دراسة في البلاغة والشعر، د. محمَّد أبو موسى، مكتبة وهبة، ٤ شارع الجمهورية- عابدين- القاهرة، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
(٢٨) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمَّد شاكر، مطبعة المدني – القاهرة، دار المدني – جدة، ط٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

(٢٩) دور الحيوان في التعبير عن التجربة الجاهلية حمار الوحش نموذجاً، د. سليمان الطعَّان، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – المجلد(٨٤)،الجزء(٢)، (د.ت).
(٣٠) ديوان أبي ذؤيب الهذلي، شرح: سوهام المصري، المكتب الإسلامي - بيروت، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
(٣١) ديوان الأعشى، شرح د. يوسف شكري فرحات، دار الجيل – بيروت، ٢٠٠٥م- ١٤٢٥هـ.
(٣٢) ديوان الهذليين، تحقيق: أحمد الزين، ومحمود أبو الوفا، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٩٩٥م.
(٣٣) ديوان امرئ القيس، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف- القاهرة، ط٥، (د.ت).
(٣٤) ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح د. مُحَمَّد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
(٣٥) ديوان بشار بن برد، جمع وتحقيق: مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، صادر عن وزارة الثقافة – الجزائر، ٢٠٠٧م.
(٣٦) ديوان جرير، شرح مُحَمَّد بن حبيب، تحقيق: د. نعمان مُحَمَّد أمين طه، دار المعارف- القاهرة، ط٣، (د.ت).
(٣٧) ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق د. مُحَمَّد عبد المنعم خفاجي، و د. عبد العزيز شرف، المكتبة الأزهرية للتراث- خلف الجامع الأزهر، (د.ت).
(٣٨) الريح، لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه، قدَّم له وضبطه وعلق عليه د. حسين مُحَمَّد مُحَمَّد شرف، مؤسسة الحلبي للطباعة والنشر – المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٤هـ.
(٣٩) السياق في الدراسات البلاغية والأصولية دراسة تحليلية في ضوء نظرية السياق، د. أسامة عبد العزيز جاب الله، جامعة كفر الشيخ، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، (د.ت).
(٤٠) شرح أشعار الهذليين، أبو الحسن بن الحسين السكري، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، راجعه: محمود مُحَمَّد شاكر، مكتبة دار العروبة، ٢٢ شارع الجمهورية القاهرة، مطبعة المدني ٢٩٥ ش رمسيس بالقاهرة، (د.ت).
(٤١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، أبو بكر مُحَمَّد بن القاسم الأنباري، تحقيق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٩م.
(٤٢) شرح دلائل الإعجاز، د. مُحَمَّد إبراهيم شادي، دار اليقين، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
(٤٣) الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، د. مُحَمَّد مُحَمَّد أبو موسى، مكتبة وهبة- القاهرة، ط١، ١٣٢٩هـ- ٢٠٠٨م.
(٤٤) شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، د. أحمد كمال زكي ، دار الكتاب العربي بالقاهرة، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

(٤٥) شعر الوقوف على الأطلال من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث دراسة تحليلية، د. عزة حسن، مطبعة الترقي- دمشق، ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م.
(٤٦) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد مُحَّد شاكر، دار المعارف – القاهرة، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.
(٤٧) صحيح سنن الترمذي، للإمام الحافظ مُحَّد بن عيسى بن سَوْرَة الترمذي، تأليف: مُحَّد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف – الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.
(٤٨) صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القُشَيْرِي النَّيْسابوري، تحقيق: مُحَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م.
(٤٩) الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي مُحَّد البجادي، مُحَّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية- صيدا- بيروت، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.
(٥٠) الصورة البيانية في شعر الهذليين دراسة وتحليل ومقارنة "، مُحَّد الحسن علي الأمين، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، فرع البلاغة والنقد، ١٤١٠هـ.
(٥١) صورة الثور الوحشي في الشعر الجاهلي رعوية أم أسطورية "، د.حسن صالح، د.نصرت صالح يونس، مجلة التربية والعلم- المجلد(١٧)، العدد(٢)، لسنة ٢٠١٠م، قسم اللغة العربية/ كلية التربية- جامعة الموصل.
(٥٢) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، مطبعة المقتطف بمصر، ١٣٣٣هـ.
(٥٣) علم المعاني، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية – بيروت، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.
(٥٤) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، الحسن بن رشيق، تحقيق: مُحَّد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
(٥٥) الفراسة عند العرب وكتاب الفراسة لفخر الدين الرازي، تأليف د. يوسف مراد، ترجمة وتقديم د. مراد وهبة، مراجعة د. إبراهيم بيومي مدكور، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م.
(٥٦) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق: عماد زكي البارودي، دار التوفيقية للتراث، ٢٠١٠م.
(٥٧) قراءة في الأدب القديم، د. مُحَّد مُحَّد أبو موسى، مكتبة وهبة – القاهرة، ط٣، ٢٠٠٦م.
(٥٨) كتاب الأنواء في مواسم العرب، أبو مُحَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، مطبعة دائره المعارف العثمانية، ١٩٥٦ م.
(٥٩) كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح، سعد الدين مسعود التفتازاني الهِرَوي وبهامشه حاشية المير سيد شريف، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٣٣٠هـ.
(٦٠) كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح: عبد السلام مُحَّد هارون، دار الجيل

– بيروت ط١، ١٤١١هـ. ١٩٩١م.
(٦١) كتاب نظام الغريب، عيسى بن إبراهيم بن مُحَمَّد الربعي، استخرجه وصححه د. بولس برونله، مطبعة هندية بالموسكي بمصر، ط١، (د.ت).
(٦٢) لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم بن منظور، دار صادر- بيروت، ط٧، ٢٠١١م.
(٦٣) اللغة والبلاغة، عدنان بن ذريل، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٨٣م.
(٦٤) اللغة واللون، أحمد مختار عمر، عالم الكتب- القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م.
(٦٥) اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي شعراء المعلقات نموذجا، أمل محمود عبد القادر أبو عون، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية- نابلس- فلسطين، كلية الدراسات العليا، قسم اللغة العربية، ٢٠٠٣م.
(٦٦) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، قدمه وعلق عليه د. أحمد الحوفي و د.بدوي طبانة، نهضة مصر للطباعة والنشر – القاهرة، (د.ت).
(٦٧) المجاز بين اليمامة والحجاز، عبد الله بن خميس، مطابع الفرزدق التجارية- الرياض ١٤١٠هـ– ١٩٨٩م.
(٦٨) مجالس ثعلب، أبو العباس يحيى بن أحمد ثعلب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٠م.
(٦٩) مشهد النحل في شعر الهذليين، د. جريدي المنصوري، بحث مستل من كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، العدد الحادي والعشرون ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.
(٧٠) المطر في الشعر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، سلامة عبد الله السويدي، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٩١م، من منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، جامعة قطر – الدوحة، ٢٠٠١م.
(٧١) المطر في الشعر الجاهلي، د. أنور أبو سويلم، دار عمار- عمان، ط١، ١٤٠٧- ١٩٨٧م.
(٧٢) معجم البلدان، ياقوت الحموي، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
(٧٣) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبد الله بن عبد العزيز البكري، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
(٧٤) معجم معالم الحجاز، عاتق البلادي، الجزء السابع، دار مكة، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.
(٧٥) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٧٦) مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي، تحقيق: د. أكرم عثمان يوسف، منشورات جامعة بغداد، مطبعة دار الرسالة – بغداد، ط١، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.

(٧٧) مليح بن الحكم شاعر من هذيل، د. سلامة السويدي، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية– الدوحة – قطر– العدد الثامن ١٩٩٦م.

(٧٨) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، الحسن بن بشر الآمدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، ذخائر العرب، ط٤، (د.ت).

(٧٩) موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٥٢م.

(٨٠) هذيل في جاهليتها وإسلامها، د. عبد الجواد الطيب، الدار العربية للكتاب، ليبيا– تونس، ١٩٨٢م.

(٨١) الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق: مُحَّد أبو الفضل إبراهيم وعلي مُحَّد البجاوي، المكتبة العصرية – صيدا– بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.

فهرس الموضوعات